ذكريات مواطن صالح

عبد الجبار عدوان

ذكريات مواطن صالح

النكبة والنكسة فالطوفان والمقتلة.. لماذا يستمر فشلنا؟

دار الفارابي

الكتاب: ذكريات مواطن صالح

النكبة والنكسة فالطوفان والمقتلة.. لماذا يستمر فشلنا؟

المؤلف: عبد الجبار عدوان

الغلاف: جريس عدوان

الناشر: دار الفارابي - بيروت -لبنان

ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)

ص.ب: ١١/ ٣١٨١ - الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: كانون الثاني ٢٠٢٦

ISBN:978-614-485-387-0

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة إلكترونياً عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

الإهداء

إلى أرواح وذكرى كل المساكين، على مرّ التاريخ وحتى مقتلة غزة، الذين ذهبوا وسيذهبون ضحية رؤى قيادات دينية هي جاهلة بالضرورة.. عسى أن تكون هناك جنة تؤويكم.

المحتويات

الإهداء.. ٧
بداية وتوضيح.................................. ١١
جاسوسك في يدك ١٣
بين النكبات..................................... ٢٦
حائط الصواريخ................................. ٤٢
دعوات أم العبد ٥٥
أيلول الأسود..لماذا وكيف؟ ٧٢
لحى وخيام وخراب............................... ٩٥
شخصيات صديقة............................... ١٠٦
أيام المرسيدس ١٢٧
بين الحروب والترحال.......................... ١٤٢
تحرير فلسطين.. لماذا فشلنا وما العمل؟ ١٦٢
هنا لندن ١٩٠
هنا الانتفاضة................................. ٢٠٨
درس الأندلس ٢٣٢
أخرق يتحكم في العالم ٢٤٩
مقابر الذكريات ٢٦٤

أسباب البلاء ٢٧٨
توريط وولولة ٢٩٤
مع القذافي ٣٠٨
تخاذل أوروبي ٣١٨
نكبتنا في حماس ٣٤٤
ماذا بعد؟ ٣٦٢
موجز ومسؤولية ونهاية ٣٧٠
الملاحق ٣٧٧

بداية وتوضيح

لا يخطر في بالك وأنت شاب نشط جسدياً وفكرياً أن تكتب ذكريات؛ فحياتك أمامك.. ولكن حين تعود إليك الفكرة، تكون قد بلغت من العمر عتيّاً، وجسدك قد تعب، وذهنك بدأ في الزوغان، وربما بل غالباً، ما سوف تنسى الأحداث من دون أن تعرف أنك قد نسيتها.. وكوني مررت بمرحلة الشباب النشطة، ثم تعرّفت على تجربة أصدقاء ومعارف يكبرونني في السن والنسيان؛ فقد ارتأيت تخصيص الوقت للكتابة التذكرية في مطلع العقد السابع من العمر، علماً بأنني لم أتوقف عن كتابة المقالات والكتب، بل كان لي ثلاثة كتب في عامٍ واحدٍ (٢٠٢٤) قبل اتخاذ القرار لتخصيص الوقت التالي لكتابة الذكريات، ولا أقول المذكرات، نظراً للفارق بين ذلك وهذا.. واحدة تسجل الأحداث، بينما الذكريات تسجل وتربط بين الأحداث.

لقد كتبت أكثر من عشرين كتاباً وروايةً، ومئات المقالات في صحفٍ عربيةٍ ودوليةٍ، كلّها متوافرة في الأسواق، أو على مواقع الإنترنت، وفي المكتبات الوطنية العربية والأجنبية. مهما تشعبت العناوين لمؤلفاتي؛ فالمحتوى يدور دوماً حول تساؤلاتٍ عن أسباب التخلّف على الرغم من توافر الفرص لمجاراة العالم وتحقيق الاستقلال الأقرب إلى التام، لكن الحال يزداد تخلفاً على الرغم من المظاهر البرّاقة.. التخلف الظاهر والممارس

من قبل المواطن والنظام، وبالاستعانة بالأطر الدينية والأجهزة الحكومية، والقنوط في النظام عن تحديد مساراتٍ والالتزام بها.

كون اللبنة الأولى في البناء هي المواطن الصالح، النشط، الأمين، الناقد، والفعال؛ فقد ارتأيت أن أسرد ذكريات هذا المواطن بأمانةٍ، وعرض أفكاره بجلاءٍ ومن دون مواربةٍ (تقريباً)، وسأتحدث عنه أحياناً بالضمير الثالث لخلق بعض المسافة بيني كمؤلف وكاتب، وبينه كمكتوب عن أفكاره وأفعاله عبر ذكرياته. بعد هذه البداية والتوضيح سيكون هناك سردٌ متداخلٌ للذكريات ومن ثم نهايةٌ واستنتاجٌ لا بدّ منه؛ فلعل وعسى..

جاسوسك في يدك

نحن اليوم في بداية الأسبوع الأخير من شهر سبتمبر ٢٠٢٤، والمفاجآت تتوالى على لبنان، والردّ يغلب عليه تكرار الوعيد والتهديد، والفارق يتضح على سعته بين عالم العلوم وعالم الغيبيات. تذكّرني هذه الأيام بتلك من قبل ومن بعد نكسة عام ١٩٦٧، آنذاك توعدنا نحن العدو بالبحر والسلب والسبي.. كان عمري خمسة عشر عاماً، وكنت أسمع الأقارب وغيرهم عشية تلك الحرب يتوعدون مدن العدو وسكّانها، وهذا ما نفذه الشبان بعد ٥٦ عاماً حين سنحت الفرصة لغزوة السابع من أكتوبر، فدخلوا وخرجوا لأيام ينقلون سيداتٍ وعجائزَ وجنوداً ومجنداتٍ صبايا مع كلابهن أيضاً، ثم وعلى الرغم من كوننا البادئين؛ فقد دخلوا على قطاع غزة ودمّروه عن بكرة أمه وأبيه.. آنذاك في زمن النكسة قبل أكثر من نصف قرن لم ندخل عليهم، ولكننا فوجئنا بهم بيننا، ودخلوا حتى قناة السويس، وأخذوا الضفة الغربية والجولان، ولم نسبِ منهم أي شيء سوى الكارثة.. أو النكسة.

آنذاك فوجئت الجيوش العربية التي كانت تُعلن وتكرّر الاستعداد للهجوم، فوجئت بتدميرٍ نهائي لسلاح الجو ونسف المطارات، ومنذ ذلك الزمن لم نستوعب أو نستعد لمواجهة هذا التفوق الجوي؛ فحزب الله حسن الصيت والاستعداد، لا يملك أيَّ مضاداتٍ جويةٍ فعّالةٍ، ومثله سوريا وبقية الدول العربية المعنية، بل كلّها، فاشلةٌ جوياً.. لكن حزب الله قال وكرّر أن

الطائرات التي ستُغير على لبنان لن تجد مطاراتٍ تعود إليها، والحزب لديه فعلاً أسلحةٌ يمكنها تدمير المطارات، وربّما تحقيق ضربةٍ مفاجئةٍ للطائرات وهي هاجعة.. لم يحدث ذلك بل إن جنوب لبنان والضاحية الجنوبية لبيروت تعيش تحت زنين المسيرات الاسرائيلية تماماً كما كان، وما زال يعيش قطاع غزة، فقير المقاومة والإمداد والتقنية.

نقرأ ونسمع ونرى ولا نتعلم.. كان حزب الله يعلم بالاختراق لأجهزة الاتصال، ولكنه فوجئ في ضربة البيجر التي عطّلت ثلاثة آلافٍ من أعضاء الحزب بكبسة زر، وفي اليوم التالي قتل وأصيب المئات في تفجير أجهزة الووكي توكي، وفي اليوم التالي اغتيل قادة الرضوان في اجتماع بالضاحية الجنوبية، وذلك عبر معرفة موقعهم من خلال رصد هواتفهم المحمولة، وكان جيش العدو قد تتبع أعضاء حركة حماس والجهاد طوال المقتلة من خلال تحديد مواقع هواتفهم وقصفها بمن حولها من مدنيين.. حماس عرفت بالأمر وخافت من الإعلان حتى لا ينبذ الشعب أنصارها وأعضاءها ومنتسبيها، لكن السيد حسن نصر الله كان لديه الشجاعة لتسجيل خطاب داخلي غاضب موجه لشباب الحزب يخبرهم أنهم يحملون الجواسيس في أيديهم وأيدي نسائهم وأطفالهم، وطالبهم بتحطيم المحمول أو دفنه أو وضعه في صندوق حديد.. لكن العقلية القشرية لا تستوعب ولا تصدّق وتعتبر الأعمار بيد الله ولن يصيبكم إلا ما كتب الله عليكم.

العقلية الغيبية نادراً ما تستوعب التغيير الفكري، وتتبنى ببطءٍ شديدٍ التطورات التقنية ولكن بشكلٍ سطحيٍّ. زمان، عندما دخل التلغراف إلى السعودية ثار الشيوخ على الملك عبد العزيز واعتبروا ذلك من عمل الشيطان.. مع مرور العقود استوعبنا وإياهم فكرة التواصل الهاتفي، لكن الفكرة للآن راسخةٌ لدينا أنَّ الهاتف الحديث هو للتواصل مثل سابقة أبي قرص وأبي كبسة

الذي كانت أجهزة الدول تتنصت عليه. للاختصار أقول ما هو معروف للخاصة بأن الهاتف المحمول الحديث يتنصت عليك طوال النهار والليل، ويرشد قوى اقتصاديةً واجتماعيةً وعسكريةً لما تقوله بل لما تفكّر فيه! بمعنى أنه يدرس أقوالك وأنماط تقلبات صفحاتك ويعرف خطوتك التالية قبل أن تقوم بها. بوسعك أن تتحادث مع أهلك في شأن ما بينما الهاتف قريب منك، وسترى لاحقاً أنه يرسل إليك إعلانات في ذلك الاتجاه، أما النواحي غير التجارية فيتم تحويلها لجهات أخرى ذات قدرة على الفلترة. وزيادة البائع أقول لكم: إنه يوجد الآن برنامجٌ للتحميل المجاني متاحٌ للجميع، إذا وضعت عليه رقم هاتفٍ لصديقٍ أو عدوٍّ فإنه يرشدك لحظةً بلحظةٍ عن مكان وجود ذلك الهاتف وتحركاته.. وهناك تطبيقٌ مجانيٌّ للتحميل يريك أيّ مدينةٍ وموقعٍ في العالم (لايف) مباشرةً عبر بثٍ مباشرٍ من قمرٍ اصطناعيٍّ! فما بالك في إمكانيات الأجهزة الاستخبارية والحربية المعتمدة على أحدث التقنيات؟ هل فهمت وعرفت موقعك ومكانتك في هذا العالم؟

بعد النكسة ١٩٦٧ صار الشيوخ يروجون مقولة «تؤلف ولا تؤلفان»، يعني قبل سنة ٢٠٠٠ تقوم القيامة حسب الوعد القرآني ويخبر الحجر عن اليهودي الخائف المختبئ خلفه، ومرّت العقود وجاءت نكبة السابع من أكتوبر، وعاد الشيوخ لتحديد السنوات على حضور الأعور الدجال تمهيداً ليوم القيامة، وكثرت الشروحات والتأكيدات.. مثل هذه الظواهر تنتشر دوماً في ظروف الهزائم لتبليغ الناس المُر وتطمئنهم أن الله سيتولى الأمر قريباً جداً بمفرده. أتذكر شيوخ غزة بعد النكسة وهم يفتحون القرآن على أي صفحة ويأخذون في تحليل المحتوى ليخدم رؤيتهم الأخروية، وكأن ما يحدث قد تقرّر سلفاً في القرآن.

واضحٌ أنني لا أحبّ الشيوخ في العموم وإن كنت محبّاً لبعضهم على

صعيدٍ شخصيٍّ، لكنّي شاهدتهم في الموالد والمناسبات يختلفون على قطع اللحم المنثورة فوق صواني المفتول (الكسكسي) أو فتات الأرز، بل رأيت بعضهم يدير الصينية ويوقفها أمامه حيث قطعُ لحمٍ دون عظمٍ، وكان منظر ذقونهم الطويلة أثناء الطعام يقرفني، وحدث أن سمعت أحدهم يضرط في المسجد؛ فقررت أن لا أدخل أيَّ مسجدٍ بغضّ النظر عن المناسبة؛ فالإيمان شيءٌ خاصٌّ بين الخالق والمخلوق، حتى حين صلاة الميت على أفضل الأصدقاء أبقى في الساحة الخارجية حتى ينتهوا من الصلاة.. لا أطيق أن أنافق غيري ولا يمكنني خداع ذاتي بالتظاهر.

قبل الابتعاد عن واقع تصادم العلم مع الغيبيات سأوضح قصة «جاسوسك في يدك». معروف منذ زمنٍ قدرة من يمتلك العلم على تحديد مكان أيّ هاتفٍ، وصار بوسع الشرطة تتبع أيَّ هاتفٍ محمولٍ مسروقٍ، لكنّ الأمر أكبر من ذلك أيضاً.. قبل غزوة أكتوبر تمّ كشف جواسيس كبارٍ في لبنان باعوا معلومات الهاتف الأرضي لجهاتٍ خارجيةٍ، وبعد غزوة أكتوبر بخمسة شهورٍ تقريباً تمَّ ضبط جواسيس يعملون للمخابرات الإسرائيلية عبر واجهة شركة اتصالاتٍ أميركيةٍ وهميةٍ، وأكّدت التحقيقات والمحاكم العسكرية اللبنانية أن المعنيين تجولوا في لبنان وبيروت والضاحية الجنوبية بسيارةٍ تصوّر بقدرةٍ فائقةٍ، حيث تسير وبها أجهزة ترصد إشارات الواي فاي في الشارع وترسل المعلومات مباشرةً إلى الشركة الأميركية، وأنّها ترصد الهواتف المرتبطة بالإنترنت وتجمع أسماء أصحابها وتُحمل برامج لتحديد مواقع هذه الهواتف حين الطلب.. هذه المعلومات تمَّ نشرها، وتمت معرفة أن السيارة مرّت في الشارع الذي اغتيل فيه صالح العاروري في الضاحية، وعرف آنذاك أنها رصدت شارع الجاموس الذي اجتمع فيه قادة الرضوان بعد نصف عامٍ، ولم يكونوا قد غيروا هواتفهم؛ فعرف العدو لحظة ومكان تجمع

هذه الهواتف وأصحابها وأرسل لهم ثلاثة صواريخ نسفت الطابق الثاني تحت الأرض حيث اجتمعوا، وتكرّر الأمر مع قادةٍ آخرين في الحزب بعد أيامٍ، مما أخرج السيد حسن نصر الله عن طوره ليسجّل تعميماً مصوّراً داخليّاً يوبّخ أعضاء الحزب ويخبرهم بدفن المحمول.

في قطاع غزة كان الأمر أسهل بالنسبة للعدو وأشد فتكاً بالمدنيين.. المعروف أن الأموال لحركات المقاومة كانت تأتي من قطر عبر وبموافقة إسرائيل، وتدخل لبنوك القطاع التي تسلّم الرواتب لأعضاء المقاومة ولكلِّ موظفٍ تابعٍ لحركة حماس.. لا بدَّ هنا من توضيحٍ خلف توريد إسرائيل الأموال القطرية لحماس؛ فبعد الطوفان انتقدت المعارضة نتنياهو لتوصيله الأموال لحماس؛ فقال إن هدفه كان تشجيع وتمويل الانشقاق بين الضفة والقطاع لمنع إقامة دولةٍ فلسطينيةٍ عبر تشجيع حماس على الاستقلال بقطاع غزة!

نعود لقصة الهواتف؛ فكلُّ أرقام الهواتف الفلسطينية وحركة الاتصالات رسمياً مرتبطةٌ بالاتصالات الإسرائيلية.. هكذا كانوا دوماً يرسلون تحذيراتٍ ورسائلَ شخصيّةً لأيّ صاحب هاتفٍ في القطاع. حين وقعت الواقعة بدأ تصيّد أعضاء المقاومة حسب الأهمية، ثم تراجعت الاستهدافات لأيّ شخصٍ على أيّ علاقةٍ بالمقاومة، وحين يرصدونه عبر الهاتف يضربونه بمن حوله مهما كانوا، وهكذا كثرت المجازر وعرف الناس عبر التجربة أنّ في كلّ كارثةٍ يوجد حمساوي، ولم تتم معالجة الأمر بوضوحٍ، خصوصاً وأن كثرة النزوح وتجديد الجيران منع الناس من معرفة بعضهم، ولم تملك حماس الجراءة للطلب من حبايبها دفن الخلوي؛ فاستمرّت المأساة التي تصيب الحابل والنابل.. وهذا سببٌ آخر لبغضي للشيوخ كونهم في النهاية جبناء ويبررون بأنّ الأمر بمشيئة الله ومتروكٌ للرحمن الرحيم.

قد تكون هناك الكثير من الأسباب لبغض المتدينين، وفي حالتي ربّما لعبت صدفة الميلاد والجوار دوراً في تنمية السلبية ضدهم.. لقد ولِدت في عام ثورة ضباط مصر الأحرار، وفي مدينة رفح الفلسطينية لصيقة رفح المصرية، وكلاهما مع بقية قطاع غزة تحت حكم الإدارة المصرية الناصرية التي عاملت القطاع بمكانة منطقةٍ حرّةٍ اقتصادياً؛ فكانت السلع تأتي من العالم الخارجي ويُعاد بيعها للزوار المصريين ولأهل البلد.. كلُّ جديدٍ كان يبدأ من غزة، السيارات الحديثة، قمصان النايلون للرجال والستات، المكسرات، السجائر، والكهربائيات، وكل ما يخطر في بالك.. كما أنّ الرئيس المصري قرّر تشغيل أبناء القطاع؛ فكان كلُّ من ينجح في الثانوية العامة بوسعه تكميل تعليمه الجامعي مجاناً في مصر، أو الشغل في تدريس طلاب الريف المصري براتبٍ شهريٍّ يساوي ١٢ جنيهاً، حين كانت الحياة حلوةً ورخيصةً.. هكذا توافر التعليم العالي والمال للفلسطينيين، وتعليم الريف المصري من خريجي التوجيهي الغزيين.

أحببنا ناصراً ومصر والمصريين والمصريات، وأم كلثوم وعبد الحليم وفريد الأطرش والأهلي والزمالك وفريد شوقي ومحمود المليجي وسعاد حسني ورفاقهم ورفيقاتهم، وكان الشيوخ يعتبرون أعمالهم حراماً ورواتبهم حراماً.. كلّ هؤلاء وأمثالهم كانوا مكروهين من الشيوخ، وفي مقدمتهم الزعيم جمال عبد الناصر، وصار الشيوخ، وما زالوا، يتمنون عودة الملكية والاستعمار ليخلّصهم من ناصرٍ، وثبت الآن بالوثائق أنّ جماعة الإخوان المسلمين تحالفوا مع الأنظمة الرجعية ضد ناصرٍ، وطلبت هذه الأنظمة من واشنطن دفع إسرائيل للهجوم على مصر؛ فكانت نكسة ١٩٦٧، ومن لا يصدق فعليه مراجعة الوثائق، أو مطالعة الكتب التي تفضح تعاون واشنطن ولندن مع الإسلامويين ضد القوميين مثل كتاب «لعبة الشيطان في تكوين

الحركات الإسلامية»، أو مطالعة كتب مذكرات قادة الغرب الذين صرّحوا وأوضحوا العلاقات؛ فالإسلاميون همّهم الأوّل والأخير تسلّم السلطة، حتى لو تعاونوا مع الشياطين الزرق.. تماماً كما تعاونوا مع إسرائيل بعد انقلابهم على السلطة في غزة منذ عام ٢٠٠٧ بغرض شقّ الوحدة الفلسطينية وإضعاف السلطة، وصولاً إلى ما جرى ويتواصل منذ أكتوبر ٢٠٢٣.

لن يصدّق الكثير هذا الاتهام للإسلامويين، أي للإسلام السياسي، ولذلك سأوضح الأمر من منظور تجربتي ورؤيتي بعيداً عمّا هو ثابتٌ من علاقاتهم بالغرب والأنظمة الرجعية. في تجربة الربيع العربي مثلاً، تعاونوا عبر الجولان مع إسرائيل، وتعاونوا مع أوروبا، قبضوا الأموال عبر السفراء في تركيا، وهناك سفراء دخلوا بالحقائب إلى سوريا وسلّموا النقود، وشجّعت حكوماتٌ أوروبيةٌ سفر الشبان من بلدانها لتنضمَّ إلى الإسلاميين في سوريا والعراق لمحاربة النظام هناك، وهذا مثبتٌ في تصريحاتٍ علنيةٍ لوزير خارجية بريطانيا مثلاً، وخطاباتٍ علنيةٍ ومواقفَ رسميةٍ.. وقبل هذا وذاك رأينا النتيجة حين انهزم الإسلاميون وتمَّ أسر حريمهم وأولادهم والكثير منهم؛ فاتضح أنّ آلافاً منهم يحملون جنسياتٍ غربيةً وحضروا بدعمٍ من حكوماتهم. ثم من الذي خلق داعش وسلّحها في العراق وسوريا؟ البيت الأبيض والقوات الأميركية هي التي سلّحتهم وعندما انكشف الأمر قالوا إنّهم استولوا على المعدات والأسلحة بالغلط!!

ماذا عن حركة حماس والجهاد؟ قبل الانتفاضة الأولى كان في القطاع مجموعةٌ دينيةٌ تابعةٌ للدعوة، أي للإخوان المسلمين، وهي أصلاً موجودةٌ قبل نكسة ١٩٦٧ أيام الحكم المصري، ولكنّهم بعد الاحتلال الإسرائيلي للقطاع تحوّلوا إلى مجموعة تكفيرٍ وهجرةٍ، وقالوا إنّ العدوّ المحتل لا يهمهم الآن وإنّما يريدون أسلمة المجتمع وتكفير من لا يتبعهم؛ فتركهم الاحتلال لأغراضٍ

واضحةٍ. (كلّ الذين يبررون ويقولون حتى الآن أن الهزائم والتخلف ناتجٌ عن ترك الدين، هم من مدرسة التكفير والهجرة).. ثم قامت الانتفاضة الأولى؛ فركب هؤلاء الموجة وانضموا لصفوف معاداة العدو، وصاروا يشكّلون جماعاتٍ ويدربون إلخ.. عندما أثمرت الانتفاضة أهدافها ببدايات سلام، قرّر هؤلاء إفشال الخطة والتجأوا للعمليات الانتحارية ضد الإسرائيليين المدنيين لإثبات فشل السلطة الفلسطينية أمنياً.. والقصة طويلة ونتيجتها إفشالهم، مع متطرفين يهود، لعملية السلام. لكنّ حماس اشتركت في الانتخابات الثانية والناتجة عن عملية السلام واستثمرت العمليات الانتحارية في بناء شعبيتها وحقّقت نجاحاتٍ وشكّلت حكومةً فلسطينيةً، ثم انقلبت في غزة على السلطة واستقلت بالأمور بدعمٍ وتمويلٍ وتشجيعٍ إسرائيليّ لضمان استمرار الانشقاق السياسي والمجتمعي الفلسطيني وضمان عدم إقامة دولةٍ فلسطينيةٍ.. كان الممولون الآخرون لحماس والجهاد هم إخوتهم في الخليج عبر جمع التبرعات، ودولة قطر التي تخطّط لكسب دورٍ سياسيٍّ عبر تبني الإسلاميين الجهاديين إعلامياً ومالياً وسياسياً، كما فعلت في الربيع العربي وفي مصر وغزة.. -بالطبع- قفزت إيران لتمويل حركة الجهاد ثم حركة حماس بعد تخلي الآخرين عنها.

عندما تمردت حركة حماس على التعايش مع إسرائيل طوال ١٧ عاماً بعد الانقلاب الدموي ضد السلطة، وقامت بغزوة السابع من أكتوبر ٢٠٢٣ وتجاوزت الخطوط الإسرائيلية، قرّر العدو إبادتها وتفعيل خططٍ جاهزةٍ لإبادة الشعب الفلسطيني، وتهجيره من البلاد على أثر التجويع وإعدام سبل البقاء الإنساني.. وهنا اشتعلت الأضواء الحمراء في طهران؛ فنهاية حركة حماس والجهاد سيتبعه القضاء على حزب الله وإعدام دور الإسلام السياسي المقاوم بشقيه السني ثم الشيعي.. يمكن للغرب السكوت عن الإسلام السياسي بشقيه

لتولي الحكم المقترن بالخنوع والتبعية كما هو حال دول الخليج العربي، لكن التحوّل لمقاومةٍ ومناطحةٍ للغرب وأدواته؛ فهذا يستدعي إطلاق يد إسرائيل وتقويتها عيني عينك.

ليس الإسلام السنيّ فقط هو الساعي للسلطة بأيّ ثمنٍ، ولكن الشيعيّ أكثر إصراراً؛ فبعد تخلّص الغرب من نظام الرئيس صدام تمددت إيران في العالم العربي عبر العقيدة والمال وأقامت أذرعاً لها. في البداية خانت ثورة الخميني الإسلامية حلفاءها من القوى السياسية الإيرانية الأخرى لتستقل في الحكم، ثم منعتهم وطاردتهم.. وكانت النتيجة التالية التمدد في الدول العربية بدايةً من الجار العراق، ثم سوريا، ثم لبنان، ثم فلسطين في غزة والضفة. على ضوء الحملة العربية ضد الإخوان وترك غزة وحيدة بحجة عدم دعم حماس والإخوان على النصر، توجهت أفئدة العرب السنة إلى إخوتهم سكان غزة وأصبحوا يتقبلون تبني إيران وحزب الله للمقاومة الفلسطينية، ووصلت الأمور لوحدة الساحات ووحدة الدم وهذا كلّه يمهّد لدورٍ إيرانيٍّ في المنطقة مقبولٍ شعبياً وأيديولوجياً.. ولذلك لن يتردد بعض العرب عن دعم محاولات ضرب الغرب وإسرائيل لإيران للحفاظ على دينهم وحكمهم؛ فنظام الملالي لا يشارك أحداً في الحكم وهو الموجّه لتابعيه كما هو ثابتٌ في العراق وسوريا (قبل هروب بشار) ولبنان والحوثي.

هذه الرؤية ناتجةٌ عن حقائق عشتها وعايشتها، وبالطبع؛ فالجميع يعايش نتائجها أثناء كتابة هذه الذكريات، ولسوف أعود لاحقاً بالإشارة والتوضيح في حينه للمقولات السابقة. لو عدنا لأوّل ذكرى لي عن الإخوان في قطاع غزة؛ فتعود إلى خالي حسن.. لقد اعتقله المصريون بتهمة الانتماء للإخوان، وكان إخوانياً بالفعل، وكونه أصغر أخوالي سناً فقد بكته جدتي حليمة حتى فقدت بصرها.. لم يتمكن أحدٌ من تهدئتها؛ فذهبت عيونها الزرقاء الجميلة

التي أورثتني إيّاها من بين كلّ أحفادها. لم تصدّق الوعود والتأكيدات باحتمال الإفراج عنه؛ فقد كانت تحمل أفكاراً سلبيةً من تجاربها عن الأنظمة العربية، وعن النظام المصري من أيام الملكية وتجربة نكبة ١٩٤٨. خسرت كلّ شيءٍ ماديٍّ ومعنويٍّ في قريتنا بربرة وفلسطين، وكادت تخسر زوجها الذي كان مريضاً أثناء النكبة وخاف أن يرحل الأولاد ويتركوه، ولكنّ خالي الأكبر محمد قال لوالده: «قد أترك كلَّ شيءٍ وكلَّ أحدٍ ولن أتركك»، وحمله على ظهره وخلفه الوالدة (الجدة) والإخوة والأبناء يحملون ما استطاعوا.. هذه التجربة والخوف لم يغادر رأس جدتي حليمة التي أصبحت لاحقاً تعرفنا من صوتنا ووقع خطواتنا عندما نزورها.

كانت والدتي وخالتي زينب، أم صبري، تتناوبان على العناية بجدتي حليمة في منزل خالي حسن حتى تريحا زوجة خالي من العناية بجدتي.. ربّما يحب الجميع جداتهم، لكنّ حبّي لجدتي يفوق المعتاد، كان السرور يظهر على ملامحها ويتجلّى في صوتها عندما تشعر بقدومي؛ فتطمئن إلى أحوالي، وغالباً تكون زياراتي قبل المساء؛ فتباشر في رواية قصص الشاطر حسن، والغراب وأخته، وعشرات القصص التراثية للأطفال، وهي غير تلك القصص التي يرويها عمي حسن الشيخ في المجلس اليومي للرجال، عن أبي زيد وكليب والزير سالم والضرب والقتل والسبي. توفيت جدتي بعد النكسة ونزوح خالي حسن وعائلته إلى الأردن، وكان قد أُطلق سراحه بتدخل من أحمد الشقيري بعد تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٤.. بعد غزوة السابع من أكتوبر ٢٠٢٣ أزيلت آثار بيت خالي وجدتي وبيتنا وحارتنا، مخيم بربرة والشابورة وكلّ رفح تمَّ مسحها وعاد إخوتي وأبناؤهم يعيشون في الخيام التعسة في المواصي قرب البحر.. وكان آباء وأجداد هذا الجيش السفاح قد هدموا قرية بربرة و٤٠٠ قريةٍ فلسطينيةٍ غيرها إثر حرب النكبة قبل ٧٦ عاماً،

والآن يستكملون مهمة إبادتنا للاستيلاء على بقية الجغرافيا الفلسطينية سعياً لإسرائيل الكبرى.

أتابع أخبار الأهل في القطاع بشكلٍ يوميٍّ، وقد قمت كآخر أعمالي كمواطنٍ صالحٍ، قمت بإنشاء مبادرة تعليمٍ للأطفال في القطاع باسم «مبادرة طيور السلام التعليمية» لتعويض بعض الأطفال تعليميّاً، وأموّل هذه المبادرة من أموالي، ولأوّل مرّةٍ أعترف هنا أنّني بعت بيتي في الأردن لقريبٍ لي بشرط البقاء مقيماً فيه لخمس سنواتٍ لا أتوقع أن أتجاوزها في عمري، وخصّصت ثمنه لتمويل هذه المبادرة، التي ربّما أعود للحديث عنها لاحقاً.. لكنّ متابعتي للوضع في رفح والدمار والنزوح أعاد لي ذكرياتٍ ثابتةً بوضوحٍ في ذهني، عدوان ١٩٥٦ على القطاع وسيناء. حينذاك كانت طائرةٌ عموديةٌ تجول في رفح وحضرت إلى مخيمنا لتطالب الناس بالنزوح، يقول ميكروفونها: «أنا أحاكيكم من الطيارة، انزحوا بسرعةٍ لأنّ قوات جيش الدفاع ستدمر المكان.. انزحوا لتنجوا بحياتكم».. كانت الحدود بين رفح وسيناء وهميةً والطريق مفتوحٌ حتى قناة السويس، ولكن لعلم الناس أنّهم احتلوا سيناء؛ فقد تقرّر النزوح للبحر.. وهناك مكثنا في المواصي عدّة أيامٍ نأكل من بصلها وتفاحها، وقد تفرقنا في النزوح وذهبت مع خالتي، زوجة أبي، وكانت تعجن وتخبز وتشجعني بعد سماع الانفجارات.. عدنا بعد أيامٍ وبقينا تحت الاحتلال الإسرائيلي عدة شهورٍ حتى أفقنا ذات يومٍ من النوم لنجد أن قوات الطوارئ الدولية بالقبعات الزرقاء قد حلّت مكان الإسرائيليين.. كان ذلك بأمرٍ من الرئيس الأميركي الجمهوري دوايت إيزنهاور، وبعد ذلك مباشرةً انتهى عهد الإمبراطورية البريطانية.

عندما تأسست م. ت. ف. بعد ثماني سنواتٍ من العدوان الثلاثي، كنت في المرحلة الإعدادية في مدرسةٍ تابعةٍ للأونروا في رفح قرب دوار العودة،

وجامع عمي (ابن عم أبي) الشيخ خليل، وقد هدمت حماس الجامع لاحقاً وبنت حضانةً تحته.. الآن لم يبقَ شيءٌ قائمٌ في رفح سوى الذكريات وشتات النازحين. تأسست منظمة التحرير من الجامعة العربية، وأوكلوا رئاستها لأحمد الشقيري وكان خطيباً مفوهاً ينافس الشيوخ في الأداء. كلما حضر الشقيري لزيارة القطاع من مصر، كانوا يجمعوننا، نحن طلاب مدارس رفح الصغار لنصطف على جانبي الطريق، حيث سيمرّ الموكب القادم عبر سيناء والعريش لرفح المصرية ومنها إلى رفحنا الخضراء.. ننشد للبرتقال ونردّد الشعارات ونرفرف بالأعلام. بسرعةٍ أصبح النشاط المدرسي يتقرب للكشافة، ثم للعسكرية، تمارين صباحيةٌ، وتكثيفٌ في حصص الرياضة البدنية، وفي سنة ١٩٦٧ الدراسية علّمونا في الصف الأول الثانوي الرماية على بندقيةٍ تشيكية الصنع، والتعامل معها فكاً وتنظيفاً وتركيباً.

في كتابي قبل الأخير «ماذا لو؟»، اقترحت على ضوء زلزال تركيا والحرب على غزة والتوتر الدائم في المنطقة، اقترحت، بتفصيلٍ، إدخال مادة تعليمٍ إلزاميةٍ في الجامعات العربية، لتعليم أسس عمليات الإنقاذ والإسعاف وتنظيم الأمور بين الناس في الأزمات؛ فنحن نرى في الكوارث الطبيعية والحربية قنوط البشر وحيرتهم وعجزهم عن ترتيب ذاتهم؛ فالكلُّ يصرخ ويركض أو يتفرج وينتظر حضور الإسعاف والإنقاذ الذي قد لا يتمكن من الحضور. لو كان خريجو الجامعات على درايةٍ وتدريبٍ فقد ينجحون في الحد من الخسائر وتحسين الأوضاع.. هذه نصيحة مواطنٍ صالحٍ للسلطات والمجتمع في الوطن العربي؛ فلعلَّ هناك من يقرأ ويطبّق.

عام ١٩٦٥ تمَّ إعلان التجنيد الإجباريّ لبناء الجيش الفلسطيني في قطاع غزة، فقد رفضت الأردن، التي ضمّت الضفة الغربية، فكرة إقامة المنظمة، ورفضت طبعاً أيَّ تجنيدٍ إجباريٍّ لسكان الضفة.. في الواقع إن

جيش التحرير الفلسطيني تأسّس بفعلٍ من جمال عبد الناصر في قطاع غزة، وتمَّ التدريب بواسطة ضباطٍ مصريين. لقد جمعوا كلَّ الشباب فوق سن الثامنة عشرة وغير الملتحقين بمدارس وجامعاتٍ، ولا أدري لماذا صرنا نسميهم «جيش حليمة».. تزودوا بشاحناتٍ جديدةٍ من نوع «زل» الروسية، ورشاشات «كلاشنكوف»، وبعض مصفحات «الوليد» نصف المجنزرة مصرية الصنع.. عرفت لاحقاً أن جنودنا، من إخوةٍ وجيرانٍ وأبناء بلدٍ، قد دفنوا الأسلحة وأحرقوا ملابس الكاكي، ومثلهم فعل الجنود المصريون حين وجدوا الدبابات الاسرائيلية تخترق القطاع في طريقها الى سيناء وقناة السويس أثناء حرب النكسة. اتضح أن اليهود كانوا يعرفون من تجنّد وما كان يحدث؛ فقد كان ضابط استخباراتٍ متنكرٌ كشحاذٍ يعيش في رفح منذ سنواتٍ، ويدخل إلى الأفراح والأتراح يترزق ويسمع ويسجل.. بعد دخول جماعته شوهد يلبس رتبةً عسكريةً ويجلس في مقدمة الجيب.. ولم يكن حتماً حالةً فرديةً.

بين النكبات

عايشت العدوان الثلاثي على القطاع عام ١٩٥٦ وعمري أربع سنواتٍ، ولم أعايش دخول إسرائيل في عام ١٩٦٧؛ فقد خطّطت والدتي وأصرت على والدي أن يُجهّز لي تصريحاً للسفر إلى مصر مرافقاً لإحدى شاحناتنا، التي ستنضم لبقية الشاحنات الخمس للعمل في الجمهورية العربية المتحدة. كانت أجواء قطاع غزة تنذر بالحرب، وفور الانتهاء من تقديم امتحان الصف الأول الثانوي في مدرسة بئر السبع الثانوية في رفح، كان تصريح السفر جاهزاً، وانطلقت بنا الشاحنة قبل خمسة أيامٍ فقط من بداية الحرب، لنخترق شبه جزيرة سيناء المليئة بالأسلحة وقوات الجيش المصري. كانت الوالدة تتوقع، بل متيقنة، من اقتراب الحرب وتكرار تجربة النكبة، أو على الأقل عدوان ١٩٥٦، ورأت أن ترسلني لمصر وعمري خمسة عشر عاماً لحمايتي من أخطار الحرب كوني أكبر أولادها، وبقيت هي مع الآخرين من الإخوة والأخوات في رفح. لم تعرف والدتي أنها بهذا العمل تقلّد أمّ النبي موسى حين ألقت به في اليم لينجو من قتل فرعون.. وربّما كانت تعرف ذلك، وتأمل أن تنتهي الحرب وأعود لها قبل نهاية الإجازة الصيفية.

يمكنني القول، الذي لا معنى له على ضوء التطورات المتكررة، لو بدأت حرب ٦ يونيو ١٩٦٧ بشكلٍ تقليديٍّ كمواجهةٍ بين جيشين في البر، أو لو باشر العرب بالهجوم البريّ، لما تمكّن الإسرائيليون من هزيمة الجيش

الذي شاهدته في سيناء في مطلع يونيو. لكنّ الإسرائيليين ولمعرفتهم بضعف موقفهم وقلة تعدادهم في مواجهةٍ تقليديةٍ، وكونهم يسعون لحماية جنودهم من الموت الرخيص؛ فلم يباشروا بحرب مواجهةٍ، ولكنّهم شلّوا سلاح الطيران العربي المصري والسوري؛ فدبَّ الذعر في قلوب الجند والقيادات التي لم تكن تخطط للهجوم أصلاً، كما أنَّ الإسرائيليين اخترقوا سيناء من دون السعي لمواجهة الجيش المصري، وإنَّما وصلوا لقناة السويس عبر ممرٍ واحدٍ يخترق الصحراء، وأخذوا يستقبلون ويجمعون الفلول العسكرية الهاربة من الصحراء إلى القاهرة عبر القناة.

على مر العقود التالية سعت إسرائيل للتفوق الجوي ولمنع العرب من أسلحة دفاعٍ جويٍّ، بمعنى سعيها لأسلحةٍ أكثر تطوراً من نظيراتها وبالتقدم عدّة خطوات على الدوام في أسلحة الطيران.. الذي كسر جزءاً من هذه القاعدة لمدّةٍ من الزمن، كان الرئيس جمال عبد الناصر، وكان لي كمواطنٍ صالحٍ دورٌ بسيطٌ في بناء حائط الصواريخ على قناة السويس لمنع عربدة الطيران الإسرائيلي وتمكين الجيش المصري من إعادة البناء، وسأوضّح ذلك بعد قليلٍ.

مكثنا في القاهرة بضعة أيامٍ للاستعداد للسفر بالشاحنة إلى أسوان حيث تعمل بقية شاحناتنا وغيرها من شاحنات الفلسطينيين في استكمال بناء المرحلة الأخيرة من السد العالي، بمعنى تزبيطات وشقّ طرقٍ عبر الصعيد من الجنوب إلى الشمال لإقامة أعمدة الكهرباء بين أسوان والقاهرة. قبل الانطلاق باتجاه الصعيد اندلعت الحرب؛ فمكثنا في القاهرة بضعة أيامٍ للمراقبة، وكان هذا قرار السائق أبي الديب، الرجل اللطيف حاضر البديهة. سمعنا خبر اندلاع الحرب ونحن على كوبري الزمالك متجهين بالشاحنة إلى الجيزة وإمبابة؛ فقلت لأبي الديب: «راحت علينا»؛ فردّ: «الله يستر».. كان

قصدي راحت علينا الغنائم التي ستُجنى في تل أبيب، وكان رأيه هو الصائب. تابعنا فرحة الناس في الشوارع واستمعنا لأحمد سعيد يُقربنا من تل أبيب، وكيف أن طائراتنا تُسقط طائراتهم بالجملة.. عمليّاً حسب الإذاعة حُسمت الحرب وبقي أن نقرر ماذا سنفعل بالأعداء.

مساء اليوم الثالث على الحرب بثّت الإذاعات المصرية الحقيقة التي قرّر ناصر إعلانها بسرعةٍ لوقف مهزلة التضليل، قال الرئيس في خطاب التنحي: «لقد تعودنا معاً في أوقات النصر وفي أوقات المحنة، في الساعات الحلوة وفي الساعات المرة، أن نجلس معاً، وأن نتحدّث بقلوبٍ مفتوحةٍ، وأن نتصارح بالحقائق، مؤمنين أنّه من هذا الطريق وحده نستطيع دائماً أن نجد اتجاهنا السليم، مهما كانت الظروف عصيبةً، ومهما كان الضوء خافتاً».. وتحدّث عن ظروف الحرب حتى وصل للقول: «نصل الآن إلى نقطةٍ مهمةٍ في هذه المكاشفة بسؤال أنفسنا: هل معنى ذلك أننا لا نتحمل مسؤوليةً في تبعات هذه النكسة؟ وأقول لكم بصدقٍ- وبرغم أيّة عوامل قد أكون بنيت عليها موقفي في الأزمة- فإنّني على استعدادٍ لتحمّل المسؤولية كلّها، ولقد اتخذت قراراً أريدكم جميعاً أن تساعدوني عليه: لقد قررت أن أتنحى تماماً ونهائيّاً عن أيّ منصبٍ رسميٍّ وأيِّ دورٍ سياسيٍّ، وأن أعود إلى صفوف الجماهير، أؤدي واجبي معها كأيِّ مواطنٍ آخر».

صدمني انسحاب الرئيس من الميدان، وأعجبتني صراحته وتحمّله للمسؤولية، وشدتني مقولة أنَّه سيعود إلى صفوف الجماهير للعمل كأيِّ مواطنٍ، ومنذ ذلك الحين تشكّلت لديَّ فكرة المواطن الصالح الذي عليه أن يعمل بأمانةٍ وإخلاصٍ وتفانٍ، وتقديم المصلحة العامة على الخاصة. للحقيقة إنني كنت معجباً بالرئيس؛ فخطاباته كانت تُسعدني وأنا صبيٌّ، وقد شاهدته عندما زار قطاع غزة، حيث اصطففنا كطلابٍ على جانبي الطريق لاستقباله..

وكان ابن بلدٍ وصاحب نكتة في خطاباته ويُشعرك أنه صديقك ويتحدّث بما يجول في قلبك.

لم أكن الوحيد الذي صدمه تنحي الرئيس، كلّ القاهرة، ومصر، رفضت هذا القرار، وزحفت الجماهير تلقائياً إلى قصر القبة، وقد انفلت الأمن، وسارت الجماهير مثل المسحورة يبكون ويمزقون الملابس ويلطمون، وودت السير في ذلك الاتجاه، لكنّ أبا الديب منعني، وقال إن الأمور قد لا تُحمد عقباها وقد لا تعرف كيف تعود.. (لقد عايشت موقفاً مشابهاً في القاهرة حين مات الرئيس) اقتنعت وأمسكت على حزني، وقيل لاحقاً في التفسير لما جرى بعد خطاب التنحي، أن الجماهير رفضت أن يترك القائد مركزه في هذه المرحلة وعليه إعادة إصلاح ما يمكن إصلاحه واستبعاد العناصر السيئة بقدر الإمكان.. ومما قيل لاحقاً من نكات إن بنات الليل شاركن في تظاهرة وكن يهتفن: «..... ببلاش ولا تتنحاش». في اليوم التالي سحب الرئيس قرار التنحي، وتوجهت مع أبي الديب في شاحنتنا القلاب المرسيدس إلى الصعيد لممارسة دوري كمواطنٍ عربيٍّ صالحٍ.

كان والدي، حسين ابراهيم عدوان الملقب أبو مطر، يعمل في قطاع النقل والزراعة في فلسطين منذ قبل نكبة ١٩٤٨، وكان ينقل عنب قريتنا، بربرة، المشهور إلى أسواق يافا وبيروت بواسطة سيارتي نقل يمتلكهما، إحداهما فولفو، والأخرى إنترناشيونال.. بعد النكبة أخذ الشاحنات معه إلى قطاع غزة، واستقرت العائلة في رفح. عاشوا شهوراً طويلةً في الخيام، رفيقة الفلسطيني الدائمة، حتى أقيمت لهم بيوتٌ على وجه السرعة بإشراف الأمم المتحدة، وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين.

أخي خضر، وابن عمي جهاد وابن خالي عبد الرحمن، والكثير غيرهم ولدوا في خيام النكبة، بينما كان نصيبي وغيري أن نولد في بيوتٍ من

الطوب الإسمنتي وأسقفٍ قرميديةٍ محلية الصنع، ولم يدخلها الماء الجاري والمرحاض الخاص إلا بعد عقدٍ من الزمن، وتأخرت الكهرباء نصف عقدٍ آخر. هكذا استمر عمل الوالد في قطاع النقل وتجارة الشاحنات، وعلّمني قيادة السيارات منذ الصغر، وأنا في المرحلة الابتدائية.. كان يقول لي: «أعلّمك القيادة حتى تقود سيارتك الخاصة حين تنجح في حياتك، وليس لتصبح سائقاً».. ومن نصائحه الأخرى: «اعتبر كلَّ السائقين في الشارع مجانين وأنت العاقل الوحيد، وتصرّف على هذا الأساس». هكذا كان بوسعي قيادة السيارات التابعة لنا بأنواعها، سواء شاحنات المرسيدس والأوستن، أو جيب، أو الشيفروليه طراز ١٩٥٦، كنت أسرق مفاتيحها، ونذهب بها أخي عبد الرحمن وأنا إلى البحر في رفح مروراً بالكثبان الرملية ثم بالمواصي التي أصبحت تعج الآن بالنازحين بعد أن تم تدمير رفح عن بكرة أبيها ولم يعد هناك سكنٌ وبيوتٌ يعود الناس إليها.

هكذا كنت أحياناً أقود بعض الشاحنات ونحن ننفّذ مشروع تمهيد الطرق في الصعيد، وعايشت الصعايدة الجدعان واكتشفت أن الكثير من القرى يقطنها صعايدة أقباط يستحيل أن تميّزهم عن المسلمين؛ فهم يشتركون في كلِّ شيءٍ ويتشابهون في المأكل والملبس، وكنا نعتمد على هذه القوى اليدوية لتعبئة الشاحنات في الجبل بالمعاول بدل الجرافات، وننقلها حيث نرصف الطرقات لاستكمال خطوط الكهرباء على جانبها. في المساء كان العمال يعودون لعائلاتهم، بينما نحن نفضل الابتعاد عن بيوتنا المستأجرة، والنوم تحت السيارات بعد أن ندهن أجسادنا بالديزل لإبعاد البعوض.. لم يكن بعوضاً طبيعياً، ولكنّه يعض، ولا أدري كيف كان أهل القرى يتحمّلون ذلك، -خصوصاً- القرى المنتشرة على جانب النيل أو الترع الفرعية. الذي اخترع طريقة الدهان بالديزل هو ابن عمتي، محمد موسى عدوان، الملقب

بالطخ، وهو الابن الثاني لعمتي زينب التي قُتل ابنها البكر أثناء عدوان ١٩٥٦، وقد وصلت إلى حافة الجنون من الحزن على بكرها.

مرَّت شهور الإجازة الصيفية ونحن منخرطون في العمل نهاراً، والاستماع إلى الأخبار في المساء، والتنصت أحياناً على محطات مذياع بعينها تبث رسائل قصيرةً عبر الأثير على شاكلة من فلان الفلاني إلى أهله في المكان العلاني: أنا بخير اطمئنوا وطمنونا. اتضح أن لا عودة قريبة إلى قطاع غزة، وبالتالي، لا بدَّ لي من مواصلة الدراسة في القاهرة مثل الكثير غيري. في البداية يتوجب الذهاب إلى مكتب إدارة الحاكم العام للقطاع في القاهرة؛ فتكتب استدعاءً ذا صيغةٍ محدّدةٍ ويتمُّ التوقيع عليه من الدائرة وتقدّمه أنت إلى وزارة التربية والتعليم المصرية؛ فيعطونك إذناً بالالتحاق بالمدرسة التي تريدها والصف الذي شهدت إدارة الحاكم أنّك تستحقه.. التحقت بمدرسة إمبابة الثانوية الصف الثاني ثانوي، وسكنت مع آخرين في شقةٍ بالعجوزة.

كانت القاهرة تعجُّ بالفلسطينيين، أو ربّما كنا نبحث عن بعضنا ونتقارب ونتعاون.. كان شكلي أكبر من سني، وكان الذين يعرفونني يظنون في البداية أنّني طالبٌ جامعيٌّ، وفي الحقيقة أنّني كنت أفضّل صحبة من هم أكبر سناً، وأختلط مع العمل السياسي وتشكّل الجماعات والمنظمات. كان ابن عمي فتحي من قادة جماعة الناصريين، وكانوا يجتمعون في مقاهي القاهرة الراقية وكنت أشاركهم في الاجتماعات وأنصت لما يقولون، وحين يتوقعون مني مشاركةً أحدثهم عن الصعيد والعمل المضني لتوصيل الكهرباء وتحقيق أهداف الرئيس جمال عبد الناصر، بينما تكون أحاديثهم عن الخلافات مع بقية المنظمات وكيفية بناء الحزب ومخيمات التدريب.. هذه المصادفة والدعم الرسمي المفتوح من مصر لأبناء غزة والضفة المحتلتين أضاف لحبّي واحترامي للزعيم ناصر.

ربّما من أسباب احترامي وحبّي للرئيس المصري، الذي فرض التعليم على كلّ مصريّ ليمحو الأمية، وجنّد أبناء غزة للقيام ببعض هذه المهمة.. ربّما توافقنا في الرؤية الواقعية رغم كلّ الفوارق بيننا. أنا واقعيٌّ حتى قبل سفري للدراسة في ألمانيا الغربية، أعترف بالخطأ والفشل وأتعلّم وأعيد الكرة.. والرئيس كان واقعيّاً تماماً حتى قبل نكسة ١٩٦٧، كان يصارح الشعب بكلّ المشاكل.. لكنّ واقعيته تجلّت بعد ٤٨ ساعة من حرب النكسة؛ فاعترف أنّها كذلك، وتحمّل النتيجة وقدّم استقالته، وعاد عنها برغبة الشعب، وأنا شاهدٌ ومعاصرٌ لذلك. هذه الواقعية لم نشاهدها في السابق واللاحق بين المسلمين والعرب الذين يتلقون الهزائم ويحوّلونها في خطبهم وسجعهم إلى انتصاراتٍ.. أقول ذلك بعد انتشار خبر اغتيال السيد حسن نصر الله وبقية قيادة حزب الله ومواصلة الخطب الرنانة.. كانت الأيام العشرة السابقة للاغتيال المروع تشهد كل يومٍ ضرباتٍ مدويةً نوعيةً من الكيان الصهيوني، وتبجحاً من إيران وتوابعها بانتظار الانتقام.. لم يفكروا، لم ينسحبوا لإعادة رصّ الصفوف وكشف الثغرات، التي أودت بقادتهم واحداً تلو الآخر، حتى نالت من القائد ومعنويات كلّ الطائفة الشيعية عبر العالم، وأحلام بقية المسلمين والفلسطينيين الذين تأملوا خيراً من الإسناد الشيعيّ، الذي جاء بمئتي صاروخ أوقعت خسائر في بعض القواعد العسكرية.. عبد الناصر اعترف وتحمّل وتنحّى، ثم قبل العودة واستفاد من التجربة وأسّس جيشاً حقّق النصر في أكتوبر ١٩٧٣.. لكنّ حماس ما زالت تعلن الانتصار.

لا أدري إذا كان نجاحي في الصف الثاني ثانوي قد تمّ كنتيجةٍ لاجتهادي، أم أنّه هديةٌ من المعلمين في المدرسة؛ فبعد معركة الكرامة في ٢١ مارس ١٩٦٨ تحوّلت النظرة إلينا كأبطالٍ يمكنهم هزيمة من هزم الجيوش العربية، وأتذكر أنّ مدرس الاجتماع ألقى خطبةً في الفصل أخجلتني من كثرة المديح،

وقال لي اذهب إلى الفدائيين وعُدْ إلينا وقتما تشاء وسوف تنجح في عامك الدراسي. أكملت العام ونجحت وتحرّكت إلى الصعيد لإخبار جماعتي هناك بالعزم على السفر وأخذ بعض النقود معي. كانت فترة انتقالٍ من عملٍ لآخر؛ فبعد أسوان والأقصر انتقل العمل إلى منطقة دشنا، وكانت الأسوأ في عالم البعوض، وفي الأعوام التالية عملنا أيضاً في نجع حمادي وأسيوط.

اكتشفت عبر الأحاديث أن جارنا في رفح، أبا طلال، وهو من عائلة مهران، ويعمل مثلنا ومعنا بشاحناته في حقل المقاولات، أصله مصري وله أقارب في نجع حمادي.. لكنّه كان مع الأهل في بربرة وهاجر في النكبة معهم إلى رفح ثم التقى أقاربه في الصعيد. أبو طلال رجلٌ محترمٌ ومتفهمٌ وقد دعمني مراراً في مصر. المرة الأولى حين لحقني بالسيارة بعد أن قطعت كيلومترات سيراً على الأقدام باتجاه مدينة قنا للسفر إلى القاهرة على إثر خلاف مع عمي؛ فانسحبت من القرية، وشاهدني الرجل وأنا أغادر وقت الإفطار في رمضان، ثم سأل عن الأمر وعرف ولحق بي وأوصلني إلى محطة قطارات قنا. أثناء مسيري كنت أمر أمام بيوت الصعايدة مفتوحة الأبواب، وكلّما لمحني أحدهم يخرج ويحاول أن يستضيفني للإفطار في بيته.

الإنقاذ الثاني لي من جارنا وابن بلدنا هذا، كان لاحقاً في القاهرة حيث سكنت مدةً في فندق قصر المدينة تقاطع شارع بورسعيد مع سوق الموسكي، وكان أبو طلال يسكن في فندق فلسطين المقابل.. عاكست فتاة وهي ابنة صاحب الفندق عبر الشارع وأشرت إليها باللقاء على سطح فندقهم. ظننت أنها وافقت؛ فذهبت إلى سطحهم ونظرت من أعلى إلى بلكونتها وناديتها؛ فإذا بها تشتم وتصرخ في البوابين لقطع الطريق علي.. كنت أسرع منهم ووصلت إلى غرفة أبي طلال؛ فلا مجال للوصول للشارع والإفلات.. رحّب بي ولم يسأل، وبسرعة وصل من يسألون إذا كان شابٌ غريبٌ هنا، لكنّه قال هذا قريبي

ويجلس هنا من ساعات وصرفهم.. ولم يسأل ولكنّه نزل معي للباب ثم عدت إلى فندقي. أمّا الإنقاذ الثالث؛ فكان معنويّاً نفسيّاً يوم مات الزعيم، وسوف أعود إليه في حينه.

كانت أوّل رحلةٍ لي في طائرةٍ حين سافرت صيف ١٩٦٨ من القاهرة إلى دمشق. آنذاك كان على أبناء غزة من حملة وثيقة السفر الفلسطينية الحصول على تأشيرة مغادرةٍ من مصر، وتأشيرة عودةٍ إذا أرادوا الرجوع، وهذا ما حصلت عليه. حملت معي مسدساً صغيراً أخذته من صديقٍ ناصريّ.. ولا يجب هنا الاستغراب والتعجب؛ فلم يكن هناك أيُّ تفتيشٍ جسديّ قبل ركوب الطائرة. مشى الركاب من الصالة إلى الطائرة ذات المحركين المروحيين؛ فأخرجت سيجارةً أثناء الانتظار تحت السلم، وصرخ أحد العاملين بي بعدم إشعالها، وأتذكر أنّه قال شيئاً بمعنى: أجاك الكيف جنب الوقود؟ جلس بجانبي شابٌ مهذبٌ ومهندمٌ يبدو أنّه يقيم في خارج الوطن العربي وحضر لاستطلاع الأحوال. شعر بالمسدس على خاصرتي فسأل إذا كنت فدائياً؛ فلم أجبه، وانشرح كثيراً لرؤيتي. بعد النزول في مطار دمشق تم ختم جواز سفري بسهولةٍ وسرعةٍ، وأخذني الشاب معه في تاكسي حتى ساحة المرجة، حيث يوجد كلُّ شيءٍ من مطاعمَ وفنادقَ شعبيةٍ وصرافي عملةٍ؛ فسألت ودلوني على مواقف السيارات المتجهة إلى عمان.

لم أكن أعرف أيَّ شخصٍ أو عنوانٍ في الشام آنذاك، وكان أخواي وخالي والكثير من الأقارب قد وصلوا عمان واستقروا هناك، ولكن لم يكن بوسعنا السفر من القاهرة لعمان جواً. ركبت مع سائق شغّال على خط دمشق عمان، وفي الطريق سألني إذا كان معي فيزا لدخول الأردن؛ فأجبته بالنفي وطلبت مشورته. قال: حين نغادر جوازات سوريا وندخل للقسم الأردني سوف أشير لك إلى فتحةٍ في السياج؛ فتدبر امرك واعبرها للأردن وأمشِ مع الطريق

ثم انتظرني حتى أنتهي من إجراءات الجوازات فآخذك معي إلى عمان. و-بالفعل- هذا ما حصل، نزلت من السيارة وذهب السائق لمكتب الجوازات وسرت إلى الفتحة ودخلتها وخرجت للأردن وانتظرته على قارعة الطريق. شاهدت السيارة تتحرك باتجاهي، وأخذ السائق يشعل ويطفئ الأضواء.. حين اقترب أشرت له بالتوقف؛ فسألني إذا كنت مسافراً لعمان، وأجبته بنعم. لقد ركب معه ضابط شرطة من الحدود إلى عمان؛ فقام بهذه المسرحية. حين وصلنا إلى المدينة الرياضية في عمان، وكانت حينذاك خارج حدود العاصمة، سألت عفوياً: ما هذا البناء؟ أجاب الركاب بأنّها المدينة الرياضية، وسأل الضابط إذا كنت من خارج البلاد.. ثم هزّ رأسه وسكت.. كان الناس طيبين كرماء متعاونين.

بمناسبة الحديث عن طيبة الناس سأذكر قصةً حدثت معي أثناء العودة من عمان لدمشق، ثم أعود للحديث عن الوضع في عمان. عمي اللزم، أبو فتحي، كان قد تزوج ثانيةً في بربرة سيدةً حضرت مع أخيها وأختها من عررة في شمال فلسطين، وتزوج ابن عم أبي، عمي أبو سمير أختها. العمان والزوجتان كانوا في القاهرة قبل النكسة يعملون في قطاع الشاحنات والمقاولات، وبقوا هناك بقية أعمارهم. أم سمير، وحين عرفت بسفري للأردن والشام كتبت رسالة إلى أخيها وعائلته، وقالت لي إنهم يقطنون في قرية بين الجولان المحتل ومدينة درعا، وذكرت لي اسم المنطقة. هكذا نزلت وأنا مغادر الأردن في درعا السورية وسألت كيف أصل للمكان؛ فدلوني إلى موقف سيارات تنقل الركاب إلى هناك.

كانت السيارة مليئةً بالركاب، وأنا أسأل وهم يتشاورون عن أقرب مكانٍ أنزل فيه لمواصلة السؤال. كانت لهجتي وجهلي بالمكان تشير إلى كوني غريباً، لكن الجميع عرفوا مهمتي وهدفي.. عندما أوقفنا أوّل حاجزٍ عسكريّ

نظر الجندي للركاب وسأل إذا كان هناك أيّ غريبٍ؛ فأجاب معظمهم بالنفي، وقال أحدهم: الجميع من المنطقة. وتكرّر الأمر عند الحاجز الثاني وكأنّ رعاية إلهية تتحكم في الأمور. توقفت السيارة على مرأى من مجرى ماء، وامرأة تغسل الأواني؛ فتوجهت إليها للسؤال. لم يكن هناك منازل أو بشرٌ على مرمى البصر؛ فالطريق يخترق السهول متجهاً إلى أول حدود الجولان المحتل. قلت لها إنني أسأل عن دار محمد الخطيب.

توقفت هي عن غسل الأواني ونظرت إليَّ، ثم سألتني: هل أنت ابن أميرة؟ شعرت بالراحة والعجب والإعجاب؛ فأهلي نزحوا عام ١٩٤٨ جنوباً إلى قطاع غزة، وهي وزوجها وعائلتها نزحوا من عررة إلى الشمال الشرقي، ولم يتمّ أيّ لقاءٍ شخصيّ بين الطرفين منذ عشرين عاماً، ولم أكن أنا قد ولدت حين جاءت هي مع زوجها وأخواته إلى بربرة، لكنّها على الأرجح، بل -بالتأكيد- شاهدت والدتي الشابة.. هكذا حين نظرت إليَّ، شاهدت وجه أمي، أميرة.. يا للفراسة.

كان الغروب يقترب، وأخبرتني أن زوجها والشباب قد ذهبوا للمشاركة في فرح زواجٍ، وخيّرتني بين البقاء معها حتى يعودوا أو نذهب إلى الفرح؛ فاخترت لحسن الحظ الذهاب. في تلك الليلة شاهدت ما لم أكن أتوقع مشاهدته في أحلامي وتخيلاتي، وسمعت ورأيت كل التراث.. كنت أمرُّ في الجنة متجهاً لمكان الفرح، أشجار فواكه وشلال ماء يصب ويجري وعشبٌ وطيورٌ.. وحين وصلنا عرّفتهم بسرعة إليَّ، وانخرطت في الأهازيج معهم ترديد ودبكة وصبايا وشبان وعواجيز في غاية الانسجام. في تلك الأمسية فهمت ما كان يتحدث عنه كبار السن عندما يجتمعون في المساء عند والدي المختار يتذكرون بربرة والجوار وفلسطين، واقتنعت أنّ الأفراح التي عايشتها في مخيمات اللجوء كان ينقصها المكان الصحيح.

عدنا على ضوء النجوم، وأكلنا ما تيسر من دون رؤيته، وشملتني العناية السماويّة مجدداً؛ فحين أفقت من النوم صباحاً شاهدت آثار شاحنة جيشٍ يبدو أنها ناورت على قرب مترين من رأسي، وقال المضيفون إنهم أفاقوا وإنني كنت غارقاً في النوم وقد نبهوا السائق لمكاني. بعد عقود زرتهم مراراً في عمان حيث استقروا بقية حياتهم ومماتهم، وحيث يعيش أولادهم وأحفادهم يتناقلون قصص عررة والجولان وفلسطين والفردوس المفقود، أو بالأحرى المسروق قهراً وظلماً.

إلى عمان كان قد سبقني الكثير من الأهل والأقارب، بعضهم حضروا إليها كلاجئين من غزة عبر الضفة الغربية والجسر، وبعضهم الآخر حضر عبر مصر كان هناك أخواي عبد الرحمن وخضر، وخالي حسن، وابن خالتي صبري، وصديقي عبد الرحمن جبريل وغيرهم الكثير. أثناء هذه الزيارة لعمان كنت أقيم على غير انتظام عند أخوي في النزهة وابن خالتي في جبل الجوفة، وأزور بيت خالي في الأشرفية، وهذه كلّها جبالٌ تحيط بمركز المدينة ويتمّ التنقل غالباً بالنسبة لي، على الأرجل عبر صعود وهبوط آلاف الدرجات دون شيء ما على جوانبها يدعم مستعملها.

كان السلاح الشخصيّ مع الجميع وفي كلّ الشوارع والبيوت، وبين الحين والآخر يلعلع صوت الكلاشينكوف دون أيّ سببٍ. أخي خضر كان يعمل في إعلام حركة فتح، وعرفت منه بوجود فريقٍ يرصد إذاعة العدو ويكتب التقارير، واكتشفت ظاهرة تواصلت طوال عمل المقاومة وما زالت إلى اليوم، وهي نسب عملٍ ما إلى منظمةٍ بذاتها. كانت كلّ المنظمات الفلسطينية متنافسةٌ، وكلٌّ منها يرصد مذياع العدو ليسرع بتحوير أي حادثٍ طرق أو حريقٍ يسمع عنه في الراديو، ويحوله إلى نتيجةٍ لعمليةٍ مسّلحةٍ قام بها أبطال ذلك التنظيم، وقد حدثت خلافاتٌ

جادّةٌ طوال السنوات التالية بين الفصائل حين يتبنى بسرعة أكثر من فصيلٍ لعمليةٍ لم تحدث أصلاً.

كلُّ الخلافات القائمة بين حركة فتح والسلطة الفلسطينية من جهةٍ وبين حركة حماس والجهاد من جهةٍ أخرى طوال عقدين من الزمن وصولاً إلى حرب الإبادة في غزة ٢٠٢٣ بفعلٍ إسرائيلي، كلّها كانت موجودةً في عمّان قبل وجود الحركات الإسلاميّة.. كانت خلافاتٍ بين اليمين الممثل في حركة فتح، واليسار الممثل في الجبهة الشعبية وما فرخ منها من انقساماتٍ واقتتالٍ. طبعاً الخلافات تأخذ في العادة عنواناً سياسيّاً ولكنّها في الواقع سعياً للتفرّد بالسلطة أو بنصيبٍ أكبر من السلطة. في عمّان كانت الأجواء متوترة ولكن في ظل تعايش بين السلطة الأردنية والوجود الفدائي. بعد النصر المشترك للفدائيين والجيش الأردني في التصدي للعدوان الإسرائيلي على الكرامة وسحق ذلك الهجوم، ذاع صيت الفدائيين وحضر المتطوعون من بقاع الوطن العربي والعالم للانضمام؛ فأُقيمت معسكراتُ الاستيعاب والتدريب وحمل السلاح.. هذه حقائق تاريخيةٌ نعرف كيف بدأت وكيف انتهت، وقد كنت شاهداً عليها كمواطنٍ صالحٍ عادي حضر مراراً عبر الشام إلى عمّان في صيف ١٩٦٨ وصيف ١٩٦٩ وصيف ١٩٧٠.

النشاط الذي شاهدته كان كثرة كتابة الشعارات على الجدران، وكثرة دهانها والكتابة مجدّداً من فصائل أخرى، وانتشار فرق الذين يلصقون الملصقات التي تحمل بياناتٍ أو صوراً لشهداء، أو خبر انشقاقٍ وميلاد منظمةٍ جديدةٍ، لقد وصل تعداد المنظمات إلى حوالي ثلاثين منظمة في تلك الفترة، الأنظمة العربية أقامت منظماتٍ، والأحزاب العربية فعلت ذلك، كما أُقيمت منظماتٌ وهميةٌ تعرض رواتب جيدةً لامتصاص المتطوعين غير المؤدلجين، وكان البعض يتسلحون بالكلاشنكوف الروسي وغيرهم بالبندقية الأميركية

م – ١٦.. لكن العامل المشترك هو الفوضى، وكان اليسار الفلسطيني يرفع شعار السيطرة على الحكم في الأردن بينما منظمة التحرير التي أصبحت تحت سيطرة حركة فتح كانت تريد اعتبار الأردن قاعدة انطلاق لتحرير فلسطين.. منتهى الرومانسية الثورية الفوضوية.. بل الفوضى القاتلة؛ فقد كان كلُّ انشطارٍ للجبهات اليسارية يؤدي إلى قتل الرفاق من الرفاق لأسبابٍ واهيةٍ، مثل تعليق منشورٍ أو صورةٍ على جدارٍ. (شاهدت ذلك صدفة وأعرف القاتل الذي أصبح قائداً ولكنّ إسرائيل اغتالته).

في أواخر ديسمبر من عام ١٩٦٧ وعلى إثر النكسة، تسلّم يحيى حمودة رئاسة اللجنة التنفيذية بالوكالة بدل السيد أحمد الشقيري، وأعلن أنّ منظمة التحرير ستبذل قصارى جهدها في توحيد مختلف الحركات الفلسطينية، وستعمل على إنشاء مجلسٍ وطنيٍّ للمنظمة. حركة فتح واليسار الفلسطيني رفضا الانضمام للمنظمة طالما أن قيادتها خاضعةٌ للدول العربية، أي للرئيس عبد الناصر. لكن في الأوّل من مارس عام ١٩٦٩، انعقدت الدورة الخامسة للمجلس الوطني الفلسطيني، بحضور جميع المنظمات الفدائية، وانتهت الدورة إلى انتخاب ياسر عرفات رئيساً للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير، لتكون حركة «فتح» قد انضمت إلى المنظمة، بل تولت رئاستها.

شكّل وصول الفصائل الفدائية بقيادة «فتح» إلى قيادة المنظمة بحلول عام ١٩٦٩، دفعاً في نشاط المنظمة، وفي الشعور الوطني عند الفلسطينيين، إضافةً إلى التغييرات في الأجيال والقيادة؛ ما أحدث تحولاتٍ بنيويةً مهمةً. كانت حركة فتح حتى ذلك الحين برئاسة فريق من مؤسسيها، وعندما توجب إظهار أحدهم لقيادة منظمة التحرير دفعوا ياسر عرفات لهذه المهمة التي لم يتركها إلا حين تمَّ قتله بالسم في عام ٢٠٠٤، حيث انتُخب الرئيس محمود عباس، رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية ولن يتنازل إلا بالموت، ولكنّ منظمة التحرير تمَّ قتلها أصلاً

ومات مؤسسوها ولم يتم تجديد الدماء بأيّ انتخاباتٍ نظراً لمساعي السلطة وليدة حل أوسلو للتمسك بالقرارات.. لاحقاً انتقل الجمهور لتأييد حركات المقاومة الإسلامية بفضل أفعالها في إفشال أوسلو وكونها جاءت كحركة تغيير للبائد البليد القائم، ولكن بعد أكتوبر ٢٠٢٣ أصبحت الجماهير تعاقب ذاتها وتتخلى عن نهج القتال الإسلاموي وتركّز على النجاة الذاتية والطعام والشراب والتصدي للموت جوعاً، وهذا تسبّب في تراجع الروح الوطنية، وتحتاج القضية إلى معجزةٍ للحفاظ عليها في الحدود الدنيا.

في عمّان كان من الممكن أن تشاهد أيّ أحدٍ تعرفه أو تسمع عنه. كان العشاء غالباً في مطاعم الفول والفلافل، ومنها مطعم هاشم في وسط البلد، الذي لم يكن يقفل على ما أظن؛ فتجده يعجُّ بالزوار طوال الليل وقبل وبعد الفجر. بعد الظهر كنت أزور أحياناً مقهى على الطابق السابع في عمارةٍ جنب المسجد الحسيني.. هناك يلعب الشباب ورق الكوتشينة، طرنيب، أو مصرية، أو هندرمي.. وكلٌّ منهم يركن سلاحه بجانب الكرسي، وكان المنظر يذكرني بالحانات في أفلام الكاوبوي. ذات مرةٍ دخلت المقهى؛ فإذا بي أرى مدرسي للغة الإنجليزية في رفح.. شاهدني أحمل السلاح، وكان هو مدنياً؛ فلم نحي أحدنا الآخر. ندمت وعدت في الأيام التالية لأراه وأتحدث إليه ولم أوفق. كان إنساناً جاداً قوياً جسدياً ويشبعنا ضرباً حين نغلط في الإنجليزي أو نتكاسل عن تنفيذ الواجبات المنزلية. بقيت قلة أدبي تؤثر فيَّ حتى كنت في زيارة إلى طرابلس بعد ربع قرن، وعرفت -صدفة- أنّه يقيم في بنغازي؛ فذهبت لزيارته في منزله من دون سابق إنذارٍ. فتحت ابنته الباب؛ فسألتها إذا كان والدها موجوداً؛ فأكدت ذلك وطلبت اسمي؛ فقلت لها أخبريه مفاجأةً، وعرفني على الفور، وشربنا القهوة وعدت إلى طرابلس بالسيارة.. ألف كيلومتر في كلّ اتجاه.

توسعت عمّان وتغيّرت كثيراً خلال أكثر من نصف قرنٍ بعد تلك الأيام، لكنّ فنادق وسط المدينة ما زالت في مواقعها، بعضها يستقبل الزوار وبعضها الآخر خرج عن الخدمة ولكنّه يزيّن بوجوده وسط المدينة.. كنّا أحياناً ننام على أسطح تلك الفنادق ببضعة قروشٍ، وكان الحال كذلك في فنادق الشام. كانت عمّان عبارةً عن وسط البلد وجبل عمّان حتى الدوار الثالث وحول القلعة، وعمّان الشرقية حيث تنتهي في الأشرفية.. حتى في مطلع الثمانينيات صارت عمّان الغربية تنتهي في الدوار الخامس ويليه بعد منطقة الرابية الصحراء، ولكنّ المدينة تمددت بسرعةٍ في كلّ الاتجاهات.. ربّما تعتبر عمّان أسرع مدينةٍ نمواً معمارياً في العالم، وهي حتماً في عشرينيات القرن الحالي (القرن الحادي والعشرون) أصبحت المعيشة فيها أغلى من مدينة دبي ذائعة الصيت في الغلاء. لقد وصف أخ زوجتي حين زارنا في عمّان ٢٠٢٥، وصف المدينة بأنّها أفخم مخيم لاجئين في العالم.

حائط الصواريخ

بعد النكسة سعت مصر لإعادة بناء قواتها المسلّحة، كانت تحتاج إلى كلّ شيءٍ تقريباً، وفي المقدمة استعادة الروح القتالية للجيش والشعب، وإلى سلاحٍ يردع عربدة سلاح الطيران الإسرائيليّ الذي كان يُغير أينما شاء في سماء مصر، وصارت القاهرة تُظلم النوافذ والأضواء في الشوارع لتضليل الطيران الإسرائيليّ(!)، ولم يكن في مصر طائرةٌ مقاتلةٌ واحدةٌ بعد النكسة حسب ما عرفت لاحقاً صدفة.

سأقفز هنا زمنياً لسرد هذه الصدفة؛ فبعد عقودٍ من النكسة، وأثناء تأسيس المنظمة العربية لحقوق الإنسان مع لفيفٍ من الشخصيات العربية، التقيت في جنيف الصديق محمد فايق الذي كان وزيراً للإرشاد القومي ومقرباً لناصر في حكومة النكسة ومديراً سابقاً ومستشاراً للرئيس للشؤون الأفريقية، وهو من مؤسسي المنظمة العربية لحقوق الإنسان.. التقينا صدفةً شخصاً بالقرب من محطة القطار؛ فأخذه الأستاذ محمد بالأحضان؛ فابتعدت عنهما قليلاً، وأخبرني محمد بعد ذلك أنّ هذا هو الطيار فلان، الذي أقلع يقود سرباً من الطائرات الناجيات بعد النكسة، إذ أخبر الرئيس ناصر الوزير محمد أن يرسل آخر الطائرات إلى أفريقيا ليستفيدوا منها وحتى: «لا ينتكسون بنكستنا»؛ فكلّف محمد هذا الطيار بالمهمة وها هو -صدفة- يلتقيه في جنيف بعد ثلاثة عقودٍ.

بعد النكسة أصبحت القوات المصرية تفقد أيَّ سلاحٍ مضادٍ للطيران

تضعه على قناة السويس أو قريباً منها؛ فذهب الرئيس جمال إلى موسكو واتفقوا معه على إقامة حائط صواريخ مضادٍ للطائرات على طول جبهة قناة السويس.. المشكلة الآن هي كيف يتمّ بناء الثكنات الإسمنتية التي ستؤوي الصواريخ والرادارات السوفيتية؛ فقرّر السوفييت تولّي الإشراف.. نزل عطاء لبناء القواعد الإسمنتية للاستعانة بالقطاع الخاصّ، وتقدّم الكثير للعطاء ومنهم عدة مقاولين فلسطينيين وكانت شاحناتنا من ضمن المجموعة. لأسبابٍ لا أعرفها تمَّ اختيار المقاولين الفلسطينيين فقط، وباشرنا في العمل عبر نقل مواد بناء إلى مواقعَ منتشرةٍ على طول القناة وغير قريبةٍ أو مطلةٍ عليها. أعتقد أنَّ بعض المواقع كانت وهميةً، وغيرها حقيقيةً، وكنّا عرضةً لقذائف المدفعية الإسرائيليّة؛ فعندما نفرغ الحمولة عبر قلبها، كان أحياناً يُثار الغبار؛ فيتمُّ فوراً إطلاق قذائف على الموقع؛ فنهرب بأقصى سرعةٍ ثم نعود بالحمولة التالية.

أقمنا أثناء تلك المدة في قرى فاقوس والصالحية، وكان العمل في النهار بين القنطرة والفردان. حائط الصواريخ هذا، الذي أقيم في عهد ناصر وبمساعدةٍ متواضعةٍ من شاحناتنا، هو الذي ضمن تقدم القوات المصرية والعبور في أكتوبر ١٩٧٣ إذ أصبح يمنع وصول أيّ طائرةٍ إسرائيليّةٍ بعمق ٢٠ كيلومتراً غرب القناة في سيناء، بمعنى أن خط بارليف الذي أُقيم على طول القناة أصبح دون حمايةٍ جويّةٍ، كما عاشت القاهرة وبقية مصر بأمانٍ من الغارات قبل حرب أكتوبر بثلاث سنوات.

لم يكن العائد المالي للشاحنات من العمل في السد العالي أو جدار الصواريخ مغرياً، أو حتى كافياً للمعيشة وإعادة تأهيل الشاحنات، ولكنّنا كنّا نعمل بروحٍ إيجابيّةٍ. الشاحنات الغزاويّة كانت في العادة تحضر للعمل في مصر بتصريحٍ لثلاثة أشهرٍ، ثم تعود إلى قطاع غزة للاستراحة والتصليح؛ فقد كانت شاحناتٍ غربية المنشأ وحديثةً نسبيّاً ويصعب وجود قطع غيار أصلية لها

في مصر. بعد النكسة لم يعد للشاحنات فرصةٌ للذهاب لغزة، ولم يكن سهلاً العثور على قطع غيار في مصر التي تعاني شحاً في كلّ شيءٍ، سكر وشاي وطعام وخبز -وبالطبع- قطع غيار أصلية لسياراتٍ غير دارجة الاستعمال.. مع مطلع السبعينيات كانت الشاحنات تقريباً قد ذهبت مع الريح.

في المدة بين النكسة وموت الرئيس ومن ثم مغادرتي مصر والمنطقة، انتشر الكثير من النكات عن الوضع السياسيّ والاقتصاديّ، وعرف الجميع لاحقاً أن ناصر كان يطالب بمعرفة أيّ نكتةٍ جديدةٍ في البلد.. من هذه النكات في تلك الفترة:

ركب عبدالحكيم عامر سيارته ومعه، وزير الحربية، شمس بدران، وفجأةً صرخ عامر فيه: خد بالك يا شمس هتدخل في عمود النور، فقال شمس: لكن أنت اللي سايق يا فندم.

عُثر على تمثالٍ فرعونيّ، احتار علماء الآثار في تحديد اسمه؛ فاقترح ناصر إرساله للمخابرات لكشف غموضه، وبعد ساعات قالوا له: لقد تحققنا أنه رمسيس الثاني،- كيف؟ سألهم ناصر،- اعترف بنفسه يافندم.

مرة رجل وقف في الشارع وقال بصوتٍ عالٍ: منك لله يا عبد الستار، راح مخبر ضربه على قفاه وقال له: وكمان مش عارف اسم الرئيس.

التقى صديقان؛ فقال أحدهما للآخر: هل علمت أن فلاناً لم يخلع ضرسه من فمه؟ فسأله صديقه: ولماذا لم يخلعه من فمه؛ فرد عليه قائلاً: هو حد يقدر يفتح بقه.

رجل من القاهرة سمع أن الأرز متوافر في مدينة الإسكندرية؛ فسافر في القطار كي يحصل على قوتٍ لعائلته؛ فسأله الكمسري مسافر أين وليه؟ فأجابه مسافر الإسكندرية عشان أشتري الأرز. ولما وصل القطار إلى طنطا قال له الكمسري انزل هنا! فسأله طيب ليه ونحن لسه موصلناش الإسكندرية؟

فأجابه مش إنت ذاهب عشان تشتري الأرز؟ انزل لأن الطابور يبدأ من هنا. ويقال إن هذه النكتة آلمت عبد الناصر كثيراً؛ فاستدعى وزير التموين وأمره بتوفير الأرز للشعب بأيّ طريقةٍ.

في العام ١٩٧٠ حدثت بعض الأمور التي أسهمت في تحديد خطي ومستقبلي.. حضر إلى القاهرة شابٌ فلسطينيٌّ ناصريٌّ (عبد الرحمن صباح) يدرس ويقيم في ألمانيا الغربية، وتعرّفت إليه عبر الجماعة الناصريّة في القاهرة، وساعدته في المدينة الصاخبة بضعة أيامٍ، وتعرّفت منه إلى ظروف الدراسة والعمل في ألمانيا وأخذت عنوانه. الحدث الآخر الذي هزّ الكيان كانت الحرب الأهلية في الأردن التي عُرفت بأيلول الأسود، وبذل الرئيس جمال عبد الناصر جهوداً مضنيةً لإصلاح الحال ووقف التدهور وعقد مؤتمر قمةٍ في القاهرة سعياً للتوصل للحلّ واستعادة اللحمة بين الأشقاء.. عُرف لاحقاً أنّه في اليوم الأخير للمؤتمر ودّع الرئيس أمير الكويت كآخر المغادرين وعاد من المطار للبيت ورفض تناول الطعام مع عائلته وطلب منهم استدعاء طبيبه، وصعد إلى غرفة نومه، وفشل الأطباء في إنقاذ حياته.

في ذلك اليوم، وفي فندق قصر المدينة حدث الإنقاذ الثالث لي من قبل جارنا أبي طلال، وكان إنقاذاً نفسيّاً معنويّاً. نزلت من غرفتي عبر المصعد إلى قاعة الاستقبال، ورأيت أبا طلال جالساً على الأريكة قبالة موظف الاستقبال. قلت مساء الخير؛ فردّ موظف الاستقبال، وهو الرجل المهذب الخلوق الذي يحترمني لمعرفته والدي منذ سنواتٍ.. ردّ قائلاً: هو أنتم خليتم فيها خيرا! انصدمت، وانطلق أبو طلال يوبخّ الموظف، ويعلن عدم المسؤولية وأشار لي بالحضور والجلوس إلى جانبه. سألته إذا كان الموظف شارباً ويسكي؟ فهمس لي: «عبد الناصر مات». نسيت أيّ تساؤلٍ عن سبب اتهامنا، لكنّني عرفت لاحقاً أنّ الزعيم قد مات بعد أن ودّع آخر القادة العرب الذين شاركوا

في القمة لحلّ الخلافات بين الأردن ومنظمة التحرير، وأن الرئيس مات من الإجهاد، وبالتالي، ألصق البعض بنا مسؤولية موته.

وقفت على باب الفندق المطل على شارع بورسعيد وشاهدت مناظر مروعةً. تحوّل الشارع العريض إلى اتجاهٍ واحدٍ، الناس من كلّ الأعمار والفئات يتجهون شمالاً حيث منشية البكري ومنزل الرئيس.. جموعٌ تركض وتصرخ وتلطم، وغيرهم فوق الحافلات بعد أن طفح داخلها وتسير عرجاء من انعدام توزيع الحمولة، كان خطّ الترماي ثابتاً ولكنّه على حالة الامتلاء نفسها.. لقد شاهدت عراةً وأشباه عراةٍ ولكنّهم لا يعرفون.. ذهب عقلي ومعظم واقعيتي؛ فسرت معهم مشدوهاً ولكن من دون مظاهر، كنت كالمُخدر، ولم يسجل ذهني تفاصيل بقية ذلك اليوم، لكنّني عدت في الليل ونمت في غرفتي بفندق قصر المدينة في نهاية شارع الموسكي.

استمرت حالة الجزع أياماً بعد موت الرئيس، وكلّ تفاصيل وصور وفيديوهات وقصص الجنازة متوافرة حتى الآن على وسائل التواصل الاجتماعي، ولكنّ المشاركة والتجربة الشخصيّة مختلفةٌ عن المعلومات العامة.. أتذكر تماماً أنّه بعد يومٍ من دفن الرئيس ذهبت إلى ميدان الأوبرا؛ فوجدت تجمهراً ثم شاهدت الرئيس جعفر النميري يعتلي شيئاً ما وأخذ يخطب.. كنت مثل بقية الناس في حالة ضياعٍ نفسيّ؛ فجأةً قال أحد الحضور بصوتٍ مسموعٍ: «ده ابن..... عايز يبقى بدل الريس».. ثوانٍ معدودة وبدأت مطاردةٌ.. النميري يركض باتجاه شارع عبد الخالق ثروت، ونحن من خلفه وأشياء تطير من كلّ اتجاهٍ هدفها الرئيس السوداني!! لم أفهم لماذا قال النميري ما فهمه الناس كنيةٍ لتولي القيادة خلفاً لناصر، ولا السبب الذي أدّى لردّة الفعل هذه.. ربّما لم يتصور أيٌّ منا آنذاك إمكانية وجود من يحلّ بدل ناصر.

لقد شاهدت الرئيس وأنا طفل في رفح حين اصطففنا على جانب الطريق

لاستقباله، وشاهدته في أواخر عام ١٩٦٩.. كان عائداً من مسجد الحسين، ويقف في سيارة كاديلاك وإلى جانبه الزعيم الليبي الجديد معمّر القذافي، وكنت منعطفاً على قدمي من شارع بورسعيد.. التفت فإذا بعيني تراه مبتسماً ويحدق باتجاهي؛ فأشرنا لبعضنا بالأيدي وواصل طريقه، ولم يكن الشارع مكتظاً قط إذ كان يوم جمعةٍ وعلى إثر الانتهاء من الصلاة.. كانت هذه هي الرؤية الوحيدة الفاحصة للرئيس، لكنّني اجتمعت لاحقاً مع غيره من الرؤساء ومنهم بالأخص القذافي، والرئيس السوداني، المهذب المتواضع، الصادق المهدي، وشاهدت عن قربٍ رؤساءً وملوكاً وزعماءً كثراً، لكنّ تجربة رؤية ناصر شيءٌ آخر تماماً.

عندما أتأمل وضعنا الآن (بعد مرور عامٍ على السابع من أكتوبر ٢٠٢٣)، وما حدث لقطاع غزة وسكانه، وتوسّع الدمار إلى لبنان بعد الضربات الفنية لحزب الله واغتيال قادته، يحضرني فارق الموضوعية بين ناصرٍ وقادة المقاومة الإسلامية. بعد يومين اعترف ناصر بالنكسة وأنقذ ما يمكن إنقاذه وباشر بناء الجيش وتأهيل سياسة البلد لامتصاص النكسة وتحويلها إلى عبورٍ.. لكنّ قادة المقاومة الإسلامية في غزة باشروا الحرب التوريطية دون استعدادٍ وحسابات ردّة الفعل، ولم يعترفوا بالنتائج المدمّرة للشعوب. كذلك يحضرني تساؤلٌ لماذا كفَّ الناس في الغرب عن التظاهر في الشوارع وذلك على الرغم من رؤية شدّة المعاناة وطولها. النتيجة التي توصلت إليها تقبع في اختلاف المفاهيم بين الغرب والإسلاميين؛ فالغرب وعبر تاريخهم يعترفون بالهزيمة ويتكيفون مؤقتاً ريثما تتاح لهم فرص التغيير، بينما الإسلاميون يدفعون الجمهور لاعتقاد نصرٍ أو استشهادٍ، ويمنحون بذلك العدو فرصةً إضافيةً للتدمير والقتل.. هكذا كفّت الشعوب عن التضامن وتقاعست الحكومات الغربية عن السعي لتحقيق العدالة إذا كانت ستضرّ بمصالحها؛ فعدونا يملك

السيطرة على الإعلام العالمي، ويتحكم برأس المال وهو المسيطر على الإدارة الأميركية المتغطرسة والتي تحرّك بدورها بقية الحكومات الغربية الأقوى اقتصادياً وعسكرياً. هنا نرى الفارق بين قيادة ناصر وقيادة من تبعوه عبر العالم العربي، تمهّل استعداداً لانقضاضٍ مجدّدٍ، ومثل هذه السياسة أيضاً اتُبعت من قبل الرئيس ياسر عرفات الذي لم يغامر مطلقاً بزجّ الجماهير للموت، وكان يعترف بالانتكاسات وبالهزائم ويتراجع، ثم يعود للعمل منتهزاً أيّ فرصةٍ.. لا يمكنك كسب كلّ المعارك، وعليك ضمان الاستمرارية حتى تتأهل وتهزم عدوك مرةً واحدةً تحقق التوازن وتخلق شروطاً لحلٍّ يتناسب من النتيجة.. الانتحار، أو نحر الشعب والمزايدة الإعلامية ليس حلاً.

كلّ فلسطينيّ مرّ طوال القرن المنصرم بكارثةٍ وطنيةٍ شخصيّةٍ على الأقل، وهناك من عايشوا العديد من الكوارث الوطنية، بدايةً من الصراع مع الاستعمار البريطاني والعصابات الصهيونية في العشرينيات، وما تبع من نكبة ١٩٤٨ ونكسة ١٩٦٧، ثم الحروب الأهلية في الأردن وبعدها في لبنان وسوريا.. كوارث متتالية وصولاً للانتفاضات وتكسير العظام، وحروب الخليج التي أدّت لطرد حوالي نصف مليون فلسطينيّ من هناك، وحتى ما بعد اتفاقيات أوسلو من القرن المنصرم، وصولاً للانقلاب الحمساوي في غزة وما تلاه من حروبٍ وتدميرٍ إسرائيليّ للقطاع.. لكنّ الكارثة الناتجة عن غزوة أكتوبر ٢٠٢٣ لا مثيل لها قبل ذلك فلسطينيّاً أو حتى على مستوى العالم؛ فقطاع غزة أُبيد بفعل حوالي ١٠٠ ألف طن متفجرات غربية الصنع في العام الأوّل، علماً بأنّ مدينة دريسدن الألمانية الأكثر تدميراً في الحرب العالمية الثانية قُصفت بأربعة آلاف طنٍ، وقَصف هتلر لندن طوال الحرب ١٨٠٠٠ طن، وعادلت قنبلة هيروشيما النووية ١٥ ألف طن متفجرات، أي بمجموع ٣٧ ألف طن حسمت مصير الحرب العالمية الثانية.. استسلمت اليابان بفعل القنابل النووية

لحماية مواطنيها من الدمار، واستسلم الجيش النازي باتفاق قادته على عدم جدوى الاستمرار بالقتال حمايةً لما تبقّى من بنيةٍ تحتيةٍ وبشرٍ.. لكنّ حماساً تريد أن تكون منتصرةً بأيّ ثمنٍ وشكلٍ وتترك الشعب تحت الإبادة وتراهن على حدوث معجزةٍ إلهيّة أو نهايةٍ فوق كارثية.

بعد عقودٍ من الدراسة والمتابعة والانخراط في الأحداث توصلت إلى قناعةٍ أنّ تشكيلة القيادات الفلسطينية هي من ضمن أسباب الكوارث وأهمها. قطعاً لا يمكن تجاهل طبيعة العدو الذي نقارعه؛ فهو الأذكى والغني والمسيطر على حكومات الغرب بكلّ قدراتها السياسيّة والاقتصاديّة وفي مقدمتها الولايات المتحدة.. لقد اتضح تماماً أنّنا نحارب ضدّ أميركا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا التي تزوّد إسرائيل بالسلاح عبر جسرٍ جويٍّ لا يتوقف، وهذا العداء الغربي الرسمي للفلسطيني والموالاة للصهيوني ممتدٌ منذ نشأة الكيان.. وبالتالي، هي معجزةٌ حقيقيّةٌ أن يصمد الشعب الفلسطيني ويطالب بحقوقه ويُفشل المخططات المضادة طوال قرنٍ من الزمان. أقول معجزة أن يصمد وكان من الممكن أن ينتصر لو كانت القيادات الفلسطينية المتتالية أكثر تحضراً وعلماً ودرايةً، لكنّها كانت قياداتٍ متناسخةً بعضها عن بعض طوال القرن، سواءٌ في المجال الثقافيّ الاجتماعيّ الدينيّ، أو الانعدام العلميّ.

من الطبيعي أن تصبغ بعض تصرفات العدو، تصرفات الذين يقارعونه، بمعنى أن الأعداء حقّقوا مآربهم عبر العنف والحروب.. إذاً الاستنتاج أن الحروب والعنف هو طريق الخلاص. لكنّ إسرائيل اعتمدت العلم أيضاً واستغلته في تطبيق العنف، وواصلت العنف والاحتلال مع اعتمادٍ حديديّ بموازاته على الديمقراطية والعلوم والتقنية، بينما على الطرف الفلسطيني؛ فقد اعتمدنا العنف المسلّح، والذين تصدوا لممارسة النضال كانوا الأقل كفاءةً

علمياً وثقافياً وفكريّاً، أو هم الذين تسلّقوا القيادة عبر الديماغوجية، وهم الذين راهنوا على إبساط الجمهور عبر لعلعة الرصاص والشعارات الشموليّة، وأوصلونا إلى ما وصلنا إليه كلّ مرةٍ. كانت التصرفات تعاكس القناعات.. مثلاً كانت الأيديولوجيا الفلسطينية تعرّف وتقول وتكرّر أنّ هذا الصراع طويلٌ ومتشعبٌ والعدو متطورٌ.. إلخ، لكنّ ممارسات القيادة كانت عفويةً وصبيانةً من ناحية عدم الاهتمام بالعلم والتقنية لتكون ذخيرة للثورة في المستقبل.. لم تفكر أيّ منظمةٍ أو جماعةٍ مثلاً بتطوير رادعٍ يحمي الشعب من المذابح؛ فكانت كلُّ عمليةٍ عسكريّةٍ صغيرةٍ أو كبيرةٍ ولكنّها من نمطٍ واحدٍ، كانت تقابل من العدو بعملٍ مضادٍ أكبر بكثيرٍ.. كنا نعرف منذ بداية الصراع، وقبل النكبة وحتى الآن، ونقول ونكرّر إنّ العدوّ يريد إبادة الشعب الفلسطيني وطرده من وطنه، لكنّ قادة المنظمات والجماعات والذين يملكون المال والقرار لم يطوّروا أيَّ رادعٍ، بينما كانوا يُشاهدون تعاظم قدرات العدوّ كلَّ ساعةٍ ويومٍ.. يكفي أنّنا لم نقلدهم في المجال الديمقراطي، وها هم قادة حركة فتح والسلطة وحماس والجهاد والآخرون، لا يريدون الاتفاق على تشكيل حكومة وحدةٍ وطنيّةٍ وذلك في ظل حرب الإبادة القائمة التي نراها تسير لتهجير الشعب الفلسطيني، بينما من يعتبرون أنفسهم قيادة للشعب مختلفون فيما بينهم ويرفضون الاتفاق على تشكيل حكومةٍ موحّدةٍ ولو كانت مؤقتةً، بالرغم من كونهم اجتمعوا في عواصم العالم مراراً.. في مكة، والدوحة، والقاهرة، وعمّان، ووصلوا إلى بكين بعد موسكو، ولكن على الفاضي، كلٌّ منهم يريد الكراسي والهيمنة؛ فلا يتفقون بينما دمنا يسيل!!

كمواطنٍ عربيّ فلسطينّي صالحٍ لم أكتفِ بالنقد العلني طوال العقود الماضية، ولكنّي فعلت ما أستطيع وحاولت أيضاً تطوير ذلك العجز الفلسطينيّ القياديّ وتحسينه عبر العمل الذاتي وتقديم المشورة والنصح والرأي للقيادات

الفلسطينية، لكنّي وبعض أمثالي كنّا في وادٍ والقيادات في وادٍ آخر تماماً.. هذا ما سوف يتضح وأبيّنه تباعاً في الفصول التالية.

بعد موت الرئيس جمال عبد الناصر يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠، تغيّرت القاهرة في عيوني ورؤيتي ونفسيتي، ولم أتصوّر أنّ أنور السادات أو أيّ واحدٍ غيره سوف يحافظ على خط وخطوات عبد الناصر، كان مجرّد شعورٍ غير قائمٍ على تحليلٍ أو أخبارٍ. كان عمري ١٨ سنةً وكنت قد أنهيت الثانوية العامة، التوجيهي قسم أدبي، ولم أوفق في دراسة العلوم السياسيّة في القاهرة.. في الحقيقة لم أسعَ لذلك وقيل لي إنّها كليةٌ مخصّصةٌ لناسٍ معينين لست منهم أو مثلهم، -وكما قلت- خرجت مصر والقاهرة من راسي.

تذكرت الشاب الناصري عبد الرحمن الصباح، الذي كان قد زار القاهرة وشرح لي بعض المعلومات عن الدراسة في ألمانيا الغربية، -خصوصاً- معلومة القدرة على الدراسة والعمل، كونهم يتبعون نظام الفصل نصف السنوي والذي نصفه دراسةٌ ونصفه الآخر عطلةٌ يمكن العمل خلالها. كان المفروض أن أترجم شهادتي وكل أوراقي إلى اللغة الألمانية وأعتمدها وأتقدم للسفارة الألمانية بطلب تسجيلٍ في أيّ جامعةٍ عندهم وهم ينسقون ويقرّرون ثم يعطونني الفيزا للدراسة، والتي تُسهّل لاحقاً أخذ إقامة طالبٍ سنويةٍ قابلةٍ للتجديد. كان ذلك كثيراً من العمل ويحتاج إلى زمن طويل شعرت أنني لا أملكه.. طلبت من عمي أبي فتحي الذي كان يدير شؤون شاحناتنا أن يدبّر لي أيّ مبلغٍ لأنني عزمت على الرحيل. بعد نقاشٍ لا جدوى هنا من التطرق إليه دبّرت ثمن تذكرة السفر بالإضافة إلى ١٠٠ دولارٍ وتوجهت للسفارة بطلب فيزا سياحيةٍ.. كانت الأمور سهلةً نسبيّاً حينذاك وطبعوا لي الفيزا على جواز سفري الصادر عن مصر ومخصّصٍ للاجئين الفلسطينيين ذي اللون الأزرق.

لم أفكّر في أيّ صعوبةٍ على الإطلاق قد تعترضني، لا فكّرت في اللغة التي لا أعرفها، ولا كون لغتي الإنجليزية محدودةً، ولا في قلة المال، ولا في الملابس الصيفية القليلة التي حملتها إلى بلادٍ ثلجيةٍ ومع بداية فصل الشتاء عندهم. قبل الانطلاق لمطار القاهرة أعطاني أخي عبد الرحمن الذي حضر مع عائلته من عمّان للإقامة في القاهرة، أعطاني فانلة صوفٍ زرقاء سميكةً، وبعد عدة شهورٍ في ألمانيا قرّرت أن أغسلها بالماء والصابون كما كنت أشاهد الوالدة تفعل مع الغسيل.. عرفت لاحقاً أنَّ الصوف يُغسل بطريقةٍ أخرى. كانت النتيجة أنَّ الفانلة تمدّدت إلى ضعف حجمها وتوسّعت فتحاتها وزاد طولها وعرضها، ولكنّني واصلت استعمالها واحتفظت بها لعقودٍ تاليةٍ في الخزانة. لقد حضرت تلك الفانلة مع أخي من رفح عبر فلسطين وجسر اللنبي إلى عمّان، ثم انتقلت إلى حلوان في مصر مع صاحبها على أثر بداية أيلول الأسود، وحملتها إلى ألمانيا حيث حمتني من شتاء مقاطعة بايرن حيث تصل البرودة إلى عشرين تحت الصفر، ويتجمد الشارب في الشارع.

حدثٌ آخر أتذكره قبل السفر من القاهرة؛ فقد ذهبت إلى دار عمي أبي سمير في منشية البكري لوداعهم. عندما أيقن عمي عزمي على السفر، وربّما لاحظ بعض التردد أو هكذا تصوّر، أوصاني قائلاً: وأنت في الطائرة بُـلْ من الجو على العرب.. ضحكنا ولم يكن ذلك في عزمي ولم أفعله ولا أتخلى عن أفكاري القوميّة والناصريّة وعروبتي أبداً.

كان سلاحي في تلك الرحلة متنوعاً؛ فعلى الرغم من صغر سني كانت عندي أفكارٌ قوميّةٌ عربيّةٌ تميل إلى اليسار والاشتراكيّة، أي لديَّ مبادئ وخطٌّ قابلٌ للتطور بالمزيد من المعرفة. وكنت أملك القدرة العمليّة على التقشف وقوة التحمل، ورغبةً في المغامرة ونفسيّةً إيجابيّةً، وذلك من تجربة السنوات الثلاث بعد النكسة، سواء السفر، أو التدرب على السلاح ومجالسة من سكنتهم

السياسة والمقاومة، أو -بالطبع- تجربتي في العمل كعاملٍ مع الشاحنات في كلّ مصر، من أسوان حتى قناة السويس، وامتلاكي رخصة قيادة شاحناتٍ.. كما جرّبت المرض الشديد ونجوت من الإصابة بالملاريا، ومرّت بعض الظروف التي عانيتها جسديّاً.. أضف لذلك أنّ الانتهاء من مرحلة الثانوية هو فترةٌ حاسمةٌ تحدّد توجهك ومستقبلك، وكنت مؤطراً بقوةٍ لمواصلة الدراسة كنتيجةٍ للدفع من الوالدين في المراحل التعليميّة المتتالية سابقاً في قطاع غزة، ونصائح الوالد ودعوات الوالدة التي اكتشفت بالتدريج أنّها تتحقّق حسب ما كانت تريد؛ فالدعوات متنوعة وكثيرة، ولكنّ دعوات والدتي كانت واضحةً.

كلّ ذلك المعلوم والمجهول والغيبي كان في صالحي وأنا أدخل إلى تجربة السفر للدراسة، وليس في جيبي سوى مائة دولارٍ تبخرت في اليوم التالي على وصولي إلى فرانكفورت وقبل الوصول إلى هدفي في مدينة فرايبورج على حدود سويسرا حيث يقيم الصديق عبد الرحمن، وحيث التقيت زمرة طيبة من أبناء الوطن العربي الذين تحولوا إلى عنصر مساعدةٍ أساسي وبالطبع إلى أصدقاء.

لا بأس من إنهاء هذا الفصل بأحداث الوصول إلى فرانكفورت لطرافتها.. خرجت من قاعة المطار ولم أكن أعرف بوجود قطار يربط المطار بالمدينة؛ فالمطارات التي أعرفها وزرتها قبل ذلك تغادرها بتكسي أو حافلةٍ عمومية.. استسهلت استئجار تاكسي وشرحت له أنّني أريد فندقاً رخيصاً؛ فأوصلني إلى مرادي بالقرب من محطة القطارات في فرانكفورت حيث تكثر مثل هذه الفنادق.. ناولته المائة دولار كورقة واحدة وأعاد لي ماركات ألمانية ونزل معي وسلمني لصاحبة الفندق. كلُّ تعاملنا كان أقرب إلى الإشارات وبعض الكلمات بالإنجليزية.. أشارت لي بيدها وأصابعها إذا كنت أريد مزوجاً أو منفرداً؛ فظننت أنّها تسأل إذا كنت أريد فتاة ليلٍ معي كون المنطقة

والشارع والليل كان يوحي بذلك، أضف لهذا الأفكار المسبقة المعششة في الذهن العربي عن أوروبا. اخترت التفرد، واكتشفت لاحقاً أنّها كانت تسألني إن أردت غرفة وحدي أو مع شخصٍ آخر؛ فاخترت الانفرادي والأغلى سعراً.

نزلت إلى الشارع للاستكشاف قبل السفر بالقطار غداً؛ فاستأنست بيافطات الدعاية للخطوط الجوية الكويتية وطيران الشرق الأوسط، وشاهدت بائعات هوى في الشوارع وفي الفاترينات، لا يحادثنك إلا إذا سألتهن.. ومررت بمحلٍ صغيرٍ يبيع ساندويتشات تبدو مثل الكباب؛ فدخلت وطلبت واحدةً بالإشارة؛ فوضع لي في الخبزة ما عرفت لاحقاً أنّه سجق، أو فورست بالألماني، ويصنع من لحم الخنزير.. عضضت على الخبزة بما فيها ثم انتهى الأمر بأكل الخبزة من دون الفورست الذي لم يلائمني مذاقه حينذاك، ولم يكن معي الكثير من النقود لتجربة طعامٍ آخر، إذ كان عليَّ الاحتفاظ بسعر تذكرة القطار لأصل إلى فرايبورج، وكنت قد تواصلت مع عبد الرحمن هاتفياً من الفندق وشرح لي طريقة ابتياع التذكرة.

دعوات أم العبد

صاحبتني على الدوام معلومة أن الناس أنواعٌ، منهم الجيد ومنهم السيئ، وما بينهما من الأطياف. كانت والدتي على الدوام تدعو لي اللقاء والصحبة مع الناس الطيبين: «الله يرزقك بأولاد الحلال». لقد التقيت الكثير من أولاد الحلال في ألمانيا، وقلة شبه نادرة من أولاد الحرام، ولم أكن حينذاك أفكّر في دعم تمنيات والدتي لي، لكنّني الآن وأنا أراجع تلك المدة أتذكّر دعواتها التي ربّما كانت قد تعاظمت بعد مغادرتي رفح ومن ثم السفر من مصر إلى ألمانيا.. (كانت الوالدة قد تحملت مشقة السفر من رفح إلى عمّان برفقة والدي صيف ١٩٦٩ حتى تراني هناك).

أسبر كان من أصدقاء عبد الرحمن الصباح الذي استقبلني في فرايبورج، وقد تبنّى على الفور خطة مساعدتي إدارياً.. كان أسبر لبناني الجنسية، وعرفت لاحقاً أنّه مسيحيّ الديانة، وكان أحدب قصير الطول ويدرس الطب. قام بترجمة شهادتي للثانوية العامة وبقية الأوراق المطلوب تقديمها للجامعة للحصول على قبولٍ يؤهّل في العادة لأخذ الإقامة السنوية. أخذني إلى سكرتارية الجامعة وسلّمهم التراجم وطلب منهم تصديقها، ولم يتقبل أي مماطلة أو يستمع حتى لرأي آخر، وقدّم لي طلباً لدراسة العلوم السياسية والاقتصاد كما طلبت منه، واتفق معهم على أخذ شهادة القبول خلال أيامٍ لنواصل الإجراءات. لاحظت حينذاك ولاحقاً أن أيّ موظفٍ لا

يجرؤ على رفض طلبات أسبر نظراً لحدة لسانه وتسخير وضعه الجسدي باتهام من يرفض طلبه كونه لا يحترم المعاقين، وهذه خطيئةٌ لدى الشعوب المتقدمة.

كنت قد باشرت تعلّم اللغة الألمانية في كورسٍ تابعٍ للجامعة ولكنّه غير مكثفٍ، وبالتالي، أحتاج إلى المترجمين والمساعدين في ضبط أمور القبول والإقامة. أخذنا شهادة القبول من الجامعة والأوراق اللازمة وذهبت هذه المرة مع عبد الرحمن إلى دائرة الأجانب لدى الشرطة للتقديم للإقامة.. لكنّ الموظف كان من أولاد الحرام القليلين الذين التقيتهم طوال دراستي وإقامتي في ألمانيا. تمعن في الأوراق ورفض قبول الطلب.. كان عبد الرحمن يترجم فقط، وعندما قمت عن الكرسي لأشرح للموظف وجهة نظري ظنّ أنّني أتهجم عليه؛ فطلب مني عبد الرحمن الجلوس.. كانت النتيجة أنّ الموظف يريد عودتي إلى القاهرة ومعي شهادة القبول الجامعية لأقدّمها إلى السفارة الألمانية هناك وأنتظر موافقة الشرطة على قدومي إلى هنا!!

اتفق الأصدقاء أن هذا موقفٌ عبثيٌّ وعنصريٌّ ولا يمكن تقبّله، ولكن لا بدَّ من خطةٍ بديلةٍ، وهنا اقترح سعدي زعرب أن أتقدّم إلى معهد جوته الشهير غالي الرسوم لأتعلّم اللغة.. وهذا المعهد في العادة يقبل الجميع من الراغبين في تعلّم اللغة، ويوزع الطلاب على مراكزه العديدة في القرى ويتحمّل مسؤولية الحصول لهم على إقامةٍ لثلاثة أشهر هي مدة الكورس الواحد، كما أنّه يضمن السكن لكلّ طالبٍ لدى عائلةٍ في القرية، وهناك مطعمٌ يقدّم وجبتي الغداء والعشاء ضمن الرسوم المدفوعة، بينما الفطور تقدّمه العائلة المضيفة. كان ضمن دفعتي في المعهد دكتور طبيب مصري يريد تعلم اللغة ليتخصّص في مجاله، وأخو الفنان سيد الملاح الذي يسعى للتخصص في الموسيقى، وكان يتقن العزف على عدّة آلاتٍ منها البيانو الموجود في المطعم، ومجموعة

شباب وشابات من تركيا وسوريا ودول آسيوية، وشابٌ مغربي يتفنن في تغيير كلمات الأغاني العربية التي يعزفها الملاح.

تعلّم اللغة بكثافةٍ يوميّاً هو حلٌّ مؤقتٌ جميلٌ يضمن تعلّم اللغة بسرعةٍ ويوفّر الحصول على الإقامة وكسب الوقت، وبالتالي احتمال موافقة ذلك الموظف العنصريّ لمنحي الإقامة السنوية. طبعاً لم يكن معي أيّ نقودٍ لرسوم معهد جوته التي كانت ثلاثة آلاف مارك ألماني، أي متوسط مصروف الطالب لعشرة أشهر تقريباً.. لكن سعدي تحمّل المسؤولية ودبّر المبلغ وسجّلنا في المعهد الذي أرسلني بدوره إلى قرية جرافنج في بافاريا، بل في أعلى مناطقها حيث مراكز التزلج على الجليد، وذلك في منتصف موسم الشتاء.

أنهيت المهمة بنجاحٍ وعدت إلى فرايبورج مع بداية العطلة الفصليّة للجامعة، كرّرت المحاولة بدعمٍ ومرافقةٍ من أسبر للحصول على الإقامة لكنّ الموظف العنصريّ أصرَّ على رأيه السابق رغم رفع أسبر صوته، ولكنّ ذلك لم يجدِ نفعاً. اقترح أسبر أن نذهب إلى مدير قسم الطلبة الأجانب في الجامعة للتظلم.. أفهمنا المدير أن ذلك الموظف لن يغيّر رأيه، واقترح أن يجهّز هو لي قبولاً مشابهاً في جامعة هايدلبرج، وأتقدّم بناءً عليه لطلب الإقامة هناك ومن ثم أعود إلى فرايبورج لاحقاً.. كان على الطلاب حاملي شهادة الثانوية العامة المصرية إنجاز شهادة ثانوية عامة ألمانية كون الدراسة في ألمانيا ثلاث عشرة سنةً بينما في مصر ودول عربية أخرى هي اثنتا عشرة سنةً.

تقبّلنا اقتراح المدير واتفقنا على العودة له بعد إنجاز الإجراءات مع جامعة هايدلبرج أو بالأحرى إتمام السنة التحضيرية للجامعة بنجاحٍ، واتفقت مع أسبر أن أنتهز الفرصة للعمل أثناء الإجازة، وذلك لتقوية اللغة وللحصول على المال وسداد سعدي زعرب. سعدي هو الآخر مثلي من رفح، وكنت أعرفه من هناك، وكان والدانا يعملان –معاً– في تجارة السيارات، لكنّ عائلة

زعرب هي من العائلات الرفحية الأصلية، أي ليسوا لاجئين مثلنا حضروا بعد النكبة إلى قطاع غزة، وبالتالي، لديهم أراضٍ زراعية، واستفادوا بعد النكبة من توافر الأيدي العاملة الرخيصة اللاجئة ثم توافر الأسواق لمنتجاتهم الزراعية، كما احتلوا مع غيرهم من الرفحية، كما في بقية مناطق قطاع غزة، المناصب الحكوميّة القليلة مثل رئاسة البلديات.. المهم أنّني كنت أعرف عائلة سعدي بشكلٍ جيدٍ وبالتالي، اعتُبر هذا التزاماً إضافيّاً فيما بيننا إلى جانب التزام العروبة والوطنية الفلسطينية والاتجاه السياسي الذي أصبح من عناصر الترابط بين مجموعات الطلاب العرب. (عائلة زعرب دمرت بيوتهم وجرفت أراضيهم في رفح، وطردوا منها في المقتلة).

بقيت لاحقاً على تواصل مع سعدي؛ فقد استقررت في هايدلبرج وبقي هو في فرايبورج حتى أنهى تعليمه وعمل طبيباً جراحاً في ألمانيا لسنواتٍ.. كنا نتواصل شهرياً أثناء الدراسة ونلتقي في الاجتماعات الطلابيّة والتظاهرات المركزيّة، وحافظت على التواصل معه وأنا في لندن لاحقاً. توفي سعدي في أواخر يونيو ٢٠١٣ وكان قد أنهى دراسته وأصبح جراحاً مشهوراً في ألمانيا قبل أن ينتقل لقطاع غزة، ولحسن حظه أنّه لم يعايش نكبة أكتوبر ٢٠٢٣ وتوابعها، ولكن بعض أولاده وبناته وأحفاده عايشوها.

أمّا الجنتلمان عبد الرحمن الصباح؛ فقد أكمل رسالة الدكتوراه في العلوم السياسية وتوظف في الخارجية القطرية سنواتٍ حتى غزا صدام حسين الكويت؛ فتمَّ طرد ٤٠٠ ألف فلسطيني من دول الخليج، وكان عبد الرحمن واحداً منهم وعاد إلى الأردن مع عائلته ليعيش ظروفاً اقتصاديّةً سيئةً. كنت قد زرته في الدوحة وهو على رأس عمله، ولكنّي فشلت في العثور عليه لاحقاً في الأردن. قبل أن يلتحق عبد الرحمن بجامعة فرايبورج كان ضابطاً في الجيش العراقي كالتزامٍ من فلسطيني بفكرة القومية العربية وتطبيقها، ولكنّه قرّر ترك

تلك المهمة على إثر تطوراتٍ سياسيّةٍ عراقيّةٍ وأكمل تعليمه خارج الوطن العربي.

الرجل الطيب الأول أسبر، كان أوّل المتوفين من ضمن فريق الخير.. ذهب ذات ليلةٍ مع عبد الرحمن إلى البحيرة القريبة من سكن الطلاب في فرايبورج، ونزل للسباحة وغاب عن أعين صديقه الذي لا يجيد السباحة مطلقاً.. بناءً على طلب أهله تم إرسال جثمانه إلى لبنان، وكان قد أنهى دراسة الطب وينتظر استلام أوراقه ويستعد للسفر، وكان يتقبل من الأصدقاء ويسجّل طلباتهم من لبنان حتى يرسلها لهم من هناك بعد وصوله. كان أسبر غايةً في الانفتاح على الناس، وكان يذكرني بحياة القرى العربية حيث يحيي الناس بعضهم على الطالع والنازل.. عندما أسير مع أسبر في محيط سكن الطلاب الألمان والأجانب المختلط، كان يتلقى تحيات كل من نقابله، ويمازحهم حتى وهو في عجلةٍ من أمره.. كان يحب الحياة والناس، رحمه الله.

أتذكّر بعض ردات فعل عبد الرحمن على وفاة الصديق أسبر، ومنها قرار تعلم السباحة؛ فأصبحت أرافقه أسبوعيّاً إلى حمام سباحةٍ في فرايبورج وأعلّمه حتى أجادها في فترةٍ قصيرةٍ، ولاحظت آنذاك، ولاحقاً، أنّ معظم سكان الأردن والضفة الغربية لا يجيدون السباحة لعدم اعتمادها للتعلم في المدارس، ولعدم وجود شاطئٍ قريبٍ، وذلك على عكس بقية الشعب الفلسطيني.

ملحوظةٌ أخرى تحضرني بمناسبة الحديث عن الإنسان الطيب أسبر، وهي عدم اهتمام جيلنا في فترة السبعينيات بفكرة الدين، أي عقيدة الآخر.. كان الشعور العروبيّ هو الرابط بين الجميع، بينما الفروقات تتمثل في التوجه الأيديولوجي السياسي، يساري أو يميني أو وسطي، ولم يكن اليمين دينياً كما اليوم، ولكنّ حركة فتح كانت تُشخّص يمينيةً وكذلك مؤيدي الأنظمة

التقليدية. هكذا لم يخطر في بالي مطلقاً آنذاك وحتى الآن التفكير في سؤال أيّ شخصٍ عن معتقده، أو تحديد أيّ موقفٍ تبعاً لذلك. لقد عرفت لاحقاً -صدفةً- أن أسبر مسيحيٌّ.. كذلك صادقت أشخاصاً آخرين لم أعرف ديانتهم إلا صدفةً ومنهم سهيل فاضل الذي كان يسارياً معتدلاً وكنا نشارك آخرين في اجتماعاتٍ شبه أسبوعيّةٍ في هايدلبرج ونتزاور اجتماعيّاً.. ذات مرّةٍ زرته في نهاية السنة فوجدت أنّ زوجته قد وضعت ما يدل على الاحتفال في الكريسماس؛ فسألته إذا كان مسيحيّاً وعتبت عليه لعدم إخباري بذلك طوال السنوات.. قال ماذا كنت ستفعل لو عرفت؛ فقلت كنت سأحضر لك هديةً نهاية كلّ عامٍ.

أصبح سهيل لاحقاً من الكتاب الألمان المشهورين، وانتحل اسم رفيق شامي، وكان قد حضر إلى ألمانيا عام ١٩٧١ هارباً من التجنيد الإجباري السوري، ودرس الكيمياء العضوية وحصل على درجة دكتوراه وعمل في شركة أدوية ألمانية، ولكنّه استقال وقرّر التفرغ لكتابة الأدب وأصبح له العديد من المؤلفات الشهيرة باللغة الألمانية وتُرجم بعضها لعشرات اللغات.. وهو ابن خبّاز من عائلةٍ سريانيّةٍ مسيحيّةٍ من بلدة معلولا الجبلية شرق دمشق. بهذا الصدد يشترك سهيل مع آلاف المشاهير الذين ارتقوا في الإنجاز العلمي ثم انتقلوا إلى مجالات عملٍ مغايرةٍ، والفئة الكبرى ربّما هي من الأطباء الذين أعرف منهم ويخطرون في بالي كل من جورج حبش ورفيقه وديع حداد، وأيضاً أعرف دكتوراً أميركيّاً في الفيزياء النووية ترك مجاله واشتغل كمنقذ للسيارت المعطوبة في الجبال والصحاري.. وهناك من المشاهير المصريين الأطباء: الفنان يحيى الفخراني، والكاتب يوسف إدريس، والمفكر مصطفى محمود، والساخر باسم يوسف.. وهناك -بالطبع- أعدادٌ لا تحصى من أمثالهم الذين تخلوا عن الشهادات الأكاديمية واتبعوا هواياتهم ليتخصّصوا فيها.

في هايدلبرج وأثناء الفصل الأوّل للسنة التحضيريّة أصبح اختلاطي بأنواع الطلاب أوسع؛ ففي بيت الطلاب يقطن ألمانٌ وأجانب من الجنسين وفي مستويات دراسةٍ متنوعةٍ بدايةً من طلاب السنة التحضيريّة مثلي وحتى من يستعدون لإنهاء دراستهم. كانت الأجواء انفتاحيّةً ويساريّةً بين معظم الطلاب، وحدث أن حُرّضنا للاحتجاج على مدير معهد السنة التحضيرية، وحملنا اللافتات وحاصرنا المكان.. عندما انتهت التظاهرة أصرّ المدير على عدم استقبالي وبعض الآخرين للعودة وإنجاز الفصل الثاني. مجدداً تظلمت إلى مدير قسم الأجانب في الجامعة؛ فتوسّط لي بعمل الفصل الثاني في معهد مدينة وجامعةماينز تسعين كيلو متراً إلى الشمال، ثم العودة لجامعة هايدلبرج لبداية الدراسة الجامعية.

تعرّفت في هايدلبرج إلى زوجة المستقبل، وكانت قد حضرت تواً من أيرلندة لدراسة اللغات والترجمة، وأصبحت جريس تزورني مع نهايات الأسبوع في مدينة ماينز التي تقع في مقاطعة الراين لاند فالس، لكنّني سكنت فوق مخبز في مدينة جوستافبرج، التي تقع بدورها على الضفة المقابلة من نهر الراين، ولكنّها ضمن مقاطعة هسن التي عاصمتها فرانكفورت.. هذه الصدفة بالإقامة في مقاطعةٍ والدراسة في أخرى أنقذتني على إثر أحداث عملية ميونخ ضد الفريق الرياضيّ الإسرائيليّ، حيث تم أخذهم رهائن أثناء دورة الأولمبياد الصيفيّة المقامة في سبتمبر ١٩٧٢ ونُسب تنفيذها لمنظمة أيلول الأسود، وكان مطلب الفريق الفلسطيني الإفراج عن ٢٣٦ معتقلاً في السجون الإسرائيلية معظمهم من العرب، بالإضافة إلى كوزو أوكاموتو من الجيش الأحمر الياباني، وانتهت العملية بمقتل ١١ رياضياً إسرائيلياً و٥ من منفذي العملية الفلسطينيين وشرطي وطيار مروحيةٍ ألمانيين.. -بالطبع- غضب الألمان على تنفيذ العملية

في بلادهم وقرّروا الانتقام؛ فأخذوا يعتقلون الفلسطينيين أينما وجدوهم ويرحلونهم خارج البلاد.

كنت قد نشطت على الفور في ماينز منذ وصولي، وشجّعت إجراء انتخاباتٍ لاتحاد الطلاب الفلسطينيين وفزت برئاسة الاتحاد، وبالتالي، كانت أوّلى خطوات الشرطة الألمانية البحث، واعتقال نشطاء الاتحادات الطلابيّة والعماليّة؛ فاعتقلوا سكرتيري ولم يعثروا عليَّ كوني غير مسجل الإقامة في سجلات شرطة المقاطعة التي توجد فيها الجامعة.. هكذا نجوت من الترحيل إلى ألمانيا الشرقية التي استقبلت سكرتير الاتحاد وعشراتٍ غيره ممّن وجدوا أنفسهم ضحيةً للانتقام العشوائي. في وقتٍ قريبٍ لاحقٍ وبسبب هذه التجربة، أصرّت صديقتي على زواجنا لمنحي بعض الحماية كزوجٍ لأوروبيّةٍ، ومن ثم زرنا بريطانيا وأخذت تأشيرة إقامة دائمة هناك وعدت لمواصلة الدراسة في جامعة هايدلبرج قسم العلوم السياسية.. تصريح الإقامة في بريطانيا كان خط حمايةٍ ثانياً كون السلطات الألمانية واصلت الاعتقالات والطرد، ولم أكن أرغب في العودة إلى أي بلدٍ عربيّ من دون تحقيق إنجازٍ دراسيّ يؤمّن مستقبلي.. هكذا لو اشتبكت مع السلطات الألمانية؛ فبوسعي السفر والإقامة في بريطانيا، لكنّ الأمور سارت رغم الصعاب إلى غاياتها، وكنت مثل الكثير غيري على استعدادٍ دائمٍ وفي وضعٍ حذرٍ وأتوقع الاعتقال في أيّ لحظةٍ -خصوصاً- على أثر كلّ عمليّةٍ خارجيّةٍ تقوم بها منظماتٌ فلسطينيةٌ؛ فلم أحتفظ بعناوين وأرقام هواتف أو أيّ أوراقٍ قد تضرني إذا ما وقعت في أيدي السلطات الألمانية.

كانت هذه أوّل تجربةٍ واختبارٍ لزوجتي، وشرحت لها كلّ ظروفنا تحت الاحتلال وفقدان الجنسية وجوازات السفر وبلاد الإقامة، وقد طالعت هي الكثير من الأدبيات لمواكبة المعلومات التاريخية والقائمة، وقرّرنا زيارة

قطاع غزة وفلسطين -معاً- في أقرب فرصةٍ ممكنةٍ؛ فقد تشوقت لعائلتي.. -بالطبع- يسهل لمثلي التحوط والحذر حتى بعد الانخراط في العمل المقاوم.. لكن من كان يفترض بهم التحوط بعد عملية ميونخ أهملوا، أو ربّما كان الذكاء والقدرات الإسرائيليّة فوق مستواهم بدرجات. كانت الأوكرانية غولدا مايوفيتش، جولدا مائير، هي رئيس الوزراء الرابع للكيان من ١٩٦٩ حتى ١٩٧٤، وقد قرّرت مع قيادتها الانتقام من كلّ الذين أسهموا في عملية ميونخ، وأعطت الإذن باغتيال قائمةٍ طويلةٍ كان معظم ضحاياها لا علاقة لهم بالتنظيم الذي نفّذ العملية (أيلول الأسود) وهذا كما فعلت إسرائيل بعد أكثر من نصف قرنٍ حين انتقمت من كلّ الفلسطينيين في قطاع غزة بحجة الانتقام من حركة حماس التي نفّذت عملية طوفان الأقصى؛ فإسرائيل تبحث في كلّ مرحلةٍ عن مبرراتٍ تبيح لها التمادي في تنفيذ خططها بالتخلص من الشعب الفلسطيني وإزالته جسديّاً وحضاريّاً وتاريخيّاً من الوجود لتبرير وجودها ضمن فكرة شعب يهودي بلا أرض لأرضٍ فلسطينيةٍ بلا شعب.

قبيل عملية ميونخ تمَّ اغتيال غسان كنفاني يوم ٨ يوليو ١٩٧٢ في بيروت بتفجير سيارته بواسطة عبوةٍ ناسفةٍ من قبل جهاز الموساد الإسرائيلي، وقتلت معه ابنة أخته. وبعد اعتماد قائمة الاغتيالات، اغتيل وائل عادل زعيتر في روما من قبل مسلحين عند مدخل شقته يوم ١٦ أكتوبر، وهو رسمياً موظفٌ في السفارة الليبية وممثل منظمة التحرير الفلسطينية، في روما. ويوم ٨ ديسمبر من العام نفسه اغتيل الدكتور محمود همشري وهو ممثل لمنظمة التحرير الفلسطينية في فرنسا حيث تم قتله من خلال إخفاء قنبلة في جهاز الهاتف في باريس.

استمر مسلسل الاغتيالات الخارجية لممثلين دبلوماسيين ومفكرين فلسطينيين مدّة طويلة، بل إن مبدأ الاغتيالات أصبح سياسةً رسميةً لاحقاً

وليس بحاجة لقراراتٍ من رئاسة الوزراء. اغتيل حسين أبو الخير وهو ممثلٌ لمنظمة فتح في قبرص من خلال زرع قنبلة في غرفته في فندق في نيقوسيا يوم ٢٤ يناير ١٩٧٣، وفي ٦ أبريل اغتيل الدكتور باسل الكبيسي وهو برفسور في القانون في الجامعة الأمريكية في بيروت، من قبل مسلحين في باريس.. يوم التاسع من أبريل نزلت فرقة قوات خاصة إلى بيروت وكان من ضمنها إيهود باراك الذي أصبح لاحقاً رئيساً للوزراء، ونفذوا عملية الفردان باغتيال محمد يوسف النجار وكمال عدوان وكمال ناصر، وثلاثتهم من قيادات حركة فتح المؤسسين ولم يكونوا على علاقةٍ بأيلول الأسود.. كان كمال عدوان مسؤول القطاع الغربي، أي الداخل الفلسطيني في حركة فتح.

بعد يومين فقط اغتيل زيد مقصي، وهو ممثلٌ لفتح في قبرص، في غرفة في فندق في أثينا. في ٢٨ يونيو اغتيلت أوّل شخصيةٍ ذات علاقةٍ بأيلول الأسود وهو محمد بودية وهو ضابط عملياتٍ في منظمة أيلول الأسود حيث تمَّ قتله عن طريق لغمٍ تحت مقعد سيارته في باريس. في ١١ يوليو نجحت قوات الأمن اللبنانية بإلقاء القبض على شخصٍ ألمانيّ يحمل جواز سفر مزوراً باسم (أورلخ لوسبرغ) تبيّن فيما بعد أنّ اسمه الحقيقي هو داني ياتوم وكان ضمن شبكةٍ إسرائيليّةٍ تخطّط لاغتيال سعيد السبع في مدينة طرابلس، لبنان. وكان الفشل الإسرائيليّ التالي يوم ٢١ يوليو حين قتلت المخابرات الإسرائيلية أحمد بوشيقي وهو نادل بريء تم الاشتباه على أنّه علي حسن سلامة، وذلك في مدينة ليلهامر في النرويج.. لكن بعد ٦ سنوات نجح الإسرائيليون في اغتيال علي حسن سلامة في بيروت حيث فجّروا سيارته في الطريق بعد أن رصدته عميلةٌ تظاهرت طويلاً أنّها مؤيدةٌ للفلسطينيين وأصبحت على علاقةٍ بالمغدور.

قصة منظمة أيلول الأسود شيقةٌ جداً ولها دلائل على وضع ما قبل النكبة،

وأيضاً على وضع ما بعد أكتوبر ٢٠٢٣ وهجوم طوفان الأقصى.. وكونها قصةً ذات أبعادٍ سياسيّةٍ وعسكريّةٍ واجتماعيّةٍ أيضاً؛ فسوف أفسح لها مجالاً أوسع لاحقاً في هذا الكتاب.

كمواطنٍ صالحٍ يمكنني التأكيد أنّني تلقيت الدعم والمساندة من الأصدقاء والمعارف، وفي المقابل منحت مساعداتٍ لم تتوقف للآخرين وللوطن، امتدت من بدايات أيام الدراسة الجامعية حتى أيامنا هذه، أي بعد أكثر من عامٍ على كارثة أكتوبر التي أنتجت عملية إبادةٍ لقطاع غزة ومن فيه وتوجبت المساعدة بكلّ شيءٍ لكلّ شيءٍ. (صحيحٌ أنَّ من يعمل المعروف والخير والصواب لا يتوقع الشكر من الآخرين، لكن لا بدَّ من تسجيل ملحوظةٍ أنّنا شعبٌ يمكن وصفه بالجحود، وذلك ربّما بسبب نكبتنا وتحميلنا للغير وللآخرين مسؤولية دعمنا.. أي تعودنا التلقي ونعتبر ذلك فرضاً على الآخرين!! لقد دعمت فقط في المجال التعليمي، أثناء دراستي في ألمانيا، وأثناء عملي لاحقاً في لندن، ومنذ بعد الانتفاضة الأولى وحتى الآن، أكثر من ٥٠٠ طالبٍ ودفعت رسوم المئات منهم كطلابٍ في جامعات غزة والأردن.. أقول ذلك وأنا أتذكر أنّني لم أتلقَ الشكر أو الامتنان من أيّ واحدٍ منهم حتى الآن.. اعتبروا ذلك واجباً عليَّ، وأنا بدوري لم أتوقف عن عمل الخير وأبحث عن تبريرٍ لتصرفاتهم).

نظّمت إقامة فرعٍ لاتحاد الطلاب الفلسطينيين في مدينة ماينز، وبعد العودة إلى هايدلبرج وعلى الرغم من أجواء الإرهاب للفلسطينيين على إثر عملية ميونخ، أعدت تنظيم فرع الاتحاد بعد أن تشتت، ونقلت السيطرة عليه من أنصار حركة فتح إلى أنصار اليسار الفلسطيني، وتكرّر الأمر في عدّة مدنٍ إلى درجة انزعاج سفير المنظمة في بون السيد عبد الله الإفرنجي الذي ربطتني معه علاقة احترامٍ –خصوصاً– بعدما أرسلته إلى ياسر عرفات بملفٍ خاصٍّ..

وكنت قد التقيت أبا عمار بصورةٍ سريعةٍ أثناء إقامة عزاء شهداء الفردان، وعاد سفيرنا بردٍ لم أفهمه آنذاك على محتوى الملف.

القصة -باختصار- أنّ صديقاً ألمانيّاً مؤتمناً ومتعاطفاً تعرّف إلى إنسانٍ آخر طوّر غواصةً صغيرةً تتسع لشخصٍ وحمولةٍ أو لشخصين من دون حمولاتٍ.. عندما علمت بالأمر ذهبت مع صديقي لتفحصها من باب الفضول، وجمعنا المعلومات الفنيّة وسجّلت نتيجة التجربة وبعض الصور للغواصة ووضعتها في ملفٍ وأنا أتصوّر فرصة استعمالها من قبل المقاومة لتلغيم موانئ فلسطين أو خطوط سفن التجارة للكيان المحتل. ذهبت بالملف إلى عبد الله فاطلع عليه وهو مندهشٌ وسألني إذا كان الأمر حقيقيّاً؛ فأكّدت له ذلك. سافر في اليوم التالي لبيروت، وعندما عاد أخبرني: «الختيار يسلّم عليك ويشكرك ويخبرك أن عندنا مثلها». نهاية القصة عززت قناعتي بوجود خطأٍ ما؛ فإذا كان لدينا غواصاتٌ مثلها؛ فلماذا لم نستعملها، وماذا ننتظر -خصوصاً- وأنّ كل بلادنا ساحليةٌ؟

قصة لقائي الأول مع الختيار كانت مليئةً بالتناقضات هي الأخرى. بعد سماع خبر عملية الاغتيال في الفردان استلفت نقوداً لشراء تذكرة الطيران ونزلت في اليوم التالي إلى بيروت. أخذني سائق التاكسي إلى البناية التي يقطنها أبو يوسف النجار وأوصلني الشباب إلى شقته في الطابق السادس حيث تمّ اغتيال أبي يوسف وزوجته التي تصدّت للقتلة ووقفت بينهم وبين زوجها المصاب، هناك قابلني ابن عمه الذي يحمل اسمه أيضاً، السيد محمد النجار الذي كان يعمل بشاحناته معنا في صعيد مصر وعشنا معاً فتراتٍ متقطعةً، وعائلة النجار من رفح أيضاً، وكان محمد صديقاً لوالدي.. المهم وقبل أن أتحرّك إلى بيت ابن عمي كمال عدوان الذي كنت أعرفه منذ أيام غزة على الرغم من فارق السن بيننا، وكنّا نتراسل بين بيروت وألمانيا لقضاء بعض

الشؤون الشخصيّة العائليّة.. قبل التحرك إلى شقته في البناية المقابلة دخل أبو عمار؛ فجلست دقائق إضافية حيث سمع الختيار ما لا يعجبه ونزلت دموعه وهو يقول بالمصري الدارج: «لا ما تؤليش كدا..» التقت عيوننا وغادرت مع أحد الحراس ليوصلني إلى بيت ابن عمي حيث وجدت هناك أبناء أخ كمال، ماجد وصبحي، وأخته سعاد أم فتحي وزوجها، وهو عمي، وأحد أبنائهما، جهاد، وعمي أبا سمير، وكان هؤلاء قد حضروا من القاهرة.. المهم هنا هو الإشارة إلى حضور الختيار بعد وصولي هنا أيضاً، وتصافحنا وتحادثنا بالعيون، وسيكون لنا لقاءاتٌ وحواراتٌ ومراسلاتٌ أخرى متعددة سأتطرق لها في حينها بعد ذلك. تجب الإشارة هنا أنَّ شقة الشهيد الثالث، كمال ناصر كانت في العمارة نفسها وفوق شقة الشهيد كمال عدوان.. بعد حوالي ساعة على مغادرة الختيار حضر أبو إياد، صلاح خلف، لتقديم العزاء لأهل الشهيد عدوان، صافح الحضور من دون كلامٍ، وجلس صامتاً نهائيّاً لحوالي عشر دقائق ثم غادر الشقة. تجب الإشارة أنّ مجموعة إسرائيليين متنكرين قساوسة كانوا يقطنون في الطابق الخامس تحت شقة أبي يوسف النجار كما قال أحد أبنائه لاحقاً وإنهم كانوا هناك قبل شهور من تنفيذ العملية، أي ربّما فور اتخاذ جولدا مائير قرار الانتقام لعملية ميونخ ١٩٧٢.

لا بدَّ هنا من تفسيرٍ لدموع الختيار. كانت عملية الفردان كبيرةً وقويةً ومؤثرةً، وبدت سهلة التنفيذ، ويستغرب الذهن والمنطق آنذاك أنّ قواتٍ خاصّة إسرائيليين حضروا من فلسطين المحتلة ونفّذوا ثم غادروا من غير الإمساك بأحدهم. كان الشهداء من المؤسسين لحركة فتح، وكانت هناك -كالعادة- أحاديث عن مشاريع سلمية، وكان المقربون من القيادات يعرفون أنّ اختيار أبي عمار كمتحدثٍ باسم فتح في البداية ثم توصله إلى الموقع الأوّل جاء بالصدف، بل عُرف في البدايات أنّ الزجّ بياسر عرفات كمتحدثٍ

كان بمثابة التضحية به أمام المخاطر المحدقة آنذاك عربيّاً وإسرائيليّاً.. لذلك عندما تمَّ هذا الاغتيال الجماعي في الصف التالي لعرفات سهل الظن أنّ له يداً في العملية وأنّها ليست من صنع إسرائيل، ولو كانت عمليةً إسرائيليّةً؛ فقد تمت بمعرفة عرفات حتى يتخلّص من منافسيه المحتملين ومعارضيه للحلول السلمية.. ولأنّ العملية لم تقترب من عرفات ومقرّه واقتصرت على هؤلاء الغزاوية، سهل الظن وانتشرت الإشاعات وسمع الختيار ذلك اليوم اتهاماتٍ مباشرةً له؛ فنزلت دموعه. لكن من نافل القول إن إسرائيل لاحقاً قتلت عرفات وشاركت في خراب الحل السلمي، -وبالطبع- اعترفت بتفاصيل تنفيذ عملية الفردان.

رحلتي تلك إلى بيروت غيّرت الكثير في شخصيتي ومجريات حياتي. رأيت الإمكانيات، ومع ذلك تلمست الفشل الذريع وسوء التخطيط، ولم يكن الأمر في جوهره وتفاصيله مختلفاً كثيراً عن الحال في الأردن من ١٩٦٧ حتى أيلول الأسود ١٩٧٠، -باختصار- اقتنعت أنّه ما كان من الضروري حدوث مسلسل الاغتيالات الذي تكرّر بتلك السهولة كوننا نقاتل عدواً مغتصباً نصفه بكلّ الموبقات وعلينا افتراض أنه كذلك وبالتالي التحوط حتى قبل أن نستفزه بهجماتٍ على رياضيين أو مدنيين. بعد يومين من العزاء وتكرار الأحاديث والطقوس والأفعال نفسها، طلبت من نائب كمال للقطاع الغربي أن يرتّب لي مدة تدريبٍ مُركّز، وقد استجاب فوراً ورتّب الأمر على خير وجهٍ.

قيل لي انزل من العمارة واتجه إلى الشمال ثم خذ أوّل منعطفٍ وهناك سيتعرّف إليك أحدهم فاذهب معه.. نفّذت ووصلت ونظرت وتعرّفت إلى الشخص قبل أن يحادثني، وأخبرته أنني أعرف وجهه واسم عائلته من أيام رفح.. حاول الإنكار، لدواعي السرية، ثم اعترف وأوصلني إلى منزلٍ يُستعمل للتدريبات الخاصّة في مخيم ضبيه للاجئين الفلسطينيين، الذين أغلبهم

مسيحيون من لاجئي الجليل وحيفا، وهو المخيم الفلسطيني الوحيد شرق بيروت حيث الأغلبية المسيحية. لقّبوني لدواعي السرية بجورج، ولم أستجب للنداءات في اليوم الأوّل وكان عليهم تذكيري أنّني جورج. أطيب شيءٍ في تلك التجربة كانت العجوز، أم سمعان، التي تحضّر لنا كلّ يومٍ طعاماً شعبيّاً تقليديّاً متغيراً لم أكن متعوداً إياها، وتدعو الرب أن يوفقنا وينصرنا. تعلّمت وتدرّبت على التعامل مع الكلاشينكوف وتظاهرت أنّني جديدٌ على هذا السلاح، وكان الجديد هو كمية الرصاص التي استعملتها للتدريب في موقعٍ قريبٍ، ثم توافقنا على تعلّم أشياء أخرى تدور حول تصنيع وتركيب متفجراتٍ وصواعق لها، وتفجيرٍ بالتوقيت وبالبطارية وتركيزٍ على نواحي الحذر في المعادلة والتركيب والأسلاك، كون الخطأ سيؤدي لأحد احتمالين: إما الانفجار العفوي القاتل للذات ولمن حولك، أو عدم تفجّر العبوة في موعدها ومكانها. كلّ المواد المستعملة في صناعة هذه المتفجرات الشديدة كانت متوافرة للشراء من قبل العامة في البلدان الأوروبية بسهولةٍ نسبيةٍ.. بعضها يستعمل في صناعات التجميل، وأخرى سماداً للزرع أو مواد صناعيّةٍ أوليّةٍ.

عندما انتهت فترة التدريب عدت إلى ألمانيا، وفوجئت في مطار فرانكفورت أن زوجتي لم تتعرّف إلي فوراً وأنا أتجه إليها حتى اقتربت منها؛ ففغرت فاهها.. كان لوني قد تغيّر ووزني نقص وكتلة العضلات احتلت موقع الدهون.

عدت للعمل والدراسة والنشاط السياسي الطلابي الفلسطيني والعربي عبر الاتحادات الطلابية والاهتمام بالعلاقات مع اليسار الألماني الطلابي حيث شكّلنا «لجان الشرق الأوسط» في العديد من المدن الجامعية، وكان تنظيم اللجان مهمةً ملقاةً على عاتق الألمان بينما نقدّم لهم المعلومات العامّة والخاصّة ونرسلهم إلى الضفة والقطاع وإلى بيروت للاطلاع واللقاءات

والعلاقات.. أيضاً بدأت في تشكيل خلايا نائمةٍ من شباب مضمونين وتجميعٍ بطيءٍ ومدروسٍ وتخزينٍ للمواد استعداداً لأيّ طارئ يتطلب استعمالها.. لكنّ الأمور سارت على ما يرام.

قبل إنهاء هذا الفصل لا بدّ من العودة للتذكير بالمناخ الذي ساد في عقد السبعينيات.. تذبذبٌ في نتائج تأثير هزيمة حزيران نفسيّاً على الشعب العربي، من حالة انهزامٍ لعودة الأمل نتيجةً للنشاط الفدائي، ثم انتكاسة الخروج الفدائي من الأردن، وانضمام العرب الرسميين لرؤية الحلول الأميركية والتخوّف على الكراسي من بطش وقدرات إسرائيل وعدم تخوفها من فعل أيّ شيءٍ يخدم مصالحها.. بينما عالميّاً سادت القناعة بوجود احتلالٍ إسرائيليٍّ من جهةٍ، وبحقّ إسرائيل في حدود وأمن ضمن الإطار قبل حرب ١٩٦٧ من جهةٍ أخرى.. أمّا على الصعيد الطلابي والجامعات في الغرب والشرق الأوروبي؛ فقد سادت الأيديولوجية اليسارية إلى درجة أن الطلاب في العلوم الفلسفية كانوا يسهمون في اختيار المواد التي يدرسونها في كلّ فصلٍ، وكثيراً ما يرفضون مقترحات البروفيسور لبعض الكتب بحجة أنها رجعيةٌ ورأسماليّةٌ بحتةٌ.

بالنسبة لنا كطلاب فلسطين في ألمانيا والغرب عموماً، كنّا نستقبل أيّ طالبٍ جديدٍ قادمٍ للدراسة، نسهّل مهمته ونساعده في التسجيل والعثور على سكنٍ غالباً ما يكون في بيوت الطلاب.. والأهم أنني باشرت في مدينة هايدلبرج بتنظيم مواقع عملٍ يتبادلها الطلاب الجدد المحتاجون للمال، وهي غالباً في مطابخ مطاعم، أو نوبات حراسةٍ ليليةٍ في فنادق المدينة، أو العمل ليلاً في مطبعة صحيفة المدينة.. هكذا كان بوسع بعض الطلاب العمل ليلاً والدراسة في الجامعة نهاراً، وصار بوسعي التعرّف إلى العناصر الطيبة وتصنيف وتأطير الطلاب وربطهم بعضهم مع بعض اجتماعيّاً.

لم نكن نفرق طائفيّاً، أو حتى إقليميّاً، وكان لنا كطلابٍ عربٍ وفلسطينيين علاقاتٌ جيدةٌ مع إيرانيين وأتراك وطبعاً ألمان طالما أنهم يساريون، وكفلسطينيين كنّا ذوي اتجاهين فتحاوي يميني ويساري مؤيد للمنظمات اليسارية، ولكنّنا كنّا نعمل -معاً- في العلن، ونتعاون اجتماعيّاً، ونتنافس على قيادة الاتحادات والمنظمات وتصدّر العمل عموماً، ولكنّنا كأفرادٍ ونقاباتٍ وتجمعاتٍ لم نقتتل مطلقاً كما حدث في العقود الأخيرة منذ استقواء الحركات الدينية في السياسة وشقّ العمل السياسي وخلق الاختلاف الاجتماعي والاقتتال والقتل والاستباحة ورفض التوحد والمشاركة حتى في أحلك ظروف الإبادة التي يتعرّض لها الشعب الفلسطيني في قطاع غزة، إذ نجد التيار الديني الحمساوي يرفض الوحدة للقيادة الفلسطينية، ويرفض التنازل عن الكرسي لحماية ما تبقى ويصرّ على التصدّر حتى آخر بيت وإنسان غزي، أو حتى يرق قلب الاستعمار ويتقبّل حلّاً يبقيهم في السلطة ولو شكلاً.

أيلول الأسود..لماذا وكيف؟

بوسعي التأكيد على تذكّرٍ دائمٍ لتفاصيل أشياء حدثت وعمري أربع سنوات، مثل العدوان الثلاثي ١٩٥٦ على قطاع غزة وسيناء واحتلالهما، وتفاصيل بداية الدراسة والمرحلة الابتدائية.. أقول هذا كوني أتذكّر بوضوحٍ كيف كان رجال قرية بربرة اللاجئون إلى رفح يجتمعون كلّ ليلةٍ في المجلس (المقعد) عند والدي المختار، ويتحدثون عن حياتهم في بربرة التي كان قد مرّ أربع سنواتٍ على احتلالها حين ولِدت أنا، وتسعة عشر عاماً حين حدثت نكسة ١٩٦٧.. كانت بربرة وفلسطين قبل النكبة تعيش في عقولهم وتتحكم في تصرفاتهم ورؤيتهم وطباعهم وموقعهم الاجتماعي.. والآن تعيش قصصهم تلك التي استمعت لها، وواقع الحياة الذي عشته في رفح والقطاع في عقلي وقد مرّ ثلاثة أضعاف الزمن الذي مرّ عليهم بين النكبة والنكسة.

أثناء مراجعتي للمعلومات عن الشخصيات، التي عرفت بعضها، والتي صنعت الثورة بأطوارها المتعددة والمختلفة، تنبهت إلى حقيقة أنّهم كلّهم قد ولِدوا في فلسطين قبل النكبة، وأنّهم طُردوا منها في أعمارٍ بين العاشرة والعشرين عاماً، مثل د. وديع حداد، أي كلّهم يتذكرون تفاصيل حياتهم التي حُرموا من استمرارها عبر القهر.. الكثير منهم كانوا أبناء عائلاتٍ ميسورةٍ؛ فمثلاً والد صبري البنا أبو نضال، كان من أغنى أغنياء يافا، ولديهم في بيتهم الكبير

مسبحٌ! وكان عمر صبري ١١ عاماً حين نزح مع عائلته في البداية إلى البريج في قطاع غزة، ثم انتقلوا إلى نابلس.. ربّما أكبر أولئك القادة سناً كان الحكيم، جورج حبش مواليد اللد عام ١٩٢٦ لعائلةٍ مسيحيّةٍ ثريةٍ من ملاك الأراضي في فلسطين.. والحكيم أكبر من الختيار، ياسر عرفات بثلاث سنواتٍ، وبينهما أبو يوسف النجار مواليد يبنا ١٩٢٧، بينما كمال عدوان مواليد بربرة ١٩٣٥، أي كان عمره ثلاث عشرة سنةً وقت النكبة.. أحداث هذا العمر بين العاشرة والعشرين هي الأكثر رسوخاً في الذهن كونها تشهد تحولاتٍ جسديّةً وفكريّةً بالانتقال من الطفولة والصبا إلى الشباب والرجولة. لقد عرفت أن إسرائيل عبر جهاز (أمان) الاستخباري تبحث عن مرحلة الصبا والشباب لأيّ شخصٍ يريدون معرفة قدراته وتطلعاته ويأخذون ذلك في الاعتبار حين يقيّمون مخاطره عليهم.

هذا الجيل هو الذي استفاد جزئيّاً من دروس فشل التجربة قبل النكبة، وترسخت لديه قناعة الخذلان من المحيط العربي -وتحديداً- الأنظمة، والعداء للغرب الذي ساعد على إقامة الكيان -وتحديداً- بريطانيا. هم أيضاً الذين اقتنعوا أنّ العنف الثوري هو الطريق الوحيد لاستعادة الحقوق، وذلك بالاعتماد على تجربة الحركة الصهيونية التي نجحت في مساعيها عبر العنف والاغتيالات والإرهاب.. نسف الصهاينة مقراتٍ بريطانيّةً وأعدموا جنود الانتداب وفجّروا الفنادق واغتالوا مندوب الأمم المتحدة الكونت برنادوت، ومارسوا المجازر، ولم تكن مجزرة دير ياسين الوحيدة.. هكذا اقتنع ذلك الجيل أنه كما نجحت ممارسات عدوهم بالعنف والإرهاب فلا بأس من الأخذ بها وتقليدها قدر الإمكان.. لكنّهم لم يقلدوا الشق الآخر في التجربة الصهيونية وهي الالتزام بالديمقراطية وبالتالي، مبدأ تغيير وتجديد القيادات والابتعاد عن القيادة القبلية والمشيخية، ولم يلتزموا بالقدر المشابه بالناحية

العلمية التي ركّز عليها عدوّهم، ولم يجندوا أغنياء فلسطين والعرب كما جندت الصهيونية أغنياء اليهود للتأثير الإعلاميّ والسياسيّ.. لكنّ عذرهم هو المناخ المعادي لهم سواء عربي رسمي أو عالمي؛ قد اضطروا للسرية ولجأوا للعنف بأنواعه ومنه عنف منظمة أبي نضال الذي ارتد ذاتيّاً ليضر بالثورة والثوار وأصبح في موقع الخيانة الوطنية.. أو عنف وديع حداد في المجال الخارجي قبل وبعد تجربة الأردن، وتجربة أيلول الأسود على أثر الهزيمة الفدائية في الأردن.

أيلول الأسود هو الاسم الذي يرمز للأحداث في الأردن صيف ١٩٧٠ بين مجموع المنظمات الفلسطينية الفدائية والجيش الأردني الذي حقّق هدفه بطرد الفدائيين ولم تنجح محاولات الوساطة العربية بقيادة جمال عبد الناصر في رأب الصدع، وخرج الفدائيون الفلسطينيون من الأردن إلى لبنان. حينذاك أصبحت مشاعر اليأس، والإحباط، وخيبة الأمل تسيطر على جميع الفلسطينيين، لأنّه لم يكن في وسع هؤلاء القيام بعملياتٍ فدائيةٍ من أطول حدودٍ ضدّ إسرائيل؛ فأصبحت الحاجة ملحّةً لإنشاء منظمةٍ سريةٍ كرديفٍ مُلحقٍ بالمقاومة الفلسطينيّة في الوقت الذي لم يكن بوسع هذه الأخيرة القيام بمسؤولياتها كاملةً من الناحية العسكريّة والسياسيّة، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ قيادة المقاومة الفلسطينيّة انعقدت بكامل هيئتها في شهر أيلول ١٩٧١، واتخذت مجموعةً من القرارات العلنية أهمّها تعزيز قواعد المقاومة في الأردن ولبنان، وشنّ هجماتٍ على إسرائيل انطلاقاً من الجنوب اللبناني، ولكن أيضاً تقرر تشكيل قوةٍ سريّةٍ تمارس الانتقام وارتبط لاحقاً اسم صلاح خلف، أبو إياد بقيادة منظمة أيلول الأسود.. وأبو إياد (مواليد يافا ١٩٣٣) من قادة منظمة فتح ومسؤول الأجهزة الأمنية.

يعتبر أبو إياد أحد أهم منظري الفكر الثوري لحركة فتح، حتى أنّه لُقّب بتروتسكي فلسطين، واسع الأفق نافذ البصيرة، أوّل من طرح فكرة الدولة العلمانية في فلسطين، التي يتعايش فيها الأديان الثلاثة المسلمون والمسيحيون واليهود متساوين في الحقوق والواجبات. أبرز مؤسسي ركائز جهاز الرصد الثوري، حيث وصل بالجهاز إلى أرقى المستويات سواءٌ على المستوى الإقليميّ أو العالميّ، باعتراف خبراء الأمن في العالم، وصل بالعمل الخارجي مرتبةً نافس فيها الموساد الإسرائيلي، والسي آي إيه الأمريكية، والكي جي بي السوفياتية، بالرغم من الإمكانيات المتواضعة للثورة الفلسطينيّة. كما كان من أبرز المحاورين على المستويات الفلسطينيّة والعربيّة والعالميّة، وكان يُسمّى على النطاقات النخبوية في حركة فتح بجارنج فلسطين نسبة للدبلوماسي السويدي المشهور جارنج، وذلك لقدرته الفائقة على صياغة التوجهات والاستراتيجيات وبناء التحالفات وإدارة التفاوض بشكلٍ فائق الحكمة.

كانت حركة فتح تنفي رسميّاً أيّ علاقةٍ أو مسؤوليةٍ عن منظمة أيلول الأسود حتى تتفادى النقد العربي والدولي وحتى تتيح لأيلول الأسود حرية العمل المنفلت فيما يخدم القضية، ونظراً لهذا الوضع أعلنت بعض المنظمات مسؤوليتها عن أعمالٍ لأيلول الأسود حتى تكتسب شعبيةً، (الشعب الفلسطيني وقيادته تربوا على حبّ العنف الثوري ولا يميّز بين الفوضى والتخطيط) وقامت منظماتٌ أو جماعاتٌ أخرى بأعمالٍ ونسبتها إلى منظمة أيلول الأسود.. من أشهر العمليات المنسوبة إلى المنظمة والتي استطاعت من خلالها في السبعينيات أن تنتزع اعتراف العرب والعالم بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثلٍ شرعيٍّ ووحيدٍ للشعب الفلسطيني:

اغتيال وصفي التل رئيس وزراء الأردن السابق في نوفمبر١٩٧١

ومحاولة اغتيال زيد الرفاعي في لندن بعد شهرٍ واحدٍ.. ثم جاءت في سبتمبر ١٩٧٢ عملية ميونخ التي قُتل فيها ١١ رياضياً إسرائيلياً خلال دورة الألعاب الأولمبية. وفي يناير العام التالي تم اغتيال بروخ كوهين وتصفية شبكة الموساد في مدريد. في فبراير من العام نفسه فشلت محاولة احتجاز أعضاء الحكومة الأردنية وفي مارس نجحت عمليةٌ في الخرطوم في فكّ أسر الخلية التي حاولت إسقاط النظام في الأردن وكان من ضمن أفرادها أبو داوود. في مارس وأبريل تمَّ اغتيال سمحا لتزر في قبرص وهجومٌ مزدوجٌ ضدّ السفير الاسرائيلي وطائرة تابعة للخطوط الاسرائيلية.

كانت العملية الأشهر بعد ميونخ، هي ما حدث في الدار البيضاء أكتوبر ١٩٧٤ أثناء انعقاد مؤتمر القمة العربية، وهي العملية التي أدت إلى الاعتراف العربي بمنظمة التحرير الفلسطينية، وبعدها بأسبوعين تقريباً استقبلت الأمم المتحدة ياسر عرفات وتمَّ الاعتراف العالمي بمنظمة التحرير، وإعطائها صفة (مراقب) في الأمم المتحدة في سابقةٍ هي الأولى في التاريخ أن تُعطى حركة تحرّرٍ وطنيٍّ هذه الصفة ويتمّ قبولها عضواً في هذا التجمّع العالمي.. بعد ذلك عمدت قيادة فتح إلى إنهاء عمليات أيلول الأسود بعد أن تمكّنت من تحقيق جميع الأهداف التي أُنشئت من أجلها، وعاد قادتها، ومقاتلوها إلى صفوف حركة فتح الأم رسميّاً.

تشكّلت قيادة أيلول الأسود من الرعيل الأول المؤسس للعمل العسكري والأمني وهم من الكوادر الذين تلقّوا دوراتهم الأمنية الأولى في معهد البحوث الإستراتيجية التابع للمخابرات المصرية في منتصف العام ٦٨ وكان منهم: فخري العمري (أبو محمد العمري)، وعلي حسن سلامة (أبو حسن سلامة)، ومحمد داود عودة (أبو داود).

عملية الدار البيضاء بحاجةٍ لإضاءةٍ نظراً لكون أحداثها تتشابه مع وضع

المقاومة الفلسطينية في عام ٢٠٢٤ على إثر غزوة أكتوبر، والتخلي العربي عن المقاومة وعن شعب غزة والتقرّب للسلام والمحاباة لإسرائيل والخنوع للرؤية الغربية الأميركية.. طبعاً مع بعض الاختلافات بين الوضعين من ناحية أيديولوجية المقاوم الفلسطيني.. آنذاك لم يكن للتيار الإسلامي أيّ دورٍ في المقاومة المسلّحة أو المدنية؛ فقد كانوا يقولون بأهمية إعادة المجتمع للدين حتى مع وجود الاحتلال، وقد استمروا على هذا النهج حتى الانتفاضة الأولى؛ فركبوا قطارها ثم ركّزوا على العنف لكسب رضى الجمهور الفلسطيني الذي تطربه أصوات الانفجارات ولعلعة الرصاص؛ فيُسلّم رقبته لممارسي ذلك العمل.. كما أن المقاومة الإسلامية لم تمارس أيّ عملٍ خارجيٍّ ضدّ إسرائيل، ومنذ انقلاب حماس على السلطة لم يمارسوا أيّ أعمالٍ عسكريةٍ داخل إسرائيل على عكس ما فعلوه لإفشال اتفاق أوسلو من تقتيل للمدنيين الإسرائيليين.

قبل قمة الدار البيضاء انعقدت قمةٌ في الجزائر في نوفمبر ١٩٧٣، أي بعد حرب أكتوبر، وتبنت القمة قراراً يعترف لأوّل مرةٍ بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً شرعيّاً ووحيداً للشعب الفلسطيني بموافقة جميع الدول العربية باستثناء الملك حسين الذي امتنع عن تصديق القرار، ولهذا لم يُعتمد. لكنّ الرئيس المصري السادات اجتمع بالملك حسين سراً في الاسكندرية وتمَّ توقيع بيانٍ مشتركٍ يقرُّ فيه السادات للملك بأحقيته في التحدث باسم الفلسطينيين المقيمين وغير المجنسين في الأردن ويزيد عددهم على المليون نسمةٍ، وقد ترافق ذلك بحملةٍ إعلاميّةٍ غير مسبوقةٍ من الصحافة المصرية على المنظمة تمهيداً لتهيئة الأجواء من أجل تنصيب الملك حسين متحدثاً باسم الشعب الفلسطيني، واعتماد ذلك بقرارٍ عربيٍّ في القمة العربية التالية والتي ستعقد في المغرب في ٢٦/ ١٠/ ٧٤. هكذا كان ردّ أيلول الأسود سريعاً

وبتعليماتٍ من أبي إياد لتنظيم عملٍ رادعٍ وانتقاميٍّ، ووضعت المنظمة عدة خططٍ للتنفيذ.

شكّل أبو محمد العمري فريقاً من ١٣ شخصاً، وبمساعدة أبي الوليد العراقي زودهم بجوازات سفرٍ مزورةٍ لا تحتاج إلى تأشيرة دخولٍ للمغرب. شارك في التخطيط وقيادة العملية أبو محمد العمري، أبو الوليد العراقي، المناضل (أبو رجائي) والمناضل(أبو هشام) وتوجهوا جميعاً للمغرب بصورةٍ فرديةٍ على أن يمكث كلٌّ منهم في فندقه في انتظار تعليماتٍ للتجمع في النقطة المحددة والمتفق عليها سلفاً. أثناء وجود أبي محمد، وأبي رجائي في الدار البيضاء التقيا صدفةً رجلاً أعمالٍ ليبياً يعرفانه وقد اشتهر عنه أنّه مدافعٌ متحمسٌ عن القضية الفلسطينية، وكان يعتبر نفسه مؤيداً لأعمال العنف الثوري، ويبدو أنهما ثرثرا، أو أن الرجل تشكّك في روايتهما وسبب وجودهما. في الحقيقة إن هذا الرجل كان يعمل أيضاً لحساب الأمن المغربي. لم تمضِ ساعاتٌ على هذا اللقاء العرضي حتى اكتشف أبو محمد، وأبو رجائي أنّهما مراقبان؛ فقرّرا مغادرة المغرب في الحال. لكنّهما لم يتمكنا من المغادرة؛ فقد فاجأهما الأمن المغربي واعتقلهما على الفور. وقام موظفو المخابرات المغربية بالاستيلاء على غرفتيهما لاستقبال المكالمات الهاتفية، والزوار المحتملين، وبالفعل استقبل الأمن المغربي مكالمةً من (طنجة) يخبر فيها (أبو هشام) عن ميعاد وصوله للدار البيضاء، ولأنّه لم يلتزم قواعد الأمن وخابر من فندقه فقد تمَّ اعتقاله هو الآخر (كان مكلفاً بتسليم الأسلحة لفرقة الاغتيال). عندها باتت مهمة الأمن المغربي أقل سهولةً عندما هاتف شخصٌ رابعٌ من أغادير يعلن ميعاد وصوله بطريق الجو، ولأنّه خابر من هاتفٍ عموميٍّ فإن الأمن المغربي اضطر إلى أن يحتجز ركاب الطائرة كافة والتحقيق معهم، ولم يكن صعباً اكتشاف الشخص الذي كان يحمل جواز سفرٍ باكستانياً ولم يكن يعرف كلمةً

من لغة مسقط رأسه؛ فتمّ اعتقاله هو الآخر. وتوالت الاعتقالات بهذه الطريقة إلى أن وصل عدد المعتقلين ١٤ شخصاً.

سارع الأمن المغربي برفع تقريره للملك الحسن مبلغاً إيّاه أنّ هناك مخططاً لاغتياله والملك حسين والرئيس السادات والملك فيصل والرئيس النميري وبما أنّه لم يتمّ العثور على السلاح فإنّ الخطر ما زال قائماً. وقد أشار التقرير أيضاً إلى اتهام أبي إياد؛ فدافع عنه أبو عمار الذي كان في المؤتمر، وحينما عُرضت عليه صور الموقوفين تعرّف أبو عمار إلى أبي محمد العمري وأبي رجائي وأخبر الملك المغربي أنّ هؤلاء مطرودون من فتح ويعملون في أيلول الأسود ولا علاقة لفتح بالأمر. تحرّك أبو إياد سريعاً لمنع وصول الأسلحة إلى المغرب حتى لا يتوافر الدليل المادي الذي يدين الفدائيين ويبقيهم في السجن مدى الحياة على أقل تقدير؛ فأوعز لأحد وكلاء أيلول الأسود بالإبلاغ عن شحنة الأسلحة للسلطات الإسبانية، وهو ما تمَّ بالفعل حيث أوقف الأمن الإسباني الشحنة وصادرها وقام بطرد السائق وشخصٍ آخر لأنّهم لم يريدوا التورط في قضيةٍ بين المغرب وفتح.

في النهاية لم يكن أمام الأمن المغربي سوى الضغط على المعتقلين للاعتراف بمسؤولية أبي إياد أو أبي عمار عن العملية، ولأنّ الجميع اعترف على أبي محمد العمري بأنّه مسؤول العملية فقد نال النصيب الأكبر من التعذيب. وفي الجانب الآخر من المشهد عُقدت القمة العربية في جوٍّ من الرعب والإشاعات لدرجة أنَّ أولئك القادة المعروفين بانحيازهم الكامل للملك حسين أصبحوا فجأةً مدافعين مستميتين عن منظمة التحرير الفلسطينية؛ فقد كانوا يعتقدون أنَّ أيلول الأسود نشرت عشرات المسلحين لقتل الرؤساء العرب، أمّا أبو عمار وأبو إياد فقد حضرا القمة العربية وحصلا على ما يريدان دون أيّ دليل إدانةٍ لهما بفضل تماسك أبي محمد ومن معه في التحقيق.

حققت عملية المغرب عدّة نتائج تتمثل في: التأكيد على حقّ الشعب الفلسطيني في العودة، والتأكيد على حقّ إقامة سلطةٍ وطنيةٍ مستقلةٍ بقيادة منظمة التحرير الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني على كل قطعةٍ محرّرةٍ من الأراضي الفلسطينية، وعلى جميع البلاد العربية دعم هذه السلطة في شتى المجالات. واستناداً إلى هذا القرار العربي، وبعد أسبوعين فقط في ١٣/ ١١/ ٧٤ تمَّ استقبال ياسر عرفات في الأمم المتحدة، وتمَّ الاعتراف بالمنظمة ممثلاً شرعيّاً ووحيداً للشعب الفلسطيني، وتمَّ منح فلسطين صفة مراقبٍ في الأمم المتحدة في أوّل سابقة في التاريخ أن تشارك حركة تحرّرٍ وطنيٍّ رسميّاً في المنظمة الأممية بالإضافة إلى اعتراف الأمم المتحدة بحقّ الشعب الفلسطيني في السيادة والاستقلال الوطني.. كانت حركة فتح ومنظمة التحرير والجبهة الديمقراطية قد مهّدت بتبني مشروع النقاط العشر الذي يقول بإقامة دولةٍ فلسطينيةٍ على أيّ شبرٍ يتمّ تحريره، ولم يُقَل في هذا المشروع كيفية التحرير، أهي بالقوة أو بالمفاوضات وكان هذا بداية الاعتراف الفلسطيني الرسمي بمبدأ الحلول والاعتراف بإسرائيل. عموماً وللتذكير فقد كانت تلك المعارك عربيةً فلسطينيةً لتأكيد من هو صاحب حقّ التمثيل. (يفترض بنا هنا والآن أن نقارن بين حينذاك وبين الآن وكيف أصبح التنازل عن فلسطين والتقرب لإسرائيل موضةً عربيةً تتيح التفرج على المقتلة بينما العلاقات آخر حلاوة..)

في الشهر نوفمبر ١٩٧٤ نفسه وفي مهرجانٍ شعبيٍّ حافلٍ عُقِد في جامعة بيروت العربية احتفالٌ بالانتصار لمنظمة التحرير الفلسطينية على المستويين العربي والدولي تبنى أبو إياد محاولة الفدائيين المعتقلين في المغرب (الذين هم بالأساس أصحاب هذا الإنجاز) وذكّر الجماهير أنّ قيادة فتح بعد أحداث أيلول اتخذت قراراً بإزالة الملك حسين ونظامه، وهدّد أنه إذا أصمّ الملك

الحسن الثاني أذنيه عن نداءاته بالإفراج عن المعتقلين فإنّ لدى فتح من الوسائل التي تجبر الملك المغربي على الإذعان، وهنا وصلته رسالة صغيرة أثناء الخطاب فحواها أنّ المغرب أطلق سراح المعتقلين وسلّمهم إلى السادات الذي أودعهم سجن القلعة؟! فانتقل أبو إياد من الهجوم على الحسن الثاني إلى الهجوم على السادات إلى أن قوطع مرةً أخرى، ولكن بواسطة أحد أعضاء السفارة المصرية قدّم ملاحظة حررت بهذه العبارات (السادات يدعوك لرؤيته فوراً.. فلا تنتقده قبل أن تستمع إليه).. وهنا عدّل أبو إياد خطابه الموجّه للجمهور مخبراً إيّاه أن أصدقاءنا المصريين أبلغوه تواً أنّ احتجاز الفدائيين (إجراء روتيني)، وهم يلقون معاملةً حسنةً. وفي اليوم التالي غادر أبو إياد إلى القاهرة وقابل السادات الذي أخبره أنّ رجال المخابرات المصرية الذين أرسلوا إلى المغرب عادوا مقتنعين بأنّه لم يكن مستهدفاً غير الملك حسين ثم توجّه للهاتف وتحدّث مع وزير الداخلية (ممدوح سالم)، وطلب منه سرعة الإفراج عن المعتقلين الأربعة عشر فوراً.

طوال مدة نشاطي وعملي الصحافي شاهدت أبا إياد عن قربٍ مرةً في بيروت، ومراراً في اجتماعات المجالس الوطنية في الجزائر، وتحدثت معه هاتفياً مرةً واحدةً من لندن. كنت أعمل كإعلاميٍّ ومستشارٍ في شؤون الشرق الأوسط للقناة الإخبارية الرابعة البريطانية. ذات يومٍ اتصل بي المذيع الرئيس للنشرة الإخبارية (جون سنو) وقال بوجود ضرورةٍ لمقابلةٍ هاتفيةٍ مباشرةٍ مع أبي إياد، وأن المسؤولين عن ترتيب اللقاء يواجهون رفضاً من مساعدي أبي إياد، والوقت يقترب بسرعةٍ من موعد النشرة المسائية الرئيسة.. أخذت من جون الرقم الذي يتصلون به واتصلت به فرد بعضهم، عرّفت بنفسي وأخبرتهم بضرورة تحدثي الآن مع أبي إياد؛ فقال الشاب إنه نائم ويتخوّف من إيقاظه؛ فأخبرته أنّني أتحمل المسؤولية. بعد دقائق جاء صوته: إن شاء الله خير يا عبد

الجبار؛ فقلت له بأهمية اللقاء وإنني رتّبت الأسئلة وأخبرته بها، وهم يتوقعون إجابةً في الاتجاه الفلاني.. سألني إذا كانوا أمناء ولن يغدروا بسؤالٍ محرجٍ فأكّدت له ذلك؛ فطلب أن تكون المقابلة بالعربية؛ فرجوته أن يبقى صاحياً ريثما يتصلون به.. وهذا ما كان.

الحرب في الأردن عام ١٩٧٠ كانت سبباً ونتيجةً لتشكّل حركاتٍ ثوريةٍ تمارس الإرهاب الخارجي!! انهزمت الثورة عسكريّاً وتسبّب الانسحاب من عمّان إلى جرش وعجلون شمالاً، ثم قرار الانسحاب من هناك إلى سوريا؛ فلبنان، تسبّب في رفض بعض المقاتلين مثل أبي علي إياد ومجموعته الذين رفضوا قرار الانسحاب وانتقدوه، وقرّروا في مكالمة لاسلكيةٍ مفتوحةٍ مع عرفات والقيادة: قرّرنا أن نموت ولن نركع. ففي يوم الاثنين ٢٧/ ٧/ ١٩٧١، وعلى أثر الحشود العسكرية الأردنية التي بدأت تتجه من الشمال حيث الحدود مع سوريا إلى منطقة عجلون وجرش، جمع أبو علي إياد قادة السرايا في المنطقة، وأصدر لهم تعليماتٍ واضحةً بالقتال دفاعاً عن كرامة الثورة ووجودها.. وبدأت المعركة صباح اليوم التالي، وكانت شرسةً، استعملت فيها القوات المهاجمة كلّ أساليب الدمار، ونقل عنه الصراخ في رجاله «الصمود الصمود أيّها الرجال، الثورة غرم وليست غنماً، فادفعوا ضريبة الصمود». وأرسل برقيةً للقيادة العامة يقول فيها: قرّرنا أن نموت واقفين ولن نركع، وبرقيةً تاليةً: المعركة قاسيةٌ وعنيفةٌ والقتال وجهاً لوجه ونقاط التعزيز قد قُطعت وسنقاتل حتى الشهادة. أثناء الانسحاب مع من تبقى من الفدائيين تمّ أسر أبي علي جريحاً ووصلت تعليمات من عمّان بالقضاء على الأسير وإحضار جثمانه للتحقق.

كانت هذه الأحداث سبباً في الحقد وتشكيل منظمة أيلول الأسود للانتقام، ولكنّ الانسحاب وما حدث مع أبي علي إياد أدّى لاحقاً لانسحاب

أبي نضال، صبري البنا، من حركة فتح، أو هكذا قال، وتشكيل منظمةٍ انتقاميةٍ حديديةٍ انقلبت بسرعة للقتال ضدّ الحركة الأم وضدّ غيرها على مدار سنواتٍ، حتى قتلت منظمة أبي نضال القادة المسؤولين عن الأمن في حركة فتح، أبا إياد وأبا الهول، وفخري العمري الذي شارك في عملية مؤتمر القمة وأصبح مساعداً لأبي إياد، وتمّ الاغتيال في تونس يوم ١٤ يناير ١٩٩١ بواسطة عميلٍ لمنظمة أبي نضال يعمل حارساً في منزل أبي الهول. الذي نفّذ الاغتيال هو حمزة أبو زيد، وكان من عناصر القوة ١٧ الأمنية الفلسطينية وتحت أمرة أبي الهول، ثم انشق عن القوة وتمّ تجنيده سراً من قبل جماعة أبي نضال ودُفع به لانتظار فرصة زيارة أبي الهول إلى ليبيا ليقابله ويترجاه بقبول عودته نادماً مطيعاً.. وللغرابة أن أبا الهول تقبّل عودته من دون أيّ تفحصٍ لمدة غيابه؛ فعاد حارساً لبيت أبي الهول يحمل السلاح وينتظر حضور أبي إياد للزيارة ليقتله حسب تعليمات أبي نضال.. وهذا ما كان للأسف الشديد وحدث الخطأ القاتل لرجلٍ مسؤولٍ عن أمن فتح والقيادات ولكنّه وقع في فخٍّ تقليديٍّ بسيطٍ.

حكمت حركة فتح على حمزة أبو زيد بالإعدام بعد أن حقّقوا معه وقدّم كلّ المعلومات والتفاصيل عن كيفية تجنيده من أبي نضال، لكنّ الرئيس زين العابدين وتحت ضغطٍ أميركيٍّ رفض تنفيذ الحكم في تونس حيث وقعت الجريمة. تمّ الاتفاق مع اليمن على إعدامه هناك ولكن سراً.. غادر حمزة مع وفدٍ قياديٍّ ذاهبٍ لاجتماعٍ في اليمن وكأنّه أحد أعضاء الوفد، وهناك نُقل على زورقٍ إلى عرض المحيط وتمّ إعدامه وإلقاء جثته في المحيط، وذلك لتجنيب اليمن أيّ عواقبَ من واشنطن!!

-كما قلت- إن أحداث الأردن كانت سبباً ونتيجةً للتطرف، ففي سبتمبر ١٩٧٠ هندس الدكتور وديع حداد خطف مجموعة طائرات وهبوطها في

مطارٍ صحراويٍّ في الأردن كان سابقاً مطاراً للإنجليز. في عملية الخطف هذه التي تبنتها الجبهة الشعبية، تمَّ تدمير الطائرات على الأرض بعد نقل الركاب إلى عمّان. استشاط -بالطبع- النظام الأردني وتأكّدت له نيات الجبهة ومنظمة التحرير بالاستيلاء على الحكم، وكانت الجبهة تطالب بذلك علناً بينما حركة فتح ترفض. كان هذا تحدياً خطيراً أمام الملك حسين؛ فأعلن الأحكام العرفية في ١٦ أيلول/ سبتمبر، ومن ١٧ إلى ٢٧ أيلول نُشرت قواته في المناطق التي يسيطر عليها الفدائيون الفلسطينيون؛ فتولّد أيلول الأسود في الأردن.

د. وديع حداد الرجل الثاني في الجبهة الشعبية وصديق د. جورج حبش من أيام دراستهما مع آخرين في الجامعة الأميركية في بيروت، تبنّى أعمالاً متطرفةً باسم الجبهة. بدأت القصة حين انعقدت أواصر صداقة عددٍ من طلاب الجامعة الأميركية على تأسيس حركةٍ سياسيةٍ تتبنّى العنف وسيلةً لتحقيق غاياتها النبيلة. وكانت المجموعة التأسيسية مؤلفةً من جورج حبش ووديع حداد وصالح شبل (من فلسطين)، وهاني الهندي (من سورية)، وأحمد الخطيب (من الكويت)، وحامد الجبوري (من العراق) وحمد الفرحان (من الأردن) ولم يكد العام ١٩٦٥ يطل حتى كان هؤلاء وغيرهم قد أسسوا حركة القوميين العرب.

بعد تخرّجه في كلية الطب غادر وديع مع رفيقه جورج حبش إلى الأردن، وافتتحا معاً عيادةً واحدةً لمعالجة اللاجئين. وكان وديع قد اعتُقل في نيسان ١٩٥٧ بعد الانقلاب على حكومة سليمان النابلسي، وأمضى ثلاث سنواتٍ في سجن الجفر الصحراوي، ثم استطاع أن يهرب إلى سورية في سنة ١٩٦١.. المهم وبعد سنواتٍ وفي ربيع عام ١٩٦٨ خطّط وديع لعملية خطف رفيقه جورج من السجن في دمشق، وكان أثناء اعتقال

جورج قد خطّط ونفّذ خطف طائرة العال إلى الجزائر التي علم بها جورج في السجن وقال لاحقاً إنّه لم يكن يعلم بذلك ولم يتخذ قراراً بالخطف قبل اعتقاله في سورية.

يقول الحكيم عن عملية تخليصه: ما أذكره أنّني قبل تهريبي من السجن بفترةٍ، نسجتُ علاقاتٍ إنسانيةً بالسجّانين. ربّما لم يكن في ذهني في ذلك الوقت أيّ شيءٍ، إنّما لأنّ هؤلاء ناسٌ وبشرٌ، وأنا بطبيعتي لطيفٌ، وأتعامل مع الناس بشكلٍ إنسانيٍّ. وقد ترسّخت علاقتي بجندي من الطائفة العلوية كان دائماً يسألني: «بدك شيء؟»، أي هل تريد أيَّ شيءٍ؟ هل يمكنني أن أقدّم لك أيّ خدمةٍ؟ وكنتُ أجيبه دائمًا: لا، شكراً. فلمّا وثقت به أرسلت عن طريقه رسائل إلى فايز قدورة (أبو بسام)، ومنه إلى زوجتي. وأصبح الجندي يعرف بيت أبي بسام ويزوره، أيّ إنّه بات صلة الوصل به، وكانت في المرحلة الأولى صلةً إنسانيةً، ولم يكن في الذهن أيّ أمرٍ آخر. وهذا الجندي إنسانٌ هادئٌ جدًّا ورائعٌ. وفي أحد الأيام وصلتني رسالةٌ من عائلة أبي بسام وردت فيها عبارة تقول إنّ فلانةً وفلانةً من أقاربك ستزورانك، وما عليك غير مساعدتهما وتسهيل الأمر لهما. الرسالة التالية كانت أوضح، وفهمت، من الرسائل المباشرة التي كان يكتبها وديع، أو من الرسائل الشفهية التي كانت تأتي إليَّ من طريق هذا الجندي، أنَّ ثمة ترتيباً يقضي بأن تزورني فلانةٌ وفلانةٌ، وفي الطريق لدى عودتي إلى سجن الشيخ حسن سأُختطف. وسجن الشيخ حسن لم يكن يسمح بالزيارات المباشرة، بل يذهب طالب المقابلة إلى الدائرة السياسية في المخابرات التي تتولى إحضار السجين إلى الدائرة السياسية حيث تجري المقابلة، وبعد ذلك يُعاد السجين إلى السجن بواسطة الشرطة العسكرية. وربّما جرى تمرينٌ تجريبيٌّ على العملية قبل تنفيذها؛ ففي إحدى المرات استدعوني إلى الزيارة ثم رجعت إلى السجن، وعلمت

أنَّ في الزيارة المقبلة، وفي أثناء عودتي إلى السجن، ستتمّ العملية. ولمّا حصلت تلك الزيارة كنت أعرف ما سيجري بعد الزيارة، والمطلوب مني أن أترك العواطف والجانب الإنساني جانباً، وأن أتجاوب مع التعليمات. وكنت أتطلع إلى مدير السجن الذي كان خلوقاً معي، وإلى السّجانين الذين يرافقونني وأقول: «يا حرام، كيف بدها توقع العملية على راسهم؟». لو أنّنا نجد طريقةً نوفّق فيها بين رغبتي في الهرب وعدم إيذاء هؤلاء الناس. المهمّ أنَّ فلانةً وفلانةً زارتاني، وبدأ السلام: مرحباً، كيف الحال، كيفك يا خالي؟ وفهمت أنّ كلّ شيءٍ بات مرتباً. وقبل وصولي إلى بوابة السجن بمائة مترٍ أو مائتين، رأيت الرفاق يرتدون لباس الشرطة العسكرية السورية، ومعهم سيارات مجهّزة. وهناك فوجئت بأنّ أفراد الشرطة العسكرية هؤلاء هم: شحادة العجرمي (أبو طلعت) وجبريل نوفل (أبو رأفت) ورفاقهما الذين طلبوا من السيارة التي كانت تقلني الوقوف جانباً وهي في طريقها إلى سجن الشيخ حسن. واضطرت السيارة إلى الوقوف. وهنا شهروا المسدسات على السائق أولاً، ثم على الحارس الجالس في الأمام، وعلى الحارس الجالس إلى جانبي وقالوا لي: «يلّا نط»، أي اقفز. طبعاً أنا قفزت، وكان ثمّة سيارةٌ جاهزةٌ انطلقت بي بسرعةٍ، حتى أنّنا صرنا خارج الحدود السورية في أقلّ من ساعةٍ، وذهبت فوراً إلى بيت وديع.. يضيف الحكيم: كانت العملية ضربة معلمٍ، وشكّلت إحراجاً كبيراً للمخابرات السورية، وأصرّ وديع حينذاك عليَّ كي أترك بيروت بأسرع وقتٍ؛ فسافرت إلى القاهرة والتقيت الرئيس جمال عبد الناصر، ثم غادرت القاهرة إلى العراق، ومن العراق ذهبت برّاً إلى الأردن.

هنا إضافةٌ أخرى عن د. وديع أحد القادة المؤسسين للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وقائد عمليات «المجال الخارجي» فيها، الذي دوّخ العالم

بالعمليات الخاصّة مثل عملية مطار اللد في سنة ١٩٧٢، وعملية اقتحام مؤتمر منظمة أوبيك في فيينا سنة ١٩٧٥ وتلك العمليات هي التي قلبت عالم الطيران المدني رأساً على عقب. ففي ٨ أيلول ١٩٧٠، بينما كان وديع حداد موجوداً في مطار الثورة الصحراوي في الأردن، منهمكاً في مقارعة العالم لإطلاق أسرى فلسطينيين بعدما اختطف رجاله أربع طائرات في يومٍ واحدٍ، قام أحد الفلسطينيين في البحرين، من تلقاء نفسه، باختطاف طائرةٍ تابعةٍ للخطوط الجوية البريطانية، وأمرها بالتوجه إلى بيروت للتزود بالوقود، ثم التوجه إلى مطار الثورة الصحراوي. ولما كان وديع حداد لا يعلم أيّ شيءٍ من أمر هذه الطائرة؛ فقد ارتاب، وخشي من أن يكون خلف ذلك مكيدةٌ؛ فطلب برهاناً من الخاطف عن جنسيته وغايته، فما كان من الخاطف إلا أن قال له عبر برج المطار: «كوسى محشي وورق عنب». فانفجر وديع حداد ضاحكاً وقال: «إنّه من جماعتنا؛ فليهبط». وقد تمت الاستفادة من هذه الطائرة في المفاوضات لإطلاق سراح ليلى خالد التي فشلت في اختطاف طائرة العال وتمّ اعتقالها في لندن.. لاحظوا معي -من فضلكم- أنّ كلّ العمليات الفلسطينية تهدف إلى تحرير أسرى من السجون الإسرائيلية، ولم تطالب أيّ عمليةٍ بإعادة جزءٍ من اللاجئين، أو استعادة حدود قرار التقسيم أو تنفيذ أيّ قرارٍ أمميٍّ، أو غيره من المطالب.

أريد لفت انتباهكم إلى شيءٍ آخر يميّزنا في زمن السبعينيات عن واقعنا الاجتماعي الآن بعد نصف قرنٍ.. آنذاك كنّا متآلفين متعاونين، الفلسطيني يثق في الآخر، أو على الأقل يحسن النية في الآخر. اكتفى وديع بشبه التحقق أنّ الخاطف من جماعة محشي الكوسا وورق العنب ليسمح له بالمشاركة العفوية في العملية، ومثل وديع كنّا في الخارج نفتح بيوتنا لبعضنا البعض ونحفظ أسرار بعضنا بعضاً، ولا نبخل في تقديم النصح أو الدعم.. كنّا

نصوم وقلة من تصلي ولكن بأيديولوجية علمانية.. أمّا الآن وبفضل التربية الإسلاموية غير الوطنية الفلسطينية فأنتم ترون الحال في غزة بعد ١٧ عاماً من حكمها الحمساوي والتربية الاجتماعية التي طوّرتها الحركة؛ فأنتجت الأنانية والانتهازية والاستغلال واللصوصية، وشباباً أشداء بدون حصر لا يشاركون في مقاومة أو نجدة شعبية، والغالبية العظمى يرغبون في ترك الأرض لحماس والهروب والهجرة.. كما نشاهد انتشاراً فظيعاً في سرقة الإعانات وغير ذلك من اللامسؤولية بين أفراد وأنصار وقادة حماس وكنتيجةٍ لتربيتهم لجماعتهم كعصابة جبايةٍ تعادي كلّ من لا يتبعهم.

توفي د. وديع في ٢٨ مارس ١٩٧٨ في ألمانيا الشرقية، ولم يُعرف إذا كان سبب الوفاة نتيجةً لإصابته بسرطان الدم، أو كما ادّعت إسرائيل بعد ٢٨ عاماً وعن طريق أحد ضباط مخابراتها الذي كتب جزءاً من حياته الاستخبارية بأنّها اغتالته بدسّ السم له في الشوكولاتة عن طريق عميلٍ عراقيٍّ كان يشغل منصباً رفيع المستوى، وأن إسرائيل قرّرت تصفية حداد بداعي تدبيره اختطاف طائرة «إير فرانس»، كانت في طريقها من باريس إلى تل أبيب، وحوّلها إلى عنتيبي بأوغندا عام ١٩٧٦، (قُتل فيها الأخ الأكبر لنتنياهو الذي قاد فريق تحرير الطائرة) وأنّه كان مسؤولاً عن سلسلةٍ من العمليات الخطيرة، وأشار المؤلف إلى أنّ عملية التصفية الجسدية هذه «كانت أوّل عمليةٍ تصفيةٍ بيولوجيةٍ» نفذتها إسرائيل (الاغتيال البيولوجي الثاني كان ضد ياسر عرفات). وتابع المؤلف أنّ إسرائيل اتهمت حداد «الإرهابي المتمرس ومتعدّد المواهب» بأنّه كان أوّل من خطف طائرةً تابعةً لشركة الطيران الإسرائيلية «العال» عام ١٩٦٨، وأفرج عن الرهائن والطائرة فقط بعد خضوع الحكومة الإسرائيلية لشرطه بالإفراج عن أسرى فلسطينيين. كما اتهمه الموساد بالمسؤولية عن إنشاء علاقاتٍ بين التنظيمات

الفلسطينية ومنظماتٍ إرهابيةٍ عالميةٍ ودعا أفرادها للتدرّب في لبنان، وكانت إحدى نتائجها قيام «الجيش الأحمر الياباني» بمذبحةٍ في مطار بن جوريون (تل أبيب) عام ١٩٧٢.

كانت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تمارس العمل الخارجي -وتحديداً- خطف الطائرات أو ضرب محطات الركاب للطائرات الإسرائيلية أو المتجهة إلى مطار بن جوريون، أمّا حركة فتح فقد أنشأت منظماتٍ سرية بعد أيلول الأسود لتمارس العنف ضد الأعداء والخصوم من غير أن تتحمل المنظمة المسؤولية.. لكنّ حركات انشقاقٍ حدثت في فتح، بعضها سار على الطريق التقليدي وبعضها اتجه للعنف العشوائي مثل منظمة أبي نضال.

أنشأ أبو نضال شركة «إيمبكس» في الأردن كواجهةٍ لأنشطة حركة فتح، حيث كانت مكاناً لاجتماع الأعضاء، وقناةً لتمويل الحركة ودفع مبالغ لأعضائها، كما أصبحت العلامة المميزة في حياة أبي نضال المهنية. وجعلت الشركات التي كانت تديرها منظمة أبي نضال منه رجلاً ثرياً وذلك من خلال الانخراط في صفقاتٍ تجاريةٍ مشروعةٍ، في حين كانت تعمل كغطاءٍ أو كساترٍ لعنفه السياسي وصفقات الأسلحة التي تجاوزت ملايين الدولارات، وأنشطة المرتزقة، والحماية الجمركية. وعندما تولّى ياسر عرفات رئاسة منظمة التحرير الفلسطينية في بداية ١٩٦٩، عيّنه ممثلاً لحركة فتح في الخرطوم، ثم في بغداد للمنصب نفسه في يوليو ١٩٧٠ وكان ذلك قبل شهرين فقط من بداية الحرب وأيلول الأسود.

بعد أيلول الأسود اتجه أبو نضال للنقد ثم الانشقاق عن حركة فتح مستغلاً موقعه في بغداد حيث استغل مقدرات الحركة في العراق برضاءٍ من النظام الذي سخّر المنشق لأعمالٍ تخدم أهدافه؛ فاعتبرت منظمة فتح

أبا نضال من المرتزقة، وبعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، وأثناء المناقشات حول عقد مؤتمر السلام في جنيف، خطفت منظمة أبي نضال طائرة KLM، مستخدمةً اسم منظمة الشباب القومي العربي لإرسال إشارةٍ إلى حركة فتح بعدم إرسال ممثلين إلى أيّ مؤتمرٍ للسلام. ورداً على ذلك، قام عرفات بفصل أبي نضال من حركة فتح في مارس ١٩٧٤، وأصبح الخلاف بين الحركتين، وبين الشخصيتين، خلافاً تاماً.

كانت العملية الأولى لأبي نضال في الخامس من سبتمبر ١٩٧٣، عندما هجم خمسة مسلحين على السفارة السعودية في باريس، باسم آل عقاب، وأخذوا ١١ رهينةً، وهدّدوا بنسف المبنى إذا لم يُفرج عن أبي داود من سجنه في الأردن، حيث قُبض عليه في فبراير ١٩٧٣، في محاولةٍ لقتل الملك حسين. وبعد مفاوضاتٍ مطوّلةٍ، غادر المسلحون وبعض الرهائن على متن طائرة الخطوط الجوية السورية إلى الكويت، ومن هناك هربوا إلى الرياض، وهدّدوا بإلقاء بعض الرهائن من الطائرة. واستمرت المفاوضات ثلاثة أيامٍ، -وفي نهاية الأمر- نجحت السعودية في إقناع المسلحين بأنّها ليست لديها أيّة سيطرةٍ على السلطات الأردنية. واستسلم المسلحون وأطلقوا سراح الرهائن في ٨ سبتمبر. وتمّ الإفراج عن أبي داود بعد مرور أسبوعين. حول ذلك كتب باترك سيل، الذي سجّل سيرة أبي نضال، أنّ الحكومة الكويتية قد وافقت على دفع ١٢ مليون دولار للملك حسين للإفراج عن أبي داود. واستناداً إلى ما أورده سيل، فإنّ الهجوم على السفارة كان قد تمّ بتكليفٍ من الرئيس العراقي أحمد حسن البكر.. وعندما سافر محمود عباس لبغداد لتأنيب أبي نضال على العملية قال له مسؤولون: لماذا تعاتبونه، نحن الذين طلبنا منه التنفيذ!

بعد ستة أشهرٍ، حكمت حركة فتح بإعدام أبي نضال غيابياً بسبب تهمة

محاولته اغتيال محمود عباس. ومن غير المرجح أنّ أبا نضال كان ينوي اغتيال عباس، كما أنّ محاولة فتح قتل أبي نضال، أمرٌ غير مهضومٍ؛ فقد دعُي أبو نضال إلى بيروت للبحث في عقوبة الإعدام ضده، وقد حضر بالفعل، رافضاً أن يخضع لهذا الحكم، وسُمح له بالمغادرة، ولكنّ الهدف من هذا الحكم كان الإشارة إلى أن أبا نضال شخصٌ غير مرغوبٍ فيه، وكان الهدف من ذلك أيضاً دفعه إلى أحضان الحكومة العراقية.

أصبح أبو نضال «سيد فلسطين» في العراق؛ فأصبح تحت يديه معسكر تدريبٍ، مزرعةٌ، صحيفةٌ، محطة راديو، جوازات سفر، منحٌ للدراسة في الخارج، وأسلحةٌ صينيةٌ بقيمة ٥ ملايين دولار أمريكي كانت حركة فتح قد طلبتها من الرئيس تشو أن لاي بعد معارك جرش وعجلون، وتمّ تخزينها في ميناء البصرة لمصلحة فتح، واستولى عليها أبو نضال وأصبح أيضاً المسؤول عن تلقي المعونات العراقية التي تُصرف بشكلٍ منتظمٍ لمنظمة التحرير الفلسطينية؛ وكانت قيمتها ٥٠,٠٠٠ دينارٍ عراقي في الشهر، حوالي ١٥٠,٠٠٠ دولار أمريكي في ذلك الحين، وأيضاً كان مسؤولاً عن تلقي مبلغ دعمٍ مقطوعٍ من إجمالي ٥,٣ ملايين دولار.

اعتبرت وزارة الخارجية الأميركية أبا نضال مسؤولاً عن هجماتٍ وقعت فيما لا يقلّ عن عشرين دولةً مختلفةً، مما أسفر عن مقتل وإصابة ما لا يقلّ عن ٩٠٠ شخصٍ. وتُعد التفجيرات المتزامنة بمطار روما وفيينا في السابع والعشرين من ديسمبر عام ١٩٨٥، من أشهر عمليات منظمة أبي نضال، وفيها أطلق مسلحون النار على ركاب شركة العال في الموقعين كليهما، ممّا أدّى إلى مقتل ثمانية عشر شخصاً وإصابة مئة وعشرين آخرين. كانت منظمةً حديديةً لا تتوانى عن إعدام أعضائها في ظل أدنى شك، وتتحكم في مصائرهم الشخصية، ولا تسمح بالانسحاب والعصيان للأوامر. في النهاية توفي صبري

البنا إثر إصابته بعددٍ من الطلقات النارية راوحت بين واحدة إلى أربع وذلك في بغداد في أغسطس ٢٠٠٢. وافترضت مصادر فلسطينية أنه قُتل بناءً على أوامر صدام حسين، ولكنّ الحكومة العراقية أصرّت على أنّه انتحر.

في سياق هذا الكتاب سوف أشير إلى ما أتذكّر من علاقةٍ لي مع القيادات الفلسطينية الرسمية والشعبية، وشكل ومحتوى تلك العلاقات، لكن بمناسبة ذكر أبي نضال وعدم العودة إلى شأنه لاحقاً سأشير إلى حوادثَ صغيرةٍ قد تضيء القليل على شخصية الرجل. منذ مطلع الثمانينيات عملت إعلاميّاً في لندن، وكنت أكتب تعليقاً سياسيّاً يوميّاً في صحيفة «العرب» اللندنية، وأشرف على صفحةٍ عسكريةٍ أسبوعيةٍ كانت فريدة على المستوى العربي. ذات يوم، دخل إلى مكتبي رئيس التحرير الحاج أحمد الهوني، وكان –على غير العادة– مبتسماً، وأعطاني رسالةً باشرت في مطالعتها باستغرابٍ تامٍّ.. كانت رسالةً بخطٍ يدويٍّ من أبي نضال للحاج الهوني يأمره بفتح المجال لكتاباتي بحريةٍ تامةٍ، ولم يكن الحاج يقيّد مجالي أصلاً، وأتذكّر جملةً من الرسالة جاء فيها إن من يرشقني بالماء سيُرشق بالدم.. عاتبني الحاج أنّني لم أخبره مسبقاً عن علاقتي؛ فأقسمت له صادقاً أنّني متفاجئ مثله.. هو لم يصدقني وأنا لم أكرر التأكيد. بعد أيامٍ اتصل بي هاتفياً من يريد أن يشرب الشاي عندي؛ فرحّبت به واستقبلته. كان يحمل رسائل شفويةً بالمعنى نفسه، وأن الرفيق يتابع كلّ ما أكتب.. وغير ذلك من التمهيد، وحسمت الأمر له بعدم اهتمامي التنظيمي السياسي مع أيّ طرفٍ، وأنّني محافظٌ على خطي وتوجهي النقدي العلني حسب التطورات والأفعال.. كان الزمان على إثر الغزو الإسرائيلي للبنان واجتياح بيروت وخروج القوات الفلسطينية ومجازر صبرا وشاتيلا، ولم يكن عندي آنذاك أي تردّدٍ في نقد رؤية وتصرفات القيادة، عبر المقالات الصحافية اليومية وفي الأوساط الفلسطينية والاجتماعات النقابية.

استغرقت دراستي منذ دراسة الثانوية العامة بالألماني وحتى الانتهاء من الدراسات العليا في العلوم السياسية والاجتماعية والإسلامية، استغرقت عقد السبعينيات كاملاً، وهو العقد الذي شهد غالبية وأهم العمليات الفلسطينية الخارجية، عقد خطف الطائرات وتغيير طبيعة السفر الجوي وإجراءات الأمن المستحدثة المتتالية. كلّ عمليةٍ كانت تؤثر سلباً في الفلسطينيين المقيمين في الغرب الأوروبي، وأصبحنا أشد تحرزاً وتأهباً واستعداداً لكلّ طارئٍ، بل اندفع البعض إلى المشاركة عبر عمليات انفراديةٍ تماماً ولكنّها تواكب التيار العام.. أتذكر أن بعض الألمان كانوا عندما يعرفون أنّني فلسطيني يسألونني إذا كنت أحمل قنابل في جيبي!

ما كان يميز ذلك الزمان عن وضعنا الفلسطيني الآن ٢٠٢٤، هو توافر حرية القول والفعل، بينما الآن تمنع كلٌّ من حماس والسلطة كلَّ قولٍ وفعلٍ في الأوساط الفلسطينية الداخلية، ونظراً للاقتتال القائم بين الفصائل فلم تعد هناك روحٌ للعمل في الخارج، اللهم المشاركة في تظاهرات هي الأخرى ترفع شعارات الفرقاء.. لم يعد هناك تبنٍ وتبرعٌ من الفلسطيني في الخارج للمتصارعين على كرسي يخدم المحتل. كانت الثورة تشمل كلّ التوجهات وأصبحت الآن تمثل تياراً دينياً غير متزنٍ وتخدم أفعالُه الاحتلالَ، وتياراً آخر متعاملاً علناً مع الاحتلال.. هل يعقل بأيّ شكلٍ أن تكون غزة تحت الإبادة طوال أكثر من عامٍ بينما التيار الديني والآخر الانبطاحي يرفضان تشكيل قيادةٍ موحدةٍ مؤقتةٍ تتحدث وتفاوض وتناضل للفلسطينيين؟ التيار الديني المنهزم عسكرياً يريد التضحية بآخر غزي والزجّ بالضفة في معركةٍ خاسرةٍ حتى لا يفقد أمل البقاء في القيادة والسلطة، بينما السلطة التي تمثل فتح ومنظمة التحرير تنتظر أن تنهي إسرائيل الحرب بالقضاء على التيار الديني ليتفردوا في قيادة الموتى والجياع ويعيدون الإعمار وينهبون الأموال.. أمّا إسرائيل فهدفها

إقامة دولتها الكبرى بأقلّ عددٍ من الفلسطينيين على الأرض أو في الجوار.

حين تكون الثورة منفتحةً وعلمانيةً ينضم إليها ويؤيدها الكثير عبر العالم، أمّا الآن فقد فترت تظاهرات العواصم العالمية بعد أن اتضح من هم المناصرون العرب والفلسطينيون حاملو الشعارات الدينية والذين هتفوا أن: كل العالم صار حماس، فانفض العالم عنهم إذ ليس من المنطقي أن يؤيد عقلاء في الغرب دعواتٍ وشعاراتٍ وحركاتٍ دينيةً متشنجةً لا تعترف بالوقائع ولا تهتم بحياة شعبها، وأيّ بقية تعاطف شعبي خارجي إنّما هي من منطلقاتٍ إنسانيةٍ ضد الإبادة القائمة عبر القتل والتجويع، وكلّ الحلول المطروحة تؤيد إخراج حماس وأخواتها من الصورة.

لحى وخيام وخراب

في مطلع نوفمبر ٢٠٢٤، أي بعد قرنٍ وسبعة أعوامٍ على وعد بلفور، وبعد ٧٦ عاماً على النكبة الأولى، وبعد ١٣ شهراً على النكبة الثانية القائمة منذ غزوة أكتوبر ٢٠٢٣، والتي لا يبدو أنّ لها نهايةً واضحةً؛ فالقتل قائمٌ وكذلك التدمير والتجويع والحصار التام في انتظار لحظةٍ مناسبةٍ للطرد والتهجير من بقية الوطن.. في هذا الوقت وصلني خبرٌ أنّ مخيم بربرة القائم في الشابورة في رفح قد أُزيل نهائياً.. هناك ولدت ووعيت وعشت مرحلة الصبا قبل نكسة ١٩٦٧، وهنا عاش إخوتي وبقية العائلة حتى قبل خمسة أشهرٍ حين تم ترحيل كلّ سكان رفح إلى منطقة المواصي، وما زالوا في خيامٍ بلاستيكيةٍ ودون رعايةٍ أو طرقٍ للمساعدة.. أقول هنا عاشوا بصيغة الماضي رغم وجودهم على شواطئ رفح وخان يونس، لأنّهم لن يعودوا إلى بيوتهم التي أزيلت عن وجه الأرض، وحاجاتهم التي تبعثرت مع أيّ آمالٍ، وتحول مخيم بربرة، مثل غيره في قطاع غزة، إلى مجرد ذكرى قائمةٍ في الذهن، وإن كان يصعب التصديق والامتثال للواقع.

قبل ثلاثة أرباع القرن، وبفعل ظروفٍ مشابهةٍ وإرهابٍ شديدٍ وفارقٍ في موازين القوى بين الفلسطينيين والعصابات الصهيونية، وانغماسٍ عربيٍّ رسميٍّ في التعامل مع الإنجليز واليهود، تمّ تهجير غالبية الشعب الفلسطيني من بلاده، ووصل والدي مختار قرية بربرة مع أهالي القرية إلى رفح. بحكم

الفوضى التي تسود في أوقات الحروب قرّر المختار تجميع سكان بربرة من كلّ العائلات في موقعٍ واحدٍ ومنع دخول وإقامة أيّ طرفٍ بينهم من خارج سكان القرية، وسيّر دورياتٍ من شبان القرية ليلاً بغرض الحراسة وطمأنة الناس. هكذا بقيت القرية اللاجئة محتفظةً بأطرها الاجتماعية بعد أن فقدت مصدر رزقها وأراضيها في فلسطين. وعلى الرغم من وجود سلطاتٍ مصريةٍ ملكيةٍ ثم جمهوريةٍ ناصريةٍ، إلا أنّ معظم قضايا السكان كانت تُحلّ وتُحسم في المجلس الليلي في منزل المختار (المقعد)، وكانت وثائق الزواج والطلاق والوفاة وغير ذلك توثّق بخاتم المختار المصنوع من أيام الانتداب البريطاني. ثلاثة أجيالٍ توالت في المكان نفسه حتى جاء العدو نفسه ليشتت هذا الشمل بشكلٍ يستحيل إعادة تجميعه.. فأيّ كارثةٍ هذه التي جلبها الطوفان؟

أراد الطوفان تحرير أسرى؛ فحوّل قطاع غزة إلى دمارٍ وسجنٍ كبيرٍ مُحاصرٍ مُجوعٍ مُطاردٍ، وبدل الاقتراب حتى نفسياً من بربرة وفلسطين صرنا ضائعين، وفقدنا الأمل في العودة إلى ما قبل الطوفان، وبعد أن كنّا نفاوض على حقوقنا السياسية صرنا نفاوض على إدخال الطحين والماء والخيام! وأصبح شعبنا يمتهن الدعاء بأشكاله وأنواعه وانتظار الاستجابة، وكان شعبنا أبياً، يكفي أنه صنع الانتفاضة الأولى بأيدي الأطفال والنساء والشيوخ في تناغمٍ وتفانٍ وتصدى للرصاص والدبابات؛ فأصبح الآن يمتهن الدعاء وينتظر العطف وهو ساكنٌ خانعٌ مطيعٌ لتعليمات العدوّ في التنقل من مكانٍ إلى آخر.. وتقول لك حماس والجزيرة انتصرنا وصامدون؛ فلا سامحكم الله.

طبعاً لا أريد اجترار الأخبار والتوقعات والآراء، سواءٌ المدافعة أو الناقدة لكيفية وصولنا إلى هذا الحال، لكنّني سأنظر إلى الأمور من زاويةٍ جديدةٍ جريئةٍ حتى وإن فتحت على نفسي نيران الجهل الذي قادنا أصلاً إلى هاهنا. قبيل نكبة ١٩٤٨ كان العنف البريطاني ومن ثم الصهيوني موجهاً

ضدّ كلّ مناطق فلسطين، ولم يكن اليهود عموماً يريدون بقاء فلسطينيين في المنطقة المخصّصة لكيانهم حسب مشروع التقسيم، ولا حتى في المنطقة الإضافية التي احتلوها، لكن ١٥٠ ألف فلسطيني من الوسط والشمال صمدوا في البلاد بينما حوالي ٨٠٠ ألف استجابوا للضغط والخوف ورحلوا حفاظاً على حياتهم وعرضهم ودينهم، كما قيل طوال سنواتٍ لاحقةٍ، على الرغم من عدم اعتراض اليهود على الدين ولا اعتداء مبالغٍ فيه على العرض، ولم يبيدوا الذين بقوا في البلاد، ولكنّهم ضايقوهم سنواتٍ طويلة.. في النهاية تجنس هؤلاء كإسرائيليين مع حقوقٍ ناقصة عن المواطن اليهودي، وأصبحوا الآن يمثلون ٢١ في المائة من مجموع سكان إسرائيل ولهم حق التصويت والترشح للبرلمان والمشاركة في الحكومة.. السؤال: من هو صاحب الوضع الأفضل الآن بين الفلسطينيين، الذين أصبحوا إسرائيليين في بلادهم، أو الذين أصبحوا لاجئين في قطاع غزة والضفة والمحيط العربي؟

السؤال الآخر بهذا الصدد: هل ستشكّل النكبة الحالية (منذ ٢٠٢٣) بدايةً إيجابيةً للفلسطينيين في القطاع والضفة ومخيمات الشتات؟ العقلية التي قادت إلى هذا المصير سوف تواصل الانحدار بنا جيلاً بعد الآخر، وإذا لم تتغير العقلية فلن تتغير النتيجة التراكمية حتى الزوال. نقول الدول العربية خذلتنا! لكنّ هذه الدول وشعوبها تعيش مرحلة تغييرٍ في الفكر الديني السياسي توجب فيه محاربة التطرف الديني السياسي والاجتماعي والتعليمي.. هذا ما حدث ومستمرٌ في الدول العربية من المغرب حتى البحرين، ولذلك لم نشاهد تعاطفاً حقيقياً لا شعبياً ولا حكومياً عربياً مع المقاومة الإسلامية في غزة لأنّ الجميع لا يريدون لها أن تنتصر أو تصمد أو تستمر في نشر رؤيتها.. كلّهم متفقون على زوال حماس وفكرها وإعدام فرصة عودتها مجتمعياً وسياسياً، بينما حماس وأخواتها لا تقرّ بالهزيمة وتكابر وتغامر بآخر مواطنٍ

غزي وبدفع القضية إلى الإبادة.. ربّما هم يعتقدون فعلاً أنّهم مكلّفون من السماء بالمواصلة ونحر الجميع وإرسالهم إلى الجنة، وبالتالي، يريدون قيادة المجتمع ولا يقرّون بهزيمةٍ أو يتطلعون إلى تغييرٍ، بل هم وأنصارهم من بقايا ومضلي جماعة الإخوان المسلمين، يعتبرون التغيير الذي حدث في الدول العربية -وخصوصاً- في السعودية، يعتبرونه كفراً وإلحاداً.. يريدون البقاء وإكراه غيرهم على البقاء معهم في قرون الخلافة والإمارة وعلى طريقة أفغانستان، أو في أحسن الظروف على نهج ولاية الفقيه في إيران.

كان الفلسطينيون أيضاً قبل النكبة الأولى يؤيدون تيار الحاج أمين الحسيني الذي تحالف مع النازي وتسبب بفكره وممارسته في النكبه الأولى، والآن يعتقد الكثير في قطاع غزة والضفة، وأكثر منهم من الفلسطينيين في الخارج، يعتقدون أن نهج حماس الديني هو الصواب، سواءٌ من الناحية الاجتماعية أو السياسية، وذلك لأنهم يئسوا من نهج السلطة في رام الله الذي هو على النقيض السلبي الآخر ويتمسّك مثل حماس بالكرسي والقيادة.. لا يرون سوى الموازنة بين الشرين، ولا طريق ثالث ديمقراطي سلمي يتماشى مع بقية العرب والمسلمين وينشد التطور العلمي والاجتماعي كطريقٍ للخلاص المستقبلي! لو لم تحدث كل هذه الخربطات الفكرية والتي وصلت لعرب الداخل أيضاً وأثّرت في أدائهم، لكان بوسع الفلسطينيين الإسرائيليين التأثير في سير تطوّر إسرائيل، لكنّ تغذية العداء الشامل يقلّل فرصهم ويحرّض كلّ الأطراف على التطرف الديني والاجتماعي.

لقد كنت في جنيف في ١٣ ديسمبر ١٩٨٨ (سأعود لذلك بتفصيلٍ في مكانٍ آخر)، حين ألقى ياسر عرفات خطاباً أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، التي نقلت جلستها من نيويورك إلى جنيف ليتمكّن عرفات من الخطاب بعد أن منعت واشنطن وصوله إلى مقر الأمم المتحدة في نيويورك.

طالب عرفات بانسحاب إسرائيل من جميع الأراضي الفلسطينية التي احتلتها في سنة ١٩٦٧، ووضع هذه الأراضي تحت إشراف الأمم المتحدة لفترةٍ محدودةٍ، وعقد مؤتمرٍ دوليٍّ للسلام. كانت النتيجة للخطاب والإجراءات فتح خط حوارٍ مع واشنطن، وعقد مؤتمر مدريد للسلام عام ١٩٩١ من ٣٠ أكتوبر إلى ١ نوفمبر، ومثّلنا فيه وفدٌ من الداخل بقيادة د. حيدر عبد الشافي، وإشراف فيصل الحسيني. استضافت إسبانيا المؤتمر وشاركت في رعايته الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي.. بعد سنواتٍ قليلةٍ ومفاوضاتٍ كثيرةٍ علنيةٍ وسريةٍ (سأعود إليها هي الأخرى) ولِدت اتفاقية أوسلو، التي تمَّ توقيعها في أيلول١٩٩٣، شهر الكوارث، وهي أوَّل اتفاقيةٍ رسميةٍ مباشرةٍ بين إسرائيل ممثلةً بوزير خارجيتها آنذاك شمعون بيريز، ومنظمة التحرير الفلسطينية، ممثلة بأمين سر اللجنة التنفيذية ياسر عرفات. وشكّل إعلان المبادئ والرسائل المتبادلة نقطةً فارقةً وبدايةً جديدةً، أو هكذا كان الهدف، في شكل العلاقة بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل، التزم بموجبها الأطراف بالآتي (بالترتيب):

التزمت منظمة التحرير الفلسطينية على لسان رئيسها ياسر عرفات بحقّ دولة إسرائيل في العيش في سلامٍ وأمنٍ والوصول إلى حلٍّ لكلّ القضايا الأساسية المتعلقة بالأوضاع الدائمة (عودة اللاجئين والتعويض والمياه) من خلال المفاوضات، وأن إعلان المبادئ هذا يبدأ حقبةً خاليةً من العنف، وطبقاً لذلك فإنّ منظمة التحرير تدين استخدام الإرهاب وأعمال العنف الأخرى، وستقوم بتعديل بنود الميثاق الوطني للتماشي مع هذا التغيير، كما وسوف تأخذ على عاتقها إلزام كلّ عناصر أفراد منظمة التحرير بها ومنع انتهاك هذه الحالة وضبط المنتهكين.

في المقابل قرّرت حكومة إسرائيل على لسان رئيس وزرائها اسحق

رابين أنّه في ضوء التزامات منظمة التحرير الفلسطينية، الاعتراف بالمنظمة باعتبارها الممثل للشعب الفلسطيني، وبدء المفاوضات معها.

قد يبدو للفلسطيني أن اعتراف إسرائيل بالمنظمة وبأنّها تمثل الشعب الفلسطيني، اعتراف لا يقدّم أيَّ فائدةٍ، ولكنّه في الواقع اعترافٌ ينسف كل السردية الصهيونية التي قامت عليها إسرائيل، وهي أنّ الشعب اليهودي دون أرضٍ أخذ أرضاً دون شعبٍ، وينسف مقولتهم الدينية أيضاً كونهم يعترفون بأرضٍ وشعبٍ فلسطيني ومنظمةٍ سياسيةٍ عسكريةٍ تمثله.. أي يقرّون بأنّهم حركةٌ استعماريةٌ استيطانيةٌ غربيةُ المنبع والدعم وأنّ دولتهم قائمةٌ بالقوة وعلى حساب أصحاب الأرض.. وهذا تراجعٌ مهمٌّ جداً لكلّ صهيوني.

كانت الرؤية الفلسطينية أنه قد حان الوقت بعد عقودٍ من النضال المسلّح لتجربة طريق السلام، والاهتمام بالتنمية الذاتية وبناء أجيالٍ جديدةٍ تواصل السعي الهادئ الدؤوب.. أي استدراك لخطأ رفض مشروع الدولتين في قرار التقسيم ١٩٤٧، ومحاولة النجاح سلمياً فيما عجزنا عنه عسكرياً. هنا قفزت حركة المقاومة الاسلامية التي تكوّنت مع الانتفاضة الأولى وصارت تمارس العمل المسلّح العنيف وتنسف أهدافاً مدنيةً في مدنٍ إسرائيليةٍ بهدف إفشال اتفاقية أوسلو وفكرة الحل السلمي، وردكلة المجتمعين الفلسطيني والإسرائيلي؛ فقتل الإسرائيليون رابين، وفشل عرفات في تهدئة حماس ولم تطاوعه نفسه ردعهم بالقوة حسب اتفاقيات أوسلو.. أي فشل الطرف الفلسطيني في تطبيق التزامه وتوالت الأحداث حتى وصلنا إلى أكتوبر ٢٠٢٣.

كانت حركة حماس في بداياتها قبيل الانتفاضة تعتمد مبدأ التكفير والهجرة، أي تكفير المجتمع، ومحاولة إعادته للإسلام بمفهومهم، واعتبرت آنذاك أنّ مقاومة الاحتلال مؤجلةٌ إلى ما بعد أسلمة المجتمع!! لكن مع الانتفاضة الأولى انخرطت في العمل الشعبي، وبعد اتفاقيات أوسلو قرّرت

العمل الانتحاري التفجيري داخل مدن إسرائيل، وأثناء تحضير غزوة أكتوبر التي لقّبوها طوفان الأقصى لم يخطّطوا أو يتحركوا بتجهيز احتياطاتٍ لتفجيراتٍ في إسرائيل لردعها إذا ما حاولت الانتقام.. وطوال حرب النكبة والمقتلة لأكثر من عامٍ (ولاحقاً) لم تمارس الحركة أيّ عملياتٍ انتحاريةٍ انتقاميةٍ أو رادعةٍ، لا في إسرائيل ولا في الخارج كما فعلت حين أفشلت اتفاقيات أوسلو! ولم تجهز الحركة أيضاً الجبهة الداخلية للحرب.. قاموا بالغزوة وعادوا بأسرى وطالبوا بالتبادل بين أسرانا وأسراهم، ومنحوا إسرائيل، التي أصبحت أكثر يمينيةً وتطرفاً، الذرائع التي كانت تتمناها، وربّما عملت على خلقها عمداً. (للعلم إنه في كلّ عمليات تبادل الأسرى كانت إسرائيل تعود لاعتقال المحرّرين!)

في النكبة الأولى رحل الناس تحت الضغط الحربي وفارق القوة -وخصوصاً- بفعل الحرب النفسية، والآن بعد عقدين من حكم حماس وتربيتها الاجتماعية ووعظها، يرحل الناس استجابةً لمنشورٍ تلقيه طائرةٌ مسيرة، وتسير الجموع بإرشاد مسيرةٍ يقودها إسرائيليٌّ من مكتبه.. لا يغرنك كلام محطة الجزيرة عن المقاومة والبطولات؛ ففي النهاية تُحسم النتائج بحجم الدمار وعدد القتلى في كلّ فريقٍ. للأسف إن الملايين من شعبنا فقدوا فرص السلام والاستقلال الحقيقي، وأصبحوا في مهب الريح، والقادم أعظم، وحتى حين تتوقف الحرب، وإذا استمرت العقلية تنهش نفسها الرؤوس؛ فسيكون التالي هو بداية النهاية وليس نهاية الحروب والمآسي.. لا يمكننا الاستمرار في حياة المقامر الخاسر الذي كلّما استجمع بعض النقود يعود للمقامرة لإنقاذ ما خسره؛ فيخسر المزيد.

لست هنا في وارد تحديد المخطئ والمصيب في مرحلة ما بعد اتفاقيات أوسلو؛ فقد حدثت أوّل انتخاباتٍ ورفضت حماس المشاركة فيها، وحين

جاءت انتخابات ٢٠٠٦ ربحت حماس بعد أن خرّبت آفاق أوسلو؛ فتجاوب الجمهور مع رؤيتها العسكرية للتحرير والتطلعات لإقامة دولةٍ فلسطينيةٍ من النهر إلى البحر، وهو الشعار الذي ترفعه حماس للآن، بمعنى أخذ فوائد اتفاقيات أوسلو بتنشيط واستغلال الديمقراطية، ومن ثم نسف مبدأ السلام الذي هو أساس الاتفاقيات، ووقف العمل بالديمقراطية بعد أن نصبتهم.. من هناك بدأت الكارثة في التدحرج والاتساع وعداء الإخوة والاقتتال وتطرف المجتمع الإسرائيلي بسرعةٍ، ثم فصلٌ للقطاع عن الضفة وحصاره وتكرار الحروب عليه حتى النكبة الثانية تمهيداً لإلغاء فكرة حلّ الدولتين. لنتصور لو أن اتفاقيات أوسلو لم تُخرّب، واستمرت الديمقراطية الفلسطينية مع تنميةٍ اقتصاديةٍ واجتماعيةٍ متنوعةٍ بدعمٍ عالميٍّ.. سنكون حتماً في أوضاعٍ أفضل، وكنّا سنكون إلى تحصيل حقوقنا أقرب، ويكون المجتمع الإسرائيلي أكثر سلماً، وذلك بدل دمارنا الحالي، ومع ذلك فشلنا في وقف التطبيع، أي أنّ إخوتنا العرب المسلمين حدّدوا مصلحتهم وواصلوا التطبيع منذ اتفاقيات أوسلو وحتى ما بعد نكبتنا الثانية، ولن يتوقفوا لأنهم تحت الهيمنة الغربية الداعمة لإسرائيل، ولأن نهجهم الفكري أصبح يتعارض مع نهج حماس.

لا بأس أن نتصوّر أيضاً احتمال لو كانت غزوة أكتوبر تطوّرت بما يسمح لحماس بإعلان النصر.. أي صفقة تبادل بعد تدمير جزءٍ من القطاع؛ فهل كان ذلك سيقرّبنا من تحسين الحياة في قطاع غزة وفكّ الحصار، أو سيقرّبنا من العرب، أم كان سيقرّبنا من الهيمنة الإيرانية التي ترعب أخوتنا العرب أصلاً؟ لقد تحالفت حماس، حتى وإن كانت مضطرةً، مع بعبع الشعب العربي، مع حكم الملالي الذي (كان) يتباهى بالهيمنة على الدول العربية مثل العراق وسوريا ولبنان ويريد فلسطين تحت إبطه ومن ثم التفرغ لهضم دول الخليج العربي.

حين اختارت قيادة الثورة الفلسطينية طريق اتفاقيات أوسلو لم يأتِ ذلك من العبث، ولكن بعد تقييمٍ لتجربةٍ نضاليةٍ بدأت من الثلاثينيات وحرب النكبة الأولى ودور الاستعمار وقوته، وموقف الدول العربية وقدراتها واستعدادها، وآلاف الشهداء وانتفاضةٍ شعبيةٍ فريدةٍ، ومن ثم رؤية العجز الذاتي العسكري عن التحرير، أو حتى العجز عن الصمود في الأردن ثم في لبنان، وبالتالي ضرورة تجربة الطريق السلمي في ظلّ مرحلة ما بعد الانتفاضة الأولى وإنجازاتها المحلية والعالمية، واعتراف العالم والأمم المتحدة بالمنظمة ممثلاً للشعب والإقرار بحقّ إقامة دولةٍ ولكن في ظلّ السلام.. جاءت حماس لتمحو كلّ ذلك وتعيدنا إلى ما تحت الصفر اجتماعياً وسياسياً، وها هي تكتشف (مكرهةً) طول يد إسرائيل وفارق القوة، والموقف الغربي وهذا كلّه لم يكن مجهولاً قبل ذلك. وتعايش حماس بعد أكثر من عامٍ على طوفان الأقصى التخلّي عنها من قبل الذين موّلوها ودفعوها ثم استجابوا سلفاً لرغبات الرئيس ترامب حتى قبل تسلّمه المنصب.. قطر أعلنت عدم وجود قيادةٍ لحماس في الدوحة! وتركيا تنكر وجودهم على أراضيها، وترامب يحذّر أنّ من الأفضل إخلاء سبيل الأسرى الإسرائيليين قبل أن يتسلّم مقاليد الإدارة في البيت الأبيض. بعد الطوفان والحاجة للتفاوض وافق الرئيس بايدن على فتح مكتبٍ لحماس في الدوحة، لكن ترامب ليس بايدن ونتنياهو سيعربد كما يشاء، وبالطبع توقّف وصول المال القطري أو غيره إلى قطاع غزة. لقد وضعتنا حركة حماس خارج التاريخ عبر سياستها طوال سنوات حكمها لقطاع غزة والسعي للتسلّط والحكم والإثارة والتخلف الديني، وهي الآن تدفعنا خارج الجغرافيا أيضاً تحت حماية خيمةٍ ممزقةٍ، وفي ظلّ الجوع.. حسب متابعتي للوضع بوسعي التأكيد أنّ غالبية سكان القطاع الشباب سيهاجرون منه تخلصاً من حماس ونتائج أفعالها، لو أتيحت لهم فرص هجرةٍ مضمونةٍ.

لنتفكر ونحصر أهداف حماس المعلنة منذ بدايتها مع عهد الانتفاضة؛ فقد أعلنت هدفها وسعيها لإقامة فلسطين إسلامية من النهر إلى البحر.. بعد ذلك ساومت إسرائيل على إمارةٍ إسلاميةٍ في قطاع غزة وطالبت بفكّ الحصار وإطلاق سراح الأسرى.. بعد الطوفان في السابع من أكتوبر ٢٠٢٣ صارت تفاوض على مبادلة الأسرى بالرهائن، ثم تطوّر التفاوض والمطالبة إلى مبادلة الرهائن الإسرائيليين بانسحاب القوات المحتلة من القطاع ثم الانسحاب من مناطق في القطاع، ثم مبادلة الطحين بالرهائن.. ثم وصلوا الى التفاوض حول ضمان حياة قادتهم وأموالهم في الداخل والخارج مقابل تسليم السلاح.. إلخ؛ فهل سمعتم عن مطالبة باستعادة بربرة أو أيّ قريةٍ من الـ١٩٤٨؟ أو سمعتم عن مطالبةٍ بإعادة لاجئين إلى قراهم الأصلية، أو مقابلة مطالب إسرائيل بالتهجير بتوطين اللاجئين الفلسطينيين في قراهم أو حتى في صحراء النقب؟؟ هم فقط كانوا يريدون كرسياً يحكمون من خلاله حتى لو كانت إمارةً تحت رحمة إسرائيل، وصاروا يطالبون بضمان أموالهم وأرواح قادتم!! وليس حلاً وتسهيلاً لحياة الشعب.

نصائح مجانيةٌ لوجه الله:

أين كنّا قبل الطوفان، وأين أصبحنا، وإلى أين سيجرفنا الطوفان؟ تذكّروا وفكّروا واستنتجوا ربّما -يرحمكم الله- إذا استعملتم العقل بعيداً عن الغيبيات الجاهزة القول: إنَّ كلَّ ما فعلته وتواصل إسرائيل فعله كان مخططاً سلفاً هو كلامٌ صحيحٌ.. لكنّ الأصح منه أنّ الطوفان سرّع في المخططات ونتائجها وسهّل في التبرير الإسرائيلي لتنفيذ خطة المقتلة.

الافتراض الغيباني أن لا شيء إيجابيّاً كان سيحدث ضدّ المخطط الإسرائيلي، وبالتالي، نطلق الطوفان وندمّر المعبد على رؤوسنا ويخرج عدونا منتصراً محتلاً طارداً لنا من الأرض والحياة.. هذا حتماً ليس بالعمل الحكيم.

الادعاء أنّنا لن ننتصر إلا بالعودة للدين يعني أنّنا ومنذ ١٤٠٠ عامٍ كافرون وجاهلون بديننا، والحقيقة أنّ كلَّ الهزائم بأنواعها المتعددة صنعت بتوجيهٍ وإرشادٍ من العقلية الدينية الغيبانية المتنطعة التي تسعى لإعادتنا إلى الوراء.. هم شيوخٌ متخلفون يسعون للاحتفاظ بمواقعهم الاجتماعية والاقتصادية بجرّ المجتمع إليهم و«لعلومهم».

شخصيات صديقة

بالعودة إلى نهجنا السابق في السرد، وكوني ذكرت فيه أسماء حركاتٍ مثل الجهاد الإسلامي وحماس، وأسماء أشخاصٍ مثل د. حيدر وفيصل الحسيني؛ فإنّي أودُّ التعريف الشخصي والإشارة لعلاقتي بهذه الشخصيات والمنظمات، كون ذلك يُذكّر بالتاريخ المعاصر أيضاً وإن كان من زاويةٍ خاصةٍ وشخصيةٍ. أقدم علاقة لي مع هؤلاء كانت مع الإنسان الجليل الموقر د.حيدر الذي أكنُّ له الامتنان لأسبابٍ كثيرةٍ أوّلها أنّه أنقذ حياتي وأنا رضيع. قالت لي أم العبد إنّني أُصبت بمغصٍ باطنيٍّ حادٍ متواصلٍ لم تنفع معه أيٌّ من أدوية مصحة وكالة الغوث في رفح؛ فأخذتني إلى غزة، وإلى الدكتور حيدر تحديداً، وكان قد عاد للقطاع من أميركا حيث تخصّص في دايتون أوهايو بالجراحة كما عرفت لاحقاً، وكانت الوالدة قد سمعت عنه آنذاك في عام ١٩٥٤. نعم الدكتور من مواليد غزة ١٩١٩ ودرس الثانوية في القدس ثم سافر لبيروت حيث الجامعة الأميركية ودرس الطب ١٩٣٦ وتعرف هناك إلى حركة القوميين العرب وتخرّج ١٩٤٣ حيث عمل مدةً في يافا قبل أن يسافر للولايات المتحدة ويعود إلى مسقط رأسه للعمل في ظل الإدارة المصرية.

شاهدت الدكتور للمرة الأولى في منزلنا في رفح حيث أقام والدي وليمةً من طيور السمان على شرفه.. كان قد حضر لكسب التأييد الشعبي عشية

انتخابات المجلس الوطني الفلسطيني الثاني عام ١٩٦٦ في غزة، وتطّلب الأمر مشاركةً من المختار في رفح ومن غيره -بالطبع- لتشجيع الناخبين على اختيار المرشّح. كان تواصلي التالي مع الدكتور بعد أقلّ من عشر سنواتٍ حين عثرت في ألمانيا عبر أصدقاء يساريين على مخزن أدويةٍ متنوعةٍ؛ فاتصلت بالدكتور هاتفياً وأخبرته بالأمر واتفقنا أن أرسل الشحنة باسم الهلال الأحمر في غزة، والذي كان هو رئيسه، وهذا ما تمّ وتكرّر. وأثناء الانتفاضة الأولى نشطت إعلامياً وفي تشجيع إرسال تبرعاتٍ إلى الدكتور وإلى السيد غسان الشكعة رئيس بلدية نابلس سابقاً ينفقونها اجتماعيا عبر لجان.. وأثناء عملي في لندن استضفت الدكتور في إحدى زياراته وزرنا -معاً- منزل منيب المصري الذي أعرفه من الاجتماعات شبه الدورية التي كنا نعقدها في مكتب السفير الفلسطيني عفيف صافية، وكان يشارك فيها حوالي خمسةٌ فقط نتداول الشؤون السياسية ونقدّم المقترحات، وكان سفيرنا يكتب ويرسل التقارير عن الآراء وما يدور أولاً بأول للرئيس عرفات.. هذا ما عرفته لاحقاً حين أخبرني عضوٌ في اللجنة التنفيذية أنَّ عليّ أن أخفف النقد لأن ملفي عند عرفات قد تضخّم.. لم يكن هذا العضو أو السفير يعرفان أنّ علاقتي بعرفات أقدم وأعمق -وخصوصاً- منذ بداية الانتفاضة الأولى.

أثناء الاستعداد لعقد مؤتمر مدريد أصرّ رئيس وزراء إسرائيل شامير على عدم مشاركة منظمة التحرير في المؤتمر، وحين تجاوبت المنظمة وقبلت بإرسال وفد فلسطيني من الداخل عاد شامير لرفض أيّ مواطنٍ مقدسيٍّ في الوفد الفلسطيني، وتمّ الالتفاف على ذلك بتعيين فيصل الحسيني مشرفاً على الوفد من دون أن يشارك في الجلسات.. هنا كان لا بدّ من رئيسٍ للوفد من الداخل؛ فألهمني الله أن أكتب لعرفات رسالة فكس أرشّح فيها الدكتور حيدر للمهمة؛ فأجاب الرئيس بنعم «مفيش غيره» وهنا اتصلت بالدكتور وأبلغته

أنّه سيكون رئيس الوفد وأن التكليف سيصله قريباً ولم أبلغه أنني رشّحته، ولكنّني من موقع عملي ومتابعتي عرفت بالأمر.. هنا وللتاريخ والحقيقة تمنّع الدكتور وتأفف، وقال لي راجياً: «إذا كان عندك خطٌّ مع عرفات أبلغه رفضي لعدم مقدرتي..» فأكّدت له أنّ موقفه سيصل فوراً، -وبالفعل- أبلغت الختيار أنّ الدكتور حيدر يعتذر ولن يتمكّن وعليكم البحث عن غيره.. لكن الرئيس كان قد قرّر، وأبلغ نبيل شعت بإلزام الدكتور بالقبول وهذا ما تمّ. بعد ذلك أصبحت ألتقي يومياً الدكتور في مدريد وأقدّم له ملخّص ما جاء في الصحافة، وأيّ معلوماتٍ من الأصدقاء الصحافيين الأجانب؛ فقد كنت مع فريق محطة القناة البريطانية الرابعة لتغطية المؤتمر.. الأمر نفسه واللقاءات اليومية تكرّرت في واشنطن أثناء المفاوضات الفلسطينية الأردنية من جهةٍ والإسرائيلية من جهةٍ أخرى.

من النوادر التي حدثت في واشنطن أثناء جسّ النبض ما حدث من محمد أشتيه الذي حضر مع شبانٍ من الداخل وفيصل الحسيني والوفد لواشنطن، أنّه أراد استعجال الحديث مع الوفد الإسرائيلي بعد تعطّل اللقاء يومين.. تسربل محمد باتجاه مكان جلوس الوفد الإسرائيلي؛ فشاهده الدكتور حيدر وناداه وأعاده؛ فقال محمد إنّه ذاهبٌ فقط لأخذ القهوة من ماكنةٍ هناك؛ فتم تأنيبه وردعه، ومحمد من معايشتي معه في واشنطن، مندفعٌ، عجولٌ، لا يكف عن الحديث، وقد أصبح لاحقاً من رجالات محمود عباس وتسلّم رئاسة الوزراء عدة سنوات. ونادرة أخرى حدثت من عضو الوفد حنان عشراوي.. المعروف أن الدكتور حيدر من قدامى الشيوعيين، وحين عرف أن الوفد الإسرائيلي لن يحضر لجلسات التفاوض يوم السبت، قرّر الاستباق وأعلن يوم الجمعة عطلةً، ومن ثم ذهب مع بعض أعضاء الوفد الى مسجد واشنطن. حين علمت د. حنان بالأمر توقّعت تأثير ذلك إعلامياً

وظهرت في المسجد تصرّح للإعلام ممّا تسبب بغضبٍ مكتومٍ من البعض بسبب دخولها للمسجد.

قد يستغرب البعض إقدامي على ترشيح د. حيدر لدى عرفات لرئاسة الوفد، لكنّني كنت متابعاً جداً للأحداث والخلفيات آنذاك ومشاركاً فيها.. أثناء الانتفاضة كان عندي فريقٌ إعلاميٌّ قويٌّ ومنتشرٌ في كلّ فلسطين وتصلني تقارير كلّ ساعةٍ عن أحداث الانتفاضة ومجريات الأمور، وقد أجرينا العديد من استطلاعات الرأي التي نشرت في كبريات الصحف وأحدثت تأثيراً سياسياً لمصلحة حماس آنذاك وقوى المعارضة النشطة عسكرياً.. المهم أنّه وصلني خبر اعتقال الدكتور حيدر من قبل قوات الاحتلال، وعلى الفور أبلغت عرفات وآخرين من الزعماء العرب، وعرفت لاحقاً أن عرفات استدعى محمد دحلان وسأله عن الأخبار في غزة، ثم سأله عن اعتقال الدكتور واتضح أنّ دحلان لا يعرف بالأمر وهذا لم يكن في صالحه؛ فأخذ إهانةً شديدةً تلك الليلة. القصد هنا أنّ عرفات يعرف بوجود علاقةٍ لي مع الدكتور، كما أنّ علاقتي مع عرفات نفسه كانت متينةً وكان يعرف توجهاتي وآرائي منذ اللقاء في بيروت وما تلاه من إرسال سفيرنا في بون بملف الغواصة، وأثناء بدايات الانتفاضة وصل لعرفات أنباء تشكيل فريقٍ في مصر مهمته تهريب السلاح إلى قطاع غزة وكان هناك من أبلغ عرفات وحملني المسؤولية.. وهذه قصة ستأتي في حينها.

فيصل الحسيني شخصيةٌ فلسطينيةٌ بذل كلّ جهوده من أجل القدس وتمَّ اعتقاله مراراً من قبل الاحتلال الذي أغلق مقرات جمعية بيت الشرق في أواخر يوليو ١٩٨٨ واعتُقل فيصل مجدداً، وذلك أثناء الانتفاضة الأولى، حينذاك كنت أساهم في التخفيف عن المعتقلين عبر إدخال ملابس جديدةٍ لهم وأجهزة تلفاز وصل أحدها إلى زنزانة فيصل. أثناء زيارته إلى لندن لاحقاً

ذهبت مع صديقي أحمد الخالدي لزيارة فيصل في الفندق، وتحدثنا مطولاً ووصل الحديث إلى التبرعات.. المهم أنّني وجّهت اللوم إلى فيصل لعدم اهتمامه بقطاع غزة، -وتحديداً- بمدينة رفح، واتفقنا على ترتيب زيارةٍ له هناك واللقاء مع شخصياتٍ متنوعةٍ وذلك في بيتنا، -وبالفعل- قام بالزيارة وزاد احترامي له وتقديري. استمر التواصل بيننا وتبادل الآراء واللقاءات لاحقاً في مدريد وواشنطن.

قبيل ذهاب الوفد الفلسطيني إلى قاعة المؤتمرات في مدريد جمعهم فيصل في قاعة الفندق غير البعيد، وأخذ يعطيهم التوجيهات أمام وسائل الإعلام، وذلك لإفهام العالم والإسرائيليين من هو صاحب القرار.. عندما استدار الفريق للذهاب أعطيت كوفيتي إلى فيصل وطلبت منه أن يعطيها إلى صائب عريقات ويطلب منه أن يضعها على كتفيه في المؤتمر.. وهذا ما تمّ عمله وتنفيذه. أثارت الكوفية شامير وكاد يغادر قاعة المؤتمر، ولاحقاً قال صائب للإعلام إنّ هذه كوفية والده وجلبها معه لهذا الغرض.

لقد حرصت أثناء انعقاد مؤتمر مدريد على تواصلٍ يوميٍّ عبر رسائل الفاكس مع الختيار.. شعرت بحزنٍ عميقٍ أنّه ليس هنا، وأنّهم قد همشوه في تونس؛ فأردت إبقاءه في الأجواء علماً أنّ نبيل شعت مستشار عرفات كان موجوداً ويزور الفندق حيث الوفد ويجتمع معهم على الرغم من المنع القائم لأعضاء المنظمة بالتواصل مع الوفد. كان مكتب القناة الرابعة في واشنطن يمدنا بالأخبار والخلفيات، وأخبرونا أنّ الإدارة الأميركية تخطّط لإرسال دينيس روس للقاء عرفات في تونس لتطييب خاطره.. أبلغني مراسل القناة ديفيد سميث بذلك، وكان دينيس حينذاك موظفاً صغيراً في الإدارة، وشعرت أنّهم يريدون إذلال الختيار بهذه الزيارة؛ فكتبت له أنّهم يخططون لإرسال موظفٍ صغيرٍ إليه والأفضل أن يقابله أيُّ مسؤولٍ في المنظمة غير الرئيس..

وصلت الرسالة وفهم الختيار -وبالفعل- أوعز لآخرين باستقباله، وضحك ديفيد سميث حين سمع بالخبر من تونس وقال: «هذه من أفعالك، هكذا أحسن».

سوف أتطرق هنا لبعض الأمور التي وعدت بالعودة لها، -وتحديداً- موضوع الاستطلاعات، وارتباط بعضها بما يجري الآن وربّما بالتطور المستقبلي القريب. في الأسبوع الأخير من نوفمبر ٢٠٢٤ حدث اتفاق وقف الحرب بين إسرائيل ولبنان برعايةٍ أميركيةٍ فرنسيةٍ سعوديةٍ، وبناءً عليه انتصرت واشنطن في فرض ذاتها في المنطقة كحارسٍ ومرجعٍ، فهي التي ستراقب كلّ حدود لبنان، وتسمح أو تعارض تدخل إسرائيل عسكرياً حين تحدث تحركاتٌ أو مخالفاتٌ من حزب الله لا تعجب إسرائيل.. وحتى لا نغرق في التفاصيل؛ فالمهم هو ملاحظة أنّ وحدة ساحات حزب الله وإيران واليمن والعراق قد ذهبت مع الريح، وبقيت غزة تتلقى الضربات، ورئيس الوزراء الإسرائيلي لا يبدي أيّ اهتمامٍ بوقف العدوان على غزة أو استعادة الرهائن، وبالطبع حتى اللحظة؛ فلا أمل في تبادل أسرى بشكلٍ فعّالٍ، أو عودة حماس لحكم غزة.. نتنياهو ينتظر تسلّم ترامب للإدارة في البيت الأبيض (يناير ٢٠٢٥)، وإذا تقرّر الإبقاء على حماس في قطاع غزة؛ فغرضهم حينذاك عدم التوصل لأيّ سلامٍ أو تقدّمٍ في قطاع غزة أو إعادة إعمار، لأنّ إسرائيل سوف تعتبر بقاء حماس كمسمار جحا، لتعود وقتما تشاء تضرب وتدمر سعياً لترحيلٍ يسمونه طوعياً للسكان خارج فلسطين، ربّما إلى كندا أو أستراليا أو حتى أفريقيا، بتمويلٍ ألمانيٍّ بريطانيٍّ أميركيٍّ.. وتدعي إسرائيل أنّها في حالة حرب ضد حماس، علماً بعدم وجود أيّ تقاربٍ في القوى والإمكانيات، كما أن حماس لم تعد تقاوم بأشكالٍ عسكريةٍ بعد فترةٍ بسيطةٍ من الطوفان وكانت مقاومتها رشقاتٍ صاروخيةً عبثيةً ثم كفّت

عن ذلك، واستمرت مقولة الحرب في أشداق قناة الجزيرة بينما ما يحدث هو ذبحٌ للسكان دون مقاومةٍ.

في الأول من يوليو ١٩٩٤، وبعد ٢٧ عاماً على النكسة، عاد الرئيس عرفات إلى قطاع غزة، وذلك بعد عامٍ من توقيع اتفاق أوسلو الذي بموجبه تمّت العودة والانتخابات التالية عام ١٩٩٦، وتعزّز فيها حكم حركة فتح باسم منظمة التحرير والسلطة الفلسطينية، وكانت حماس قد قاطعت الانتخابات، حتى لا تُلزم ذاتها بحدود اتفاق أوسلو والتنازل عن ثلاثة أرباع فلسطين. لكنّ حركة حماس أغمضت العينين وخاضت انتخابات ٢٠٠٦ من دون تغييرٍ في بنود أوسلو، وفازت حماس بالأغلبية وشكّلت الحكومة. الأسباب التي مهّدت لفوز حماس هي موقفها المعلن غير المتلائم مع مشاركتها في الانتخابات، والعمليات العسكرية التي قامت بها ضد إسرائيل في ظل حكم عرفات.. لكنّ السبب الأساس هو سوء إدارة عرفات وفتح والمنظمة والسلطة للحكم في الضفة والقطاع، وعدم تلبية تطلعات الشعب الذي توهّم أنّ الحل السلمي سيُنهي المعاناة بأشكالها، وكذلك الدور السلبي الذي مارسه العائدون مع عرفات على حساب السكان، -وبالطبع- المزايا التي منحها لهم الاحتلال بينما بقية الشعب يكافح من أجل البقاء.

كنت قد أجريت عبر فريقي الإعلامي النشط من أيام الانتفاضة عدّة استطلاعاتٍ من ضمنها استطلاعٌ أثبت ضيق الناس من الممارسات وخيبة أملهم، واتضح أنّ الأغلبية تفضّل عودة الاحتلال الإسرائيلي. لم أنشر هذا الاستطلاع ولكنّي كما في الاستطلاعات الأخرى أرسلت بالنتائج إلى الختيار؛ فكتب على رسالة الفاكس: «الله يسامحك، هو أحنا لسه بدينا؟» وأعاد إرسالها لي، بمعنى أنّنا في بداية الطريق ولا مبرّر لمثل هذه النتائج، ولكنّ النتيجة كانت حقيقيةً، وتراكمت الأسباب حتى نجحت حماس

ديمقراطياً، ثم انقلبت عسكرياً على الحكومة واستقلت بالقطاع وحرّضت سكان الضفة ضد الحكومة الأوسلوية في الضفة.. اليوم وحسب الاتصالات مع العديد من التوجهات في القطاع، ومتابعة الآراء في وسائل التواصل الاجتماعي بوسعي التأكيد أنّ سكان القطاع عادوا بعد تجربتهم مع حكم حماس يفضّلون سيطرة إسرائيل وحكمها للقطاع مجدداً، ولأنّ إسرائيل لا تريد سكان القطاع، وحسب معطيات عام (للآن) بعد النكبة الثانية، أقول جازماً إنّ غالبية سكان القطاع -وخصوصاً- الشباب والشابات منهم سيفضّلون الهجرة خارج القطاع إذا أُتيحت لهم الفرصة. الذين يرفضون هذا الاستنتاج ويدعون أنّ شعبية حماس مرتفعةٌ، عليهم الإجابة عن سؤال: لماذا لا يتظاهر سكان الضفة وسكان الـ١٩٤٨ لنصرة حماس، ولماذا لا يتظاهر في العالم الإسلامي والعربي سوى أنصار حركة الإخوان في وسط عمّان بعد صلاة الجمعة؟

في استطلاعٍ سابقٍ قبيل انعقاد المجلس الوطني التاسع عشر في الجزائر نوفمبر١٩٨٨ نفّذ فريقي الإعلامي في القطاع والضفة استطلاعاً حول تقبّل الشعب للفصائل بما فيها الحركات الدينية والفصائل المعارضة لنهج حركة فتح مثل الجبهة الشعبية والديمقراطية والقيادة العامة.. نتائج ذلك الاستطلاع جاءت معبّرةً عن غرام الشعب الفلسطيني بالعمل المسلّح، وتعكس بداية زمن صعود حركة حماس. جاء الاستطلاع بعد تنفيذ الجبهة الشعبية القيادة العامة عمليةً بطائراتٍ شراعيةٍ قام بها أربعة شبانٍ عربٍ بواسطة طائراتهم الشراعية على معسكر (غيور) شمال فلسطين وذلك بتاريخ ٢٥ نوفمبر ١٩٨٧.. وبدأت الانتفاضة الأولى يوم ٨ ديسمبر من العام نفسه، وفي العاشر من ديسمبر اجتمع عددٌ من قيادات الحركة الإسلامية في منزل الشيخ أحمد ياسين بقطاع غزة، وأجمعوا على أن حالة الانتفاضة فرصةٌ للانطلاق عملياً للعمل المسلّح

ضد الاحتلال، والدخول إلى مرحلةٍ جديدةٍ للاشتباك وإلقاء الحجارة وإقامة التظاهرات. خلال هذا الاجتماع تمّت صياغة البيان الأول، وأُسندت مهمة طباعته ونشره وتعميمه للجهاز الأمني للحركة الذي كان يُسمّى «مجد» بقيادة يحيى السنوار، لكنّ الحالة الأمنية لم تسمح بنشره في اليوم التالي، ولم تتمكن عناصر التنظيم الجديد من توزيعه إلّا يوم الإثنين ١٤ ديسمبر ١٩٨٧، وانتشر في أرجاء قطاع غزة في اليوم التالي.

المهم هنا أن نتائج الاستفتاء (بعد عامٍ على بداية الانتفاضة) جاءت معبرةً ومنطقيةً، فقد حازت حركة حماس على ١١٪ من التأييد، والجبهة الشعبية القيادة العامة على ٨٪ -وبالطبع- أخذت حركة فتح النسبة العليا، ولكن النتيجة لم تعجبهم.. في أثناء اجتماع اليوم الأول ١٢ نوفمبر ١٩٨٨ للمجلس الوطني حمل خالد الحسن (أحد مؤسسي فتح وعضو لجنة مركزية) عدد صحيفة الشرق الأوسط من اليوم السابق وعلى صفحته الأولى نتائج الاستطلاع ووجّه الإنذار لفصائل المنظمة بما معناه أنّ حركة حماس تنمو وأن الشعب يطالب بالتجديد، وبالتالي لا بدّ من إعلان الدولة وبداية العمل لحلٍّ سلميٍّ قائمٍ على قبول بناء الدولة على أيّ شبرٍ يتمّ تحريره.. كانت الانتفاضة تقترب من عيد ميلادها الأول آنذاك.

أتذكر جلوسي منفرداً أثناء إحدى الاستراحات لجلسات المجلس، كنت أراجع بعض الأوراق؛ فإذا بامرأةٍ فوق سن متوسط العمر تتقدم وتصافحني وتعرّف عن نفسها وتطلب الإذن بالجلوس إليّ؛ فرحّبت بها، وتنبهت لعيون بعض رجال مكتب الـ١٧ يتابعون ما يجري، وهؤلاء هم رجال الأمن الفلسطيني، المخابرات، جماعة أبي الطيب. قالت إنّها سكرتيرة سابقةٌ للرئيس كارتر (الذي كان في البيت الأبيض من ١٩٧٧ حتى ١٩٨١ وإدارته هي التي دشّنت اتفاقية كامب ديفيد)، وقالت إنّها مسؤولةٌ وموفدةٌ لاجتماع

المجلس الوطني من قبل «مركز كارتر».. لخّصت لي مهام المركز وأفهمتها بإلمامي بالأمر؛ فهو منظمةٌ غير حكوميةٍ أسّسها الرئيس جيمي كارتر بعد فشله في تجديد دورةٍ انتخابيةٍ وذلك عام ١٩٨٢، ويهدف المركز إلى تعزيز حقوق الإنسان والحد من المعاناة الإنسانية، والمساعدة على تحسين جودة حياة الناس في أكثر من ٨٠ دولة ويشارك المركز في العديد من المشاريع بما في ذلك مراقبة الانتخابات، ودعم بناء الدولة القائم على القيادة المحلية وبناء المؤسسات الديمقراطية في العديد من الدول، بالإضافة إلى التوسط في النزاعات بين الدول المتحاربة والتدخل لدى رؤساء الدول نيابةً عن ضحايا انتهاكات حقوق الإنسان.. قالت لي بين التساؤل والتأكيد أنّني المسؤول عن الاستطلاع الذي يتمّ الحديث عنه؛ فأكّدت لها ذلك وأجبت عن تساؤلاتها حول كيفية إجراء الاستفتاء وغير ذلك من الأسئلة والشروحات عن الوضع في الأراضي المحتلة. عندما طال حديثنا تقدّم صديقي أحمد معتذراً وقال في أذني إن جليستي هي سكرتيرة الرئيس ويتوجب الحذر؛ فأوحيت إليه بأنّني أعرف ذلك ومن ثم توجّه إلى رجال مخابراتنا ليطمئنهم.. عموماً لم أخفِ عنها مواقفي التي يعكسها محتوى هذا الكتاب؛ فالرئيس كارتر وزوجته روزلين وإدارته كانوا من الأقرب للفلسطينيين والأبعد نظراً حينذاك، ولكن قادتنا كانوا يتقدمون خطوةً ويتراجعون اثنتين ولم يتجاوبوا من إدارة كارتر.. لذلك لم أخفِ عن مركزهم هذا أيّ آراءٍ حول الديمقراطية وانعدامها والخلافات بين رؤية قيادات الداخل والخارج، وبالطبع نتائج الاستفتاء، وكانت هي تكتب طوال الوقت.

أتذكّر أنّه في إحدى الجلسات آنذاك تجاورت مع هاني الحسن؛ فتعارفنا وتذكّرنا دراسته في دارمشتات القريبة من هايدلبرج حيث درست في ألمانيا ولكن مع فارق الأزمنة.. سألني عن حالنا في قطاع غزة، وكان

يعرف إلمامي بالوضع ويفترض أنّني من حركة فتح.. أخبرته بالموجز؛ فسأل عن مقارنةٍ بيننا وبينهم (حماس) وقال: بالتأكيد يمكننا اكتساحهم بسهولةٍ؛ فذكّرته بنتائج الاستفتاء ولم نستكمل النقاش. عمل هاني الحسن بعد اتفاقات أوسلو على توحيد أجهزة الأمن الفلسطينية إذ تولّى وزارة الداخلية للسلطة، وواصل عمله مستشاراً للرئيس عرفات منذ عودته إلى قطاع غزة. خالد وهاني الحسن من مؤسسي حركة فتح، ولديهم أخٌ ثالثٌ هو بلال الحسن المفكّر والمنظّر اليساري عُرف بانتقاده لاتفاق أوسلو، واهتم بالدفاع عن حق العودة للفلسطينيين.

أشير بصدد الاستفتاء أنّني والصديق أحمد الخالدي ذهبنا في زيارةٍ لاحقةٍ للرئيس في تونس بعد مدةٍ من نهاية المجلس، والتقيت في صالة المطار محرري جريدة «فلسطين المسلمة» وكانا مغادرين لتونس.. تحدثنا عمّا فعلا في تونس؛ فقالا إنّهما حضرا للقاء مع الختيار وسؤاله تحديداً عن نتائج الاستطلاع كونهما قد عزما على نشره في مجلتهم وأرادا رأي الرئيس. مجلة حماس تلك اقتبست اسم مجلة منظمة التحرير، أي «فلسطين الثورة» وكانت «فلسطين المسلمة» تقلّدها في الشكل ولكنّها على النقيض في المحتوى.

في ذلك اليوم توجّهنا أحمد وأنا برفقة الصديق نزار عمار، الذي كان مستشاراً لدى أبي إياد، وبعد اغتياله انتقل للعمل المباشر مع أبي عمار.. كان في استقبالنا في المطار، وطلبنا منه أن نمرَّ على الختيار قبل التوجه إلى منزله حيث يستضيفنا. أخبرنا الحرس غايتنا بزيارة الرئيس؛ فقال إنّ ذلك صعبٌ كونه يتناول الغداء الآن وسيأخذ القيلولة.. قلنا للحارس لو تفضّل وأخبر الرئيس بأنّ فلاناً وفلاناً قادمان من المطار يريدان السلام. عاد الحارس على الفور ورافقنا إلى الطابق العلوي وكان الرئيس

-بالفعل- جالساً في بداية تناوله للطعام.. صحن ملوخية فيها قطعة لحم صغيرة واحدة، وصحن زيتون، وبضع حبات بندورة مشرحة وطبق أرز وخبز. طالبنا الرئيس بالجلوس معه إلى الطاولة ولم يسمح لنا بالاعتذار، وأصرّ على أن نشاركه وصمّم على إعطائي قطعة اللحم الوحيدة؛ فشعرت بالحرج التلقائي وباشرنا الحديث بعموميةٍ ريثما انتهينا من الطعام.. وبينما الطعام على الطاولة حضر بعض القادة؛ فأبقاهم واقفين ومنعني من إعطائهم مقعدي، ثم سألني عن الأشياء التي أحملها في كيسٍ بلاستيكيّ.. صار الجو مكهرباً.

قدّمت له الثلاثة كتب التي أصدرتها عن الانتفاضة، وعلى غلاف كلٍّ منها إهداءٌ للرئيس بجانب عنوان الكتب (صممتها وطبعتها خصوصاً لهذا الغرض)، أظهر الرئيس السرور وقال «كتب لي.. شكرا»، ثم قدّمت له عبوةً جميلةً فيها كيلو عسل نحل من الغابة السوداء في فرنسا.. كان الرئيس من عشاق العسل، وتعرّف فوراً إلى نوعه من لونه، وفتح العبوة الزجاجية وأخذ ملعقة وتذوق العسل وسط استغراب من الحضور واندهاش من فتحي الليبي (طباخ الرئيس) الذي عليه تفحص وتذوق الهدايا المأكولة. بعد وهلةٍ سألني الرئيس إذا كنت أعرف الموجودين وأشار إلى الثلاثة الذين حضروا -معاً- وبقوا واقفين.

«نعم؛ فهم أشهر من نار على علم».. قلت ببراءةٍ وجهالةٍ بالخلفيات.

«لا يا سيدي، دول (هؤلاء) اللي شالحين البنطلونات».. قال الختيار وهو ينظر إلى وجهي ويشير إليهم، وقلت لنفسي ما هذه الورطة التي صرت فيها، وأخذت أردّد أنّ الجميع يقع في الخطأ ولكن أنت الزعيم وأوامرك تسري على الجميع.. بعد قليل انسحبنا، أحمد ونزار وأنا تاركين الختيار واللي شالحين البنطلونات مع بعضهم. اتضح لي لاحقاً أن الثلاثة كانوا يدفعون للتسريع في

الاستجابة للطلبات الأميركية لبداية الحوار مع واشنطن ورؤية جورج شولتز، وزير الخارجية آنذاك.

قبل مغادرة المقر ذهبت إلى الحمام؛ فإذا بالرئيس يدخل بعدي ونتجاور في قضاء الحاجة.. عندما انتقلنا إلى المغاسل سألني الرئيس أين سنقيم، ثم أكمل: عندي هنا غرفةٌ خاليةٌ يمكن أن تستعملاها. شكرته وقلت له إنّنا سنقيم عند نزار.. على الفور سألني «وزوجته؟» فأجبته أنّها ذهبت لبيروت لزيارة أمها؛ فقال: «إذا كدا كويس، هناك تاخدوا راحتكم أكثر». ودّعته وأخبرته أنّنا سنحضر غداً للحديث. هذه المحادثة لم تنمح من ذاكرتي لمعانيها الاجتماعية الراسخة وإنسانيتها.

قبل الاسترسال في سرد الذكريات لا بدّ من التذكير بقصة فتحي الليبي. كان الرئيس عرفات في زيارةٍ إلى ليبيا، واستقبل داعمين ومتبرعين من أبناء الشعب الليبي؛ فتقدّم من عرفات رجلٌ باللباس الليبي التقليدي ويصطحب معه صبياً؛ فسلّم على الرئيس وتمنّى النصر للشعب الفلسطيني والمقاومة وقال ما معناه إنّه لا يملك المال للتبرع ولكنّه يقدّم ابنه للرئيس ليضمّه إلى الثوار. كان الرجل جاداً ولم يكن بوسع عرفات التمنع أو رفض الهدية حتى لا يبدو وكأنّه مهتمٌ فقط بالنقود؛ فتقبل فتحي وأخذه معه إلى لبنان، وتطوّرت أحوال الشاب فتحي الليبي ليصبح المؤتمن على حياة الرئيس في الشأن الغذائي.. يطبخ طعامه ويشرف على مصادر الطعام، ويتذوق الهدايا إذا لزم الأمر.

في اليوم التالي لزيارتنا تونس اجتمعنا بالرئيس في صالة اجتماعات المقر، هو يترأس الطاولة وأحمد وأنا ونزار تقابلنا على المقاعد الكثيرة الفارغة.. بدا أنّ الرئيس لن يتوقف عن مطالعة وتوقيع الأوراق والملفات التي أمامه؛ فقرّرت الحديث عن سبب الخلافات مع السعودية، وهنا توقف عن

مراجعة الملفات وانطلق في حديثٍ ساخنٍ بينما أقاطعه بين الفينة والأخرى سعياً للعثور على نقاطٍ لتهدئة العلاقات. كنت آنذاك أكتب مقالةً أسبوعيةً لجريدة الشرق الأوسط اللندنية التي يملكها الأمير سلمان وكنت على علاقةٍ جيدةٍ برئيس التحرير الذي يلتقي الأمير دورياً (الملك لاحقاً)، وفكّرت لو أسمعني الرئيس بعض العبارات التي تُلطف وتُسهل عودة العلاقات؛ فبوسعي إيصالها للأمير عبر رئيس التحرير؛ فلعلّ وعسى. بصراحةٍ لم أسمع أيَّ كلمةٍ إيجابيةٍ، بل تهديداً ووعيداً، وأن الرئيس سوف يُشهر سيف القدس ويفعل كذا وكذا.

كان وضع منظمة التحرير والرئيس آنذاك في مرحلةٍ سيئةٍ، يعاني الحصار العربي السياسي والمالي، ويواجه حملة إشاعاتٍ أنه والمنظمة أهدروا الملايين ويخبئون غيرها.. الحقيقة التي تحققت منها أنّ طعام وحياة الرئيس كانت أقلّ من اقتصاديةٍ والمكيفات في مكتبه تصدر أصواتاً دليلاً على خرابها، وحراسه الشخصيون آنذاك كانوا مفلسين ولم يتسلّموا رواتبهم منذ ثلاثة شهورٍ، ولهذا خطرت لي فكرة نقل كلامٍ إيجابيٍّ من الرئيس عن السعودية، ولكنّني لم أسمعه منه.

هكذا وبعد أن توقّف عن مراجعة الأوراق أمامه وصب جام غضبه على النظام السعودي، انتقلنا في الحديث لشؤون أخرى -وخصوصاً- جدية الموقف الأميركي من عدمه في السعي للاعتراف بالمنظمة وبداية الحوار معها. في أثناء اللقاء كانت سهى الطويل تدخل وتوشوش الختيار عن قربٍ شديدٍ بأشياء وتخرج.. كانت آنذاك سكرتيرة عند الرئيس ولم يكن زواجهما معلناً.. لكنّني تيقنت من أشياء وأخبرت نزار بالأمر لاحقاً؛ فطلب مني السكوت.. (بعد أسابيع حضرت والدة سهى، ريموندا الطويل، إلى تونس ورفعت صوتها وطالبت بإشهار الزواج، وهذا ما كان).

بعد الانتهاء من اجتماعنا اقتربت من الرئيس وقلت في أذنه إنّ الأخ أبا جهاد طلب مني قبل استشهاده بعض الأمور وقد أنجزتها على مسؤوليتي وحسابي الخاص وأريد الآن معرفة إذا كان هناك حاجةٌ لها.. أخبرته أنّني طوّرت مع صديقٍ ألمانيٍّ مقاعد بمحركٍ ترتبط بمظلات وتقلع وتهبط.. صمت الرئيس لحظة وقال: «آه لازم نكشر شويه» وطلب مني إبلاغ (فلان).. عرفت فوراً أنّ الردّ سلبيٌّ لأن فلان هذا رجل إعلامٍ ولا علاقة له بالأمر، واتضح لي أنّه لم يعد هناك غرفة عملياتٍ عسكريةٍ أو قائدٌ مؤهلٌ مخوّلٌ بتفحص فرص أيّ عملياتٍ ضدّ العدو. كان التركيز الأمني على حراسة القيادات والمقار، ولم تكن هناك أيّ قواتٍ مؤهلةٍ لأعمالٍ، وبالطبع لم تعد هناك رؤيةٌ سياسيةٌ لمقاومة مسلّحة.

كنت أتمنى لو سمحت الأقدار بلقاءٍ آخر مع أبي جهاد، ولكنّه كان قد ارتقى لربه إذ تمّ اغتياله يوم ١٦ أبريل ١٩٨٨، والقصة بدأت حين التقيته أثناء انعقاد المجلس الوطني السابق في الجزائر.. كنت أيضاً آنذاك مع صديقي أحمد الخالدي وحسين الآغا، كنا ثلاثتنا نشترك في إصدار «النشرة الاستراتيجية» ونوزعها على المشتركين وكانت سفاراتٌ عربيةٌ كثيرةٌ ومراكزُ بحوثٍ في لندن تطالعها، بالإضافة إلى تحريري صفحةً عسكريةً أسبوعيةً في جريدة «العرب» اللندنية. التقينا أبا جهاد في أحد الممرات؛ فصافحناه وعرّفنا بعضنا إلى بعض؛ فقال حين سمع اسمي: «عبد الجبار صحيفة العرب؟»؛ فقلت نعم، وقد أيقنت أنّه يتابع الصفحة العسكرية الأسبوعية، وربّما مقالاتي اليومية في هذه الصحيفة.. لم يترك يدي وسرنا حتى عثرنا على صالةٍ فارغةٍ؛ فدخلنا وجلسنا، وقبل أن نتناقش دخل أبو اللطف وقال بأسلوبه الخاصّ: هذه الصالة مصادرةٌ باسم الشعب؛ فابحثوا عن مكانٍ آخر. خرجنا وأبو جهاد يقول ربّما عندهم اجتماعٌ، وعثرنا على قاعةٍ أخرى

وبدأ الحديث.. طلبت من أبي جهاد الإذن بتسجيل المناقشات؛ فوافق من دون تردّدٍ، ثم قلت إنّ لدي انتقاداتٍ كثيرةً على السلوك العسكري وأوجزت بعض الأمور.. استمع ثم قال: أنتم جماعة الخارج تجيدون الانتقاد ولا تقدّرون ظروفنا ولا تدعموننا بالأفكار والمستجدات. تريثت وحسبت الأمور وأجبته بأنّ النقد واجبٌ، وإذا أراد أيّ أفكارٍ فأنا جاهزٌ.. سألته بماذا يفكّر؛ فقال أريد طريقةً لإدخال المقاتلين للداخل من دون أن تلقطهم أجهزة الإنذار، ثم شرح عن الأجهزة الإسرائيلية على الحدود. وعدته بالعثور على حلٍّ، وخطر لي إخباره بقصة الغواصة التي رفضها الختيار، لكنّي تذكرت صغر حجمها وأن مقاتلينا ينطلقون جماعاتٍ.. وعدته خيراً وطالبني أن أنتبه أثناء تجوالي في معارض الطيران والأسلحة التي كنت أزورها وأكتب عنها في الصفحة الأسبوعية. هذا اللقاء مسجّلٌ بالكامل ولم أنشره -بالطبع- لما فيه من خصوصيةٍ، والشريط لدي حتى الآن.

بعد عودتي إلى لندن تحدّثت مع صديقي الألماني منذ أيام الدراسة، بيتر، وهو الذي أرشدني في حينه لموضوع الغواصة؛ فقال، كعادته، الأمر سهلٌ، وشرح لي وجود مجموعةٍ يستعملون المظلات للقفز من المرتفعات وتوجيه المظلة للهبوط البطيء.. قال بالوسع تطوير الأمر لتقلع المظلة من الأرض بفعل محركٍ محمولٍ على الظهر ويشغّل مروحةً تنفخ وتفتح المظلة؛ فترتفع وتهبط حسب دواسة الوقود اليدوية.. طلبت منه التطوير وباشرنا التجارب بتكلفةٍ مشتركةٍ؛ فهو يريد تسويق المنتج للسوق الرياضي، وأنا أريده حلاً لاجتياز الحدود.. كان لا بدَّ أن يكون العمل والتطوير علنياً؛ فانتشرت الفكرة وتطوّرت إلى مقاعدَ خفيفةٍ تحمل المروحة وراكباً أو اثنين، وهذه بالمناسبة هي المظلات التي استعملها رجال حماس في اجتياز الحدود يوم السابع من أكتوبر ٢٠٢٣، أي بعد ٣٥ عاماً من ولادة الفكرة وتصنيعها.. الجدير بالذكر أنّ

منظمة الجبهة الشعبية القيادة العامة، استعملت الطائرات الشراعية في عمليةٍ كان من الممكن أن تكون أضخم ولكنّ قلّة التدريب للشبان الأربعة، حتى لا تنكشف الأمور قبل التنفيذ، أدّت إلى فشل اثنين من الوصول لحدود جنوب لبنان أواخر العام ١٩٨٧، وكانت مظلاتٍ شراعيةً بتصميمٍ مختلفٍ ودون محركٍ ولكن يتم إطلاقها من مرتفعات لتسير وتهبط بلا قدرةٍ على الصعود مجدداً، وقد فشل اثنان في الإقلاع وهبط ثالثٌ قبل الحدود واعتقلته قوات جنوب لبنان العميلة، ونجح الرابع في الوصول إلى معسكر الجيش وقتل ستة جنودٍ وجرح ثمانيةً قبل استشهاده.

أحد الاستنتاجات المهمّة من هذه المراجعة أنّ شعبنا الفلسطيني عاطفيٌّ ويقع بسهولةٍ في حبائل شعارات استعمال القوة والعنف، ويعود لاستعمال العقل بعد أن تقع الفأس في الرأس، وبعد المقتلة بفترةٍ يعود للعاطفة والاتكالية والأمل بحلٍّ سماويّ مستعجلٍ.. أمّا الاستنتاج حول القيادات؛ فإنّها تسعى للجاه والكرسي والتأثير وتكره الديمقراطية وتستجيب لأساليب التحايل على الشعب، بل لا تحترم حياة الشعب أو إرادته إذا تعارض الأمر مع تطلعاتها! من كان يتصور بعد أكثر من ١٩ شهراً على ديمومة المجزرة واضحة الأهداف، من كان يتصور أن فتح والسلطة وحماس لم يتفقوا على حكومة وحدةٍ وطنيةٍ تتولّى الأمور؟

لا توجد لدينا قياداتٌ من وزن وفكر الحبيب بورقيبة الواقعي.. كان أبو عمار هو الأقرب للواقعية وتقبّل الحلّ المرحلي بعد مناوراتٍ على الشعب، ولكنّه لم يكن بخلفيةٍ عميقةٍ تسعى لبناء كوادر علميةٍ وتنشيط حلولٍ استراتيجيةٍ بعيدة المدى على غرار الفكر الصهيوني مثلاً. أمّا المطب الأساس للشعب والقيادة هو تقبّلهم بإهمال الانتخابات وابتعادهم عن التجديد القيادي والسياسي.. مثلاً في كلّ هذا الخضم الهائل على مدى

طويلٍ لم تظهر أفكارٌ من قبيل المطالبة بحلّ الدولة الواحدة الديمقراطية العلمانية لكلّ سكان فلسطين الطبيعية.. ولم تظهر فكرة العودة السلمية لأراضي الـ١٩٤٨ كلاجئين مسالمين عائدين، ذلك أنّ أفكار الانتقام قائمةٌ، ولأن القيادات تريد دولاً أو حكوماتٍ أو كياناتٍ تنصب ذاتها فيها على الشعب. هكذا تتبخر القيادات وتسقط الأفكار وتنهش الأمة لحم ذاتها ويسرق من يستطيع الآخرين ويستسلمون لأيّ مُنقذٍ سواءٌ كان غبياً أو دجالاً أو درويشاً.

لم نسمع أيّ نقدٍ حول تخريب حماس لحلّ أوسلو عبر التفجيرات في إسرائيل، وعدم ردعها الآن للعدوان الإسرائيلي على القطاع بعمليات تفجيرٍ مماثلةٍ؟ حين قرّرت إسرائيل الهجوم البري على لبنان وقصف بيروت، ردّ حزب الله بقصف تل أبيب وغيرها؛ فتمّ التصعيد الاسرائيلي ووقف القتال في لبنان.. أمّا حماس؛ فظنها أنّ المتاجرة بالرهائن سُيركع إسرائيل بعد فضيحتهم في السابع من أكتوبر ٢٠٢٣ وكسر رؤية الردع الإسرائيلي. أيُّ مبتدئ في علم السياسة كان سيعرف أن كسر الردع الإسرائيلي بهذا الشكل سُيعتبر بداية الهزيمة لهم، وبالتالي، سيخوضون حرباً إما قاتل أو مقتول، وأن الغرب سيقف معهم.. وبالتالي، توجب الاستعداد لردّة فعلهم.

إن العقلية الحمساوية تنافس أختها الفتحاوية وعقلية السلطة في التسلط والأنانية وانعدام الفكر وغياب التخطيط ونشر التخلف ودعمه لاستمرار الحكم عبر التخلف وبأدواته.. لا تحمّل للمسؤولية، ولا أيّ نقدٍ ذاتي كان، -وبالطبع- لا استقالاتٍ، ولا انتخاباتٍ أو حتى وعوداً بالديمقراطية أو اللجوء إليها كحلٍّ للتخلّص من هذه المقتلة، ومن الطبيعي أن كلّاً من الطرفين يتلفظ على الاحتلال، يتناقران ولكنّهما لا ينتقدان بعضهما بعضاً بموضوعيةٍ نظراً لغرقهما في المستنقع نفسه.

كمواطنٍ صالحٍ وكصحافيٍّ فقد قلت وكتبت ونشرت طوال السنوات منذ الانتفاضة الأولى وحتى يومنا الحاضر.. نشرت الكلام نفسه وطالبت به لكن لا حياة لمن تنادي؛ فكنت كمن يزرع الورد في الصحراء، لأن القيادات كما وصفناها ولأن الشعب بغالبيته غارقٌ في الأوهام ومُسيّرٌ حسب لقمة العيش. أثناء الاستعداد للانتخابات الرئاسية في يناير ١٩٩٦ أرسلت لأبي عمار رسالة فاكس نوّهت فيها بأهمية الأسرى في حياة المجتمع، وطلبت منه أن يرشّح الأسير مروان البرغوتي كنائبٍ للرئيس، أي يكون الانتخاب الرئاسي لرئيسٍ ونائبٍ. كنت أعرف عقدة ياسر عرفات من تعيين الرئيس ناصر للسادات نائباً وما تردّد لاحقاً عن موت ناصر وأسبابه وضلوع السادات فيه.. عموماً الرؤساء العرب يخافون من النواب ويفضلون ترك البلاد دون نائبٍ متدربٍ إذا ماتوا. لذلك ركّزت في رسالتي على التذكير بوضع الأسرى وطول مدة الحكم على البرغوتي وما ستقدّمه هذه الخطوة من راحةٍ نفسيةٍ للشعب.. لكنّ الختيار تغاضى عن الأمر.

أيضاً سعيت جاداً بالمقالات والأفعال لتنشيط دمقرطة المجلس الوطني الفلسطيني ولكن تمّ وأد الفكرة من قبل بعض ختيارية اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير. قبل ذكر ذلك الحدث بإيجاز؛ فلا بدّ من تقديمٍ سريعٍ عن المجلس الوطني الذي أصبح برلمان الشعب الفلسطيني عندما تكوّنت منظمة التحرير قبل نكسة حزيران.. بعد النكسة سيطرت على المنظمة وعلى المجلس فصائل الثورة وفي مقدمتها حركة فتح، وتمّ تسويغ الواقع بما يتناسب مع فتح وأبي عمار. تمّ إلغاء فكرة الانتخابات المباشرة لأعضاء المجلس التي سادت سابقاً، وذلك بحجة الصعوبات التقنية بشكلٍ أساسيٍّ، علماً بأنّ المادة الخامسة تنصّ أنّ التمثيل يتمّ بالانتخاب المباشر، وبناءً على المادة السادسة من النظام الأساسي

لمنظمة التحرير، استمر وجود المجلس الوطني بلا انتخاباتٍ وبالتعيين من قبل الأحزاب والفصائل والاتحادات عبر حصصٍ لها.

يبلغ عدد الأعضاء ٧٦٥ عضواً موزعين على الفصائل (١٦ فصيلاً) حسب حجمها وأكبرها فتح، وعلى قائمة المستقلين (١٩٨ عضواً) وهم الذين يختارهم أبو عمار، وقائمة سكان الأرض المحتلة عام ١٩٦٧ والذين لم يعلن لهم أسماء ولا وجود لهم أصلاً بحجة أنّ إشهارهم سيؤدي لاعتقالهم، والسبب الحقيقي هو خوف المنظمات من تمثيل أهل الداخل. ثم هناك مقاعد للاتحادات والنقابات التي هي تابعةٌ لحركة فتح في معظمها. بعد الانتفاضة ومشاركة القاصي والداني الصغير والكبير من سكان الضفة والقطاع فيها -من دون تردّدٍ- أو خوفٍ من اعتقالٍ، ارتأيت استعراض فكرة انتخاباتٍ لأعضاء الداخل تفتح المجال أمام انتخابات كلّ أعضاء الداخل والخارج لبداية عهدٍ من الديمقراطية. زرت شخصياتٍ مرموقةً أعضاء في المجلس في عمّان ودمشق وبيروت والقاهرة لجسّ نبضهم حول الفكرة التي قوامها أن يقوم من يرى ذاته مؤهلاً من سكان الداخل بجمع تواقيع من شخصيات مدينته أو مخيمه، مثل مخاتير ومدرسين ومتعلمين وغيرهم يزكون هذا الشخص ليمثّلهم، وللمزيد من التوضيح عملت وثيقةً من أعيان وشخصيات رفح ترشحني عنهم علماً بأنّني غير مؤهلٍ كوني لا أقيم في رفح، ولكن للتوثيق والتوضيح.

أرسلت الوثيقة للرئيس الفلسطيني، وقال لي لاحقاً السيد حسن عصفور عضو اللجنة التنفيذية آنذاك أنّ الختيار رفع يده في اجتماع اللجنة وقال إنّ عبد الجبار أرسل هذا الاقتراح وأطلعهم عليه طالباً رأيهم.. -بالطبع- لو أراد الختيار التنفيذ لفعل ذلك، وقام البعض باقتراحات أخرى مثل أن يعيّنوا عضواً عن رفح ولكن من سكان منطقة رفح المصرية، وكتبوا لي أن أرشّح

لهم شخصاً؛ فرشّحت وكتبت لهم مع رسالة الترشيح أنّ الهدف هو دفع أهل الداخل لينشّطوا ذاتهم ويمارسوا حقّهم وأن ننشط ديمقراطية المجلس.. الفكرة تمّ وأدها والجدير بالذكر وبعد مرور الزمن وتكرار الملل أنّ عدداً كبيراً من الأعضاء في المجلس قد توفوا لطول عمرهم، فمنذ الاجتماع الأخير للمجلس الوطني الفلسطيني توفي أكثر من٦٤ عضواً، والباقون منهم على قيد الحياة يتبادلون أنواع الأدوية المستعملة، ويتمتع أحفاد الموتى برواتب ويقبضون المعاشات.. الغالبية العظمى للأعضاء كان أبو عمار يختارهم ويعيّنهم حتى يضمن ولاءهم وتصويتهم. الأسطوانة نفسها تتكرّر ولكن بأشكالٍ أخرى حتى الآن إذ يتمّ منع وتأجيل أيّ انتخاباتٍ، والمتسلطون هم الذين يعينون الأعوان.

من المستحيل أن تنتصر الفوضى الأنانية والتخلف على الديمقراطية المتجددة.

أيام المرسيدس

في عام ١٩٧٢ كان قد مر خمسة أعوامٍ على مغادرتي قطاع غزة، وعامٌ ونص العام على وصولي إلى ألمانيا وبداية الدراسة؛ فقرّرت زيارة فلسطين المحتلة. كان الأمر يحتاج إلى استخراج تصريح أمني من مركز شرطة الاحتلال في رفح حيث يقيم الأهل، ومن ثم إرساله لي بالبريد، أو انتظار أحدهم لي في المطار ومعه التصريح.. وهذا ما كان.. نعم كانت الزيارة بتلك السهولة آنذاك. حجزت على رحلة (لوفتهانزا) من فرانكفورت إلى مطار اللد، وحين وصلت إلى مراقبة الجوازات تأملت المجندةُ طويلاً جواز سفري وسألت: ما هذا؟

هذا جواز سفرٍ فلسطيني.. للاجئين الفلسطينيين، قلت، وشرحت لها ما عليه من لغة عربية وفرنسية، وأنّه جواز سفرٍ تصدره الجمهورية العربية المتحدة. نادت زملاءها ليتفرجوا، وصاروا يتعجبون ويضحكون وأنا لا أفهم ماذا يقولون بعضهم لبعض بالعبرية، ثم انفضوا وبقيت مع المجندة؛ فقلت لها إن أحدهم ينتظرني في الخارج ومعه تصريح لي؛ فقالت: لا يهم التصريح ولكن أنت تعرف ضرورة أن أختم لك جواز سفرك وعواقب ذلك.. قلت لها: اختمي؛ فختمت ورافقني جندي للخارج وألقى نظرة على التصريح وركبت في سيارتنا التي كانت تنتظر، وتوجهنا عبر يافا وعسقلان إلى قطاع غزة.. في الطريق توقفنا في قريتنا بربرة، المحتلة منذ النكبة ١٩٤٨، ونزلت إلى مدرسة القرية التي حوّلوها إلى مطعم ودكان، وشربت قهوة ونظرت إلى السقف

الذي كان محمولاً على قضبان السكة الحديدية كما قال لي الوالد منذ زمنٍ، كيف فكّك أهالي البلدة القضبان لمنع حركة الإنجليز واستعملوها في بناء سقف المدرسة.. كانت تلك الزيارة والرؤية أوّل تطبيقٍ عمليٍّ يجسد السرد والمخزون الفكري والعاطفي؛ فهذه أوّل مرةٍ أسير وأجلس وآكل وأشرب في قريتنا، وقد زرتها مجدداً مع زوجتي واسترحنا في الأراضي المشجّرة وعثرت على رصاصةٍ فارغةٍ مصرية الصنع من إنتاج ١٩٥٦، ولا أدري أو أتخيل كيف وصلت إلى هنا.

عندما أتذكر تلك الرحلة لفلسطين وأفكر فيها بتمعنٍ الآن بعد ٥٢ عاماً، وفي ظلّ ما جرى ويجري منذ غزوة أكتوبر ٢٠٢٣.. أتذكّر وأرى وأستنتج، أن نكسة حزيران ١٩٦٧ أفقدت سكان الضفة وقطاع غزة أيّ أملٍ في خلاصٍ قريبٍ عن طريق القوة؛ فانخرطوا بسهولةٍ في خطط ومجريات تغيير الواقع الاجتماعي والتعايش مع الواقع الاقتصادي والاستفادة منه، وكان موشي دايان آنذاك قد اتبع سياسة «البطون المليئة لا تقرقع»، بمعنى أن إشباع الناس سيبعدهم عن المقاومة، ويدمجهم في رؤية الحلّ الإسرائيلي آنذاك.

أوّل ما لفت انتباهي عند دخول السيارة في مخيمات رفح هو كثرة هوائيات التلفاز على السطوح، ثم تنبّهت لانتشار الكهرباء في البيوت، والجميع صار عندهم ثلاجاتٌ وغسالاتٌ كهربائيةٌ وخبازاتٌ منزليةٌ؛ فلم تعد الكثير من ربات البيوت يعجنّ ويخبزن ويذهبن للفرن ساعات يومياً.. افتقدت الكثير من نساء مخيمنا لم يحضرن تلك الليلة للسلام، وقيل لي سيحضرن يوم السبت؛ فنسبةٌ كبيرةٌ يشتغلن مثل الرجال في الاقتصاد الإسرائيلي ويعدن في وقتٍ متأخرٍ من الليل ويغادرن قبل الفجر للعمل، أو حتى يقضين خمسة أيام داخل إسرائيل لتوفير الوقت وكلفة المواصلات.

العائلات الفقيرة كثيرة الأبناء أصبحت ميسورةً نظراً لسحب الأولاد من

التعليم المدرسي، وأخذهم للعمل في إسرائيل وجلب النقود. كان التعليم محطّ اهتمام كلّ فئات المجتمع قبل النكسة وينظرون إليه كالحلّ السحري المستقبلي عائلياً ووطنياً.. معظم الذين أنهوا التعليم الثانوي في سنوات ما بعد النكسة انضموا لسوق العمل.. وكانت إسرائيل تُوظّف وتُشغّل هذه الجموع في كلّ شيءٍ تقريباً، من مجال الزراعة والخدمات، حتى أن بعض العمال اشتغلوا في مصانع إنتاج أسلحة، -وبالطبع- فمعظم المستوطنات التي أقيمت على أراضي الضفة والقطاع بناها عمال فلسطينيون.. هذه حقيقةٌ ثابتةٌ.

في تلك الرحلة وجدت والدي المختار مهموماً، وتقريباً ناقماً على الناس؛ فالاحتلال يُحمّله مسؤولية وجود بعض المقاومين ويطالبه بتسليمهم، والناس انفضوا عن اللقاءات المسائية في مجلسه إذ لا وقت لديهم للسهر والسواليف، لكنّ أسوأ ما أزعجه هو تكاثر أعداد الناس الذين يهدمون بيوتهم بأيديهم في مخيم بربرة وفي غيره.. والقصة أنّ الاحتلال قرّر بناء شبه مدينة في منطقة رفح المصرية على بعد مترٍ واحدٍ من الحدود الفاصلة بين الرفحين، وأعلن الاحتلال لسكان مخيمات رفح الفلسطينية أنّ من يهدم بيته بيديه سينال قطعةَ أرضٍ مضاعفةٍ في المساحة ومبلغاً مالياً للمساعدة في بناء بيتٍ جديدٍ بديلٍ! قال لهم المختار إنّ البيوت الجديدة ستكون داخل مصر، ولا بدّ أن تعود الأرض يوماً ما للمصريين ولن يتقبلوا بقاءكم هناك.. لم يصدّق الناس آنذاك أنّ مصر أو سوريا أو الأردن سوف تستعيد أيّاً من أراضيها المحتلة، لكن هذا ما حدث في حالة مصر وتم طرد السكان مجدداً إلى فلسطين، وذلك ضمن تفاهمات اتفاقيات السلام لاستعادة مصر كلّ سيناء كما كانت قبل يوم النكسة.

(الآن يريد نتنياهو تهجير سكان قطاع غزة لسيناء، وينتقد مصر لرفضها مقترحاته، ويدّعي أنها لا تراعي حقوق الفلسطينيين في السفر والإقامة..

حدث ذلك في سبتمبر ٢٠٢٥!! والعالم يستمع ويتفرج، والعرب وحماس ومصر لا يقترحون إعادة الناس إلى قراهم شبه الفارغة والتي طردوا منها عام ١٩٤٨).

سألت عن واقع مقاومة الناس للاحتلال؛ فعرفت بوجود خلايا للجبهة الشعبية حاولت منع حركة العمال بزرع ألغام في حافلات شركة (ايجد) الإسرائيلية التي تنقل العمال فجراً من القطاع إلى أعمالهم في الداخل؛ فتوقفت الحافلات وتولى الأمر سيارات تاكسي محلية معظمها مرسيدس ذات حمولة السبعة ركاب، توصلهم للمدن الإسرائيلية وتعيدهم بعد الدوام إلى مخيماتهم. عرفت أن بعض الشبان انضموا إلى الشرطة المحلية بقيادةٍ إسرائيليةٍ، وكان بعض رجال الشرطة من أيام الحكم المصري قد استقالوا، ولكن واحداً من مخيمنا استمرّ في عمله وصار يوصل الأخبار للمختار عمّا يدور في مركز الشرطة ويحاول أن يساعد الناس من موقعه، يعني امسك بالعصا من الوسط، ولكن تم قتله في سنواتٍ لاحقةٍ بعدما ترقّى إلى رتبة ضابطٍ.

كان الاحتلال يحقّق يومياً مع المشتبه فيهم، ومع من يصله عنهم أخبار من الجواسيس، وبالطبع كلّ من يحضر من الخارج عبر التصريح الأمني كان عليه زيارة مركز الشرطة أثناء زيارته وقبل السفر، كانوا يرسلون له طلباً للحضور للتحقيق الروتيني. لحسن حظي ركّزوا في الأسئلة على وجودي في ألمانيا، وبالتالي، كانت إجاباتي متناغمة ولم يكن عندي آنذاك أيّ نشاطٍ ما عدا الاتحادات الطلابية غير السرية، ولم تكن عملية ميونخ قد حدثت بعد، ولذلك كانت مقابلةً سريعةً سهلةً وكان الشرطي ابن مخيمنا على مقربةٍ من غرفة التحقيق. حاولت أن أُبقي الأجواء سلسةً، قلت للمحقق: قيل لي إن اسمك جيمي، وهذا اسمٌ أميركيٌّ؛ فهل أنت من هناك؟ تبسّم وقال هذا اسمٌ حركيٌّ، وبعد أن سألني عدت وسألته: ما هو أحب نوع طعام ممّا تأكله عند

السكان؟ قال إنّه أصلاً لا يوجد سوى باطية الأرز واللحم؛ فقلت له هناك صواني المفتول والبرغل والخبز، وأكلة المقلوبة والمسخن. ويبدو أن محققاً آخر كان خارج الغرفة يستمع؛ فدخل وأخذ يخبط مؤخرة رأسي بينما جيمي يطالبه بالتوقف، كما فهمت من الإشارات.. حاولا تمثيل دور الشرطي الطيب والشرطي القبيح، ثم خرجا معاً وتركاني في الغرفة وأمامي على المكتب مسدس! كنت متيقياً أنّه فارغٌ من الرصاص وأنّهما يريدان أن أحمله أو أسرقه، لكنّني لم أفعل وعاد جيمي وقال بوسعي المغادرة.

الإشارة لأنواع الطعام وردت في خاطري آنذاك بعد أن لاحظت وعرفت أنّ ضباط وقيادات الشرطة وجيش الاحتلال تتمّ دعوتهم إلى مناسباتٍ محليةٍ، وحتى دون مناسباتٍ يُدعون لتناول طعامٍ فاخرٍ مع من يحضر من السكان؛ فيأكلون ويشربون دون خوفٍ من تسممٍ أو تفجيرٍ أو اغتيالٍ.

قرّرت التجول في البلاد واصطحاب حمولة سيارة مرسيدس سبعة ركاب بالإضافة لابن عمي السائق الذي يعرف الطرقات. سألت والدي أن يرافقنا؛ فامتنع وعرفت أنه متخوفٌ من الصدمة حين يرى بربرة؛ فقد زار البعض من أجياله قراهم وجلسوا تحت الشجر ولم يقوموا.. ذهبوا لربهم من الصدمة أو الفرحة أو الأسى، لذلك قرّر المختار عدم الزيارة للبلاد، ولكنه في رحلتي التالية حضر مع صديقه مختار قرية يبنا إلى مطار اللد واستقبلاني وهما بزيهما العربي التقليدي، الحطة البيضاء والعقال الأسود وكانا يلبسان الديمايات والعباءة.

والدتي اقتنعت بسهولةٍ بالمشاركة في الرحلة، وكذلك أختي عائشة وأخي عبد الكريم وزوجة عمي وغيرهم (رحمهم الله؛ فقد انتقلوا للرفيق الأعلى قبل هذه المقتلة).. انطلقنا من رفح في أقصى الجنوب إلى شمال فلسطين، مررنا بحاجز بيت حانون من دون توقفٍ، وانعطفنا بعد دقائق على

مزارع بربرة، ثم واصلنا الطريق إلى يافا وتل أبيب حيث نزلنا للفرجة على حديقة الحيوانات.. في عكا توقفنا في ساحة جامع الجزار الشهير بالقرب من الشاطئ وتمشينا في المدينة القديمة والتقطنا الصور على أسوار عكا.. واصلنا السير إلى طبريا وسبحنا في البحيرة، وأكلنا البطيخ على قارعة الطريق، ثم ذهبنا إلى حمام مياه معدنية في مدينة طبريا، وكنت أسأل من نراهم من الإسرائيليين عن الأماكن وكيف نصلها، وكانوا يتجاوبون ويرشدوننا بكل أدبٍ وهم يرون أن أرقام سيارتنا تشير إلى أننا من سكان غزة، كما أن الحاجتين (أمي وزوجة عمي) كنتا باللباس الوطني الفلسطيني المميز.. لم يوقفنا شرطيٌ أو مجندٌ أو حاجزٌ طوال الرحلة حتى عدنا أدراجنا عبر الضفة الغربية والخليل إلى غزة ورفح.

حرية الحركة داخل كلّ فلسطين الطبيعية في ذلك الوقت كانت متاحةً لكلّ الفلسطينيين في فلسطين، ولم تكن حرية التنقل ميزةً لشخصٍ دون الآخر، وكان الفلسطيني يستقل وسائل المواصلات العامة مع الإسرائيليين في كل المدن وعلى الخطوط الخارجية، -وبالطبع- كان العمال من الضفة والقطاع يحتلون كلّ شبر في فلسطين في ساعات الفجر وهم ذاهبون لأعمالهم.. لا يمكن القول بالطبع إنّ الحياة كانت ورديةً للفلسطينيين ولكنّها كانت للأغلبية حياةً اقتصاديةً ومعاشيةً أفضل ممّا كانت قبل النكسة، وهذا التغيير الاقتصادي جلب معه تغييراتٍ اجتماعيةً مغايرةً وأثراً سلبياً على الاهتمام بالتعليم، وعلى النظرة لفكرة المقاومة؛ فمن جهة تمّ تجاهل الفكرة، لكن من جهةٍ ثانيةٍ؛ فحرية التنقل هي التي فتحت عيون البعض على أهدافٍ مدنيةٍ سهلةٍ لتحقيق رؤى سياسية وأيديولوجية؛ فساعد ذلك في تحوّل السياسة الإسرائيلية إلى اليمين وبسرعة.

جاءت الانتفاضة الأولى لتعبّر عن سلمية الفلسطينيين في الداخل كلّه،

وكان توقيتها بعد هزيمة الفكر الفلسطيني العسكري في الخارج وتهجير قوات منظمة التحرير من لبنان إلى صحاري العرب وتشتيت شملهم؛ فجاءت الانتفاضة لتنقذ الوضع وتؤسّس حلاً سلمياً واستراحة للبناء البشري والمؤسساتي والديمقراطي، لكنّ الأصولية الإسلامية التابعة للأطراف الخارجية زايدت وزادت التوتر بأعمالٍ عسكريةٍ خالفت رؤية الانتفاضة السلمية آنذاك، حتى وصلنا إلى ما نحن فيه من ضياع ووهن وتعلق بالسماء التي لا تجيب، والأرض التي تطردنا، والعالم الذي يطاردنا ويخرجنا من واقعه.. هل من المعقول والطبيعي أن تصل أمور الشعب في غزة إلى هذه الحال وبقية العالم يمارس حياته بطبيعيةٍ تامةٍ؟ البحث في الأسباب سيوصلنا لحقائق عدة، منها: الانقياد خلف التخلف، ومعاداة الديمقراطية، وادعاء الالتزام بالإرادة الإلهية والسعي لإرسال الناس إلى الجنة من دون استشارتهم.

أوردت سير هذه الرحلة في وطني من دون التطرق لمشاعري، حتى أُذكّر وأتذكر وأُبلّغ أنّ العداء والعنصرية من قِبل اليهود الإسرائيليين تجاهنا لم تكن تُذكر آنذاك، -وبالطبع- لا تُقاس بما يجري الآن بعد غزوة أكتوبر. كان الإسرائيليون قد اطمأنوا لقوتهم بعد حرب الأيام الستة، وخفضت نظرة العداء والكراهية لديهم، وشاهدوا إمكانية الفائدة المتبادلة بينهم وبين سكان الضفة والقطاع الذين انضموا للإنتاج، وأصبحوا سوقاً للاستهلاك، بل السوق الأول المستورد للمواد والمنتجات الإسرائيلية على مستوى العالم.. ذلك كلّه ليس وطنياً ولا مثالياً، ولكن لو تمّ استيعاب الأمر والعمل على تطويره سلمياً لأصبح سكان الضفة والقطاع جزءاً من إسرائيل على غرار إخوتهم من مناطق الـ١٩٤٨، ولربّما لو طالبوا آنذاك بالديمقراطية والمساواة بدل الاستقلال والدولة، ربّما لكانت إسرائيل الآن بأغلبيةٍ سكانيةٍ عربيةٍ، والعرب فيها أفضل حالاً -على كل المستويات-.. ما كان سينقصهم هو أن يكون محمود عباس

رئيسهم وحركة حماس الأصولية مثالهم والمتحكم في مصيرهم. يجول في خاطري سؤالٌ فيما إذا كنّا قد أضعنا فرصةً لتحقيق السلام وبناء الديمقراطية، ووصلنا بإرادتنا إلى ما نحن فيه، وذلك بعد رفض بعضنا لاتفاق اأوسلو وتشجيع اليمين الإسرائيلي المتطرف على التنكر للسلام أيضاً!

اليوم هو السابع من ديسمبر ٢٠٢٤ وقد هرب بشار الأسد من دمشق.. وها هو لبنان في حالة خرابٍ، وبقية دول الشام حالها واضحٌ للقاصي والداني، بل بعض الدول القريبة من محيط الشام ومنها النفطية؛ فحالها بالعدم مثل العراق وليبيا، ولا حديث عن مصر التي تركض عملتها في مشوار ماراثون يومي خلف الدولار.. فهل يا ترى لو قامت دولةٌ فلسطينيةٌ في الضفة والقطاع سواءٌ كان زعيمها من فتح أو حماس أو كليهما، هل سيكون الوضع أفضل ممّا هو في الشام الكبير؟

الأصولية التي كانت تمارس النخاسة في الدولة الإسلامية الداعشية عادت الآن إلى دمشق، يعني ذهب إبليس الأسد وجاء شياطين داعش، وهؤلاء للعلم كانوا وسيبقون كما سنرى من أصدقاء إسرائيل مثل كلّ الإسلامويين.. الجولاني الذي عاد لاسمه كأحمد الشرع وهو زعيم جبهة النصرة التي دخلت سوريا بدعمٍ وتخطيطٍ من أردوغان ولندن وواشنطن، هي نفسها التي كانت إسرائيل تعالج جرحاها وتسلّحها وتدعمها قبل عشر سنواتٍ. ألا ترون كيف أنّ إيران التي اعتبرت سوريا لعقودٍ كمحافظةٍ إيرانيةٍ شيعيةٍ قد تخلّت عن الأسد وعن سوريا من دون أيّ رصاصة.. وماذا عن حزب الله الذي اضطر هو الآخر للمكوث في مقاعد المتفرجين، وها هي خطوط إمداده من إيران عبر سوريا تتقطع براً وجواً وبحراً.. هل هذه دولٌ وجماعاتٌ بوسعها الدفاع عن ذاتها والصمود، ناهيك عن التحرير؟ ثم ماذا عن نظام الأسد الذي حكم أكثر من نصف قرن وانهار في أسبوع ومن دون أن يجد جندياً واحداً يدافع عنه؟

لقد ترك الجنود مواقعهم وأسلحتهم وعادوا لبيوتهم، بينما تبخّر شبيحة النظام وجلادوه والسجانون.. لا من يدافع ولا ما يحزنون! هل يمكن تنبؤ أنّ سكان ومؤسسات وأجهزة أيّ نظامٍ غير ديمقراطي سوف تتصرّف بشكلٍ مخالفٍ لما تصرّف به السوريون؟

لدينا اليوم دولةٌ شيعيةٌ وذراعٌ قويٌ لها هو حزب الله ودولة كانت مرتعاً لهم هي سوريا يحكمها إنسانٌ اتضح أنّه غبيٌ وجبانٌ، ولدينا أيضاً حركة حماس بكلّ ما أنتجته سياستها، ثم ها هي الأصولية السنية الإسلامية الصديقة لإسرائيل وللغرب منذ زمن أصبحت تحكم الشعب السوري بفعل تركيا وتأمرها، والإسلام الإرهابي يسرح ويمرح في سوريا بدعمٍ غربي بنيات استعماريةٍ مجدداً، وأشياء أخرى ستتضح.. لكنّ الاستنتاج الأساس الأصيل والأبدي سيبقى أنّه من المستحيل أن تنتصر الفوضى والأنانية والتخلف على الديمقراطية المتجدّدة. الرجاء أن لا يعود السوريون للترحم على أيام الأسد كما يترحم العراقيون والليبيون والتونسيون والمصريون والسودانيون واليمنيون؛ فحين يرحل الزعيم ولا تحلّ مكانه الديمقراطية يتحتم بحكم التربية أن تسوء الأوضاع ويبدأ الترحم على من رحلوا.

هناك ملحوظةٌ قبل الانتقال من هنا: لقد دخل المعارضون إلى حلب من دون تدميرٍ أو أيّ نهبٍ وسلبٍ وأذيةٍ للسكان، وذلك حسب تعليمات الثعلب أردوغان؛ فكانت النتيجة سهولة فتح حماة وبعدها حمص وانهيار دفاعات دمشق قبل الوصول إليها؛ فسأل بشار الأسد وزير خارجية إيران: لماذا لا يقاومون؟ وربّما يكون هذا أبله سؤالٍ في التاريخ الحديث وأشبه بسؤال ماري أنطوانيت: لماذا لا يأكلون البسكويت بدل الخبز؟

ملحوظةٌ ثانيةٌ: لم ينهب الثوار دمشق، ولكن بعض السكان نهبوا المقرات وحملوا النقود من البنك المركزي في شاحنات.. وهذه من خصال

وطبيعة الشعوب الإسلامية في أوقات الحروب، وقد حدثت في قطاع غزة أيام نكسة ١٩٦٧، وتحدث الآن في القطاع حيث ينهب من يستطيع سيارات نقل المساعدات، كما كثرت سرقة البيوت ووصلت إلى سرقة الخيام والنعال.

ملحوظةٌ ثالثةٌ: مع بداية انهيار الجيش السوري صار الضباط يقولون للجنود اتركوا أسلحتكم والبسوا المدني وعودوا إلى بيوتكم! وهذا ورب الكعبة غريبٌ، على الرغم من كونه ليس فريداً فقد حدث مثله في كل حروب العرب الحديثة.. لكن المستهجن أن فرقتين من الجيش كانتا ترابطان على جبهة الجولان تركتا كل شيء وعاد الجميع لمنازلهم!! إذا بلعنا انسحاب الجيش من مجابهة المعارضة منعاً لحرب أهلية؛ فكيف نبلع فكرة أن فرقتين كاملتين على جبهةٍ مع العدو المحتل تركتا كلّ شيءٍ وتبخّرتا؟ أيّ عسكريةٍ ووطنيةٍ هذه؟

يخطر في بالي وتعود لذاكرتي الآن بعض مواقفي الذاتية المتناقضة.. حين قامت الثورة الإيرانية في عام ١٩٧٨ وحُسمت في ١٩٧٩ فرحت لنجاحها، ولم أبالِ بحقيقة أنّ من قفز على قيادتها هم الملالي. كنت آنذاك مؤيداً للثورة والثوار وأتظاهر مع مناصريهم في شوارع ألمانيا ضد حكم الشاه، لكن بعد مدةٍ قصيرةٍ تبيّن أن الخميني مثل أيّ أصولي ديكتاتوري؛ فقد أقصى اليساريين والوطنيين واستقل مع الملالي بالحكم والتقط الصور مع ياسر عرفات كبدايةٍ لاستغلال القضية والتوسع الشعبي. حين قامت الحرب العراقية الإيرانية بدعمٍ من دول الخليج تعاطفت مع عروبتي على الرغم من معارضتي آنذاك للرئيس صدام، وكانت معارضةً علنيةً في مقالاتٍ صحافيةٍ بسبب ديكتاتوريته وتسلّط أولاده وتعذيب المعارضين.. وحين وقع صدام في فخّ واشنطن وغزا الكويت اتخذت موقفاً مضاداً للعراق على الرغم من تأييد الكثير من الصحافيين العرب للغزو، وتقدّمت بمقترحٍ علنيٍّ تمّت مناقشته في

الأمم المتحدة بأن يغادر صدام لاجئاً إلى الإمارات التي قبلت الاستضافة، ولكنّ صدام رفض وأصرّ على البقاء في الحكم معلناً أنّه سيهزم أميركا.. ظننا آنذاك أنّ عنده أسلحةً فتاكةً؛ فإذا بجموع الجيش العراقي تستسلم وتسير بالملابس الداخلية رافعةً الأيدي أمام طائرة هليوكبتر ساقتهم كالغنم.. تدمر العراق، وحين ذبحوا صدام صباح عيد الأضحى بكيت من القهر.. بكيت عليه وعلى العراق وعلى العرب الذين أسهموا في غزو العراق غازي الكويت.

الذكريات المشابهة كثيرة، لكنّي الآن وبصدد سوريا التي أحب وأحترم شعبها، أجد ذاتي في حيرةٍ مجدداً.. نعم كان حكم الأسد وولده من أشنع التجارب التي قد يمرّ بها مفكرون وأناسٌ شرفاء، أيّ إنسانٍ غير غنمه ولا يمأمئ كان مهدداً في كرامته وحياته في سوريا الأسد.. لكن التجربة مع ثوار الإسلام سواءٌ سنةٌ أو شيعةٌ -وخصوصاً- داعش هي قمة السوء إذ أعادوا الناس إلى أسواق النخاسة في أيام دولتهم الإسلامية.. وهؤلاء عادوا الآن إلى سوريا بدعمٍ وإرشادٍ تركيٍّ وتمويلٍ قطريٍّ ورضاءٍ وتأييدٍ غربيٍّ!! هل نفرح لسوريا والسوريين على التخلص من بشار وشلة الشبيحة، أم نحزن على ما هو بانتظار سوريا وشعبها وجيرانها؟ العلم الآن عند الله، واليقين في الأيام التالية.

أودّ هنا والآن تسجيل رؤيةٍ للمستقبل القريب جداً كنتيجةٍ محتملةٍ لأحداث سوريا ولن أغيّر هذه الفقرات في الكتاب مهما حدث من تغييراتٍ في الأحداث قبل طباعته.. الوضع في سوريا لن يسير على ما يرام؛ فستكثر عمليات الانتقام العشوائية التي ستؤدي لطائفية، وسيتمّ التطبيع السري ثم العلني مع إسرائيل، وسيعود الشعب السوري للخنوع تبعاً للتربية الطويلة التي مرّ بها، وكون التغييرات التي حدثت ليست وليدة تطويرٍ ثقافيٍّ. أضف لذلك أنّ مصر سوف تواجه الفوضى بفضل فعل الإخوان المسلمين ورغبتهم في تقليد

سوريا، وسيعمّ الخراب هنا، وسوف تستغل إسرائيل الفرصة وتدفع سكان غزة إلى سيناء بالقوة أو التحايل، وربّما تحتل نصف سيناء على الأقل.. في الأردن أيضاً هناك مخاطر؛ فقد تنمر الإخوان وصاروا يطالبون بعفوٍ عامٍ عن كلّ المساجين السياسيين وعن غيرهم حتى يكسبوا شعبيةً، وهم لديهم نوابٌ في البرلمان فازوا عبر انتخاباتٍ نزيهةٍ، ولكنّهم يريدون السيطرة والهيمنة وليس مشاركةً برلمانيةً تعبّر عن حجمهم كأقليةٍ نيابيةٍ. كلُّ هذه التطورات، وللأسف الشديد إما هديةٌ من السماء لإسرائيل، أو نتيجةٌ للفارق بين حسن تخطيطهم، واتكالية أعمالنا.

بالعودة للماضي القريب وذكرياتي في الشام وعنها يمكن القول إن هذه البلاد الجميلة أصبحت طاردةً لأهلها ومحبيها منذ بداية الربيع العربي عام ٢٠١١ إذ نزح أو هرب حوالي عشرة ملايين مواطن، وقتل في الحرب ٧٠٠ ألف، واعتقل نظام الأسد ٣٠٠ ألف في ظروف أشبه بالقرون الوسطى. لم يكن الوضع قبل ذلك على ما يرام، لكن قبل الربيع على وحشيته لا يقارن بما بعده. عرفت دمشق وريفها وريف درعا قبل تسلّم عائلة الأسد للحكم عام ١٩٧١، وبالمناسبة فإن اسم جد حافظ هو سليمان الوحش، وقد غيّر الاسم إلى الأسد لاحقاً، يعني بقي طوعاً بعيداً عن عالم البشر. شخصياً عرفت الشام قبل بلوغ سن الثامنة عشرة، ولذلك حين اعتُقلت لحمل السلاح في الشارع مكثت في السجن حوالي ساعتين وقُدمت للقاضي الذي أمر بإطلاق سراحي كوني قاصراً.. لو حدث لي ذلك في حكم الأسد لما خرجت من السجن إلا قبل أسبوع مع الخارجين التائهين الذين لا يعرفون لماذا تمّ اعتقالهم ومات معظم رفاقهم من التعذيب والإهمال والجوع.

بقيت الشام محطتنا منذ النكسة عام ١٩٦٧ حتى الحرب الأهلية في الأردن وأيلول الأسود وطرد قوات الثورة إلى لبنان.. آنذاك حدث الانقلاب

واستلم الأسد وجماعته الحكم، وفعل ما فعل حتى فُعل به. في عام ١٩٨٠ كنت قد أنهيت دراستي في ألمانيا وحضرت إلى الأردن على أمل الإقامة والعمل الحر فيها بعد رفض الاحتلال لطلبات لم شملي على أهلي في قطاع غزة.. لكن المخابرات الأردنية رفضت منحي إقامةً سنويةً حينذاك، فكنت كلّ ثلاثة أشهر أغادر الأردن مع زوجتي وسيارتي إلى سوريا؛ فنقضي بعض الأيام السعيدة الرخيصة جداً ونعود إلى الأردن عبر الحدود حيث يعطوننا تصريحاً لإقامة ثلاثة أشهر. اشتغلت زوجتي مدرسةً في مدرستين، الأرثوذكسية والفيرير، وكان من بين طلابها من أصبحوا رؤساء وزراء لاحقاً، أمّا أنا فكنت ممنوعاً من العمل، أي تمّ رفض منحي إذناً بإقامة أيّ مشروعٍ. في النهاية ذهبت مع أحد شيوخ العدوان إلى مكتب وزير الداخلية، سليمان عرار، الذي قال بحضوري بالنص للشيخ أنّه موافقٌ وسيوقّع الطلب ولكنّ المخابرات سترفضه.. بعد مدةٍ ذهبت للمخابرات للاستفسار فتمّ حجزي وختموا على جواز سفري أمر ترحيلي خلال ٤٨ ساعةً.. وهذه قصةٌ ورحلةٌ سنعود إليها في حينها.

في عام ٢٠٠٦ زرت الأردن واتفقت مع صديقي وقريبي عبد الرحمن، أبي مازن، أن نتجوّل في الشام.. كلّ الشام وأخذنا معنا أصغر أبنائه وأعتقد أنّه كان قد أنهى الثانوية.. أردنا التعكز عليه. على الحدود البرية واجهتنا أوّل مشكلةٍ؛ أبو مازن يحمل جواز سفرٍ دبلوماسياً وابنه أردنياً وأنا بريطانيٌّ غير مقيمٍ في الأردن.. حين سألني الموظف السوري عن مهنتي قلت له متقاعدٌ؛ فسأل عن المهنة قبل التقاعد؛ فقلت له صحافي، وهنا قرّر أن يسأل دمشق عني، والسؤال عبر برقياتٍ ولا من مجيبٍ هناك، أمّا ضابط مخابرات نقطة الحدود فكان غاطساً في مكانٍ ما.. غضبت وصرخت في الموظف وهدّدته بما سيلاقيه حين يعرفون في دمشق ما يفعله، وفي النهاية مررنا بسلام. لن

أطيل عليكم التفاصيل، ولكن هناك ملاحظتين عالقتين في الذهن: الأولى أنّ كلّ الفنادق الدرجة الأولى في كلّ مدن سوريا التي زرناها كانت حكوميةً وكانت الغرف والأسرّة مليئةً بالصراصير؛ فنشن كلّ ليلةٍ حملة تفتيشٍ ومطاردةٍ وصيدٍ حتى ننام بشيءٍ من الاطمئنان.. وكانت الفنادق تقبض الأجرة بالعملة الصعبة.

الملحوظة الأخرى صدمتني في مدينة الرقة على نهر الفرات شمال شرقي سوريا، وهي مدينةٌ فيها آثارٌ أمويةٌ ضخمةٌ، وكنّا نريد تتبع خط سير خالد بن الوليد عبر الصحراء من العراق إلى دمشق.. في أهم شارع في المدينة رأيت لافتةً مرفوعةً بعرض الشارع مكتوبٌ عليها (يعيش الرئيس حافظ الأسد) الغرابة هنا أنّ حافظ كان قد مات منذ ست سنواتٍ ولم يجرؤ مسؤولٌ في المدينة على تغييرها إلى يعيش بشار الأسد مثلاً، وهذا الشأن في نظري يعادل شروحات عدة كتب عمّا وصل إليه الشعب السوري بكلّ فئاته من خوفٍ وخنوعٍ.

في تلك الرحلة زرنا أيضاً ضريح ومسجد خالد بن الوليد في مدينة حمص، وزرنا ضريح عمر بن عبد العزيز في إدلب. عرجنا على المقامين للمعزة والحب لخالد ولعمر؛ فخالد غنيٌّ عن التعريف وهو ابن خالة لعمر بن الخطاب الذي حقد عليه، وفور تسلمه الخلافة عزله عن قيادة الجيش في الشام، ثم حاكمه وأخذ نصف أملاكه حتى الأحذية أخذ فردة وترك أخرى لخالد؛ فبقي في الشام ولم يعارض أو يقاوم حتى مات ودفن في حمص.. أمّا عمر بن عبد العزيز؛ فهو الخليفة العادل النادر، بل الفريد الذي استعاد الأموال من أقاربه الأمويين ووزّعها على الشعب؛ فقامت العائلة بتسميمه.. أمّا مسجده وضريحه فقد تم حرقه وتخريبه عام ٢٠٢٠.

شملت رحلتنا آنذاك دمشق وحمص وحماة وإدلب وحلب والرقة

والرصافة ودير الزور وتدمر، وما بينها من أرياف وصحار ونجوع على طرق غير معبدةٍ، وعدنا عبر دمشق إلى درعا حيث زرنا مدينة بُصرى الشام الأثرية التي كان الرسول والقوافل يستريحون فيها أثناء ترحالهم بين مكة والشام في رحلة الصيف، وفي هذه المدينة كان محمد قبل النبوة يلتقي الراهب بحيرا..

عساكم بخير وبعقل يا قوم.

بين الحروب والترحال

في سبتمبر ١٩٧٣ سافرنا عبر بيروت إلى القاهرة وكأنّني على موعدٍ مع حضور الحروب في مصر، النكسة، الاستنزاف، والآن سنعايش حرب أكتوبر. كنت مع زوجتي وصديقي الألماني هاينر وزوجته الفرنسية دومنيك.. كنّا جميعاً في مطلع العشرينيات من عمرنا، وقد عمّقت تلك الرحلة صداقتنا المستمرة للآن لأطول من نصف قرنٍ، وحين توفيت دومنيك من إصابتها بسرطان الدم انتظروا قدومي من الأردن إلى فرنسا قبل دفنها، وقد كرموني بإلقاء خطبة الوداع على قبرها كأقدم صديقٍ للعائلة.

تعمدت المرور على بيروت في الطريق إلى مصر لزيارة بعض الأصدقاء في مركز الأبحاث الفلسطيني، وزيارة بعض من تعرّفت إليهم قبل خمسة أشهر آنذاك حين حضرت جنازة شهداء الفردان، ثم واصلنا رحلتنا إلى مطار القاهرة حيث لا بدّ لمن يحمل وثيقة سفر للاجئين الفلسطينيين بالمكوث والانتظار لوصول الموافقات على الرغم من صدور الوثيقة من القاهرة وسفارات مصر أصلاً.. في النهاية شفع لي وجود أصدقاء معي وختم الإقامة السنوية الألمانية على الوثيقة الجديدة التي استخرجتها من السفارة المصرية في بون بدل فاقد، بمعنى أنّهم أيقنوا عدم عزمي البقاء في جنتهم، أو عمل ما يعكر صفو أمنهم.

كنت أعرف مصر من أقصاها إلى أدناها؛ فقد اشتغلت في سدها العالي وبناء الشوارع لخطوط الكهرباء وتحصينات مواقع الصواريخ السوفيتية، ولم

نكن نتوقع الحرب طبعاً، كون السادات قد طرد الخبراء السوفييت ومعهم الطيارين والفنيين الذين يشغّلون الرادارات، كما أن الرئيس المصري سبق ووعد وتعهد وتوعد مراراً أن هذا العام ستكون الحرب.. وجاء عام التأخير وعام الضباب، ثم فعلها في يوم عيدهم وكانت حرب أكتوبر. (عُرف لاحقاً أن أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية تفحّصت ماضي السادات وصباه وأيقنوا أنه لن يشن أيّ حربٍ).

قبل الحرب بيومٍ واحدٍ سافرت دومنيك عائدةً بسبب ارتباطاتٍ مسبقةٍ، وأخذنا في اليوم التالي قطار المجرى السريع من القاهرة إلى الأقصر.. في الطريق سمعنا من ترانزستور أحد الركاب قيام الحرب، ولم يكن بوسعنا سوى استكمال الرحلة والاستمتاع بالأقصر والصعيد وتتبع سير المعارك.. وصلنا إلى الفندق بينما بقية السياح يغادرون على أمل أن يجدوا طائراتٍ تعيدهم إلى بلادهم. أصبحت الأماكن السياحية فارغةً إلّا من ثلاثتنا.. الكرنك، ووادي الملوك أصبحت وكأنّها لنا، ولا أدري أين ذهب الجميع وخصوصاً المصريين كباراً وصغاراً، الجميع يتابع الحرب بالقرب من الراديوهات وأجهزة التلفاز. عندما انتهى الزمن المقرّر لرحلتنا توجّهنا إلى القاهرة وعرفنا أنّ بقايا الأجانب يتجمعون في فندق الهيلتون ليتمّ نقلهم بالحافلات إلى بنغازي في ليبيا ليغادروا من مطارها إلى بلادهم.. حوالي ١٣٠٠ كيلومتر من دون نوم ولكن استراحاتٌ قصيرةٌ في الصحراء لقضاء الحاجة، وكان برفقتنا ضابطٌ وبعض الجنود، ومررنا على مناطق كنّا قد زرناها في تلك الرحلة قبل الحرب، مثل العلمين التي كانت حينذاك فارغةً إلّا من نقطة شرطةٍ تحرس مقبرة جنود الحرب العالمية الثانية.

في بنغازي دخلنا إلى الغرف في الفندق بضع دقائق، ثم قيل لنا إنّ طائرةً تنتظرنا في المطار.. كانت طائرةً عسكريةً بمحركين مروحيين أوصلتنا إلى

روما ليلاً، وقضينا الليلة على كراسي البلاستيك في المطار حتى جاء موعد رحلتنا إلى فرانكفورت. كان هناك ثلاث حافلات في الرحلة من القاهرة إلى بنغازي واتسعت الطائرة لجميع الركاب وقوفاً وجلوساً.

أرى وأسمع وأتذكّر وأكتب عن حرب أكتوبر بينما إسرائيل تسرح وتمرح في كلّ الجولان السوري بعد انهيار نظام الأسد، وتقول العصابات الإسرائيلية مدعمةً بتأييد الإدارة الأميركية أنّ نهاية النظام السوري تعني نهاية اتفاقية وقف إطلاق النار الموقّعة بعد حرب أكتوبر، وبالتالي، يحقّ لإسرائيل الدفاع عن ذاتها باحتلال بقية الجولان وطرد السكان لأن مُوقّع الاتفاقية معهم ذهب! ولا يهم هنا أنّه لا يوجد تهديدٌ لإسرائيل أو حتى جنديٌ واحدٌ على الحدود، كما أنّ أصحاب هذا التفكير الإجرامي يقومون بتدمير قوات وأسلحة الجيش السوري في كلّ البلاد، والتي لم تُطلق ضدهم منذ حرب أكتوبر. هناك مثال بريطاني مختصر يقول: القوة هي الحق.. (Might is right)

بمناسبة ذكريات مصر وواقع سوريا أسجّل أن الجمهورية العربية المتحدة أيام قيام الوحدة بين البلدين بزعامة جمال عبد الناصر شكّلت ثلاثة جيوش: الأوّل هو الجيش السوري، والثاني والثالث تشكلان في مصر، ورغم الانفصال ورفض ناصر فرض استعادة الوحدة بالقوة، بقيت هذه الجيوش على مسمياتها، وخاضت -معاً- حرب أكتوبر ١٩٧٣، ومن أجل مساعدة الجيش العربي الأوّل تم تدمير الجيش الثالث تقريباً. القصة باختصار: قبيل موعد الحرب المتفق عليها سراً بين الأسد والسادات، أصرّ الرئيس السوري أن يتواصل تقدم الجيش المصري إلى أواسط سيناء لتوفير الوقت ومشاغلة إسرائيل ليتمكن الجيش الأوّل من تحرير الجولان.. وافق السادات على شرط الأسد مضطراً واعترض رئيس الأركان الشاذلي، لأن اندفاع الجيش الثاني داخل سيناء سيعني خروج القوات من تحت مظلة الصواريخ المضادة

للطائرات، والتي مداها فقط اثنا عشر كيلومتراً غرب قناة السويس. بدأت الحرب ودخل الجيش الثاني تحت حماية الصواريخ واجتاح خطوط بارليف، لكن تقدّم الجيش الأوّل تعثّر في الجولان، وأصرّ السادات على تقدّم قواتٍ إضافيةٍ إلى وسط سيناء حيث كانت الطائرات الإسرائيلية بانتظارهم ودمرت في يوم واحد ٤٠٠ دبابةٍ.. ثم رفض السادات استرجاع القوات الإضافية لتساعد في مقاومة الثغرة التي أحدثها الجيش الإسرائيلي إذ عبر القناة.. بدأ التراجع السياسي والتردّد العسكري عن إبادة القوات الإسرائيلية التي عبرت القناة، ولو أبادوها آنذاك لانتهت إسرائيل تماماً، إذ كانت الثغرة آخر محاولةٍ لهم لاستعادة الهيبة وأصبحت قواتهم تُحاصر، ولكنّها أيضاً محاصرةٌ لو ترك السادات القادة العسكريين ينفذون رؤيتهم.

أصبحت النتيجة لاحقاً أن الجيشين الثاني والثالث ممنوعان من دخول سيناء حسب اتفاقية كامب ديفيد للسلام التي وقعها السادات عام ١٩٧٨، والجيش الأوّل أصبح الآن في النصف الأول لشهر ديسمبر ٢٠٢٤، مع أسلحته وقواته في خبر كان. الديمقراطية في البلدين كانت في خبر كان أيضاً، وعائلة الأسد تمزّقت، بينما السادات تمّ اغتياله ومبارك الذي تبعه وأراد توريث الحكم لأولاده على طريقة الأسد؛ دخل السجن هو وأولاده وسيطر العسكر مجدداً من دون قوةٍ فعليةٍ لصدّ عدوانٍ خارجيٍّ.. كلّ هذا يحدث وسوف يتواصل ويتكرر في أي بلادٍ لا تتبع القواعد الديمقراطية الفعلية، وتتمسك بالغيبانية.. ربّما ينقلب الوضع في مصر فجأةً فالناس غير راضين عن الحكم وعن الوضع المعيشي والحريات، وعلى الأرجح أن إيران ستواجه المصير نفسه؛ فحيث توجد معارضةٌ في مواجهة ديكتاتورية؛ فالنتيجة معروفةٌ ولو بعد حين.. الثابت أنّ إيران فقدت هيبتها وأجنحتها الخارجية وأصبحت مهدّدةً في عقر دارها وقرارها.

لو بقيت سوريا متحدةً جغرافياً ووطنياً ولم تعد للاشتباكات والحروب؛ فإنّ إعادة إعمارها وإعادتها إلى وضع ما قبل الحرب الأهلية سيكلف ٣٠٠ مليار دولار على الأقل، أي ما يعادل ميزانية كل من مصر والأردن وإسرائيل مجتمعةً؛ فمن أين ستأتي هذه الأموال، -خصوصاً- وأن دول الخليج تواجه عجزاً في ميزانياتها، ودول أوروبا تمرّ بأوضاعٍ ماليةٍ غير مريحةٍ نظراً لنفقات حرب أوكرانيا على الغرب والتي فاقت تريليون دولار.. كانت سوريا الأقل ديوناً بين الدول، والأكثر اعتماداً على ذاتها، وجيشها في الترتيب الثالث عربياً والسادس والعشرين عالمياً، وبفعل عائلة الأسد وسياستهم وعدم تجاوبهم مع مطالب الديمقراطية تمّ إعدام الدولة، ودمّرت إسرائيل أسلحةً مخزنةً ستحتاج الدولة إلى ٣٠٠ مليار أخرى لتعويضها، وهذا يعني أنّ على سوريا الجديدة أن تعيش حياديةً من دون جيشٍ يحمي حدودها.. بالمناسبة فإنّ غزة تحتاج إلى ١٠٠ مليار لإعادة الإعمار بما يشابه الوضع قبل السابع من أكتوبر، -وبالطبع- لن يعود القتلى ولن يشفى الجرحى ولن تزول الأحزان والمآسي الشخصية!

نعم تحرير الأوطان يحتاج إلى تضحياتٍ، لكن في حالة سوريا لو كان رئيسها منتخباً وذهب حين رفضه الشعب، لما حدثت هذه الكارثة التي قد لا تنجو منها سوريا موحدة.. ولو تجاوبت حماس مع مطالب الديمقراطية وخضعت وأجبرت بالتالي فتح والسلطة على الانتخابات، لما وصلنا إلى هذه المقتلة وهذا التهديد للمستقبل.. هل انتخب الشعب الفلسطيني، أو حتى سكان القطاع منفردين، هل انتخبوا يحيى السنوار الذي اتخذ باسمهم قرار السابع من أكتوبر وحمّلهم كلّ هذه النتائج؟ كان من الواجب أصلاً رؤية فارق القوة واللجوء إلى طرق تحريرٍ أفضل وأسهل.. لماذا يعتقد بعض الأصوليين أنّ مستواهم العقلي ورؤيتهم هي الطريق الوحيد المتاح حتى لو أدى ذلك

للدمار، والشيء نفسه يُقال عن جماعة السلطة الأقل مستوى عقلياً من الأصوليين ويتمسكون بالمصالح الضيقة الذاتية على حساب القضية والشعب والأجيال، وبقوا عملياً ساكنين طوال المقتلة من دون أيّ مبادراتٍ لأخذ زمام الأمور! كانوا ينتظرون ويتمنون أن تخلّصهم إسرائيل من حركة حماس.

كمواطنٍ صالحٍ أتابع أهوال ما يتكشف عن سجون الأسد -وخصوصاً- سجن صيدنايا، أتذكّر تجربتي مع السجون في الدول العربية، وهي لا يجب أن تقارن، أو أقارنها بحديقةٍ غنّاءٍ مليئةٍ بالنعيم ويسودها الأمن والعدل والقانون إذا ما قورنت بما نسمعه ونراه في دمشق بعد هروب بشار. أول سجن دخلته كان في الدقي بالقاهرة وكنت تحت سن الثامنة عشرة.. ذهبت إلى قسم الشرطة لتجديد إقامتي المنتهية، وكان لا بدّ من عقابي بالمبيت في غرفة الحجز حتى تنتهي الإجراءات. كانت الغرفة مليئةً باللصوص والنشالين، ولكن لم يكن حيلتي شيء أخاف عليه، وكانت صحتي ممتازةً وبالتالي، سيتجنب أيّ شخصٍ معاداتي. كانت الغرابة في الليل أنّني اعتقدت أنّ الجدران تتحرك، واكتشفت أنّ حركة الحشرات على الجدران أوحت لي بذلك، وكان همّي متى أخرج، وصرت أخطّط لأقرب مكانٍ يمكنني الوصول إليه للاستحمام.

الحجز الثاني كان في دمشق قبل استلام عائلة الأسد للحكم، حملت السلاح في الشارع، كلاشينكوف، وكنت قد حضرت مع أخي خضر من الأردن لزيارة الشام.. بعد ساعتين حكم لي القاضي بالإفراج وعدت إلى الفندق؛ فسألني خضر: أين الكلاشينكوف؛ فقلت له تمّت مصادرته، وانتهى الأمر.

بعد عقدٍ زمني على الانتهاء من الثانوية العامة في مصر والسفر إلى ألمانيا وإنهاء الدراسات العليا هناك في السياسة والاجتماع والعلوم الإسلامية عام ١٩٧٩، تشاورت مع زوجتي ووافقت أن نسعى للعيش في الأردن.

سافرت إلى عمّان جواً لتجهيز السكن، ولحقتني زوجتي ومعها ابنتنا الصغيرة (عامان) بالسيارة عبر البحر من إيطاليا حيث زارت ابنة عمها هناك. كنّا سابقاً قد سافرنا من مدينة برنتيسي في جنوب إيطاليا إلى الإسكندرية بحراً. انتظرتها يومين في اللاذقية ثم سافرنا مروراً واستراحةً وزيارةً لأصدقاء في دمشق إلى عمان. كان معي تحويشة مدة الدراسة والعمل أثناء الإجازات، ولأني كنت أستبعد أيّ عمل بشهاداتي وخصوصاً في الأردن ولي شخصياً كوني أحمل وثيقة سفر فلسطينية.. بسبب ذلك أردت الانخراط في مشروعٍ لتربية الديك الرومي (الحبش) وباشرت البحث والتخطيط بينما تقدّمت بطلبٍ للحصول على إقامةٍ سنويةٍ قابلةٍ للتجديد.

دخلت ابنتي ليلى حضانةً، وعملت زوجتي مدرسة لغتين الإنجليزية والفرنسية في مدرستين كونها خريجة لغات وتحمل جواز سفرٍ بريطانياً، وسعيت بحثاً عن طرقٍ للإقامة.. مرّ الزمن ولم أحصل سوى على تجديدٍ كلّ ثلاثة أشهر، وأخذت الأموال القليلة تنحصر رغم تدفقٍ بسيطٍ من عمل الزوجة وبعض أعمال التجارة التي مارستها من دون تراخيص. كان منزلنا المستأجر فيلا مستقلةً من طابقٍ أرضي في الشميساني (الرابية لاحقاً) يحدّها من اليسار منزل السفير الأميركي، ومن اليمين عائلاتٌ فلسطينيةٌ تعيش في خيامٍ وبيوتٍ طينيةٍ ويعرفون والدي منذ أيام فلسطين، وخلفنا آخر ما وصلت إليه عمّان الغربية من إعمار، وأمامنا غرباً صحراء فارغةٌ. أحياناً يصلنا أناسٌ من البدو حضروا من الغرب في طريقهم إلى عمان؛ فيجلسون على فرشاتٍ وضعتها في الحديقة، ويشربون من ماء النافورة حتى أحضر إليهم الشاي وأرشدهم إلى موقف الحافلات.. وإذا خرجنا مع المساء وعدنا ليلاً يتوجب علينا إيقاف السيارة ملاصقةً لباب الحديقة لنهرب من الكلاب البرية المتجمعة في المنطقة.. هذه المنطقة أصبحت لاحقاً تُعرف بأم أذينة وكانت قريبةً من

الدوار الخامس الذي كان آخر العمار وتليه الصحراء.. الآن صار هناك الدوار السادس والسابع والثامن ووادي السير ومنطقة بدر، وكلّها تقع غرباً من بيتنا آنذاك.

المهم أنّني سئمت الانتظار دون الحصول على الإقامة؛ فتقدّمت بطلبٍ جديدٍ وأدخلت واسطةً من شيوخ العدوان ثم راجعت مقرّ المخابرات مراراً وطوعاً للحصول على نتيجة، حتى ذهبت ذات مرةٍ من دون إبلاغ أحدٍ بذلك وهناك تمّ أخذ جواز السفر وختمه بأمر تسفيرٍ من البلاد خلال ٤٨ ساعةً، ورافقني شرطيٌ إلى مركز شرطة العبدلي ليتمّ احتجازي حتى وقت الترحيل. طوال محاولاتي الحصول على الإقامة كنت أنوّه بأنّني أحمل تذكرة سفرٍ مفتوحةً إلى ألمانيا وإقامةً ساريةً هناك وإقامةً دائمةً في بريطانيا، وكنت أنوّه بذلك حتى أساعد السلطات على تقبّل طلبي، ولكن خابت الظنون. في الطريق إلى مركز الشرطة طلبت من الشرطي أن نعرّج على محلٍ للاتصال الهاتفي، وأخبرت صديقي وابن عمي أبا مازن بالأمر، واتصلت بزوجتي في المدرسة وأبلغتها بالأمر وأنّني ذاهبٌ إلى مركز شرطة العبدلي حيث مكثت للمساء في الحجز.

الغريب أنّني لم أشعر بغربةٍ في الحجز؛ فقد تعرّفت إلى مجموعةٍ من غزة وكانوا يعرفون أهلي؛ وعندما حان موعد توزيع الخبز تكالب المساجين وتصارخوا، وأنا جالسٌ؛ فأحضر لي هؤلاء المعارف الخبز وكان معهم طعامٌ وتحادثنا وانسجمنا حتى سمعت من يقول: من مِن الشباب متزوجٌ أجنبيةٍ؛ فنظرت فإذا بزوجتي تحمل ابنتي على الجهة الأخرى من نافذة الحديد، قالت إن أبا مازن في المكتب مع الضابط، وأنّها حصلت على تمديدٍ للترحيل خلال أسبوعٍ وإطلاق سراحي حتى نجهّز أنفسنا. بعد دقائق ودّعت الشباب وخرجت إلى مكتب الضابط، وعدنا إلى البيت للاستعداد للسفر بعد التخلص

ممّا هو غير ضروري وتخزين بعض الأشياء عند الأهل، وحمل ما تمكنت سيارة الفيات ١٢٥ من حمله فوقها، وفي صندوقها وداخلها ورحلنا عائدين بسيارتنا إلى أوروبا عبر رحلة عشرة آلاف كيلومتر حتى لندن.

كانت زوجتي عندما أبلغتها هاتفياً قد نشرت الخبر بين المدرسين ومدير المدرسة الأرثوذكسية الذين نصحوا، وحاول المدير الاتصال بمعارف ولكن من دون جدوى، علماً بأنّ طلاب هذه المدرسة هم أبناء الطبقة الحاكمة اقتصادياً وأمنياً في البلاد.. قبل القنوط قالت زميلةٌ لزوجتي إن باشا المخابرات يقيم في شقةٍ فوق شقتهم ويعود يومياً بعد الظهر إلى بيته، واقترحت عليها الذهاب معها وعندما يحضر الباشا ستشير إليه وهو خارج البناية وتراقب الوضع من النافذة؛ فتعترض زوجتي طريقه وتخبره بما جرى وتطالبه بزيادة مدة الترحيل وإطلاق سراحي للاستعداد للسفر براً.. أخبرت زوجتي ابن العم أبا مازن بالخطة هاتفياً وحدّدت له المكان والساعة ليوجد هناك وينضم إليها في الحديث والتفسير تحسباً لمصاعب لغويةٍ.. وهذا ما تمّ إذ أخبروه على باب العمارة -باختصارٍ شديدٍ- ما حدث وقالت زوجتي هذا غير إنساني وهي تطالب بإطلاق سراحي وتمديد أسبوعٍ ريثما نستعد للسفر.. سألها الباشا أين أخذوني فأخبرته، وقال لها اذهبي هناك وستجدين الأمر بالإفراج والتمديد بانتظارك، وهذا ما كان.

قبل استكمال تجارب الحجز في الدول العربية سوف أستكمل هذه القصة باختصارٍ مفيدٍ. بدأنا في اليوم التالي بالذهاب إلى السفارات للحصول على فيز للسفر براً حتى نحمل ما تيسر من أشيائنا.. ذهبنا للسفارة اليونانية على أمل السفر بحراً من اللاذقية إلى بلادهم؛ فرفضوا منحي فيزا، ومثلهم فعل الطليان في اليوم التالي، وتنبهنا إلى وجود سيارةٍ تراقبنا وتتبعنا طوال الوقت. ذهبنا لاحقاً للسفارة التركية؛ فتمّ الرفض فوراً؛ فطلبنا اللقاء مع

القنصل وشرحنا له القصة كلّها وأنه أملنا الأخير.. قال بعد صمتٍ وشرحٍ إنه غير مخوّلٍ كون البلاد تحت الحكم العسكري وإنه سيعاقب بشدةٍ لو تمّ الإمساك بي في البلاد بفيزا هو غير مخوّلٍ بإصدارها، ثم وبعد صمتٍ وتأملٍ قال سأمنحكم فيزا مرور ولكن عليك أن تعدني بعدم التوقف في أي مكان داخل تركيا، وعمل ما تستطيع لتجنب الاحتكاك بالسلطات.. شكرته على الثقة ووعدته بعدم التوقف، وقد أوفيت بوعدي ولم أتوقف إلا لقضاء الحاجة على قارعة الطريق وشراء البنزين طوال ١٥٠٠ كيلومتر من الحدود السورية التركية حتى الحدود التركية البلغارية.

لقد غادرنا عمّان واسترحنا يومين في دمشق طرف الصديق عمر الشهابي، ثم انطلقت إلى معبر باب الهوى بين سوريا وتركيا وواصلنا المسير من دون عثراتٍ تُذكر، اللهم في يوغسلافيا احتاج الاوكزوزت إلى تصليحٍ بعد ارتفاع صوته، ونمنا هناك في فندقٍ لأوّل مرةٍ طوال الرحلة، وفي المجر كان شراء الخبز بالبطاقات ومنحتنا عجوزٌ نصف رغيفها بعد أن شاهدت ليلى وانتبهت لحيرتنا في شراء خبز. مررنا بالنمسا، وبعد اقترابنا من ألمانيا عادت ليلى تتجاوب معنا في الحديث؛ فقد كانت شبه صامتة وهي محشورةٌ في زاويةٍ على الكرسي الخلفي وتحت أقدامها كرتونةٌ فوقها آلة طابعة.. اكتشفت لاحقاً أنّها صُدمت منذ مشاهدتي خلف القضبان، وعندما وصلنا إلى لندن وكنت أخاطبها بالعربية صرخت مطالبةً بعدم الحديث بهذه اللغة، وصدمتني ففكّرت واستنتجت.

تجربتي في لندن غنيةٌ وشيقةٌ وطويلةٌ وسأعود لتفاصيلها، لكن الآن لنتابع قصص السجون، وسأوجز بالقول إنّني قبيل الانتفاضة الأولى ذهبت إلى مصر لزيارة الأقارب والأصدقاء في منطقة رفح المصرية التي صارت تسمى (كندا) كون القرية أقيمت بفعلٍ ودعمٍ إسرائيليٍّ في موقعٍ كان معسكراً

للقوات الكندية الدولية، وعلى الجانب الفلسطيني هناك موقعٌ اسمه البرازيل للسبب نفسه.. كان سكان كندا خليطاً من اللاجئين في رفح ومنهم أقارب ممن هدموا بيوتهم في رفح الفلسطينية مقابل السكن الأوسع في رفح المصرية، وكانت الحكومة المصرية تخطّط لإعادتهم داخل الحدود الفلسطينية بالاتفاق والتنسيق مع إسرائيل، وأقيمت لهم منازل في منطقة تل السلطان برفح بالقرب من المواصي وشاطئ البحر.

استأجرت أحد الشاليهات على الشاطئ في الجانب المصري، وتكرّرت زياراتي للمكان واختلاطي بالناس ورأيت فرصةً لتخزين أسلحةٍ وتهريبها إلى الداخل الفلسطيني من دون استعمالها في مصر أو عبر الحدود ليبقى الجو آمناً وملائماً لتنفيذ التهريب، وشكّلت لذلك مجموعاتٍ، كلٌّ منها مختصةٌ بشأنٍ محدّدٍ. سارت الأمور على خير ما يُرام نظراً للمعرفة الدقيقة للناس على جانبي الحدود، وكون هذه الحدود آنذاك كانت عبارةً عن شريطي أسلاكٍ شائكةٍ يفصل بينهما منطقةٌ فارغةٌ عرضها ٢٠ متراً، وهذه ما أصبحت تُعرف بمحور فيلادلفيا. كانت الثغرات متوافرة على الجانبين.. كما وجِدت أنفاقٌ تجاريةٌ تحت الحدود ولكن لم نلجأ إليها لضمان السرية؛ فهي أنفاقٌ تجاريةٌ كان يتمّ العمل فيها بمعرفةٍ مصريةٍ وإسرائيليةٍ.

حتى أغطي على تحركاتي كنت أتظاهر بالسياحة وأصوّر بعض الأمور في سيناء وفي أسواق البدو.. – ذات يومٍ– وقفنا، قريبي وأنا، أمام مركز شرطة العريش، وكان العلم المصري يرفرف على الباب، وكنت أعرف الموقع قبل تحريره وعودته للمصريين من خلال الزيارتين لقطاع غزة وتجوالي في سيناء المحتلة حينذاك.. دون عميق تفكيرٍ، وبغباءٍ فاضحٍ نزلت من السيارة وأنا أحمل كاميرا فيديو وصوّرت العلم والجنود على الباب.. شعرت بحركة وتنبه رجالٍ باللباس المدني وأيقنت أنّهم مخبرون؛ فذهبت إليهم وسألتهم إذا كنت

فعلت شيئاً خاطئاً؛ فأنا أصوّر العلم والموقع المحرّر، وقلت لهم إذا أرادوا يمكنني مسح الصور هنا أمامهم؛ فردوا بأنّه لا داعي وأن كلّ شيءٍ على مايرام. -بالطبع- سجّلوا رقم السيارة، وتتبعونا بحرفيةٍ ولم نشعر بهم، ولكن في اليوم التالي حضروا لبيت قريبي وأخذوه، وكنّا قد أجرينا بعض الأمور الوقائية بعد حادثة التصوير.

غاب شكري في مديرية شرطة العريش، وفي اليوم التالي أرسلنا بعض الأعيان للسؤال عنه وكفالته؛ فعاد الأعيان حاملين الرفض والطمأنة أنّه بحالةٍ جيدةٍ وأنّهم سيطلقون سراحه حين يحضر الشخص الذي كان معه أمام مركز الشرطة.. يعني يريدونني. سألت من كان في الوفد؛ وفهمت أنّهم يعذبون شكري وأنّهم مصرون على رؤيتي. رتبت مع الوفد أن نذهب في اليوم التالي على أمل أن يسألوني ما يريدون ويطلقوا سراح شكري ونعود.. كنت أريد بعض الوقت للتعامل مع شريط الفيديو المصور، وللاتصالات مع أصدقاء مصريين ومع أخي عبد الكريم في ألمانيا ومع زوجتي في لندن، وتبيان ما حدث وأين سأذهب ورتبت تعريفهم إلى أين سيأخذونني لاحقاً من العريش. كنت على ثقةٍ أنّهم لا يملكون معلوماتٍ دامغةً والأمر لا يتعدى الاستفسار ولذلك أبلغت الأصدقاء المصريين بهذه الصيغة وإذا تطوّر الأمر أكثر من ذلك؛ فسيتمّ إبلاغهم.

تمّ الاستقبال في المديرية، وطلبنا إحضار شكري -وبالفعل- جلبوه حتى يطمئن الوفد إليه، لكنّ المسؤول رفض إطلاق سراحي وشكري، وقال للوفد سيتمّ إرسالنا إلى القاهرة للسؤال ومن هناك سيتمّ إطلاق سراحنا.. عندما شعر أعضاء الوفد بالإحراج طمأنتهم بعدم وجود مخاوف وأن عليهم الاطمئنان والعودة لبيوتهم. قضينا ليلةً في حجز شرطة العريش، وكان شكري معي طوال المدة. جلسنا طوال اليوم في مكتب الضابط المناوب دون قيودٍ، وعندما جاء

المناوب الليلي تحدّثت معه وتعرّفت إليه وكان من عائلة الفرماوي، وأخبرته بوجود صديقٍ لي وزميلٍ في لندن رسام كاريكاتير من هذه العائلة، هو سعيد الفرماوي. عندما تأخر الوقت طلب الضابط منّا النوم قليلاً في الحجز مع بقية السجناء حتى الصباح ليتمّ نقلنا للقاهرة، وقال لي على الأرجح سنذهب إلى لاظوغلي، وهي مقر المخابرات، ثم هدّد السجناء إذا اقترب أحدهم منّا أو فقدنا شيئاً فسينالهم أشد العقاب.

في الصباح تمّ نقلنا في سيارةٍ مغلقةٍ ولكن من دون قيودٍ، وكان معنا في الخلف جنديٌ مسلّحٌ وفي مقدمة السيارة مسؤول أمنٍ باللباس المدني ويحمل مسدساً، وكان في غاية الأدب ويخاطبنا بالإخوة حتى دخلنا إلى بناية لاظوغلي؛ فعدّل اللغة وأصبحنا المتهمين. على الدرج واجهنا أحدهم واستفسر ثم صرخ في المرافق كيف ينقلنا في البناية دون تغطية العيون، وبقينا مكاننا حتى أحضر لنا شريطين وضعا على الأعين ولكن بقينا من دون قيودٍ. لم أعد قادراً بعد ذلك على تحديد إلى أين ذهبنا على الأدراج صعوداً وهبوطاً عدة مراتٍ بغرض التضليل حتى استقر بنا الحال على ما أظن في صالةٍ فارغةٍ، وطلب منا صوتٌ رخيمٌ الوقوف ساكتين، وكلّما تكلّمت أو سألت عن شيءٍ يقال لنا بصوتٍ وكأنّه قادمٌ من القبور أن نسكت؛ فقررت الجلوس والارتياح وهكذا فعل شكري وكان دوماً بجانبي.

كنّا قد اتفقنا في السابق، شكري وأنا على القصة التي نقولها وأن لا تغيير فيها مطلقاً، وأن عليه التحقق بالصمود والاطمئنان. قضينا ساعاتٍ طويلةً على هذا الحال الذي يُشعرك بتقييد حريتك وأنّك تحت رحمة آخرين ومستقبلك مجهولٌ ولا يمكنك الكلام أو فعل أيّ شيءٍ، وعندما أدخلوني للمسؤول حقّق وسجّل المعلومات وشرحت له أنّ الأمر ومحاولة التصوير تمّت في العلن وأنّي كنت أشاهد المخبرين ولذلك لم أصوّر أصلاً وتحدثت

معهم وها هي الكاميرا والشريط، وشغلتها له؛ فشاهد عليها مسرحية كاسك يا وطن مسجلة من التلفزيون، وأخبرته أنه كان بوسعي مغادرة البلاد في أي وقت ولكنّي حضرت إليكم عندما عرفت أنكم تريدون الحديث معي.. قال إنّه يقدّر حضوري طوعاً، ولكن لم يكن بوسعي مغادرة البلاد كما أظن. وقال إنّه سيتحقّق من المعلومات ثم يقرّر بشأننا.

كان الزمن شهر رمضان في عهد حسني مبارك، وقضينا أربعة أيامٍ في زنزانةٍ مليئةٍ بالشباب المصريين الذين كانوا يُعذبون كلَّ يومٍ.. يأخذون بعضهم في الصباح ويعودون بعد الظهر غير قادرين على السير بسبب الفلقات والضرب الذي تلقوه على أقدامهم. لم يكن لديهم ما يدلون به للمحققين، وكان كلٌّ منهم من مكانٍ مختلفٍ وكلّهم شبابٌ زهاء سن العشرين ومن خارج القاهرة. تعرفت إليهم جميعاً وعرّفتهم إلى نفسي وقريبي وأنّنا من رفح وقادمان من العريش، وصار معظمهم يريد زيارتنا في العريش لاحقاً لمساعدتهم في العثور على عملٍ هناك. كان حارس الزنزانة يجلس في صومعةٍ على الباب، ويلاطف السجناء ويجلب لنا ما نريد من الخارج؛ فطلبت كمية مياهٍ كبيرةً ليكون مع كلّ واحدٍ زجاجته، وبعض الحلويات نتناولها بعد الإفطار.

في اليوم الرابع أخذوني وحدي إلى مكتبٍ فيه ثلاثة ضباطٍ باللباس المدني، وعلى المكتب شاهدت كاميرتي؛ فتفاءلت خيراً، وصاروا يسألونني عن الوضع في السجن وهل ضايقني أحدٌ وهل عُذبت أو حتى عوملت من دون احترامٍ.. كنت أجيبهم بما يرضيهم وبما هو صحيحٌ وشعرت بوجود تدخلٍ خارجيٍّ. قال لي أحدهم سنطلق سراحك اليوم؛ فقاطعته بأنّي لن أخرج إلّا ومعي ابن عمي شكري؛ فوافق وأكمل حديثه بما معناه: عليك أن تعرف أنّنا لم نضايقك قط، وإذا عدت إلى لندن لتقول إنّك تعذّبت وما شابه؛ فاعلم بأنّنا سوف نرسل للمخابرات البريطانية ملفاً زي الزفت عنك. قلت له إنّ المعاملة

كانت محترمةً وأنّني أقدّر دور الأمن والمخابرات كأجهزةٍ وطنيةٍ، وأنّني ناصريٌّ وقوميٌّ التفكير ولا أفكّر في ضرر مصر. كنت أعرف من الماضي أن ضباط المخابرات المصرية يتلقون منذ أيام عبد الناصر محاضراتٍ في القومية العربية.

خرجنا بالسلامة ومعنا الكاميرا أيضاً، وسافر شكري مباشرةً إلى رفح كندا بينما قرّرت المبيت ليلةً في القاهرة قبل اللحاق به للاحتفال مع الأهل. علمت أنّ زوجتي تواصلت مع السفارة البريطانية في القاهرة منذ اليوم الأوّل على احتجازنا، وأن القنصل ذهب إلى لاظوغلي وأخبروه أنّني لست عندهم، وعندما أيقنت من الأهل في رفح كندا أنّني عندهم عاودت التواصل مع السفارة بمزيدٍ من القلق لأنّهم ينكرون وجودي؛ فعاد القنصل إليهم مصراً على وجودي عندهم وضرورة إطلاق سراحي إذا لم يوجّهوا لي أيّ تهم، وهكذا أطلقوا سراحنا، وقال القنصل لزوجتي أن تخبرني بمغادرة مصر فوراً.. أخبرتها أنّني سأذهب إلى رفح أولاً ومن ثم سأغادر حتى لا أبدو مذنباً هارباً. وهذا ما حدث، عدت إلى كندا رفح وكان طعام الغداء جاهزاً وبحضور معظم رجالات المخيم، بل حضر مُخبرٌ متنكرٌ على هيئة شحاذٍ وتنصت على كل الأحاديث، ولكنّ الجميع كانوا يعرفون أنّه مخبرٌ متنكرٌ.

بقية القصة جاءت من شقين؛ فبعد الانتفاضة واستعمال الجيش المحتل للعنف، لم يتمالك أحد أعضاء الجماعة نفسه عندما شاهد دوريةً إسرائيليةً راجلةً بين أسوار الحدود؛ فأطلق النار عليهم وهرب، ولم يكن هذا مقرراً. لأنّه لم يعلن أحد المسؤولية، قامت الجبهة الشعبية القيادة العامة بتبني العملية وخطب أحمد جبريل أنّ قوات الثورة تضرب من الشمال حيث كانوا قد قاموا بعملية طائرة الشراع، حتى رفح في الجنوب. -بالطبع- تكهرب الجو ونشطت المخابرات المصرية، وداهمت اجتماعاً غير مخططٍ له أو متفقاً

عليه وقبضت على المجموعة، وحقّقت معهم ثم قرّرت نفيهم خارج مصر من دون محاكماتٍ، واختار كلٌّ منهم أين يذهب وغادروا إلى الإمارات وليبيا والجزائر.

الشق الثاني، أنّ الصديق أبا الطيب، الدكتور أحمد صدقي الدجاني اتصل بي وقال إنّه وصل لندن ويريد رؤيتي الليلة، كان قد حضر لغاية اللقاء فقط وعاد ثاني يوم. قال إنّ كلّ أفراد المجموعة اعترفوا عني وأنّني المسؤول، وذلك ربّما لظنّهم أنّني بعيدٌ عن أيدي الأمن المصري وحتى يسهّلوا الأمر على ذاتهم.. المهم حذّرني من السفر إلى القاهرة في أيّ ظرفٍ ولأيّ سببٍ. لا بدّ من توضيح أنّ الدكتور أبا الطيب كان يُدرّس في الجامعة مادة القومية العربية وكان لزاماً على ضباط الأمن والمخابرات اجتياز دورات تعليمٍ تشمل هذه المادة، وبالتالي؛ فهو أستاذٌ للكثيرين منذ أيام جمال عبد الناصر، وعندما أشعرته بوجود مشكلة اعتقالاتٍ للشباب تمكّن من معرفة القصة؛ فجاء مشكوراً لتحذيري.. ومنذ ذلك الحين وأنا أشتاق لمصر ولا أستطيع زيارتها على الرغم من تغيّر الظروف ومرور العقود، بل إنّ الشباب الذين تمّ نفيهم عادوا إلى كندا ومن ثم إلى رفح بعد تسوية الوضع بين مصر وإسرائيل واسترداد الأرض المصرية من دون سكانها الفلسطينيين؛ فرأت أجهزة الأمن أن تسمح للشباب بالوصول إلى كندا ليعودوا مع أهلهم إلى فلسطين، وكانت قد نفتهم قبل ذلك ولم تعتقلهم على الرغم من ضبط ممنوعاتٍ أمنيةٍ.. أمّا أنا فقد انضم اسمي إلى قائمةٍ طويلةٍ منذ أيام تحتمس تطول ولا تقصر.

الاعتقال الجائر الذي نراه شيئاً غير منطقيٍّ، هو أداةٌ من الحاكم الظالم للتحكّم في الرعية وضمان استمرار حكمه، سواءٌ كشخصٍ أو عائلةٍ أو حزبٍ فاشي ديكتاتوري.. وأحياناً يلجأ الحاكم للاعتقال والتعذيب الفردي والجماعي ليواجه خوفه الذاتي من الخلع والتآمر، ولذلك يعتقل أو يصفّي

بعض أنصاره وخدّامه المقربين تخوفاً من الانقلاب عليه. الحلّ لهذه المعضلة القديمة والمستمرة في الدول النامية الفقيرة مادياً وعقلياً وأمثالها، هو استخدام الديمقراطية. في الدول الديمقراطية لا داعي لخوف الحاكم حين يسقط في الانتخابات؛ فلن يعاقبه أحد أو ينتقم منه إلا بالقانون، ولا مبرّر للحاكم والحكومة المنتخبة أن تتعسف على الناس وتعتقلهم من دون ذنبٍ ارتكبوه، وحين يتمّ التعسف هناك القانون للفصل بين الحاكم والمحكوم، وهناك الإعلام الحر والرأي العام الضاغط بين مواعيد الانتخابات.. حين تغيب الديمقراطية يعشش التوغل غير البشري كما اكتشفنا وشاهدنا في حالة السجون السورية.

بالنسبة للمعتقل فالأمر قد يؤدي به للجنون حتى من دون تعذيبٍ جسديٍّ، وإلى الموت طبعاً بسبب التجويع الممنهج أو التعذيب بأشكاله وأنواعه التي تحتاج إلى مجلداتٍ لوصفها سواءٌ منذ العصور الوسطى أو في القرن المنصرم، أو ما هو قائمٌ حالياً في الكثير من الدول الديكتاتورية أو الوراثية أو أحادية الحزب. لقد مررت لاحقاً بتجربةٍ بسيطةٍ جداً في بلدٍ عربيٍّ، ومن دون أيّ تعذيبٍ لفظيٍّ أو جسديٍّ، ولكن فقط تقييدٌ عقليٌّ لفترةٍ قصيرةٍ جداً. كان لا بدّ لي من الذهاب لمقرّ المخابرات؛ فتمّ التحقق من شخصيتي على الباب وسؤال الهدف من الزيارة وأيّ قسمٍ هو الذي طلبني. ثم أدخلوني مع آخرين حضروا للباب لغاياتٍ تخصّهم، أدخلونا في طابورٍ إلى غرفةٍ فيها خزاناتٌ لوضع الأمانات، وطلبوا منّا عدم السؤال أو الحديث. وضعنا كلّ ما نملك في الصندوق، ساعةً أو هاتفاً أو كتاباً أو صحيفةً أو أيَّ ورقةٍ أو محفظةٍ.. «احتفظ فقط بالهوية أو جواز السفر»، قيل لنا.

جلسنا صامتين تحت الرقابة حتى حضر باصٌ له ستائر على جانبيه، وسار بنا مسافةً حتى وصلنا إلى بنايةٍ وصالة الاستقبال حيث تمّ تسليم الهويات ومن

ثم أخذونا إلى صالةٍ أخرى بها مقاعد متجهةٌ إلى الجدران، حيث تجلس وترى خلفية رأس الذي أمامك والحائط من بعده.. ممنوعٌ الكلام أو النظر للخلف، -وبالطبع- لا تحمل أيّ شيءٍ تشغل نفسك فيه.. يمرّ الوقت وأنت تنتظر ما لا تعرفه ومتى وكيف. بعد وقتٍ يصعب تقديره تسمع اسمك فتقف وتُقاد إلى غرفةٍ بها محقّقٌ وأمامه الملف.. هو يسأل وأنت تجيب. ثم تُعاد إلى الكراسي لتواجه الجدار بانتظار الانتهاء من كلّ الزوار؛ فتعودوا كما حضرتم، وفور الخروج من الباب يبدأ الحديث والتعارف والتدخين بينك وبقية الضيوف كاستجابةٍ للحرمان القهري من التواصل والتغييب الاجتماعي. هذا طبعاً مثالٌ متحضرٌ جداً عن تقييد الحرية الشخصية لعدة ساعاتٍ؛ فما بالك بالتغييب القسري والأساليب التي نسمع عنها ونطالعها من تجارب السجون؟ وهناك فارقٌ كبيرٌ بين السجن العادي للمجرمين والمخطئين والمتهمين وأصحاب القضايا الجنائية، وبين سجن ومعتقل أيّ مخابرات وأفرعها والمعتقل السياسي؛ فهذا الأخير هدفه كسر معنوياتك وإنسانيتك وحيونتك، أو على الأقل إخضاعك بكلّ الطرق سواءٌ النفسية أو الإجبارية التقليدية من ضرب وشتائم وإهانات.

كنت بالأمس (الجمعة ٢٠ ديسمبر ٢٠٢٤) مشاركاً في جاهة لخطبة أحد شباب العائلة، وفي بيت أهل العروس دارت أحاديث بعضها سياسيٌّ كوننا جميعاً فلسطينيين نحمل الهمّ نفسه، تحدثنا عن سوريا وأحمد الشرع سلباً وإيجاباً، ثم سأل أحد المستقبلين: لماذا تقبل الشعوب المعتقلات، ولماذا نتحمل نحن أبا مازن وهو يعترف بكل الموبقات ومنها أنّه يعيش تحت بساطير الإسرائيليين، ويعتقل الشباب؟ للأسف لم تتح الفرصة لنقاش هذا التساؤل، ولكنّ طرحه أثار عندي حواراتٍ داخليةً، ووصلت إلى قناعةٍ أنّ الخوف على الذات هو وحده الذي يمنع الناس ضد الظالم، وتذكرت قصة من يقرع

الجرس؟ -وبالطبع- كلّ ذلك ممكنٌ بسبب الخوف وغياب الديمقراطية الذي يُغيّب العدالة والقانون ويسمح بالتغول.. الإيمان بأهمية الديمقراطية هو مرجعية الحلول. حتى لو نجحت عبر الديمقراطية فئاتٌ متخلفةٌ، مثل الجماعات الدينية، في استلام الحكم؛ فتلكُ تجربةٌ مهمةٌ للجمهور طالما تمّ ضمان استمرار وتكرار الانتخابات بنزاهةٍ، وليس أن يفوزوا مرةً لظروفٍ معينةٍ ثم يأخذوا الشعب تأبيدة ولا يجددوا شرعيتهم بالانتخاب.

نحن الآن في اليوم الأخير من عام ٢٠٢٤، ومنذ السابع من أكتوبر ٢٠٢٣ وأنا على تواصلٍ شبه يوميٍّ، كلّما سمحت الظروف، مع أناسٍ متنوعين في قطاع غزة.. منهم الإخوة والأهل والأقارب والمعارف، وأيضاً أناس عرفتهم عبر تطوعهم في «مبادرة طيور السلام التعليمية» التي تبنيتها منذ شهر مارس ٢٠٢٤ عندما تأكّد لي أن لا حل قريباً قادمٌ، وأنّه ليس بوسعي إنقاذ البلاد والعباد؛ فلجأت إلى إقامة هذه المبادرة التعليمية لمصلحة بعض الصغار.. يعني إطار التواصل عريضٌ وطويلٌ، وكنت أتواصل بالساعات كون الاتصال الهاتفي من الأردن مع غزة مجاناً إذا كنت من المشتركين مع شركة زين للاتصالات. بصراحةٍ تامةٍ وأمانةٍ مطلقةٍ لم أسمع من أيّ طرفٍ أنّه مؤيدٌ لحركة حماس أو ما فعلته، أو الإجراءات والإدارة التي تلت.. الجميع كانوا يفضّلون تغيير الحكم سواء بعودة السلطة الفلسطينية أو إدارةٍ عربيةٍ أو دوليةٍ.. هذا الجميع كان يضمّ أعضاءً وأنصاراً من حركة حماس لم يعجبهم الأمر وما تطوّر إليه واستمرار مساره. عندما كنت أسأل هؤلاء لماذا لا نرى في الشارع معارضةً لحكم حماس، كنت أحصل على إجاباتٍ في اتجاهٍ واحدٍ وإن لم تكن متطابقةً، منها: كوننا في حالة حربٍ لا نريد أن يطمع العدو فينا، والبعض يؤكدون أنّ الحركة قابضةٌ بيدٍ من حديدٍ على الوضع وأن أعضاءها لا يتوانون عن إطلاق النار على المعارضين، وكذلك لمّح البعض لحقيقة أنّ حماس

هي التي تتحكم في توزيع المساعدات حتى ولو كان ذلك بطرقٍ غير مباشرةٍ، والجميع طبعاً بحاجةٍ إلى أيّ شيءٍ وكلّ شيءٍ من الطحين حتى الخيام.. البعض تنبّه لحقيقة أنّ الناس نزحوا مراراً ولا يعرف بعضهم البعض الآخر لفتراتٍ طويلةٍ ولذلك يصعب ترتيب أيّ تظاهرٍ مضادٍ لحماس، أو مُطالبٍ بالسّلام والحلول، أو أيّ شيءٍ ذي صلةٍ بالسياسة؛ ففي النهاية الناس مصدومةٌ، مشلولةٌ جسدياً وفكرياً، وانتقلت إلى مرحلة البحث عن عوامل البقاء والنجاة، كما أن هذه المقتلة أزالت أيّ أوهامٍ لتعاونٍ أو تعايشٍ مع إسرائيل، وأن العداء تأصّل وتمنهج.. ولكن ربّما يؤدي هذا الدمار الوطني إلى قناعات البحث عن حلولٍ وخياراتٍ تؤدي للتعايش والنمو المشترك ضمن أسسٍ جديدةٍ فمن يدري؟؟

(لاحقاً خرجت تظاهراتٌ ضد حماس لكنّ إسرائيل أطلقت النار عليهم!)

تحرير فلسطين.. لماذا فشلنا وما العمل؟

ما سبق يحتم علينا طرح سؤالٍ لماذا فشلنا في تحرير فلسطين والبناء الاجتماعي السليم، وما العمل؟ كون كلّ فلسطيني لديه جوابٌ على السؤال، وهو حتماً مختلفٌ عن جواب الآخر، بل تتمدّد الإجابات من العامل الديني حتى الفشل العسكري مروراً بالتخلف وبالخيانات بأنواعها وغير ذلك الكثير. أنا مواطنٌ صالحٌ متعمقٌ نسبياً في هذا الشأن، عندي إجابةٌ مميزةٌ على الرغم من بساطتها وسهولة استنتاجها من مجريات سرد الأحداث.. لكنّني قبل التطرق إليها طرحت هذا السؤال على الذكاء الاصطناعي غير المنحاز أو العاطفي أو المتدين أو الحربجي أو الانبطاحي.. سألته: «لماذا فشلنا في تحرير فلسطين، وما الطريق إلى النجاح؟»؛ فقال حرفياً ما يلي:

تحقيق تحرير فلسطين يعتبر هدفاً مشتركاً للعديد من الدول والحركات العربية والفلسطينية. هناك عدة أسباب لفشل المحاولات السابقة:

الأسباب الرئيسية:

١- التناقضات السياسية: الخلافات بين الدول العربية والفلسطينية أدّت إلى ضعف التضامن والتنسيق.

٢- القوة العسكرية الإسرائيلية: القوة العسكرية الإسرائيلية المتقدمة والمدعومة من قبل القوى العالمية.

٣- التجزئة الجغرافية: تقسيم فلسطين إلى مناطق متفرقة (الضفة الغربية، غزة، القدس) يصعب التواصل والتنسيق.

٤- الضغط الدولي: الضغط من قبل القوى العالمية، خاصةً الولايات المتحدة، على الدول العربية والفلسطينية.

٥- التنمية الاقتصادية الضعيفة: ضعف التنمية الاقتصادية في الدول العربية والفلسطينية يؤثر على القدرة في دعم النضال.

الأسباب الأخرى:

١- الانقسام الفلسطيني: الانقسام بين الفصائل الفلسطينية (حماس، فتح) يؤثر في الوحدة والتنسيق.

٢- عدم وجود استراتيجيةٍ واضحةٍ: عدم وجود استراتيجيةٍ واضحةٍ ومشتركةٍ لتحقيق التحرير.

٣- الاعتماد على الدعم الخارجي: الاعتماد على الدعم الخارجي بدلاً من بناء القدرات الذاتية.

٤- التناقضات الأيديولوجية: الخلافات الأيديولوجية بين الفصائل الفلسطينية والدول العربية.

الطريق إلى النجاح:

١- الوحدة الفلسطينية: تحقيق الوحدة بين الفصائل الفلسطينية وتشكيل حكومة وطنيةٍ موحدةٍ.

٢- التنسيق العربي: تعزيز التنسيق والتعاون بين الدول العربية لتحقيق التحرير.

٣- بناء القدرات الذاتية: بناء القدرات الاقتصادية والعسكرية الذاتية للفلسطينيين.

٤- الاستراتيجية الواضحة: وضع استراتيجيةٍ واضحةٍ ومشتركةٍ لتحقيق التحرير.

٥- التعاون الدولي: تعزيز التعاون مع الدول الداعمة للقضية الفلسطينية.

٦- التوعية الشعبية: تعزيز التوعية الشعبية والتحريض لتحقيق التحرير.

٧- الاستفادة من التكنولوجيا: استخدام التكنولوجيا لتعزيز النضال والتواصل.

الخطوات العملية:

١- تشكيل لجنةٍ وطنيةٍ: تشكيل لجنةٍ وطنيةٍ فلسطينيةٍ لتنسيق الجهود.

٢- وضع خطةٍ استراتيجيةٍ: وضع خطةٍ استراتيجيةٍ واضحةٍ لتحقيق التحرير.

٣- بناء المؤسسات: بناء مؤسساتٍ اقتصاديةٍ وعسكريةٍ فلسطينيةٍ قويةٍ.

٤- تعزيز الدعم الشعبي: تعزيز الدعم الشعبي والتواصل مع الشعب الفلسطيني.

٥- التواصل الدولي: التواصل مع الدول الداعمة والمنظمات الدولية.

هذه هي بعض الأسباب والخطوات التي يمكن أن تساعد في تحقيق تحرير فلسطين. يحتاج الأمر إلى تضامنٍ وتعاونٍ بين الفصائل الفلسطينية والدول العربية. (نهاية إجابة الذكاء الاصطناعي).

أعجبتني منطقية الإجابة، وكوني أعرف استحالة تحقيق هذه الأمور البسيطة طرحت عليه مرةً أخرى سؤالاً: «كيف ترى نهاية الحرب في غزة؟».. فقال:

نهاية الحرب في غزة تتطلب جهودًا متعددة الأوجه. إليك بعض الحلول المحتملة:

الحلول السياسية:

١- اتفاقية سلامٍ: تعزيز الجهود الدبلوماسية لتحقيق اتفاقية سلامٍ شاملةٍ بين الفصائل الفلسطينية وإسرائيل.

٢- حكومةٌ وطنيةٌ موحدةٌ: تشكيل حكومةٍ وطنيةٍ موحدةٍ فلسطينيةٍ لتعزيز الاستقرار والوحدة.

٣- تعزيز دور الأمم المتحدة: تعزيز دور الأمم المتحدة في تحقيق السلام والاستقرار في المنطقة.

الحلول الاقتصادية:

١- إعادة إعمار غزة: توفير المساعدات الاقتصادية لإعادة إعمار غزة وتعزيز التنمية الاقتصادية.

٢- فتح المعابر: فتح المعابر التجارية والحدّ من الحصار الاقتصادي على غزة.

٣- دعم المشاريع الصغيرة: دعم المشاريع الصغيرة والمتوسطة في غزة.

الحلول الإنسانية:

١- توفير المساعدات الإنسانية: توفير المساعدات الإنسانية اللازمة للفلسطينيين في غزة.

٢- تعزيز حقوق الإنسان: تعزيز حقوق الإنسان والقانون الدولي الإنساني في المنطقة.

٣- دعم الشباب والتعليم: دعم الشباب والتعليم في غزة لتعزيز المستقبل.

الحلول الإقليمية:

١- دور الدول العربية: تعزيز دور الدول العربية في دعم السلام والاستقرار في المنطقة.

٢- تعاونٌ إقليمي: تعزيز التعاون الإقليمي بين الدول المجاورة لتعزيز الاستقرار.

٣- دور تركيا والقاهرة: تعزيز دور تركيا والقاهرة في دعم السلام والاستقرار في المنطقة.

الحلول طويلة الأمد:

١- توفير الأمان: توفير الأمان والاستقرار للفلسطينيين في غزة.

٢- تعزيز الحكم الذاتي: تعزيز الحكم الذاتي الفلسطيني في غزة والضفة الغربية.

٣- تحقيق السلام الشامل: تحقيق سلامٍ شاملٍ وعدالةٍ بين الفلسطينيين والإسرائيليين.

هذه الحلول تتطلب تعاوناً دولياً وإقليمياً وتفاهماً بين الأطراف المعنية. (نهاية إجابة الذكاء الاصطناعي).

أتفق طبعاً مع بنود الإجابة عن السؤالين، ولكن البند الأهم بالنسبة لي، والذي تحدثت عنه دوماً جهاراً في مقالاتي وكتبي هو بند: «الاستفادة من التكنولوجيا: استخدام التكنولوجيا لتعزيز النضال والتواصل».

يجب الانتباه لتزاوج النضال والتواصل عبر التكنولوجيا؛ فبالنسبة للتواصل أبديت آرائي كمواطنٍ صالحٍ، علناً للعموم وتخصيصاً لمن يهمهم الأمر.. اقترحت إجراء الانتخابات عبر التكنولوجيا، أي الإنترنت للتملص من منع إسرائيل إجراء الانتخابات في القدس بينما الرئيس عباس يصرّ على إشراك المقدسيين وهكذا تمّ استبعاد الانتخابات. وكنت اقترحت الاستفادة من التواصل التكنولوجي لانتخاب أعضاء الداخل في المجلس الوطني لإنهاء هيمنة المنظمات المسلحة على القرار السياسي، ولكن تمّ رفض المقترح حين تجاهلته قيادة منظمة التحرير ممثلةً في لجنتها التنفيذية.. بالطبع التقصير التكنولوجي في إنجاز التواصل بين الفلسطينيين أوسع ويشمل العجز عن تشكيل قاعدة بياناتٍ فلسطينيةٍ وتواصلٍ بين الشتات لإجراء مؤتمراتٍ واتخاذ قراراتٍ شعبيةٍ، أو حتى التفكير في إقامة حكومة ظلٍّ لضبط رؤى القيادات للفصائل، خصوصاً وأنّها عجزت على الدوام، وفي مواقف مفصليةٍ

عن إنجاز أيّ شيءٍ بالعمل العسكري التقليدي، ولكنّها واصلت التفرد في القرارات المصيرية.. أي أنّ الفشل الفلسطيني التكنولوجي للتواصل شمل القيادات والنخب المثقفة والأطر الشعبية أيضاً، وذلك بسهولة كوننا جزءاً من شعوبٍ عربيةٍ وإسلاميةٍ متخلفةٍ تكنولوجياً، وحين نستعملها؛ فيكون للأمور الاستهلاكية.

أمّا العجز عن الاستفادة من التقنية لتعزيز النضال؛ فهو عجزٌ فاضحٌ كاسحٌ ماسحٌ كما ثبت على الدوام، ويتعزّز ثبوته كلّ يومٍ بين القوى المتصارعة، أي إسرائيل مدعمّةٌ بالغرب، وبين الفلسطينينن والعرب والفرس كدولٍ ومنظماتٍ. يجب التذكير أنّنا كفلسطينيين قد وقعنا في الفخّ المنصوب لنا ونبدو عاجزين عن الإفلات منه لأسبابٍ اجتماعيةٍ وعقائدَ سائدةٍ. جوانب هذا الفخ تشمل القناعة بمبدأ القوة، أي ما أُخِذ بالقوة لا يُستَرَد بغيرها، ومبدأ لا صوت يعلو فوق صوت المعركة أو حتى صوت الاستعداد للمعركة، أو حتى صوت السكون بانتظارها، ومن يرفع صوته بمطلبٍ أو انتقادٍ؛ فهو مارقٌ خائنٌ يجب على الأقلّ عزله عن المجتمع. وقد أسهمت تجربة إقامة الكيان الصهيوني بتعميق هذه الرؤية؛ فقد قام ونجح وتمدّد وانتصر عبر استعمال القوة المفرطة، لكنّنا لا ننتبه هنا أنّه استعمل القوة ممزوجةً بتعزيز التكنولوجيا، بينما نحن استعملنا العزم بالقوة العارية الفقيرة غير المدعمّة بأي تكنولوجيا.. وحين قامت الانتفاضة الأولى الشعبية السلمية سعياً لإنجازٍ بالسلم والقوانين الدولية قام التقليديون وحماس بعسكرتها.

حتى لا أبتعد في الشروحات النظرية التوضيحية، أقول إن قادتنا لم يتعرّفوا إلى نقاط ضعف خصمهم بشكلٍ جيدٍ، ولو كانوا يعرفون نقاط الضعف؛ فهم لم يستعدوا للاستفادة منها. لو كان قادة فلسطين من أهل العلم

أو الفكر، أو استمعوا لهم وطلبوا الاستشارة والنصح؛ فربّما كان سيقال لهم أن يبنوا قواعد علميةً بشريةً، أي تشجيع ودعم آلاف الطلاب على التخصص في دراساتٍ عليا ذات تأثيرٍ في تعزيز القدرات التسليحية المميزة. للإنصاف إن حركة حماس اهتمت بذلك، ولكنّ الحركة عموماً جاءت متأخرةً زمنياً وبدأت مع بداية التسعينيات، وبالإضافة لذلك جاء تركيزها على إتقان علومٍ تقليديةٍ وسائدةٍ ويمكن الحصول عليها بسهولة، مثل صناعة الطائرات الصغيرة المسيّرة، أو الصواريخ البدائية، أو الطائرات الشراعية.. اهتمت الحركة بذلك من نقطة الصفر وسرياً، بينما هذه الصناعات بلغت مداها التكنولوجي لدى العدو الصهيوني وغيره.. كان المطلوب ولا يزال نهضةً علميةً واسعةً وعلنيةً تشمل أيّ تخصصاتٍ مطلوبةٍ.

كانت حركة حماس تريد خبراء قادرين على التصنيع لضمان السرية وفرص للتخزين، وهذا لا بأس به لو كان يعادل سلاح الخصم أو يقترب منه، أو حتى لو كانت أسلحةً تحدث ضرراً لدى قوات ومواطني العدوّ.. هي أحدثت فزعاً مؤقتاً ولكنّها لم تقتل ولم تدمر ولا تقاس بما لدى العدو.. -وبالطبع- وهذا هو المهم، لم تشكّل أيّ رادعٍ للعدو. لو كان الطرف الفلسطيني اهتمّ بالعلم والتكنولوجيا وتوصّل لأساليب تردع العدوّ لكان أفضل من الأسلحة اسماً وشكلاً دون مضمونٍ ويستغلها العدو إعلامياً بادعاء أنّه يدافع عن أمنه ومدنيه من انهمار الصواريخ الفلسطينية عليهم.

لو كنّا غير مؤهلين لتعلّم التقنية الفعّالة؛ فبالتأكيد كان بوسعنا الحصول على أسلحةٍ نوعيةٍ من السوق السوداء، خصوصاً في المدة التي تفكّك فيها الاتحاد السوفيتي، أو كسب علماءٍ أجانب ليساعدونا.. لكن لم يكن في الشباب والشابات الفلسطينيين أيّ عيبٍ، ولكنّ التركيز، من القيادات التي لديها الإمكانيات، انصب على شؤونٍ وعسكرةٍ بدائيةٍ فشلت في كلّ مواجهةٍ،

وبناء شللية وتصرف بعقلية العصابات. لقد سرقت المخابرات الإسرائيلية مواد نوويةً من الاتحاد السوفيتي ومن الولايات المتحدة الأميركية، وأفشلت مشروعاً فرنسياً عراقياً نووياً.. كل ذلك وأكثر منه تمّ بفعل مجموعة مخابراتٍ وباستعمال العقل والقليل من السلاح، المهم أنّه كان لديهم مخططٌ وأدواتُ تنفيذٍ.

ما أريد التوصل إليه من كل هذه الشروحات والأمثلة، أنّ القيادة الإسرائيلية لو خمّنت في أيّ وقتٍ وجود سلاحٍ فلسطينيٍّ رادعٍ، لما فعلت في قطاع غزة ما فعلته وما ستفعله في الضفة الغربية أيضاً. وبهذا الصدد يصعب تصوّر آفاق وعقول الذين خططوا لطوفان الأقصى، أي انتهاك قوة الردع الإسرائيلي وتوقع أن تخضع إسرائيل وتسلّم الأسرى وتفك الحصار وغير ذلك ممّا أعلن في حينه كأهدافٍ للطوفان.. على الأقل كان من المفترض تجهيز أدوات ردعٍ وانتقامٍ تصيب المدنيين الإسرائيليين لو تمّ تمادي الجيش الاحتلالي.. -وبالفعل- تمّ التمادي والإبادة من دون أيّ خسائر إسرائيليةٍ مدنيةٍ في المقابل، وهو الشيء الوحيد الذي كان سيوقف المقتلة والإبادة العلنية.. بل إن مخططي الطوفان لم يحسبوا أيّ ردود فعلٍ غربيةٍ لمصلحة العدو وهم الذين يقولون منذ عقود إن إسرائيل هي الغرب والغرب هو إسرائيل.

إذا اتضح لنا عدم تجهيز الأسلوب الرادع للتمادي الإسرائيلي المتوقع، والتجهيز هنا ليس بالخيل ولكن بالتقنية الحربية الفريدة.. لقد صنع اليهود أوّل القنابل النووية وأخواتها وطوّروها لمصلحة غيرهم ثم لمصلحة كيانهم، ونحن لم نفكّر في الحصول على قنبلةٍ جاهزةٍ أو تصنيع أخرى قذرةٍ، أو أسلحةٍ سامةٍ، أو أسلحةٍ صوتيةٍ، أو أيّ شيءٍ ذي فعاليةٍ شموليةٍ بحيث نهدّد به لحماية ذاتنا من الإبادة.. وهذا يعيدنا لسوء التخطيط لطوفان الأقصى وبلاهة

الأسلوب ومحدودية الهدف في مقابل احتمالات الردّ الإسرائيلي على الطوفان، والذي نحن عراة أمامه.. كانت غزة قبل الطوفان حرةً غير محتلةٍ ولكنّها محاصرةٌ نسبياً وأصبحت محاصرةً كلياً وأزيلت عن الوجود ويتمّ إفناء شعبها تحت أنظار العالم ولا نملك أيّ سلاحٍ رادعٍ، وفشلنا في تقدير ردات فعل الخصم الذي حوّل الأمر إلى فرصةٍ للتوسع الجغرافي والتخلص من البشر.. هذا نتيجة فشلنا في استعمال التقنية وعدم بناء أيّة أجيالٍ علميةٍ لهذا الغرض وإهدار المال والزمن في كفاحٍ مسلّحٍ كسيحٍ.. قياداتٌ تنظّر للقتال من دون استعدادٍ مناسبٍ، وشعوبٌ تطرب لصوت الرصاص، وحين تقع الواقعة يعلو النواح، ومن ثم نعود لنقطة الصفر، أي قياداتٌ متخلفةٌ تسعى لتجهيل الشارع حتى تستمر في الزعامة. علينا فقط أن نتصوّر لو وُجِدت انتخاباتٌ متكررةٌ وديمقراطيةٌ مضمونةٌ!

الاستنتاج أنّه لا يوجد حلٌّ وخلاصٌ للشعب الفلسطيني إلا بامتلاك سلاحٍ رادعٍ.. ومن ثم إقامة نظامٍ ديمقراطيٍّ مهما كان نوع هذا النظام؛ فعبر الديمقراطية والردع يمكن التقدم إلى الأمام.. الكفاح المسلح كما عرفناه للآن يعيدنا إلى الخلف والتخلف والانتحار الوطني والجسدي.

لقد كان توقيع صلح واتفاق أوسلو بمكانة إسدال الستار على حقبةٍ تاريخيةٍ سبقته، أو هكذا كان المفترض أن يكون، كون الاتفاق رأى إنهاء العداء الرسمي بين الشعبين وذلك على الرغم من كون الاتفاق لا يقدّم حلاً كاملاً نهائياً للقضية الفلسطينية، ولكنه جاء نتيجةً لتوازن القوى سياسياً وليس عسكرياً، وذلك بعد قرنٍ من الكفاح المسلّح الفلسطيني ضد الصهيونية ومن ثم إسرائيل.. لقد رفعت الحركة الوطنية الفلسطينية عموماً شعار الكفاح المسلّح، وخصوصاً بعد النكبة ١٩٤٨ حيث أضافت شعار التحرير الكامل، وذلك بعد رفض قرار التقسيم من عام ١٩٤٧، ولكنّ

إسرائيل قبلت بالتقسيم واحتلت المزيد بالقوة وأخذت كلّ فلسطين ولم يحققِ الكفاح المسلّح تحرير أيّ شبرٍ من فلسطين إلّا عبر اتفاق أوسلو المنقوص، وذلك في الأصل بفضل الانتفاضة السلمية من عام ١٩٨٧ وليس بفعل الكفاح المسلح.

لقد ركّز قادة الحركة الوطنية ومن بعدهم الحركة الإسلامية على شعارات التحرير عبر السلاح والنضال، ولكن أفعالهم، أو نتائج أفعالهم كانت التراجع بالقضية سياسياً وجغرافياً، وعبر تجديد الحركة الإسلامية لشعار الكفاح المسلّح وتحرير كلّ فلسطين نسفت اتفاق أوسلو، ومهّدت لاحتلالٍ مجدّدٍ لكلّ فلسطين والعمل الجاد على إبادة شعبها لتكون النكبة الجديدة أفظع من أختها السابقة بعشرات المرات.. ومع كلّ ذلك فلا انتقاد للذات ولا تراجع عن طريق الهاوية، وذلك بفضل حب التسلط والحكم؛ فلو قبلت إسرائيل الآن استمرار حكم حماس لقطاع غزة ضمن خنوعٍ تامٍ للرؤية الإسرائيلية لكانت حماس أوّل من يوافق على الحلّ ويقبله لأن هدفها وغايتها الاستمرار في الحكم وليس خدمة أو رحمة الشعب الغزي، تماماً كما كان هدف الحركة الوطنية إقامة أيّ دولةٍ ليتقلد الزعيم الحكم، ولذلك تخلت الحركة الوطنية بسرعةٍ عن مطلب الدولة العلمانية الديمقراطية المشتركة.

نعود إلى ذكريات المواطن الصالح الرابطة أصلاً بين الماضي والحاضر وعلى ما يبدو المستقبل، ولكن كلّ سنة تصبح أشد من سابقاتها. في اليوم الأخير من ٢٠٢٤ توفيت أم نبيل، وفي اليوم الأول من ٢٠٢٥ دفناها في مقبرة سحاب التي تشبه مدينةً من القبور.. سحاب هذه في أطراف مدينة عمّان، وفيها تمّ دفن خالي أبي نبيل قبل سنوات، وهناك شاركت في دفن نبيل، وقبل ذلك ضمّت المقبرة أخي أبا رمزي، عبد الرحمن، ولحق به ابنه رمزي.. كلّ هؤلاء وغيرهم لم يولدوا في الأردن، ولكن في قطاع غزة.

أوّل ذكرى ترسّخت في رأسي لأم نبيل حين كان عمري أربع سنوات فقط.. والذكرى واسعةٌ في ذلك العام الذي شهد العدوان الثلاثي على مصر عبد الناصر وعلى قطاع غزة.. طائرة الهليوكبتر، التي كانت تشبه الجرادة، حامت فوق مخيم بربرة تطالب السكان بالرحيل؛ فاتجهوا إلى الغرب حيث البحر، وكانت إسرائيل تريدنا التوجه إلى سيناء المصرية. شاءت الظروف أن أتخلف مع خالتي أم مطر عن الرحيل إلى المواصي.. سرنا على الأقدام وهي تحمل على رأسها ما تمّ جمعه من البيت قبل الرحيل.. لحقت بنا سيارة شحنٍ، والتفت إلى الخلف لأرى الشاحنة مليئةً بالناس، وخالي أبو نبيل يقف على جناح الكابينة التي بداخلها أم نبيل تحمل مولودها الجديد، نبيل. عندما حاذتنا الشاحنة سأل خالي إذا كنا سنركب معهم؛ فأشارت له خالتي أن يواصل طريقه، لأنّها قرّرت المشي. كنت أستعجلها وأسحبها طوال الطريق لنصل إلى الأمان حسب ظني، وكانت تهدئ من روعي وتخبرني أنها أخذتني معها لأحميها وأساعدها، وتقول لي إن البحر لن يهرب منا وسنصل.. ووصلنا وبقينا أياماً ننام في العراء ونأكل مما نجد مزروعاً في المواصي التي كانت تعج بالناس الذين يبحثون عن بعضهم. آنذاك لم يخطر في بالي أو خيال أحدٍ أن الحال سيتكرر عام ١٩٦٧ وبعده مراراً، حتى وصلنا إلى هذه الكارثة التي لم تتوقف، وأصبحنا نموت غرباء لكلّ الأسباب في غزة وغيرها من البلدان.. لقد كنّا في قطاع غزة أيضاً غرباء لاجئين من بربرة جنوب فلسطين. بعد دفن أم نبيل قال الشيخ لنا على قبرها كم هي وأمثالها محظوظون لاجتماع هذا العدد من الناس على القبر، بينما الناس في غزة تموت وتتبخر ولا يتمّ دفن الكثير منهم.

الكوميديا الكارثية حينذاك أن سموترتش العنصري، وزير المالية الإسرائيلي، جدّد المطالبة بطرد سكان غزة إلى سيناء أو تهجيرهم إلى أيّ

مكانٍ، وقال يبرّر رؤيته إن هؤلاء السكان ليسوا غزيين أصلاً، ولكنّهم من يافا وحيفا وعكا وصفد.. وبالتالي ليسوا غزيين ويمكن طردهم وأخذ غزة لليهود!! العرب والغرب والعقلاء والمجانين لم يلتفتوا إلى هذه الأقوال وإلى أصول هذا العنصري وأمثاله.. ولم يطالب أيّ زعيمٍ أو قائدٍ عاقلٍ أو ناشطٍ إعلامي بالمطالبة والتذكير بقرار الأمم المتحدة ١٩٤ بحقّ العودة للاجئين إلى مدنهم وقراهم وبتعويضهم عمّا واجهوا بعد النكبة.. وأضيف من الشعر بيتاً إذ لم تطالب حماس في أيّ مفاوضاتٍ، أو أيّ دولةٍ أو زعيمٍ عربي أو عالمي بضرورة تغريم إسرائيل على أفعالها في غزة ومطالبتها بالتعويض!! هذا يعبّر عن انهزامٍ نفسيٍّ وتقبّلٍ لواقعٍ ظالمٍ.

أعرف ثلاثة عشر من إخوتي وأخواتي، ولكنّي لم أرَ أختين لي كانتا توأمين، هيجر وحليمة، ولدتا مع أوّل الهجرة في النكبة الأولى، وكان الجميع يحدثونني كمْ كانتا جميلتين.. حين توفيتا دفنهما والدي في صندوقٍ خشبيٍّ حتى يتسنى له استعادة الصندوق عندما يعود إلى بربرة؛ فيدفنهما هناك في مقبرة مسقط رأسه إلى جانب والده إبراهيم وأمه عائشة.. في النهاية دُفن والدي إلى جانب التوأمين في مقبرة رفح التي تم تجريفها، مثل كلّ أراضي ومساكن رفح في هذه المقتلة الجارية. وللمزيد من الأسى أتذكّر دوماً وقد شارفت الثالثة والسبعين أنّ أحفاد أبي وأبناءهم وبناتهم قد تجاوزوا المئات.. ولم أرَ على الطبيعة أو أتحدث مباشرةً مع الغالبية العظمى من هؤلاء في الجغرافيا الفلسطينية المفترض أن أكون عمهم أو خالهم؛ فهل يوجد ظلمٌ وقهرٌ أفظع من هذا؟ رحم الله السابقين واللاحقين.

كانت رحلتي الأخيرة إلى قطاع غزة وفلسطين عام ١٩٧٤، أي في العام التالي على حرب أكتوبر. استقبلني والدي المختار ومعه صديقه من أيام قبل النكبة الأولى، عوض الله، مختار قرية يبنا (المذكورة في

الكتاب المقدس وتتيح المصادر الأدبية والتاريخية كثيراً من التفصيلات عن تاريخ يبنا القديم، وهي مدينةٌ كنعانيةٌ منذ خمسة آلاف سنة وكانت في العصر الهلنستي مركزاً عسكرياً وإدارياً للمنطقة واحتلها الرومان عام ٦٣ قبل الميلاد من الحشمونيين وأعادوا بناءها وقد ازدهرت في ذلك العصر، وصارت مركزاً لناحيةٍ بأكملها، وكان ميناؤها أكبر من ميناء يافا. وقد فتحها العرب بقيادة عمرو بن العاص). قريتنا بربرة مذكورةٌ في أصول كتب التاريخ هي الأخرى، والاسم آرامي، ويعني البدوي، وهي قائمة منذ ١٤٠٠ عام قبل الميلاد، وبها آثارٌ رومانيةٌ.

بعد وصولي إلى رفح بأسبوعٍ حضرت زوجتي أيضاً عبر مطار اللد واستقبلتها هناك وعدنا إلى رفح للتعرف إلى الأهل، وقد انغمست فوراً مع الوالدة والأخوات والقريبات في الشؤون اليومية، وكن يتفاهمن بالإشارات وبالقليل من اللغة الإنجليزية عبر ترجمة الجيل الجديد ممّن يزرن المدارس حيث كان الطلاب يتعلمون اللغة الإنجليزية من سن الثالثة عشرة، أي من الصف الأول إعدادي. بالطبع زرت معها مدن فلسطين الرئيسة والقدس. قبل موعد سفرنا بأيامٍ تناهى إلى سمعي عبر الضابط، ابن بلدنا، أنّ المخابرات سوف تطلبني للتحقيق في أمورٍ ومعلوماتٍ عن نشاطي في ألمانيا، وأنّهم علموا بزيارتي لبيروت في العام السابق.. هكذا غادرت فجر اليوم التالي عبر الجسر إلى الأردن، قبل أن يرسلوا لي طلب الاستدعاء. لأسبابٍ لاحقةٍ وتراكماتٍ، انتهت فرص زيارة فلسطين بالنسبة لي، ولاحقاً كانت زوجتي وبناتي يزرن البلاد عبر معبر رفح المراقب من الأمن الإسرائيلي هو الآخر.. حرصت على أن يشاركن في مناسبات زواج إخوتي وأخواتي بينما كنت أنتظرهن على الجانب المصري من الحدود، في سيناء التي كنت أعرف قراها ومواقعها وبعض سكان العريش، كما كان الكثير من أهل بربرة يقيمون

على الجانب المصري فيما عرف باسم مخيم كندا.. ثم تطوّرت الأمور بعد الانتفاضة وأصبحت مطلوباً في مصر أيضاً كما ذكرت في موضعٍ سابقٍ.

كمواطنٍ صالحٍ لا يهمني القيل والقال وما قد يقال حول الرؤى والأفكار والحلول التي أطرحها في هذا الكتاب؛ فهي نابعةٌ من تجربةٍ ودرايةٍ ومتابعةٍ وتبصّرٍ في المستقبل على ضوء مجريات الماضي والحاضر وتتطلب شجاعةً أدبيةً للطرح خارج الصندوق وضد التيار السائد منذ أكثر من قرنٍ ولا يؤدي إلّا للدمار والتخلف. فكرة نقد الكفاح المسلح بالنسبة لي ليست مبدئيةً أو دائمةً؛ فقد شاركت به شخصياً، ولكن اتضح أنّه كفاحٌ قائمٌ من دون ضوابطَ سياسيةٍ وبات يؤدي لنتائجَ سلبيةٍ كارثيةٍ.. ربّما الخطأ أنّ الكفاح المسلح كان وحيداً من دون خططٍ مساعدةٍ ورافدة للنضال، على الأقل كان يمكن السير في خطين أحدهما يحافظ على حقّ المقاومة عبر عملياتٍ نوعيةٍ مدروسةٍ، والخط الثاني يركّز على العلم والتنمية البشرية العامة والمتخصّصة. الثورة -بالفعل- مدرسةٌ، ولكنّها ليست علماً نحفظه ونكرّره، لذلك نرى العدو وأنصاره يضمون لقواتهم متعلمين، ولا يوجد من يصبح ضابطاً أو جنرالاً حسب طول الخدمة أو المعرفة والمحسوبية، ولكن بالعلم والشهادات وحسن الأداء والخبرة، ولا يوجد لديهم منصبٌ أبديٌّ يُمنح للشلة المقربة.

بعد نكسة ١٩٦٧ وبداية العمل الفدائي العلني من الأردن، -وتحديداً- بعد معركة ونصر الكرامة، واجهت حركات التحرر -وخصوصاً- فتح سيلاً من المتطوعين الذين صعب استيعابهم، جاء الفلسطينيون والعرب من جامعات العالم ومن وظائفهم ليشاركوا في الثورة، لكنّ حجم وتأثير التطوع العشوائي المصلحي كان أكبر، ولم تُحسن القيادة غربلة المتطوعين وغلبت الفوضى والانتهازية على العلم والمتعلمين الذين تنبّهوا وشاهدوا،

وبعد تجربةٍ قصيرةٍ غادر معظمهم وعادوا لأعمالهم وجامعاتهم وبقيت القيادة دون تطوّر وتطوير للذات، واعتمدت على القوى الجسدية والمقاتلة فقط، ولذلك انهزموا بسهولةٍ في كلّ المعارك سواءٌ ضد جيوشٍ عربيةٍ غير متطورةٍ أو عصاباتٍ وميليشياتٍ عربيةٍ، وطبعاً ضد العدو الصهيوني.. وهنا يجب القول إنّ الصمود المؤقت والبطولات هنا وهناك ليست نصراً، ولكنّ النصر هو تحرير أيّ بقعةٍ، أو دفع العدو للتراجع السياسي، وهذا ما أنجزته الانتفاضة الأولى بعد الهزيمة الساحقة للثورة في بيروت ١٩٨٢ وتشتيتها في الصحاري العربية.. وجاء مؤتمر مدريد للسلام استجابةً للانتفاضة، ولكن تمّ إجهاض المفاوضات من قبل قيادة منظمة التحرير التي ذهبت للمحادثات السرية في أوسلو، ثم تمّ إجهاض أوسلو من قبل المنظمات الجهادية واليمين الإسرائيلي.. هذا هو الواقع.

في الفصل التالي سأحدثكم عن تجربتي كمواطنٍ فلسطينيٍّ صالحٍ في لندن، ثم سأتطرق ربّما في فصلٍ لاحقٍ لدوري ورؤيتي في الانتفاضة الأولى ديسمبر ١٩٨٧، وبعد ذلك مساهمتي كمراقبٍ لمؤتمر السلام في مدريد ٣٠ أكتوبر١٩٩١، ورؤيتي المجهرية عن قربٍ لما حدث في واشنطن ضمن المحادثات الأولى الرئيسة بقيادة د. حيدر عبد الشافي وفيصل الحسيني، والمفاوضات الأخرى المتعددة في عدة عواصم، ومن ثم محادثات أوسلو السرية.. لكنّني الآن سأطرح عليكم أحد الأسباب الفكرية التي أدّت إلى كارثة قطاع غزة.

الأسباب للكارثة كثيرةٌ وقد تطرقت للعديد منها سابقاً سواءٌ بالتحديد، مثل الانقسام، أو الابتعاد عن الديمقراطية، أو العنترية والجهالة، أو الأسباب الأخرى التي تظهر مما كتبت بالعموم. لكنّ هناك سبباً مباشراً للكارثة الحالية في قطاع غزة بعد طوفان السابع من أكتوبر. كانت قيادة الحركة الوطنية في

العموم براغماتية، تُقرّ بالمنطق والمعقول، وعند الضرورة تعترف بموازين القوى، ولم يكن ذلك يعيبها قط، بل دليلٌ على إنسانيتها. مثلاً تردّدت حركة فتح في إعلان الكفاح المسلّح عام ١٩٦٥، ولكنّها حسمت أمرها وهي تعلم القصور الذاتي والفارق في التسليح مع العدو.. كان الهدف الأوّل تثبيت التمثيل الفلسطيني بعيداً عن الأنظمة العربية، وربّما توريط العرب في حربٍ مع إسرائيل بعد طول انتظارٍ منذ النكبة. حين وقعت أحداث أيلول ١٩٧٠ في الأردن أقرّت القيادة بواقع الحال وعدم التوازن ورأت التخلي عن المعركة كونها ستؤدي للانتحار الذاتي؛ فذهبت إلى لبنان والتحمت هناك مع القوى الوطنية.. وبعد الغزو الإسرائيلي ١٩٨٢ والصمود في بيروت المحاصرة قرابة الثلاثة أشهر كان لا بدّ للقيادة الوطنية الفلسطينية من اتخاذ القرار: إمّا مواصلة القتال وتعريض لبنان وبيروت وسكانها للدمار خصوصاً بعد التيقن أنّ شارون وبيجين لن يتراجعا والعرب لن يدعموا، أو الانسحاب مع بعض الضمانات الدولية أنّ العدوان سيتوقف والمدنيين لن يتعرضوا للانتقام.. استشار الفلسطينيون إخوتهم اللبنانيين ثم قرّروا الانسحاب لإنقاذ لبنان وشعبه. وقبل هذه الواقعة وبعدها حدثت عملياتٌ حصارٍ للمخيمات الفلسطينية في لبنان وكانت المقاومة تصمد ولكن حين يتوحش الخصم السوري أو اللبناني ويستحيل حماية الناس كانت القيادة تتراجع.. أي لا قتال انتحارياً حتى آخر نقطة دم وآخر طفل وإرسال الجميع إلى الجنة.

أعتقد أنّ الصورة اتضحت الآن، ولكن بودي التذكير أنّ العدو الإسرائيلي يعتمد أدبيات وتكتيك العالم الغربي غير الانتحاري أثناء القتال، والعالم الغربي منذ آلاف السنوات يميّز بين الانتصار والهزيمة، وحين ينهزم طرفٌ يذهب قائده ويلقي بأسلحته تحت أقدام خصمه، وحينها يقرّر المنتصر ماذا يفعل بالقائد والمقاتلين المهزومين وذلك حسب المعطيات.

استمرّ هذا المبدأ والحال قائماً في الغرب حتى الآن، وقد تجلّى في الحرب العالمية الثانية وقبلها الأولى حيث تمّ استسلام المغلوب وعُقدت معاهداتٌ واستمرّت الحياة للشعوب. في حالة المقاومة الإسلامية في فلسطين لا إقرار بهذا النهج؛ فإمّا النصر أو الجنة ولا أهمية لمن ما زالوا على قيد الحياة؛ فيمكن أن يموتوا ولا يتم إنقاذهم باعتراف قيادتهم بالهزيمة؛ فهي لن تعترف، بل لو مل العدو القتل والحرب ولم يعد هناك ما يدمره؛ فسيخرج أي متبقٍ من المقاومين ويرفع شارة تشرتشل البريطاني بالنصر، ويعيد بسط سيطرته على الشعب ويُسخّر ما يتوافر له لمعركةٍ قادمةٍ مماثلةٍ محكومٍ عليها بالفشل كون الحال الاجتماعي والعلمي والإنساني لا أهمية له أو تقدير. الصمود لدى حماس لا يقترن بعملياتٍ عسكريةٍ مضادةٍ للعدو، ولكنّ الصمود هو موت المدنيين وتدمير المدن حتى تفرض الإنسانية أو تطورات العدو الداخلية وقف المقتلة؛ فيكون هنا نصر حماس لأنّها لم تعلن الاستسلام، ولأنّ العدو لم يثبت القضاء عليها!!

الغريب بالفعل أنّ حركة حماس التي أسهمت، إلى جانب اليمين الإسرائيلي، في إفشال اتفاقيات أوسلو عبر التفجيرات الانتحارية العنيفة في تل أبيب والمدن الإسرائيلية، وقتلت العشرات من المدنيين، وأدّت إلى عزل سكان الضفة والقطاع عن الداخل الفلسطيني.. الغريب أنّها باشرت بالطوفان ولم تكن قد استعدت لعملياتٍ مشابهةٍ كرادعٍ للسلطات الاحتلالية! لم يكن لديها سلاحٌ يردع جنون إسرائيل المتوقع كانتقامٍ للطوفان، ولم تكن قد جهّزت سلاحها الانتحاري القديم الفعّال؛ فالمعروف أنّ إيلام الجبهة الداخلية هو الشيء الوحيد الذي قد يردع القيادة السياسية الإسرائيلية كونه ينسف فكرة البلد الأكثر أمناً لليهود في العالم.. حين تطالب الشعب المدمر بتحمّل المزيد من الدمار من غير

آفاقٍ واضحةٍ؛ فلا يمكنك أن تدعي النصر إذا لم يقتل العدو الشعب عن بكرة أبيه وبقيت شراذم؛ فتلوح بإشارة النصر.

فيما يلي سأضع اقتباساتٍ لقيادات حركة حماس من دون تعديلٍ لغويٍّ ولفظيٍّ، حول رؤيتهم للتضحية بالناس ومفهوم الحرب لديهم، ولمن يكون المال والأمان، وماذا تعني أصلاً فلسطين لديهم كونهم يخدمون مشروع الإخوان في الإقليم:

يحيى السنوار: «نحن جاهزون لأن نُفنى جميعاً حتى آخر طفلٍ فينا.. قلنا ونقول ونكرّر إننا جاهزون أن نُقتل عن بكرة أبينا، أن نُحرق كما حُرق أصحاب الأخدود لتعيش فكرتنا».

غازي حمد: «رأس مالنا الأساسي هو شعبنا الفلسطيني، حتى لو قتلوا كمان ٢٠ ألف وكمان ١٠٠ ألف.. هذه ورقةٌ قويةٌ بأيدنا يا إخوان».

أسامة حمدان: «ما حدا لازم يتخيل أنه التضحيات، واللهي أنه استشهد الشعب، أو استشهد النساء والأطفال، التضحيات أولاً يجب أن يُنظر إليها في صفوف المقاتلين والمجاهدين وفي صفوف القيادة».

إسماعيل هنيه: «كما قلنا في كلّ مرةٍ أكرّر إنّ دماء الأطفال والنساء والشيوخ.. نحتاج هذه الدماء لكي توقظ فينا روح الثورة، لكي توقظ فينا العناد، لكي توقظ فينا التحدي».

فتحي حماد: «عند الشعب الفلسطيني صناعةٌ تجيده النساء، يجيده كلّ من في هذه الارض، يجيده الشيوخ ويجيده الأطفال، دروعا بشرية من النساء والأطفال والشيوخ».

موسى أبو مرزوق: «نحن شيدنا الأنفاق لأنه لا نملك ما ندفع به عن أنفسنا من القتل والاستهداف، هذه الأنفاق من أجل أن نحمي أنفسنا من الطائرات، نحن مقاتلينا في الأنفاق، أمّا قطاع غزة فأنت تعلم والجميع يعلم

بأن ٧٥٪ منه لاجئين، واللاجئين هم مسؤولية الأمم المتحدة في حمايتهم مسؤولية الاحتلال».

خالد مشعل: «خسائرنا تكتيكية وخسائر عدونا استراتيجية، هذه حقيقة».

خليل الحية: «احنا والله مال حماس كحركة بيجي لحماس، واحنا تنظيم متواضع ما نجمعه من تبرعات من أصدقائنا وناسنا والناس اللي بدعمونا وما نجيبه من جيوب أبنائنا من الاشتراكات وغيره وغيراته بكفينا».

إسماعيل هنية: «دعم حركات المقاومة التي تضعف هذا العدو أو تشغله عن أن يخوض معارك ضد إيران مباشرةً، هو في الآخر مصلحة».

محمود الزهار: «أمّا فلسطين بالنسبة إلنا زي اللي جايب مسواك وبينظف أسنانه، مشروعنا أكبر من فلسطين، فلسطين مش مبينه على الخريطة..».

تلك هي رؤيتهم للشعب، وأضيف أنه قد بلغ الإرهاب الإسرائيلي مداه الجنوني ضد المدنيين في قطاع غزة، ولم تنتقم المقاومة الإسلامية بعملٍ واحدٍ ضد المدنيين الإسرائيليين!! شيءٌ آخر يستدعي التأمّل حول الحركات الإسلامية الفلسطينية والعربية.. لماذا سكتت الحركة الإسلامية في فلسطين الـ١٩٤٨، وهي حركةٌ كبيرةٌ وقويةٌ ولها جمهورٌ؟ سكتت عسكرياً وانتقامياً، ولم تتحرك في الشارع تتظاهر مثل ما حدث في كلّ الدول الديمقراطية بما فيها إسرائيل؟ هم يشاركون في الانتخابات البرلمانية ويتقلدون الكراسي ولكنّهم لا يستغلون الواقع الديمقراطي لمناهضة الحرب ضد إخوتهم في غزة! عموماً لقد اكتفت كلّ الحركات الإسلامية عبر العالم فقط بالدعاء للناس في غزة وانتظار فعلٍ من السماء.. ثم اهتدوا للتظاهر ضد مصر، ويطالبون بانخراط الأردن في المعركة بالتخلي عن اتفاقية وادي عربة!

المقاومة الإسلامية التي تورطت من الخارج هي حزب الله والحوثي من اليمن. بالنسبة لحزب الله فقد تردّد في البداية، ثم تدخل تدريجاً بدعمٍ من

إيران لاغتنام الفرصة وكسب شعبيةٍ في العالم السني. بلغ التدخل لحزب الله مداه بقصفٍ متبادلٍ، ثم تهديدٍ لإسرائيل بقصف تل أبيب إذا قصفت بيروت، علماً بامتلاك الحزب للأسلحة التي تؤهله للقصف.. لكنّنا رأينا كيف حدثت المفاجأة بفضل العلم والتقنية الإسرائيلية، وتمّ إجهاض الحزب وقتل الزعماء بالجملة وتدمير جنوب لبنان واحتلاله.. والأهمّ من ذلك تدمير الصواريخ بعيدة المدى وهي في مخابئها بينما الحزب يتراجع ولا يجرؤ على قصف المدنيين الإسرائيليين أو القصف المُركّز لأهدافٍ بعينها خوفاً من انتقامٍ أوسع ضد حاضنة الحزب الشعبية (وهذا يُسجّل لصالح قيادة الحزب).. باختصارٍ انتهى حزب الله وتم لجم إيران بعد سقوط نظام الأسد في سوريا، وانتصار الإسلام الموالي لإسرائيل في دمشق. الذراع المتبقي لإيران هم الحوثي في اليمن إذ لديهم قدراتٌ على إغلاق الممرات البحرية وضرب القواعد الأميركية في الخليج وإشعال الاقتصاد العالمي إذا لم تتمّ الاستجابة لطلبهم، وسنرى في النهاية أنّ هذه الجبهة لن تعصى على التخطيط العلمي والقدرات التكنولوجية الغربية، وأرجو أن أكون مخطئاً.

قبل الطوفان وليد مخ يحيى السنوار وبعض رفاقه كان حزب الله يخطّط بهدوءٍ ودأب لهجومٍ شعبي كاسحٍ على الجليل الفلسطيني الأعلى تشارك فيه قوات الرضوان ويزحف معهم اللاجئون الفلسطينيون لقراهم والبقاء فيها.. كانت إيران تعمل بسرعةٍ للانتهاء من التخصيب النووي والتقرب من بناء قنبلتها وتتحمل كل الاستفزازات الغربية والأميركية والإسرائيلية؛ فجاء الطوفان وذهب كلّ شيءٍ مع الريح وسيذهب الباقي من المعلوم والمجهول.

لقد قيل إنّ طوفان الأقصى جاء لإنهاء التفوّق الإسرائيلي وكسر مقولة الردع؛ فإذا بالنتيجة عكسيةٌ تماماً.. تمّ ردع حماس في غزة، وردع الشعب

الفلسطيني في الضفة والذي تحوّل لمتفرجٍ ثم لمفعولٍ به، وردع حزب الله واحتلال جنوب لبنان، وإنهاء سوريا كدولةٍ مسلّحةٍ واحتلال أرضها، ودفع مصر والأردن للتعاون الأمني مع إسرائيل تجنباً لفوضى محتملةٍ من الإسلاميين الساعين للكراسي.. بل ثبت أنّ الرأي العام العالمي أفلس وارتدع من إسرائيل، وكذلك الدول الغربية التي وقفت سياسياً مع رحمة الفلسطينيين وضرورة وقف إبادتهم، لم تتمادَ أيٌّ منها لمستوى قطع العلاقات مثلاً مع إسرائيل، والأمم المتحدة والأخرى المنفردة أعجز عن إدخال الماء والغذاء والخيام للناجين المدنيين في قطاع غزة، ومجلس الأمن والجمعية العمومية والمحاكم الدولية والمنظمات الإنسانية.. كلّهم في الواقع مردوعون من إسرائيل.. وقادة إسرائيل يقولون لقد روّضنا وعوّدنا العالم على ما يجري في غزة، هذا هو الواقع الأليم.. هل يوجد من بوسعه وقف مخطط التهجير والاستيلاء على غزة؟ أحد الاستنتاجات وفي جملةٍ واحدةٍ مفيدةٍ: إسرائيل تسعى بدعمٍ ورضى غربي لإخراج قضية اللاجئين خارج حدود فلسطين الطبيعية! لقد اشتركت إسرائيل وحماس وقناة الجزيرة وتوابعها ولأسبابٍ متنوعةٍ، اشتركوا في ترويج أعداد ضحايا أقلّ في القطاع!! أقلّ بنسبة واحد إلى عشرة؛ فقد ثبت أنّ تعداد الضحايا الحقيقي هو عشرة أضعاف ما كانت تذكره وزارة الصحة الحمساوية وتتلقفه قناة الجزيرة وتشكّك فيه إسرائيل.. كلّهم يريدون تقليل العدد.. الوزارة تحسب جثث القتلى التي تغادر المستشفيات، بينما الجرحى والإصابات التي تموت خارج المستشفيات، والذين دفنوا تحت الأنقاض وغيرهم لم يتمّ تقديرهم والإشارة إليهم.. لقد قدّرت دراسةٌ نُشرت نتائجها في مجلة «ذا لانسيت» الطبية في يوليو ٢٠٢٤ أنّه «مقابل كلّ حالة وفاةٍ تم إحصاؤها، يجب إضافة أربع وفيات حرب غير مباشرة». وقد حذّرت منظمات الإغاثة منذ أشهر من احتمال وفاة المدنيين في غزة بسبب سوء التغذية والأمراض، وتحدّث

الكثيرون عن عشرات الآلاف من وفيات الحرب غير المباشرة. لذلك تسعى إسرائيل للتهجير حتى تعدم فرصة تعداد السكان الأحياء وبالتالي حساب عدد الضحايا والمفقودين، والذي يقترب حسب أحدث التقديرات الدولية لثلاثة أرباع مليون مدني. هذا تقدير منظماتٍ ومعاهدَ مستقلةٍ اعتمدت على مقارنة المساحة وحجم القذائف وأنواعها وتعداد الضحايا بتنوعهم، بين الحروب الحديثة من العالمية الأولى والثانية والحروب الأهلية، وبين حرب المقتلة المعلنة والقائمة بفعلٍ إسرائيلي.

تحضرني هنا بعض الخواطر، الأولى أنّ ما يحدث في قطاع غزة قد حدث مثله من قِبل هتلر النازي ضد اليهود، وحينذاك أيضاً سكت العالم عمّا يجري، ولم يتدخلوا إلّا حين تزايد خطر هتلر على بريطانيا والاتحاد السوفيتي؛ فتدخلت أميركا ونصرتهم وهزموا النازية وحرّروا أوروبا وشعوبها، وادعى العالم حينذاك أنّه لم يكن يعرف عن أفعال هتلر البربرية ضد اليهود.. هم اليوم يعرفون بالتفصيل والصوت والصورة والمعلومة، ولكنّهم لا يفعلون أيّ عملٍ إنسانيٍّ بحتٍ لردع العدوان.

الخاطرة الثانية هي حقيقة أنّ الذين مارسوا أول الجرائم والمذابح ضد الشعب الفلسطيني أثناء حرب النكبة ١٩٤٨ معظمهم من الناجين من محارق النازي ووصلوا لاجئين إلى فلسطين وشكروا شعبها بممارسة الإبادة والمجازر الوحشية والطرد.. أي ينطبق عليهم مثال عض اليد التي تطعمه.. والذين يمارسون الإبادة الآن ويقودونها ويبررونها هم من أبناء وأحفاد الناجين من محارق هتلر، وهذا ما يثبت من مراجعة أصولهم وأقوالهم عن الآباء والأجداد، وكأنّ الدرس الذي لقنه لهم هتلر ولقنوه لأبنائهم وأحفادهم، أن أبيدوا خصومكم ولا تلتفتوا لقوانين إنسانيةٍ، وما يساعدهم في هذا الطريق هو عثورهم على آياتٍ في دياناتهم تؤيّد الإبادة، وهذا متوافر بالمناسبة في كلّ

الديانات.. الإسرائيليون يجلسون في المقاهي وفي بيوتهم يحتسون الشراب على مرمى حجرٍ من مجازر تُمارس بأيديهم وباسمهم، ثم سيّدعون الإنسانية والتحضر!

الخاطرة الثالثة التي لمعت في ذهني هي حول الأسرى الفلسطينيين في سجون الاحتلال. هذا الطوفان كان له عنوانان، الأوّل كسر الردع والهيبة الإسرائيلية، والثاني تحرير الأسرى، بمعنى تبييض السجون، ولذلك تمّ أسر من تمّ العثور عليهم في محيط غزة يوم الطوفان! كل عمليات تحرير الأسرى السابقة كانت تؤدي إلى إعادة اعتقالهم من قبل الاحتلال طالما أنّهم لم يغادروا فلسطين.. ومع ذلك، وبعد فشل الطوفان في تحرير الأسرى وتخلي نتنياهو واليمين الإسرائيلي عملياً عن أسراهم لدى حماس طالما أن استمرار الحرب يحقّق مطالبهم وأهدافهم.. فالسؤال هنا إذا كان المعتقلون الفلسطينيون يعرفون ما يجري ويحدث للأهل في غزة طوال هذه الشهور تحت عنوان تحرير الأسرى.. ألم يفكروا في اتخاذ موقف ما؟ مثلاً مطالبة حماس بالتخلي عن مطلب تحريرهم لتخفيف الحمل عنها في المفاوضات والاكتفاء بمطلب وقف الحرب والانسحاب مثلاً، في مقابل إطلاق سراح الأسرى الإسرائيليين! أو اتخاذ أيّ موقفٍ سياسيٍّ آخر بدل سكوتهم هذا بينما غزة وشعبها يتعرضون للإبادة تحت شعار تبييض السجون؟ مجرّد تساؤل فقط.

الآن وقد ضاعت فلسطين بمدنها وقراها التي سكنها الآباء والأجداد منذ آلاف السنوات، ضاع النصف برفض قرار التقسيم ١٩٤٧، وضاع ربعٌ إضافيٌّ تمّ احتلاله في حرب ١٩٤٨، وضاع الربع الأخير نتيجة حرب ١٩٦٧، وشاء القدر أن ننحشر كلاجئين في غزة منذ النكبة الأولى.. غزة التي تبخرت هي الأخرى، ولم يعد لي كمواطنٍ فلسطينيٍّ هناك جغرافيا

للذكريات، ضاعت حتى آثار ذكرياتي تماماً كما مُحيت ذكريات والدي في بربرة ويافا.. كما لا تبدو أيُّ معالمٍ واضحةٍ للمستقبل، والواضح هو استمرار الثقافة نفسها، وبالتالي الاستمرار على الطريق نفسه، لأنّ تغيير العقليات والأفكار والمعتقدات، التي أوصلتنا إلى هنا، يُعتبر من الأمور المعقدة.. حتى لو نجحنا بقدرة قادرٍ على إزالة الكيان؛ فما هو المستقبل ضمن هذه البنية الفكرية؟ وعلى أيّ غرارٍ سنكون؟ مثل أفغانستان، أم إيران، أم لبنان، أم السودان، أو ربّما مثل ليبيا؟ ولماذا لم نتعلم من اليهود أصلاً ورفضنا التعايش منذ ما قبل وبعد قرار التقسيم من دون امتلاك بدائل أو السعي لمزاوجة الكفاح المسلح بكفاحٍ آخر؟.. ولماذا نكره الطريق الديمقراطي ونتهرب منه؟

رفض الشيوخ قرار التقسيم الذي كان في الأصل قرار تقسيمٍ وفصلٍ سياسيٍّ ولا يقرّر ترحيل العرب من الجغرافيا المخصّصة لليهود أو العكس، بل يقرّ بحرية البقاء في السكن والأرض وحرية التصويت الانتخابي لدى القسم الخاص بالعرب أو اليهود، كلّ طرفٍ يشارك سياسياً مع جماعته بينما الحياة تحت حكم الآخر سياسياً.. ثم فشل الشيوخ والإقطاعيون في تشكيل حكومةٍ في الضفة والقطاع نظراً لخلافاتهم بعضهم ضد البعض الآخر وتنوّع العمالة مع الدول المجاورة.. ولاحقاً ومع بداية الكفاح المسلح لم يصمد شعار النضال لإقامة دولةٍ علمانيةٍ ديمقراطيةٍ تضمّ الجميع، واتُخذ شعار الكفاح المسلّح وملاحقة مثل تأجيل الديمقراطية ولا صوت يعلو على صوت المعركة، وتصدعت منظمات الكفاح المسلّح وتجزأت وتقاتلت بعضها مع بعض.

الشيوخ، والذين يتشربون أقوالهم ورؤاهم، ورفضوا فكرة الدولة العلمانية الديمقراطية، يعتبرون العلمانية كفراً وعداءً للدين، ولذلك أسبابٌ

تاريخيةٌ وأخرى معرفيةٌ.. تاريخياً أنهت العلمانية الخلافة العثمانية وأختها الفارسية، وذلك بدعمٍ غربيٍّ؛ فأصبحت العلمانية في صف الخصوم لأنّ الشيوخ يريدون الخلافة ليحتلوا مناصبهم فيها ومنافعهم منها.. والسبب المعرفي هو جهالتهم بالعلمانية إلى درجة اعتبارهم تركيا أردوغان دولةً إسلاميةً رغم قول وتكرار أردوغان في زياراته للدول العربية أنّه رئيسٌ مسلمٌ لبلدٍ علمانيٍّ، ورغم أنّ الدستور والقضاء وكلّ شيءٍ في تركيا علمانيٌّ؛ فالعلمانية لا تُحارب الديانات، ولكنّها تمنع أن يحكم رجال الدين باسم الشريعة والكتب المقدسة، أمّا التدين والدين فهو حريةٌ شخصيةٌ. دولٌ علمانيةٌ مثل أميركا وألمانيا وبريطانيا وفرنسا تعجُّ بالمساجد القديمة والحديثة ولا يوجد فيها من يمنع التعبد.. فقط عليك أن لا تتعدى على حرية الآخرين وأن تعرف أنّ الحكم والقوانين دنيويةٌ وليست سماويةً. يعني قطع دابر فرص رجال الدين من حكم العباد كما كان الحال في الماضي، في الغرب وفي الشرق، وكما هو الآن في أفغانستان وأخواتها وإيران وأنصارها، وكما يريد الإخوان المسلمون وأذرعهم. هنا الفارق بين المطالبة بإقامة دولةٍ أو إمارةٍ فلسطينيةٍ مسلمةٍ، وبين النضال من أجل دولةٍ علمانيةٍ ديمقراطيةٍ للجميع تعطينا أصلاً الحقوق نفسها. الحركة الوطنية الفلسطينية برمتها تخلّت عن فكرة الدولة الديمقراطية العلمانية بسرعةٍ، والحركات الإسلاموية تريد حكماً إسلامياً وهذا ما طبّقته حركة حماس في قطاع غزة، وما تغازل به السلطة الوطنية جمهورها، وكلاهما يريد التفرد في الحكم والجلوس على كرسي دولةٍ مهما كانت هزليةً.

كلُّ الدلائل بعد طوفان النكبة الثانية تشير لانتهاء فكرة إقامة دولتين إحداهما فلسطينية، وهذا يعيدنا إلى فكرة الدولة الواحدة والتي طبعاً ترفضها إسرائيل، ولكنّ النضال من أجلها أفضل وأسهل وأقدر على كسب العالم، كما

أنّ تحقيق هذا الهدف يتيح للفلسطيني حياةً أكرمَ وإمكانية تعلمٍ ونموٍ اجتماعيٍّ واقتصاديٍّ وسياسيٍّ أفضل من وقوعه تحت حكم حماس أو السلطة، وذلك حسب التجربة والرؤية والتحليل. للأسف فإنّ الافتقار لوجود نسبةٍ عاليةٍ من المثقفين في الضفة والقطاع يحدّ من التحرك الجماهيري نحو المطالبة بدولةٍ علمانيةٍ؛ فالجمهور الفلسطيني بالعموم منقسمٌ بين تأييد فتح والسلطة من جهةٍ وبين تأييد حماس والرؤية الدينية من جهةٍ أخرى، وكلا الطرفين من الجمهور والنخبة المثقفة مرتبطان حياتياً بأحد التوجهين، وهذا عموماً يعمق الجهالة والثبات عليها.. ولا ننس أنّ التربية تصادميةٌ وطاردةٌ للآخر، وهذا يخيف الجمهور من الاشتراك مع اليهود في دولةٍ واحدةٍ.

كمواطنٍ صالحٍ طالبت على الدوام ومنذ عقودٍ بضرورة تحريك الأفكار وتجديدها، لقد تطرقت لفكرة الدولة العلمانية علناً أثناء محادثات أوسلو وبعدها وحتى الآن سواءٌ عبر مقالاتٍ صحافيةٍ متكررةٍ، أو كتبٍ نشرتها ويدور بعضها حول موضوع العلمانية، وهي متوافرة في الأسواق.. كذلك طالبت بأشكال نضالٍ جماهيريٍّ سلميٍّ مثل مسيراتٍ جماهيريةٍ سلميةٍ تطالب بعودة اللاجئين من المخيمات إلى أراضي وقرى فلسطين مع قبول الحكم الإسرائيلي السياسي القائم، وكانت هذه المطالبة منذ عقودٍ، لكنّ حماس حوّلتها في النهاية إلى فكرة تراشق حجارةٍ وبالوناتٍ حارقةٍ عبر الحدود مع غزة.. كان هدفي إبلاغ العالم بالتخلي عن الكفاح المسلّح ولكن مع استمرار المطالبة بحقّ العودة السلمية والعيش المشترك في ظلّ دولةٍ ديمقراطيةٍ علمانيةٍ.. لكنّ الخوف من التجديد، والاستسلام للأفكار القائمة، والحفاظ على العداوة الدينية، وقلّة المثقفين الأحرار لقيادةٍ سلميةٍ مجتمعيةٍ، إلى جانب الاتكالية الفكرية والفقر الاجتماعي والاقتصادي.. كلّها عوامل تعيق التجديد والانطلاق؛ فلا غالب إلّا الله.

من السهل إطلاق وتأييد فكرة الكفاح المسلّح واستعمال القوة لاسترداد الحقوق، ولكنّ هذا شيءٌ قد يُقال بين دولٍ عظمى أو متقاربة القوة العسكرية والاقتصادية.. تاريخنا العربي يؤكّد هذه الحقيقة، وتجربتنا الفلسطينية في اللجوء للقوة غير النظامية لمواجهة إسرائيل وداعميها ثبت أنّها فقيرةٌ وتسبب التراجع، وهذا حتماً لا يعني الاستسلام لرؤية العدوّ، ولكنّ البحث عن طرقٍ أخرى سواءٌ عبر البناء الاجتماعي والعلمي الذاتي، أو تجهيز أسلحةٍ رادعةٍ قد تجبر العدوّ ذات يومٍ على التعايش السلمي أو تؤدي به إلى الفناء، أو على الأقل تشتيت مجتمعه.. لكن أن تكون في حالتك التراجعية منذ عقودٍ، وفي مواجهة قوةٍ متناميةٍ علمياً وعسكرياً ومتمكنةٍ سياسياً عبر العالم، ولديها رصيدٌ غير محدودٍ من الدعم الغربي الصناعي والتقني، ثم تطالب بإعدام كيان هذا العدوّ ولا تقدّم أيّ حلولٍ وسطيةٍ؛ فهذا عملٌ غير منطقيٍّ مطلقاً. الحركة الوطنية الفلسطينية طالبت بدولةٍ علمانيةٍ ثم تخلّت عن الفكرة لمصلحة دويلةٍ صغيرةٍ لتتولى قيادتها ورئاستها، وهذا المطلب والحلّ لم يرق الحركة الإسلامية؛ فعادت تطالب بكلّ فلسطين من النهر للبحر، وبالتالي، التخلص من اليهود الإسرائيليين، أو أن يُخيروا بين اعتناق الإسلام أو دفع الجزية!

يُفترض أن تكون تجربة حزب الله درساً لكلّ المطالبين باستمرار النهج المسلح إيّاه.. كان الحزب أقوى من دولة لبنان، ومُنقذاً لدولة سوريا الأسد، ويداً ضاربةً قويةً في المنطقة، وكان لديه جيشٌ منظمٌ حديديٌّ وممتازٌ ومتنوع التسليح، ويفوز بدعمٍ مفتوحٍ من دولةٍ إقليميةٍ قويةٍ هي إيران.. أي أنّ الحزب ووضعه كان أمنية وغاية أيّ حركة تحرّرٍ مسلّحة، ولم تكن المقاومة الفلسطينية يوماً عبر تاريخها في وضع وأريحية حزب الله واضح الأهداف ومعلنها.. ولكنّ الحزب تبخر وتدمّر وتشردت حاضنته الشعبية ولم ينتقم بقتل إسرائيليٍّ

مدنيٍّ واحدٍ، وذابت صواريخه متعددة الأسماء والأبعاد والقدرات.. فهل يوجد لأفكار تجديد مثل هذا النوع من المقاومات أيّ آفاقٍ؟ ألا ينبغي تشغيل المخ قليلاً!

مجدداً ودائماً، على رأي إخوتنا الأندلسيين عندما اقتربت ساعتهم: «لا غالب إلا الله».

هنا لندن

أعود لذكريات المواطن الصالح وتحديداً مدة العمل في المجال الإعلامي انطلاقاً من العاصمة البريطانية لندن التي وصلتها وزوجتي وابنتي ليلى قادمين براً من الأردن وذلك في العام ١٩٨١. كانت ليلى في عمّان تتحدث العربية بطلاقةٍ عبر مخالطة الأطفال في الحضانة، ولكنّها في لندن رفضت استعمال اللغة العربية، وقد توصلت إلى تفسير هذا الموقف كونها شاهدتني خلف القضبان وعايشت أزمة الترحيل السريع من بلدٍ اعتبرته بلدها، أو تنتمي إليه. واجهت هذه الإشكالية بمسايرتها تماماً واكتفيت باستعمال اللغة الألمانية المشتركة بيننا وبداية تعليمها الإنجليزية.. كان من الصعب أن أفسّر لها ما جرى لنا من خلعٍ؛ فلم أحاول.

في لندن واجهنا على الفور كتلةً من المشاكل نظراً لضيق الحال وعدم وجود أهلٍ ومعارفَ، لكنّنا متسلحون بمؤهلاتنا العلمية وتجاربنا، ومدعومون بنظامٍ اجتماعيٍّ تابعٍ للدولة البريطانية التي تحمل زوجتي وابنتي جنسيتها وأملك حق الإقامة الدائمة بها. استأجرنا بيتاً وسجّلنا أنفسنا كعاطلين نبحث عن عملٍ، ورتّبنا وضعنا لبضعة أسابيع ثم انطلقنا للبحث عن العمل. توظفت زوجتي أولاً في شركة تصفّح السيارات ضد الرصاص للأغنياء، ولاحقاً رفضوا التجديد لها بعد أن عرفوا أنّني فلسطينيٌّ، ولكنّها لم تتعطل يوماً واحداً عن العمل في عدة شركاتٍ حتى استقرت مع مكتب شركة الزاوية الليبية

للنفط. في الأسبوع الأول لبداية عمل زوجتي وصلها بالبريد شيك البطالة، ولكنّها ذهبت لمكتب العمل وأعادته وأبلغتهم أنّها توظفت، وقد استغرب الموظف أمانتها. بالنسبة لي؛ فقد تفحّصت سوق العمل وإمكانياتي ورأيت العديد من الفرص ولكنّني قرّرت الاتجاه للعمل الصحافي. ذهبت إلى مقرّ صحيفة «العرب اللندنية» وقابلت رئيس تحريرها الذي هو صاحبها أيضاً، الحاج أحمد الهوني وكان معه نائبه السيد محمد قبرطاي.. كان الحاج قد تفرّد عن ابن عمه في ملكية الصحيفة وباشر في تحديث الطاقم.

كانت العديد من الصحف الصادرة في الوطن العربي لديها مكاتب وممثلون ومراسلون في لندن، لكنّ العرب كانت آنذاك الصحيفة اليومية الوحيدة التي تصدر هناك وتوزّع في بريطانيا وتشحن إلى بعض الدول العربية. في نهاية لقاء التعارف قال الحاج إلى نائبه إنّه يوافق على عملي معهم، ثم سأله: كمْ نعطي الأستاذ راتباً؟ فقال محمد نعطيه مثل الآخرين الجدد الذين انضموا إلينا؛ فردّ عليه الحاج أحمد: لا، الأستاذ وجهه يحمل الخير، أعطيه ضعف المبلغ (٧٠٠ إسترليني). شكرت الحاج وعزمت على ردّ الجميل عبر الجهد المضاعف كماً ونوعاً. لا أدري كيف عرف بقية الزملاء براتبي، ولا أظنّ أن الحاج أبلغهم، ولكن حدثت شبه ثورةٍ أخمدها الحاج بقوله: هذا ما لدينا اللي عاجبه يكمل واللي مش عاجبه مع السلامة.. وكملوا، ولكن في جوٍ مشحونٍ خصوصاً وأنّ الحاج وضعني في مكتبٍ مستقلٍ عن صالة التحرير التي تضمّ بقية الطاقم. صرت طوعاً أكتب تعليقَ رأيٍ سياسيٍّ يوميٍّ، وأشتري صحفاً ومجلاتٍ ألمانيةً أترجم منها مواد مناسبةً للنشر، وأعمل تحقيقاتٍ، وأساهم مع الطاقم الفني آخر النهار في المراجعة، ولكنّي لم أضع اسمي إلّا على مواد الرأي السياسي وعلى المقابلات طبعاً، ولاحقاً على صفحةٍ أسبوعيةٍ عسكريةٍ أُعدها كاملةً وأُجهّز مواضيعها وصورها، وصرت أزور

معارض السلاح والطيران في بريطانيا وفرنسا للمتابعة والتزود بالصور.. كنت آخذ معي إلى المعارض والمقابلات المصوّر ناصر مطرقي من عربستان، الذي أصبح صديقاً أعتزّ به، وقد اكتشفت بعد وفاته أنّه كان مريضاً وتحت العلاج، ولكنّه لم يبلغني قط.. كان ملاكاً في الأخلاق والأمانة، رحمه الله.

فور عثورنا على عملٍ تقدمنا إلى مكتب الإسكان لتدبير قرضٍ لشراء بيتٍ بدل هدر الإيجار الشهري، وكوننا عائلةً مع طفلٍ فقد أعطونا أولويةً وعثرنا على بيتٍ مستقلٍ متواضعٍ وقرضٍ لشرائه بمبلغ ١٦ ألف إسترليني.. خلال عامين عملنا خلالها على تحسيناتٍ في هيكلية البيت بعملٍ ذاتيٍّ ثم بعناه بثلاثين ألفاً واشترينا غيره بسبعين.. يتمّ ذلك في العادة عبر مزاوجة القروض إذا كان الدخل الشهري يكفي للسداد، بمعنى ربحنا في البيت الأول حوالي ١٥ ألفاً وأضيفت مع القرض الأول لأخذ القرض الأكبر.. وهكذا طوال إقامتنا في بريطانيا لربع قرنٍ اشترينا بيوتاً وحدثناها وبعناها وجنينا في النهاية أرباحاً ممتازةً نعيش من خيرها في مدة التقاعد، علماً بحصولنا على تقاعدٍ حكوميٍّ مثل كلّ دافعي الضرائب وتقاعدٍ خاصٍ لي كنّا ندفع رسومه ونخصمها من الضرائب كوني أعمل إعلامياً لحسابي الخاصّ. أسجّل هذه الحقائق والمعلومات لإعطاء فكرةٍ عن الدولة الرأسمالية الاجتماعية العلمانية الديمقراطية التي تمثّلها بريطانيا لكلّ المواطنين والمقيمين.

تحضرني ملحوظاتٌ اجتماعيةٌ لا بأس من مشاركتها مع القرّاء. في بيتنا الأوّل المسجّل باسمي واسم زوجتي رزقنا ابنتنا الثانية، نورا، التي حضرت عملية ولادتها إذ أصبح ذلك موضةً، ولم يكن مسموحاً حين ولدت ليلى مثلاً عام ١٩٧٧ في ألمانيا. لقد عدت حينذاك مع زوجتي والرضيعة ليلى من المستشفى ولكنّ الزوجة أصيبت بحمى تلك الليلة: فطلبت لها الإسعاف وأعادوها إلى المستشفى، ولكنّهم رفضوا أخذ ليلى. أصبح عليَّ أن أعتني

برضيعةٍ عمرها أقلّ من أسبوعٍ، وقد نجحت لوقتٍ قصيرٍ ولكنّي أصبحت بحاجةٍ إلى النوم؛ فقد كانت ليلى ترضع حليبها كل أربع ساعاتٍ، وكان عليَّ أن أغسل الزجاجات وأعقّمها وأجهّز للوجبة التالية، وبالتالي، لا وقت لنومٍ يستمر بضع ساعاتٍ. استعنت بأصدقاء ليأخذوا دواماً يؤهلني للنوم حتى خرجت زوجتي بسلامٍ من المستشفى. المهم هنا أنّني أصبحت لاحقاً وبعد سنواتٍ واستقلال ليلى، أعرف وأنا نائمٌ إذا كانت بحاجة لشيءٍ أو تمرّ في أزمةٍ.. وفي كلّ مرةٍ نتصل بها يصدق حدسي. ليلى ونورا أنهتا التعليم الجامعي ومتوفقتان في العمل والحياة والزواج وصنعتا لي أحفاداً.

ملحوظةٌ اجتماعيةٌ أخرى لفتت انتباهي في لندن هي الخليط البشري المتنوع والمتجانس الذي يعيش في تلك المدينة الصاخبة.. ربّما يوجد أناسٌ من كلّ أجناس الأرض في لندن، أو على الأقل معظم الأجناس. العرب طبعاً يعتبرون لندن مربط خيلهم؛ فهم يملأون شوارعها الرئيسة ويسكنون أحياءً معينةً وهناك محالّ عربيةٌ صرفةٌ، ومشافٍ خاصةٌ وزوارٌ لشارع الطب.. عربنا يسيرون بملابسهم التقليدية ذكوراً وإناثاً، ولكنّ بعض الإناث كن يخلعن اللباس العربي قبل نزولهن من الطائرة في مطار هيثرو. المهم هنا أنّ الإنجليز يتعايشون مع هذا التنوع الذي لا يؤثّر في أسلوب حياتهم أو في سياسة بلدهم؛ فمهما ارتفع عدد المسلمين مثلاً في البلاد فلن تتحول إلى نظامٍ سياسيٍّ إسلاميٍّ، بل يتحول السياسيون المسلمون إلى علمانيين، وهذا على عكس ما قاله نائب الرئيس الأميركي ترامب بأنّ بريطانيا أصبحت أوّل دولةٍ إسلاميةٍ في أوروبا.. ربّما هو محقٌّ سطحياً بالنظر لعدد ومظاهر المسلمين هناك ولكنّه مخطئٌ في الجوهر.

في الحقيقة إن السياسة البريطانية كانت محابيةً دوماً للإسلام من موقع المستفيد. معظم جنودها في الحرب العالمية الأولى كانوا من المسلمين

الهنود والباكستان والمصريين وغيرهم، وبهم غزت فلسطين واحتلت القدس عبر سيناء وغزة. ولندن هي أوّل من شجّع ودعم جماعة الإخوان المسلمين، ولم تتنازل عن هذا التوجه مطلقاً على الرغم من مطالبة أوروبا بذلك. منذ وصولي إلى لندن وعملي في الإعلام وأنا أتعرّف إلى حقائق علنيةٍ وأخرى خفيةٍ تثبت ذلك. لاحظت حريةً مطلقةً للدعوة الإسلامية وللجماعات الإرهابية في بريطانيا التي سكتت عنهم طالما أنّهم لم يفجّروا مدنها.

كان هناك شخصٌ أعور وله مخلب قرصانٍ في يده ويدعي المشيخة وتتبعه جماعةٌ استفزازيةٌ ولا يحلو لهم الصلاة إلّا في الشوارع العامة وسط لندن، ويوجدون دوماً في هايدبارك، كما كان أفراد الجماعات الجهادية المصرية يتجولون بحريةٍ في العاصمة البريطانية، وأتذكّر أنّني أجريت مقابلةً مع أحدهم في الهايدبارك بعد تفجير حافلة سيّاحٍ أوروبيين أمام المتحف المصري في القاهرة.. سألته ضمن أمورٍ أخرى: لماذا تهاجمون السيّاح في بلدكم، وأنتم هنا تتجولون بحريةٍ في الغرب؟ قال بعد تأملٍ: ظننا أنّهم سيّاحٌ يهودٌ إسرائيليون. بعد عقودٍ من ذلك أصدر المركز الأوروبي لمكافحة الإرهاب تقريراً يوم ٧ يوليو ٢٠٢٣ يحدّد فيه تاريخ وأدوات العلاقة والدعم البريطاني للإخوان (انظر الملحق) وجاء في بند التقييم والقراءة المستقبلية:

«رغم التحذيرات المتواترة من جانب أجهزة الاستخبارات في بريطانيا، بشأن المخاطر الناجمة عن استمرار احتضان أنشطة جماعة الإخوان، ودعمها بشكلٍ رسميٍّ وغير رسميٍّ، لا تزال المواجهة البريطانية ضعيفةً وغير مباشرةٍ ولا تزال لندن تمثل الملاذ الآمن بالنسبة للتنظيم ومنطلقاً لعملياته داخل أوروبا، لذلك يتوجب على الحكومة البريطانية مراجعة سلوكها فيما يتعلق بدعم أو احتضان جماعة الإخوان والاستفادة من تجارب الدول التي تعاني في الوقت الراهن تنامي النشاط الإرهابي للتنظيم».

لقد سيطروا على مؤسساتٍ تجاريةٍ واجتماعيةٍ ودينيةٍ، وكانوا من غلاة التطرف الفكري، وأتذكّر حين مات الشاعر نزار قباني نهاية أبريل ١٩٩٨ أنّ عصابةً منهم رفضت دخول جثمانه للمسجد الكبير في لندن للصلاة عليه، ولكنّنا أصررنا على الأمر وحدث تدافعٌ انتهى بدخول الجثمان للمسجد والصلاة عليه ومن ثم تمّ شحنه إلى دمشق ليدفن هناك.. لا أدري إذا كان نزار قد أوصى بالصلاة على جثمانه، ولكنّه كتب وصيةً وهو في المستشفى طالب فيها أن يُدفن في دمشق.

كلُّ الحركات الإسلامية كانت ممثلةً ونشطةً في لندن وبريطانيا، تصدر منشوراتها وصحفها الموجهة لبريطانيا وللخارج وتجمع التبرعات، وتمارس النشاط التجاري والحسابات البنكية.. كانت بريطانيا العلمانية وما زالت تتقبلهم بينما هم يرفضون العلمانية البريطانية، ويريدون دولاً وإماراتٍ ويقطنون حاراتٍ وشوارعَ إسلاميةً بحتةً ويطالبون بمدارسَ وتعليمٍ إسلاميٍّ كما هو في باكستان مثلاً.. بصراحةٍ تامةٍ كنت على الدوام معجباً بسكوت البريطانيين عن هذه المظاهر في بلادهم، ومستغرباً من الإسلامويين الذين يريدون أسلمة البريطانيين -وبالطبع- يحقّ التساؤل لماذا لا يعودون إلى بلادهم الأصلية الإسلامية؟ لكنّ السؤال هنا يدور حول فوائد السياسة البريطانية من دعم الحركات الإسلامية ونتائج حسبتهم حول حجم الخسائر والأرباح من هذه السياسة.

أتذكر مشهداً من مسلسلٍ دراميٍّ كوميديٍّ بريطانيٍّ كان يبثّه تلفاز بي بي سي.. عائلة باكستانية، حيث الزوجة تحاول إقناع زوجها بقضاء عطلةٍ في دبي، والزوج يخبرها أن العطلة في مدينة برادفورد البريطانية أفضل من دبي.. سألته لماذا برادفورد أفضل من دبي؛ فقال: برادفورد بها مسلمون أكثر من دبي.

بريطانيا -بالتأكيد- ذات نظامٍ سياسيٍّ منفتحٍ ويحترم حقوق الإنسان،

وليس الإسلاميون فقط من تمتعوا بحرية العمل لكنّ الفارق أن الإسلاميين يريدون أسلمة المجتمع وإلغاء علمانيته، كما أنّ بعض فرقهم تشجّع على العنف في بلادٍ خارجيةٍ وتنظّم له من بريطانيا، بينما لم يثبت ذلك على منظمين آخرين يستفيدون من مناخ الحريات. أقام العرب صحفهم الحرة في بريطانيا، وقد تبعت صحفٌ أخرى نهج صحيفة العرب اليومية؛ فصدرت صحفٌ جديدةٌ وطبعاتٌ مختلفةٌ لصحفٍ عربيةٍ، وتأسست أوّل محطةٍ تلفزيونيةٍ فضائيةٍ عربيةٍ في لندن، وهي أم بي سي، وكانت أوّل محطةٍ تتيح للإسرائيليين التعبير عن رأيهم وتستضيف سياسيين إسرائيليين من باب الرأي والرأي الآخر، علماً بأنّ المحطات الإسرائيلية لم تستضف عرباً لسماع آرائهم.

كانت بريطانيا ضروريةً للتنفس الديمقراطي العربي، وبالنسبة لي شخصياً وإلى جانب تعبيري اليومي الحر عبر صحيفة العرب اليومية والنشاطات الاجتماعية والسياسية؛ فبوسعي التأكيد أنّه حين أسّسنا فرع المنظمة العربية لحقوق الإنسان لم تعترض بريطانيا على نشاطنا في الوقت الذي منعتنا عدة دولٍ عربيةٍ من عقد مؤتمراتنا على أراضيها، اللهم السودان في عهد الصادق المهدي الذي استقبل مؤتمرنا العام.. كذلك لم تعترض بريطانيا على الدعم الإعلامي المنظم للانتفاضة الأولى، بسبب طبيعة الانتفاضة السلمية وطبيعة الدعم والنشاط الذي سأتطرق إليه في الفصل التالي وبعد شأن المنظمة العربية لحقوق الإنسان.

بدأت قصة المنظمة العربية لحقوق الإنسان حين توافقت شخصياتٌ عربيةٌ مرموقةٌ على تأسيس هذا الكيان في ١٢ ديسمبر ١٩٨٣، وهو الميلاد الذي شهد صعوباتٍ كبيرةً، فلم يستطع الداعون لتأسيس المنظمة أن يجتمعوا في أيّ بلدٍ عربيٍّ لنحو سبع سنواتٍ متتابعةٍ، وشُكّل مؤتمرٌ لمناقشة «أزمة الديمقراطية في الوطن العربي» عقده مركز دراسات الوحدة العربية في بلدة

ليماسول بقبرص، شكّل الفرصة لأصحاب المبادرة لعقد الاجتماع التأسيسي وإعلان تأسيس المنظمة. على أثر إعلان التأسيس تشكّل فرع فرنسا، ثم نشطتُ وجمعتُ شخصياتٍ عربيةً مقيمةً في لندن وأعلنّا اجتماعاً تأسيسياً مفتوحاً للفرع، وتمّ انتخابي لاحقاً رئيساً لدورتين متتاليتين.

من بين مؤسسي المنظمة السياسي المصري محمد فايق الذي عمل وزيراً مع جمال عبد الناصر، وتمّ اعتقاله لاحقاً بتهمٍ ملفقةٍ من قبل السادات عام ١٩٧١ حيث حكم عليه بعشر سنوات سجن. وفي العام ١٩٧٦، رفض قراراً من رئيس الجمهورية بالإفراج عنه من السجن مشروطاً باعتذارٍ يقدمه لرئيس الجمهورية، وعاد محمد إلى محبسه خمسة أعوامٍ أخرى حتى لا يعتذر عن جريمةٍ لم يرتكبها، مجسّداً بذلك معنى الكرامة الإنسانية، وقد تمّ اعتقاله مرةً أخرى بعد أشهرٍ قليلةٍ من خروجه من السجن مع أكثر من ١٥٠٠ من قادة العمل العام في مصر، ولم يُفرج عنهم إلّا بعد رحيل الرئيس السادات. كلّما جالست الأستاذ محمد كان يدور في ذهني كيف تحمّل الاعتقال عشر سنواتٍ ظلماً، وهو من مواليد ١٩٢٩، ثم خرج من دون أن يترك الاعتقال ندوباً ظاهرةً في شخصيته الودودة وطيبته مع الصرامة الموقرة.

فتحي رضوان، زعيمٌ سياسيٌّ مرموقٌ، خاض كلّ معارك الاستقلال والتحرير الوطني محامياً فذاً، وسياسياً قديراً، كما خاض معارك الحرية في الوطن العربي، أصبح رئيساً للمنظمة العربية لحقوق الإنسان، التي شارك في تأسيسها وتولّى قيادتها، ارتبط منذ شبابه بالقضايا العامة، وشارك في النشاط السياسي والحزبي، وترأس الحزب الوطني الجديد الذي أسّسه مصطفى كامل، وأصدر صحيفةً باسم اللواء الجديد عام ١٩٤٤، وقد اعتقل في العهد الملكي ثلاث مراتٍ وظلّ في آخرها رهن الاعتقال حتى أفرجت عنه ثورة يوليو ١٩٥٢، وتقلّد بعدها العديد من المناصب الوزارية، حتى عام ١٩٥٨

حيث تفرّغ للاشتغال بالكتابة والمحاماة. لقد تعرّفت إلى الأستاذ فتحي رضوان عندما حضر إلى لندن للعلاج.. إنسانٌ وقورٌ متواضعٌ.

هناك أيضاً عالم الاجتماع سعد الدين إبراهيم الذي يُعدّ واحداً من أبرز علماء الاجتماع السياسي في مصر والعالم العربي، وناشطاً معروفاً في مجالات الديموقراطية والمجتمع المدني وحقوق الإنسان، وقد أثارت أبحاثه وكتاباته الكثير من الجدل داخل الأوساط الثقافية والأكاديمية. شارك في تأسيس المنظمة العربية لحقوق الإنسان واختير أميناً تنفيذياً لها، وتحمّل عبء الصعوبات الأولى للإنشاء والتأسيس قبل أن يقدّم استقالته في العام ١٩٨٦ أثناء اجتماع الخرطوم.

أسّس سعد الدين مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية الذي اهتم بشؤون ودراسات المجتمع المدني، وأجرى الكثير من الدراسات القائمة على استطلاعات الرأي للجمهور. وقد أدّت نشاطاته هذه في مصر إلى ملاحقته رسمياً وقضائياً بتهمٍ مختلفةٍ ملفقةٍ وكيديةٍ على صلة برؤيته لقضايا الإصلاح. أثناء محاكمته في العام ٢٠٠٠ أجاب الدكتور عن سؤال القاضي حول مصدر تمويله قائلاً «من بلادٍ تركب الأفيال»؛ فعرفت أنّني خطرت على باله في تلك اللحظة من أزمته، وقد تأثّرت كثيراً لما مورس ضد هذا الإنسان الجليل المثابر الشجاع، الذي رفض المساومات حتى تمّت تبرئته قضائياً في ربيع ٢٠٠٢. أمّا قصة «بلاد الأفيال» فهي جملةٌ قلتها له في الخرطوم. كنت عائداً قبل المغرب من جولة تسوّقٍ في الخرطوم، ومعي على كتفي سيفٌ اشتريته كونه من صناعة السودان ويسمونه سيف الرسول.. وصلت إلى الساحة الخارجية للفندق حيث يستضيفنا السودان كأعضاءٍ للمنظمة العربية لحقوق الإنسان قادمين من الخارج للاشتراك في اجتماع الجمعية العمومية، وكان لفيفٌ من الأصدقاء الأعضاء يجلسون بالقرب منه؛ فنظر سعد الدين إليّ والسيف على كتفي وقال

بالفصحى: من أين قادمٌ يا أخا العرب؟ وحينذاك قلت له عفوياً «من بلادٍ تركب الأفيال».. ويبدو أنّه تذكّر تلك اللحظة حين أجاب عن سؤال القاضي.

أحمد صدقي الدجاني، علمٌ من أعلام الحركة العربية لحقوق الإنسان، انشغل بمعضلاتها الفكرية وسجلاتها، وعزف عن مسؤولياتها التنظيمية حتى دفعه زملاؤه دفعاً لتولي مسؤولية نائب رئيس مجلس أمناء المنظمة.. لا بدّ من القول هنا إن الدكتور أحمد يتحدث فقط وحصرياً باللغة العربية الفصحى، سواءٌ في العلن أو في الحياة الشخصية وفي بيته ومع أهله، وبالتالي يجبرك لا إرادياً أن تحادثه بمثلها، وحين ترافقه في مشوارٍ في إحدى المدن العربية وتراقبه يتحدث لمن لا يعرفونه بالفصحى، ترى ارتباكهم وعدم استيعابهم للوهلة الأولى، وقد اضطررت مرةً في عمّان أن أترجم لبائعٍ في دكانٍ أن الدكتور يريد شفرة حلاقةٍ.

فاروق أبو عيسى محامٍ وبرلمانيٌّ وسياسيٌّ بارزٌ، تقلّد العديد من المناصب الوزارية في السودان، وانتُخب أميناً عامّاً لاتحاد المحامين العرب عدة دوراتٍ متتاليةٍ، وشارك في مساعي الصلح أيام أيلول الأسود. من السودان هناك أيضاً رئيس الوزراء الصادق المهدي الذي تدين له المنظمة العربية لحقوق الإنسان بمواقف لا تُنسى، فعندما أقدمت الحكومة المصرية على منع جمعيتها العمومية من الانعقاد في العام ١٩٨٦ لم يفتح لها أبواب الخرطوم لاستضافتها فحسب، بل وأبدى استعداداً لاستضافة المنظمة نفسها التي قرّرت السلطات المصرية اعتبار وجودها غير قانونيٍّ في مصر. وافتتح اجتماع الجمعية العمومية في الخرطوم وأجرى حواراً مفتوحاً مع أعضائها.

الصادق المهدي شخصيةٌ فذةٌ متواضعةٌ، كما أنّه يحتفظ بذاكرةٍ قويةٍ وصاحب فراسةٍ.. أثناء وليمةٍ أقامها لنا في الخرطوم، كان يتجه للأعضاء

ويصافح كلّ واحدٍ باسمه، وحضر إلى جانبي وناقشني في بعض الكتابات.. تمنيت لو أملك ذاكرةً بقوة ووضوح ما ملكه الصادق.

طبعاً بالإضافة لسابقي الذكر فالأعضاء المؤسسون الأوائل للمنظمة كثر، ومن كل أقطار الوطن العربي تقريباً، وأتذكر منهم: نادر فرجاني، يحيى الجمل، حيدر عبد الشافي، سعاد الصباح، أديب الجادر، برهان غليون رئيس فرع فرنسا القريب من فرعنا في لندن جغرافياً وفكرياً، وغيرهم الكثير. أثناء اجتماع الخرطوم وعند بداية ترشيح شخصياتٍ جديدةٍ للجنة التنفيذية طالبت، بتأييدٍ من بعض أعضاء فرع فرنسا، أن تشمل اللجنة شخصياتٍ شابةً.. ويبدو أنّ موقفي العلني هذا لم يرق بعض كبار السن، وحدّثوا برهان غليون بذلك ونقله إليّ من باب العلم.

كان أسلوب عمل المنظمة تلقي الشكاوى ثم إبلاغ الجهات المعنية ومطالبتهم بالردّ واتخاذ موقفٍ، وحين يتأخرون في الردّ نعلن القضية أمام الرأي العام، وذلك كون الأنظمة دوماً تدعي أنّ التظلمات ضدها كاذبةٌ وأنّها لم تعتقل ولم تعذّب إلخ. أمّا الجمهور العربي فكان يظنّ أنّنا منظمةٌ تنفيذيةٌ ويطالبوننا بحقوقهم المهدورة، بينما نحاول الشرح لهم وكسبهم كأعضاءٍ وأنصارٍ للمنظمة لزيادة تأثيرها. واجهنا في لندن إشكاليةً مع النظام الليبي إذ حاول أنصاره الاستيلاء على فرع المنظمة؛ فحضر أحدهم يحمل قائمة أسماءٍ لطلاب ليبيين يدرسون في لندن ورزمة نقودٍ تنبّهت إلى تسلسل أرقامها، وقال إنّه جمع رسوم العضوية من هؤلاء ويريد تسجيلهم أعضاءً. تشاورت مع اللجنة التنفيذية للفرع وأيقنا أنّ مصدر المال موحّد، وبالتالي، هؤلاء الأعضاء سيخضعون لتعليماتٍ مركزيةٍ، وهدفهم ترشيح وانتخاب لجنةٍ من بينهم.. تواصلت مع الوسيط وأخبرته أنّ من شروط الانضمام للفرع مشاركة العضو المرشح لعدة جلساتٍ واجتماعاتٍ حتى يلمّ بالأمور قبل قبول عضويته؛

فذهبوا ولم يعودوا ولكنّهم شنّوا عليّ حملةً في الإعلام التابع لهم واتهموني بالدكتاتورية.

كنّا نعقد الاجتماعات الدورية ونقيم ندواتٍ عامةً موسعةً يشارك فيها مئاتٌ من عرب لندن. وأتذكّر في ربيع ١٩٨٧ إقامة ندوةٍ في قاعةٍ كبيرةٍ، وكنت قد اتفقت مع الصديق ناجي العلي أن نعرض أصول رسومه على جدران القاعة؛ فسلّمني عشرات اللوحات الأصلية وعرضتها وكانت ندوةً ناجحةً استمرت بنشاطاتٍ عدة أيامٍ. في ٢٢ مايو ذلك العام أطلق مجهولٌ النار على ناجي وسط الشارع نهاراً جهاراً. لم تعلن الشرطة معلوماتٍ أو تتوصل للجاني، وباشرنا التخمين والتحليل لنعرف من الجاني.. كإعلاميٍّ توصلت لاستنتاج أنّ القاتل إمّا أن يكون مدفوعاً بطلبٍ من الرئيس الفلسطيني، أو من المخابرات الإسرائيلية التي تعرف بضيق عرفات من بعض رسومات ناجي؛ فأوعزت باغتياله لإلصاق التهمة بعرفات.. تبيّن أيضاً بسرعةٍ أنّ أحد موظفي أمن السفارة الفلسطينية في لندن قد اختفى، ولم توجّه شرطة سكوتلانديارد اتهاماتٍ لأيّ طرفٍ. مع بداية التحقيق حضر مندوبون من سكوتلانديارد حيث أعمل في صحيفة العرب وأوجد في مقرّها أسبوعياً كلّ يوم أربعاء، وسألوني إذا كنت متخوفاً من شيءٍ وأريد حمايةً؛ فشكرتهم ورفضت. كان هذا شبه دليلٍ لي أن القاتل هو من طرف عرفات وأن الشرطة تعرف ذلك وتعرض الحماية كوني من ناقدي الرئيس ومنظمة التحرير بوضوحٍ، أو ربّما لقيامي بعرضٍ موسّعٍ لرسومات ناجي في الندوة قبل فترةٍ وجيزةٍ، ومنها الرسم الذي أغضب عرفات.

كان هناك رسمة كاريكاتير تدور حول اسم رشيدة مهران، وهذا الرسم أدّى حين نُشر إلى استشاط عرفات غضباً أو بعض من هم حوله، ووصل الخبر إلى أبي إياد فاتصل برئيس تحرير صحيفة القبس ليعاتبه ثم أفهمه بضرورة

اختفاء ناجي بعض الوقت. كان رئيس التحرير حينذاك في سويسرا؛ فتوجّه إلى لندن، كما يقول، والتقى ناجي واتفق معه على السفر للإقامة بضعة أيامٍ إلى شمال بريطانيا لدى طبيبٍ صديقٍ لرئيس التحرير الذي أوصل ناجي لمحطة القطارات وودّعه.. لكنّ ناجي نزل في المحطة التالية وعاد إلى بيته في ويمبلدون بلندن.

كان ناجي قد انضم في مطلع سنة ١٩٨٣، عقب الاجتياح الإسرائيلي للبنان، إلى أسرة تحرير صحيفة «القبس» الكويتية، بيد أنّ الحكومة الكويتية قرّرت بعد سنتين بضغطٍ معيّنٍ ترحيله عن أراضيها، فلجأ في أكتوبر ١٩٨٥ إلى لندن وصار يعمل في صحيفة «القبس» الدولية التي تمّ اغتياله بالقرب من مقرها. حتى يومنا هذا لم تعلن السلطات البريطانية فكّ لغز اغتيال ناجي، وهي السلطات التي لم تعجز عن حلّ أيّ قضيةٍ تقريباً.

القضايا التي حدثت في لندن أثناء إقامتي هناك، وعجزت الشرطة، أو أُعجزت عن معرفة الفاعلين، كثيرة وأذكر منها قضيتين أعرف عناصرهما وتولّت الشرطة فك طلاسمهما كما تدعي. الأولى القضية التي عُرفت باسم قضية هنداوي، والثانية قضية تفجير السفارة الإسرائيلية. تعرّفت إلى نزار هنداوي في المدة الأولى لعملي في صحيفة العرب، كان من المحررين الذين يتلقون نشرات وكالات الأنباء ويعيدون صياغتها للنشر، هادئ الطباع قليل الكلام يجلس بين محمد قرطاي والزميل إلياس. في ١٧ أبريل ١٩٨٦ سمعت عبر الأخبار بفشل محاولة وضع متفجراتٍ في طائرة العال، وتكشف لاحقاً أن نزار قد حجز لزوجته الأيرلندية الحامل تذكرةً إلى تل أبيب لتزور والديه في الضفة وتتعرّف إليهما ليباركا الزواج. سلّمها علبةً مغلقةً كهديةٍ لوالديه وطلب منها عدم فتحها واتضح أنّ بها متفجراتٍ شديدةً من نوع سيمتكس، وقالت السلطات المختصّة بعد التحقيق أنّ مصدر المتفجرات حسب الاعترافات هو

ضابط مخابراتٍ سوري. أنكرت الزوجة علمها بالأمر وتمّ اعتقال نزار، وفي روايةٍ أخرى أنّه ذهب للسفارة السورية بعد ذيوع خبر ضبط زوجته، وأنّهم غيّروا هيئته وطلبوا منه التخفي ولكنّه سلّم نفسه للسلطات في اليوم التالي.. وهذا محتملٌ بالفعل لأنّ القضية أخذت على الفور صورةً سلبيةً جداً كونه أراد التضحية بزوجته وبالجنين.

انتهى التحقيق وتمّت إحالة نزار هنداوي للمحكمة حيث كانت المفاجأة متمثلةً بتراجعه عن اعترافاته التي أدلى بها في التحقيق، وقال هنداوي في محاكمته بأنّه ضحيةٌ لمؤامرةٍ نظّمها عملاءٌ إسرائيليون وأنّه تعرّض لتعذيبٍ من قبل الشرطة البريطانية، والتي جعلته يوقّع على أوراقٍ لم يقرأها -وخصوصاً- أنّه تمّ تهديده بتسليمه للموساد الإسرائيلي وأن والديه تمّ اعتقالهما. محامي هنداوي عرض في المحاكمة رؤيةً جديدةً للأحداث تقول إنّه كان ضحيةً لمؤامرةٍ إسرائيليةٍ من أجل إحراج الحكومة السورية والإساءة إلى العلاقة بين سوريا وبريطانيا، لكنّ المحكمة لم تأخذ بنظرية هنداوي ومحاميه وحكمت المحكمة على هنداوي بالسجن ٤٥ سنة.

بعد صدور الحكم قطعت بريطانيا علاقاتها الدبلوماسية مع سوريا. وفي ١٠ نوفمبر ١٩٨٦ قال رئيس الوزراء الفرنسي جاك شيراك لصحيفة واشنطن تايمز بأنّ المستشار الألماني ووزير خارجية ألمانيا، يعتقدان أنّ قضية نزار هنداوي كانت مصممةً لإحراج سوريا وحافظ الأسد ويقف خلف الأمر عملاء الموساد، وأنّه شخصياً مقتنعٌ بهذا.. لكن بعد أيامٍ قليلةٍ غيّر جاك شيراك من تصريحاته وقال إنّ إسرائيل بريئةٌ. أمّا الرئيس السوري حافظ الأسد فكان قد قال في ٢٠ أكتوبر ١٩٨٦ في مقابلةٍ مع مجلة تايمز بأنّ إسرائيل هي من خطّط لعملية هنداوي. أمّا الكاتب البريطاني الشهير، باتريك سيل؛ فقد قال بأنّ مصدراً في الاستخبارات السورية أخبره بأنّ الاستخبارات السورية

وقعت في فخٍّ نصبته إسرائيل حيث اخترق الموساد الإسرائيلي الاستخبارات السورية وتلاعب بها من أجل إلصاق تهمة الإرهاب بسوريا. أمّا العقيد مفيد عكور بدوره وهو ضابط الاستخبارات السورية والذي ذكر اسمه نزار هنداوي في اعترافاته؛ فقد أُلقي القبض عليه في دمشق بتهمة التعاون مع إسرائيل.

تقدّم نزار كلّ عشر سنواتٍ بطلب إطلاق سراحه، وكانت الهيئة القضائية قد خلصت في عام ٢٠٠٩ إلى أنّه ينبغي الإفراج عن هنداوي، قائلةً إنه «يبدي ندماً على ما فعله، ومن المرجّح جداً» ألّا يكرّر فعل الإساءة. إلّا أن جاك سترو، وزير العدل آنذاك وخليفته كين كلارك سعيا للحيلولة دون إطلاق سراح هنداوي بدعوى أنّه لم ينبذ الإرهاب كليةً.. توفي نزار في السجن يوم ٥ نوفمبر ٢٠٢٢.

القضية الثانية التي قيل إنّ لإسرائيل أصابع فيها وادعت الشرطة التوصل إلى حلّها هي ما عرف بقضية تفجير السفارة الإسرائيلية في لندن عام ١٩٩٤. في الحقيقة إنّ السفارة لم تتضرّر على الإطلاق وقيل إنّه أصيب ٢٠ مدنياً بريطانياً بجروحٍ متنوعةٍ. يوم ٢٦ يوليو انفجرت سيارةٌ معبأةٌ من ١٠ إلى ١٥ كيلوجراماً من المتفجرات المصنعة محلياً من مواد بدائيةٍ، وكانت السيارة متوقفةً بالقرب من السفارة وانفجرت بعد دقائق من مغادرة السائق لها. سُمع دوي الانفجار على بعد كيلو متر، ولم يلحق بالسفارة أضرارٌ ولكن تحطمت نوافذ بعض المحال القريبة. وقع الحادث بعد يومٍ من لقاء الملك حسين مع رابين في واشنطن للتشاور حول توقيع معاهدة سلامٍ. على الفور وجه السفير الإسرائيلي وخبراء الاستخبارات البريطانية اللوم إلى متطرفين مؤيدين لإيران يزعم أنّهم مرتبطون بحزب الله، وبعد ١٣ ساعة انفجرت سيارةٌ مفخخةٌ خارج منزل بلفور الذي كان في ذلك الوقت مقراً لإحدى أكبر الجمعيات الخيرية اليهودية وهو النداء اليهودي الإسرائيلي المتحد.

في يناير ١٩٩٥، أي بعد نصف عامٍ اعتُقل خمسة فلسطينيين بتهمٍ تتعلق بالقضية وكانوا طلقاء قبل ذلك، وفي ديسمبر ١٩٩٦ أُدين اثنان منهم وهما المتعلمان في المملكة المتحدة، جواد بطمة، وسمر العلمي، بتهمة «التآمر على إحداث انفجارات». حُكم عليهما بالسجن ٢٠ عاماً وفقدا استئنافهما في عام ٢٠٠١ وبعد ذلك أيضاً.

أريد بالإشارة لهذه القضايا إلى تأكيد وجود أيدٍ للمخابرات الإسرائيلية في أيّ عمليةٍ يتمّ ضبط مُنفذيها وتوجّه التهم إلى فلسطينيين، أو لاحقاً إلى حزب الله وإيران، وهو الاتهام الأول الذي أطلقته السفارة الإسرائيلية، ثم استفادت من الوقت في تلفيق الاتهام لجواد وسمر العلمي. معرفتي بسمر وصداقتي لها تؤكّد ابتعادها عن أجواء إيران وحزب الله.. أثناء المحاكمة ثبت أن معظم أعضاء السفارة الإسرائيلية كانوا مُجازين يوم الانفجار، والسفارة لم تصب بأذى، يعني اتخذوا احتياطاتٍ مسبقةً.. ثم رفضت السفارة تقديم أفلام المراقبة وقالت إن الكاميرات كانت معطلةً ذلك اليوم! هذا وحده كافٍ لإعلان براءة جواد وسمر، وأيضاً اتضح لاحقاً أن تحذيراً وصل إلى المخابرات البريطانية حول تفجيرٍ محتملٍ.. هذا الإنذار تمّ تجاهله وإخفاؤه ولم يرد ذكره في المحاكمة، ثم قال عميلٌ بريطانيٌّ منشقٌّ إنّ ضابط مخابراتٍ كبيراً كتب حينذاك اعتقاده بمسؤولية الإسرائيليين عن التفجير، لأنّهم يريدون من بريطانيا حماية أضخم لمحيط سفارتهم.. هذا المحتوى لم يظهر أيضاً في المحكمة وتمّ تجاهل المعلومة حين تقدّم جواد وسمر بطلب عفوٍ قبل نهاية الحكم، وكان وزير الداخلية هو دوماً الذي يرفض الطلب وليس المحكمة.

كانت سمر العلمي وأختها رندا تشاركان الجالية الفلسطينية في كلّ النشاطات الاجتماعية، كانتا في غاية اللطافة والانسجام الاجتماعي. سمر خريجة ماجستير من إمبريال كوليدج في الهندسة الكيميائية، وجواد خريج

بكالوريس هندسة إلكترونية من جامعة ليستر. أثناء المحاكمة، اتُهمت سمر وجواد بأنّهما جزءٌ من فريقٍ خطّط للتفجير، لكن لم يُتهما بزراعة القنبلة بنفسيهما أو الوجود في مسرح الجريمة، ولم يكن هناك دليلٌ مباشرٌ يربطهما بالتفجير، لكنّهما اعترفا بإجراء تجارب لاستخدام متفجراتٍ بغرض نقل المعلومة إلى المقاومين للاحتلال في فلسطين، ويبدو أنّ هذه الحيثية قد وصلت للمخابرات البريطانية في المدة الطويلة بين تنفيذ العملية وإلقاء القبض، وربّما كان للمخابرات الإسرائيلية أصابع دفعت بإجراء تلك التجارب لتنتهي بالاتهام المباشر.

قضت سمر محكوميتها، وخرجت ورُحلت لبيروت في ٢٤ أبريل ٢٠٠٩ كونها تحمل الجنسية اللبنانية ولكن أصولها فلسطينيةٌ، وأُطلق سراح جواد قبل ذلك بعامٍ ولكنّه مكث في بريطانيا. كانا يصرّان على براءتهما من التهم، وكانت منظماتٌ دوليةٌ وأعضاء برلمان من مختلف الأحزاب البريطانية بلغ تعدادهم ٧١ عضواً يؤيدون طلب إطلاق سراحهما المبكر، بمن في ذلك نوابٌ من حزب العمال مثل جيريمي كوربين وجون ماكدونيل، ونواب من حزب المحافظين منهم بيتر بوتوملي وروبرت جاكسون، ومن حزب الديمقراطيين مثل توم بريك وكولين بريد.. كلّهم أيدوا طلب مراجعة الإدانة لسمر وجواد وانضم لهذا الطلب من مجلس الأعيان البارون جيلمور وهاري كوهين.

لقد عملت إعلامياً في بريطانيا قرابة الربع قرن، وبوسعي التأكيد على معايشة أخبار عشرات العمليات الإرهابية في بريطانيا والتي لم يتمّ اعتقال معظم مرتكبيها، كانت بعضها تُنسب إلى المقاومة الأيرلندلية الشمالية، أو اتهام توجهاتٍ إسلاميةٍ أو وطنيةٍ عربيةٍ وفلسطينيةٍ، ولكن من غير تحديدٍ أو ضبطٍ للمنفذين. العمليات التي تمّ اتهام أشخاصٍ بصددها، هي التي

اتضح أنّها مرتبطةٌ بالمخابرات الإسرائيلية، والكثير من العمليات قام بها الإسرائيليون لتشويه سمعه العرب والفلسطينيين ولكسب التعاطف، وهناك بعض العمليات التي حدثت وأضرّت بالاقتصاد والسياحة الإسرائيلية من دون ضبط مُنفذيها. وللتذكير فقد هاجمت إسرائيل واحتلت لبنان في السادس من يونيو ١٩٨٢ بحجة أن منظمة التحرير حاولت اغتيال السفير الإسرائيلي شلومو أرجوف في لندن، والذي لم يصب أصلاً. أذكر هذا وأكاد أجزم أن السلطات البريطانية تعرف هوية وخلفية الذي اغتال ناجي العلي، وتعرف أنّ قضية هنداوي كانت خديعةً، وكذلك قضية تفجير السفارة الإسرائيلية، أو محاولة اغتيال السفير قبل ذلك، وكان من الواجب طلب تعويضٍ ومحاكمةٍ للمسؤولين الاستخباريين الذين خطّطوا لذلك أو تواطأوا.

هنا الانتفاضة

الأحداث في منطقتنا تتكرّر بتشابهٍ ولكن بكارثيةٍ متزايدةٍ كلّما تقدّم بنا الزمن. لن أعود لمقارناتٍ ومتواليات قرنٍ من الزمان، لكنّني سأتقيد بالرؤية عبر الزمن الذي عشته في بريطانيا. لقد تحدثت في الفصل السابق عن بعض أعمالي كمواطنٍ صالحٍ، وهنا سأضع بعض الرؤى والمقارنات. كانت الصدمة الوطنية الأولى مع بداية عملي في الإعلام هي متابعة مجازر صبرا وشاتيلا، وقبلها بالطبع تتبع وتحليل مجريات الغزو الإسرائيلي للبنان، والوصول إلى بيروت ومحاصرتها زمناً طال من دون أن يتدخل أيُّ نظامٍ عربيٍّ للمساندة الفعلية، حتى حقّقت واشنطن رغبة إسرائيل لإبعاد فصائل منظمة التحرير عن لبنان وعن الحدود مع فلسطين المحتلة ونفي المقاتلين في صحارى بلادٍ بعيدةٍ مثل السودان والجزائر وليبيا، وانتقال القيادة السياسية إلى تونس.. وقد ضمنت واشنطن حماية المدنيين الفلسطينيين في لبنان بعد الانسحاب، ولكن المجازر الشهيرة لم تنتظر طويلاً.

كان ذلك قد حدث في عام ١٩٨٢، ومثّل نهاية الوجود الفلسطيني المسلّح على حدود الوطن، واعتبر انحداراً شديداً لفكرة الكفاح المسلّح وجدواه، خصوصاً مع الفشل شبه التامّ في التصدي للهجوم الإسرائيلي وهروب القيادات الفلسطينية العسكرية العليا من الجنوب إلى بيروت، ما عدا بعض الاستثناءات مثل فريق أطفال الأر بي جي، والكتيبة الطلابية التي قاد

الصديق يزيد صايغ بعض مجموعاتها في التصدي واستشهد معظم أعضائها، وسجّلت ملحمةً في قلعة الشقيف. عانت الثورة الفلسطينية خارج فلسطين لسنواتٍ تلت الحصار المالي والإقصاء السياسي والحرب الإعلامية المضادة، حتى تفجّرت الانتفاضة الفلسطينية الأولى أواخر عام ١٩٨٧ –وتحديداً– يوم الثامن من ديسمبر، وفي جباليا بقطاع غزة، ثم انتشرت في كلّ فلسطين وقلبت الموازين والرؤى كلّها.

كانت زوجتي وأطفالي قد واصلوا زيارة قطاع غزة، وكنت أرافقهم حتى حدود رفح وأمكث في الجانب المصري ريثما تنتهي إجازتهم، وقد حدثتني الزوجة على إثر زيارة صيف ١٩٨٧ أنّ الوضع متفجرٌ في الداخل، والضغط الإسرائيلي على أشدّه، وقالت إنّها اشتبكت مع جنود على الحدود أثناء المغادرة وأبلغتهم أنّ هذا كلّه سوف يتفجّر قريباً في وجوههم.. وحدثتني عن إصرار ابنتي نورا على عدم فتح حقيبتها للتفتيش.. لم يكن في حقيبتها الصغيرة أيّ شيءٍ ممنوعٍ، لكنّها رفضت أن يفتشها جنديٌ إسرائيليٌّ، وحضرت مجندةٌ تتحايل ونورا رافضةٌ بإصرارٍ، وهم لا يجرؤون على استعمال العنف مع طفلةٍ أجنبيةٍ عمرها خمس سنواتٍ، ومرّت الطفلة بما تحمل عبر جهاز الكشف عن المعادن. يبدو أنّ الطفلة تشرّبت روح التمرد التي سادت قبيل الانفجار الشعبي في قطاع غزة.

اتضح بسرعةٍ أن وصفة الانتفاضة قابلةٌ للنجاح، أي انتفاضةٌ شعبيةٌ شاملةٌ وغير مسلحةٍ سوى بالشعارات والتظاهرات والحجارة يرميها الأطفال والشبان والنساء على الجنود، وبالتالي حرمان العدو من ذرائع استعمال الأسلحة الثقيلة ضد الجمهور؛ فلا يوجد مسلحون ولا إطلاق نارٍ من بين جموع المتظاهرين ولا هجماتٌ على الجمهور المدني الإسرائيلي، وبالفعل ومن دون الخوض في تفاصيل الانتفاضة؛ فقد حقّق النضال الجماهيري السلمي غايته في أقل

من أربع سنوات وذلك حين عُقد مؤتمر مدريد للسلام في ٣٠ أكتوبر ١٩٩١ اعترافاً من العالم بما فيه الغرب وأميركا وإسرائيل بمشروعية السلام للشعب الفلسطيني وإقامة دولته المستقلة، وهذا ما فشلت الثورة والكفاح المسلّح في تحقيقه سابقاً، وقد كان هدفها المعلن دولةً على أيّ شبرٍ يتمّ تحريره، ثم دولةً على الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧، ولكنّ الكفاح المسلّح خبأ بعد عقود حتى اشتعلت الانتفاضة السلمية وأنجزت المهمة.. أو هكذا ظهر للعيان، إذ عادت عناصر ومنظمات الكفاح المسلّح للسيطرة على المسيرة السلمية، ثم تولدت المقاومة الإسلامية وبدأت حملة عنفٍ وتفجيراتٍ قويةٍ لإفشال الحلّ السلمي، وبقية تطورات القصة معروفةٌ حتى وصلنا إلى يوم ٢٦ يناير ٢٠٢٥ الذي أعلن فيه الرئيس الأميركي المنتخب والمنصّب قبيل أيام أن حلّ معضلة قطاع غزة والمقاومة الاسلامية المسلّحة فيه هو ترحيل مليون إلى الأردن ومليون إلى مصر وتحويل القطاع منتجعاً سياحياً إسرائيلياً.

بودّي هنا وضع ملحوظةٍ قبل العودة لموضوع الانتفاضة حول خطة ترامب: قبل بداية غزوة أكتوبر بسنواتٍ، كنت مثل غيري من الناس نعرف بوجود مدينةٍ كاملةٍ مقامةٍ بين رفح المصرية ومدينة العريش منذ عهد الرئيس حسني مبارك، وهي فارغةٌ تماماً وجاهزةٌ لاستقبال السكان، ولم يُعلن عنها أو يذكرها أحدٌ في العلن. ويوجد مثلها تماماً أكثر من مدينةٍ في الأردن.. هذا للعلم والاستنتاج الحر تبعاً لذلك وحسب تطوّر وتدرّج الأحداث التي ستأتي.

بالنسبة لي كمواطنٍ صالحٍ يعمل ما يستطيعه من دون كثير حسابٍ للعواقب الشخصية؛ فقد وضعت خطةً مع بداية عام ١٩٨٨ لدعم الانتفاضة الشعبية حين أيقنت أنّها ظاهرةٌ مستمرةٌ تقريباً، ويمكن أن تتواصل إلى غاياتها. ارتأيت أن يكون عملي متشعباً: دعمٌ إعلاميٌّ، ودعمٌ ماليٌّ، ودعمٌ تنظيميٌّ،

وكان هذا الشقّ الأخير الأقل نجاحاً وهو ما سبق أن تطرقت إليه حين كتبت عن اعتقالي بضعة أيامٍ في مصر.

كانت الخطوات الأولى على الصعيد الإعلامي، شراء جهازي فكس وربطهما بخطوط الهاتف في البيت، ثم تشكيل فريقٍ إعلاميٍّ في قطاع غزة وظيفته نقل الأخبار لي فور حدوثها، وتواصلت عبر أصدقاء في لندن مع صحافيين في الضفة الغربية ومع أشخاصٍ في منطقة الـ٤٨، عرب إسرائيل. كانوا يرسلون التقارير الإخبارية أولاً بأول، ويقومون بتحقيقاتٍ أو يعملون لقاءاتٍ حسب طلبي أو حسب رؤيتهم. من جانبي كنت أعيد صياغة الأحداث على شكل أخبارٍ أو تقارير وأرسلها إلى صحفٍ تعاقدت معها في لندن والخليج، أو أرسل بعضها مجاناً بغرض توسيع الانتشار. كان ذلك يتمّ باسم مؤسسةٍ أنشأتها في لندن «مركز الخدمات الإعلامية» ثم استأجرت مكتباً ووظفت مساعدين لإتمام المهام، خصوصاً وأنّني كنت مشغولاً في شؤونٍ أخرى.

الخطوة التالية جاءت سريعاً حين سمعت عن محطة مذياع تبث حتى الآن أغاني وطنيةً وتُسمع في الأراضي المحتلة بوضوحٍ وتسمي ذاتها إذاعة القدس.. بحثت وتوصلت إلى أنّها تابعةٌ للجبهة الشعبية القيادة العامة وتبث من دمشق، حيث ذهبت واتفقت معهم على تزويد المحطة بالأخبار الجاهزة للبث من دون مراجعاتٍ، وحصلت على شبه تأكيدٍ أنّهم سيواصلون إخفاء هوية المحطة لضمان الانتشار، ولترويج أنّها محطةٌ متنقلةٌ تبث من داخل فلسطين.. ومن أجل تعميم هذه الرؤية قمت بترتيب بثٍ مباشرٍ لصلاة وخطبة الجمعة من المسجد الأقصى، وكان ذلك من السهل الممتنع. لم يكن البث بالفعل مباشراً، ولكن استفدنا من عنصر اختلاف التوقيت، واستفدنا من سرعة الإجراء.. ذهب مبعوثي للأقصى ومعه مسجلٌ صغيرٌ في جيب القميص

وجلس على مقربةٍ من مكبّر الصوت ولديه تعليماتٌ بسرعة المغادرة لبث محتوى الخطبة لي.. في هذه الأثناء كانت الإذاعة تقول إنّها ستبث الخطبة والصلاة مباشرةً، وأثناء تسلمي التسجيل على الهاتف كنت أنقله للإذاعة على هاتفٍ آخر ويتمّ البثّ، ثم ألحقوا به صلاة يوم جمعة سابقةٍ قد أرسلته لهم.

لقد نجحت الإذاعة في تجميع الناس حول أخبارها ومصداقيتها وأصبح الجميع في الأرض المحتلة يسمّونها «إذاعتنا» وكانت تحرّك جموعاً لدعم تظاهرات في أماكن قريبةٍ منهم.. استمر هذا العمل حتى خطب السيد أحمد جبريل عبر الإذاعة في الشعب، وتبعه بعد أيامٍ خطابٌ للزعيم معمر القذافي؛ فلم تعد «إذاعتنا» بالنقاء نفسه واكتفيت بمدّهم بالأخبار الصحافية مثل أيّ منبرٍ آخر وتوقفت عن تخصيص مواد ونداءاتٍ كنت أُعدها لهم.

بالإضافة لذلك عملت منذ الشهور الأولى على تدريب إعلاميين من الأرض المحتلة بجلبهم إلى بريطانيا وإعطائهم محاضراتٍ وتوجيهاتٍ مركّزةٍ في مكتبي، ثم إرسالهم للممارسة لدى صحفٍ عربيةٍ في لندن اتفقت معها لهذا الغرض، أو إرسالهم للتصوير في شوارع لندن ثم نناقش التصوير من نواحٍ فنيةٍ.. كانوا يحضرون من الضفة والقطاع وعرب إسرائيل، ويعودون بعد الانتهاء من الدورة التدريبية ليمارسوا نشاطهم مع وعبر «مركز الخدمات الإعلامية» وأصبحت أضع أسماءهم على التقارير والأخبار المميزة. اشتهر بعضهم لاحقاً وأصبحوا مراسلين لمحطاتٍ أجنبيةٍ عالميةٍ، كما تسلّم بعضهم الآخر وظائف مميزةً في محطاتٍ تلفزيونيةٍ عربيةٍ في لندن والإمارات العربية المتحدة.

استفدت كثيراً من صديقٍ من عرب إسرائيل كان نشيطاً مع حركة أبناء البلد، حضر إلى لندن وشرحت له رغبتي في إصدار نشرةٍ خاصةٍ بالانتفاضة ليتم توزيعها في الضفة وقطاع غزة. اتفقنا على كلّ التفاصيل، وأصبحت

أطبع النسخة الأساس في لندن وأرسلها عبر الفاكس إلى سميح ليقوم بإعادة طبعها على ورقٍ أخضر ويوصلها إلى من يوزعونها في مدن ومخيمات الضفة، وكنت أرسل نسخةً إلى قطاع غزة فيتمّ تصويرها على ورقٍ عاديٍّ وتوزّع هناك.. كانت النشرة ١٦ صفحةً تصدر أسبوعياً وتحتوي افتتاحيةً وآراءً وإرشاداتٍ للاقتصاد البيتي وسبل المقاطعة للمنتجات الإسرائيلية، -وبالطبع- مواقف سياسيةً لتشجيع توحيد الرؤية الشعبية غير الحزبية وأيضاً نشر بيانات القيادة الموحدة.

كانت المراسلات والاتصالات تتمّ عبر هاتف بيتي الخاص، واتضح لي بسرعةٍ أن للهواتف المنزلية حدوداً تقديريةً للاستهلاك كلّ شهرٍ، وبالتالي، لاحظت أنّ الشهور التي بها عملٌ واتصالاتٌ أكثر تقل فيها الفاتورة للهاتف بل أحياناً لا تتجاوز ٥٠ جنيهاً استرلينياً وأن أكثر فاتورة كانت قيمتها ٣٠٠٠ جنيه. كان ذلك بسبب العداد التقليدي ولم يكن العدّ الديجتال قد استُعمل، وبالتالي، عند بلوغ الثلاثة آلاف كان العدّاد يعود للصفر ويبدأ من جديدٍ. بهذا الصدد أنوّه أنّني خلال إقامتي في بريطانيا قد عايشت تطوراتٍ ثوريةً في مجال العمل الإعلامي.

مثلاً، في مطلع الثمانينيات كنت أرسل التقارير إلى مجلةٍ في قبرص عبر قراءة التقرير عبر الهاتف إلى جهاز تسجيل في الطرف الآخر ويتم تفريغ التقرير من محرّرٍ يدوياً أو طباعةً. جاء الفاكس ليسهّل الأمر لإرسال النصوص والصور أحياناً عند الضرورة، ثم تطوّر الحاسوب وصار يتعامل بالعربي عبر ويندوز ٩٥، وقد كنت أوّل من استعمله في بريطانيا وأكثر من تواصل مع مقرهم في الإمارات لتصليح العثرات الفنية التي أواجهها مع النسخة العربية. كان الحاسوب قبل ذلك جهازاً كبيراً مرفقاً به شاشة أشبه بصندوق التلفاز، وكانت طابعته تنتج خطاً (بنط) واحداً صغيراً، وتخبط بصوتٍ عالٍ أثناء الطبع.

تلا ذلك الإنترنت والإيميل، وكان إرسال الإيميل يحتاج أيضاً إلى وقتٍ طويلٍ يؤهلك للذهاب للمطبخ وإعداد كأس شاي لتعود للجهاز؛ فيكون قد أرسل البريد الالكتروني.

في مجال العمل الإعلامي أيضاً اجتهدت مع الصديق أحمد الخالدي في التقرب لمراسلي الإعلام العالمي أثناء انعقاد المجالس الوطنية أثناء وبعيد الانتفاضة، حيث تعاظم الاهتمام العالمي بالقضية الفلسطينية بسبب تفاعلات الانتفاضة والتوجه للحلول السلمية. كان أحمد يركّز على الإعلام البريطاني والأميركي، وكنت أفعل مثله مع الإعلام الناطق بالألمانية، وكانت معنا زميلةٌ فلسطينيةٌ تعمل مع وكالة رويترز.. نجتمع ونتفق على التوجه اليومي ونباشر إمداد الإعلام بأخبارٍ وتوقعاتٍ ورؤى مع توجيهٍ غير مباشرٍ لشؤونٍ بعينها، لم تكن مهمةً سهلةً ولكنّنا نجحنا كلّ مرةٍ، وكان ثلاثتنا يؤثّر في ثلثي الإعلام العالمي بضعة أيام، وذلك من دون تنسيقٍ مع المنظمة أو أيّ فصيلٍ.. بالإضافة لذلك كنت مرافقاً ومستشاراً للتلفاز البريطاني المحطة الرابعة، سواءٌ أثناء المؤتمرات أو طوال الوقت في لندن.

كنت قد بدأت أنشر كل يوم جمعةٍ مقالة رأي أسبوعيةً في صحيفة «الشرق الأوسط» السعودية الصادرة من لندن، وأركّز على الشأن الفلسطيني وعلى الحرب العراقية الإيرانية. حين انطلقت الانتفاضة ركّزت على الشأن الفلسطيني في تلك المقالات التي لم تنقطع أسبوعياً حتى استشهاد ياسر عرفات يوم ١١ نوفمبر ٢٠٠٤، وكانت مقالتي الأخيرة في «الشرق الأوسط» تأبين الرئيس الفلسطيني، وكنت حينذاك قد انتقلت من بريطانيا للإقامة في الأندلس. كانت هذه الصحيفة تطبع يومياً في ١٤ مدينة تقع في أربع قارات، وكنت أصوغ المحتوى نفسه لمقالتي فيها بالإنجليزية وأنشرها أسبوعياً في جريدة الديلي ستار اللبنانية.. ونظراً لأهمية تسجيل تلك المواقف التي مثّلت

رؤيةً مستقبليةً لما نمرّ به الآن بشكلٍ كبيرٍ، قمت بنشر غالبية المقالات لاحقاً في كتاب بعنوان «شعب الجبارين» صدر عن «دار الفارابي» اللبنانية.

أصدرت عن الانتفاضة ثلاثة كتبٍ هي: أنياب الخروف، والشهداء، والكتاب الثالث بعنوان ثمن الاستقلال، وقد حرصت على صدور وتوزيع هذه الكتب في الأرض المحتلة إلى جانب صدور طبعاتٍ في مصر وفي لندن. تضمن الكتاب الأول ملحقاً لبيانات القيادة الموحدة التي تشكّلت في فلسطين، وقد صدر بعد تسعة شهورٍ من بداية الانتفاضة. جاء العنوان من أغنيةٍ انتشرت للانتفاضة تقول مقاطعها:

سطرت أسطورة أشبال المولوتوف	صحت المعمورة على شعب ما بعرف خوف
طيرنا الزوابع على عرض الشوارع	في كل المواقع خرجنا صفوف صفوف
يا شعب الجدارة سواعد الجبارة	أشبال الحجارة وموقفهم مألوف
أطفال ما بيهابوا إذا بيرموا أصابو	إن كشر عن نابه شو بيعمل الخروف
ما بيرضى الذلية كلو معنوية	لنيل الحرية شعبنا ملهوف
هذه الأرض ألنا وبنحررها حنا	القمر بيعرف إنا بنسبب له الخسوف
بادرة عقيمة من أميركا اللئيمة	أغنية قديمة واللحن معروف
احنا بدنا حرية دولة مع هوية	الحلول التصفوية ملأت الرفوف

والأغنية كما محتوى الكتاب تبدو كأنّ الزمن ثابتٌ في الشأن الفلسطيني إن لم نقل أنّه يعود للوراء. الكتاب الثاني صدر في مارس ١٩٨٩ واشتمل على جداول بأسماء الشهداء ومقتطفاتٍ عنهم وبعض الصور: «هو الكتاب الثاني في سلسلة الانتفاضة على طريق الاستقلال الفلسطيني ويأتي ليسهم في منع تحوّل الشهداء إلى مجرّد أرقامٍ تتداول في المحافل الدولية ووسائل الإعلام..»

كتاب «ثمن الاستقلال» وهو الثالث هدفه توضيح الثمن الذي يدفعه

الشعب الفلسطيني على درب الاستقلال والتحرير. «يضم الكتاب معلوماتٍ مفصلةً عن الخسائر الفلسطينية البشرية والمادية، ويوضّح بالتالي أشكال الإرهاب الإسرائيلي، ثم يستعرض أوضاع ٥٠ قريةً ومدينةً ومخيماً في فلسطين المحتلة أثناء الانتفاضة.. كيف تقاوم وتصمد وتهاجم وتزرع على طريق الاستقلال.. كما نشر الكتاب أسماء كلّ المدن والقرى والمخيمات مع توضيح أعداد سكانها في أعوام ١٩٦٧ و ١٩٨١ وتقديرٍ لعام ١٩٩٠، ونشر قائمةً بأسماء كلّ المؤسسات الوطنية داخل فلسطين ونبذة عنها».

طبعاً أجريت أثناء عملي في لندن لقاءاتٍ تلفزيونيةً مع عدّة محطاتٍ مثل البي بي سي، وإم بي سي، والقناة الرابعة، ولاحقاً مع الجزيرة عبر مكتبها في العاصمة البريطانية.. كما كان عندي فريقٌ يصوّر وينتج أفلاماً وثائقيةً قصيرةً لمصلحة محطة أم بي سي، وكان «مركز الخدمات الإعلامية» الذي أعمل من خلاله وباسمه يقدّم خدماتٍ إعلاميةً إلى صحفٍ ومجلاتٍ عدة في بريطانيا وفرنسا وقبرص ودول الخليج العربي. ممّا أعتزّ به على صعيد النشاط الإعلامي مساهمتي في إصدار «النشرة الاستراتيجية» التي تصدر كلّ أسبوعين ويترأس تحريرها كلٌّ من أحمد الخالدي وحسين جعفر آغا، وكانت توزّع بالبريد للمشتركين كلّ أسبوعين، وتهتم بالشؤون الاستراتيجية سواءٌ في المجال السياسي أو التسليحي.. مثلاً كان من مواد العدد السادس المجلد الثامن الصادر في ١٦ أبريل ١٩٨٧: الافتتاحية بعنوان: «المهام الحقيقية للمجلس الوطني الفلسطيني»، وكانت المقالة تناقش ضرورة الديمقراطية وأن تتحول منظمة التحرير إلى درعٍ واقٍ يحمي الشعب وليس العكس، وعدم الانشقاق بسبب تنوع أساليب النضال السياسي والعسكري، وبالطبع ضرورة الوحدة التي لم تتحقق حتى ٢٠٢٥ وربّما لن تتحقق. ومن العناوين الأخرى: «حول العلاقات السورية الإيرانية» و«معلومات حول العلاقات العسكرية

الليبية الخارجية»، و«رفض فرنسا تزويد سوريا بالتدريع المتطور»، و«تراجع الصادرات العسكرية للدول الغربية» ومقالاتٍ عن الصين وعلاقاتها مع إسرائيل وغير ذلك من القضايا غير المتداولة في الإعلام اليومي والتقليدي.

من الصعب التطرق لتفاصيلَ موسعةٍ عن تجربةٍ أطول من عقدين من العمل والحياة في بريطانيا، ولكنّي سوف أتطرق بإيجازٍ لبعض ما يهمّ العامة ويخصّ هذا المواطن الصالح. كوني إعلامياً وصاحب تخصصٍ في الشأن العسكري والاستراتيجي، وكان هذا معروفاً بالطبع لكلّ السفارات العربية في لندن كونهم يتابعون الإعلام، كما تحدث أحياناً لقاءاتٌ اجتماعيةٌ أو مهنيةٌ تجمعني مع بعض أعضاء السفارات.. هكذا كان البعض منهم يتصلون بي ويطلبون عمل دراسةٍ عن موضوعٍ عسكريٍّ أكاديميٍّ محددٍ باللغة العربية أو الإنجليزية. كنت أعرف على الفور أنّهم يريدون دراسة التخرج التي تطلبها كلية «سانت هيرست» البريطانية العسكرية الشهيرة التي تعلّم فيها قياداتُ الجيوش وأمراءٌ وضباطٌ كثر.. من دون تقديم دراسةٍ جيدةٍ في موضوعٍ محدّدٍ بين المعلّم والمتعلّم يعتبر الطالب راسباً ولا يحصل على شهادة التخرج.. -باختصار- كان بعض العاملين في السفارات يلجأون إليَّ وكنت أنجز لهم المطلوب، وبالتالي، يكون على الطالب الذي لم يؤلّف البحث، قراءة وفهم المحتوى حتى يجيب عن استفسارات هيئة الامتحان. من طرفي لم يكن صعباً معرفة من هو ذلك الطالب من دون سؤال أيّ أحدٍ، لكنّي لن أزيد على ذلك ممّا أعرف.

كان بعض الأمراء والأغنياء العرب على علاقةٍ بالمؤسسات الإعلامية؛ فكان بعضهم يقدّم الدعم طوعاً وحباً وطمعاً في الإشادة بهم، وبعضهم الآخر يدفع المال تجنباً للفضائح التي كانت الصحف تعرفها عن ممارساتهم في بريطانيا التي تضمن قوانينها حرية النشر من قِبَل أيّ عضوٍ في نقابة الصحافيين

البريطانيين طالما المعلومة صحيحةٌ، وكنت أنتمي للنقابة مثل بقية رجال الإعلام المعتمدين. أحياناً نفاجأ أنّ الراتب الشهري به زيادةٌ، وحين نسأل يقال لنا إنّ فلاناً قد دفع للصحيفة وطلب أن ينال العاملون حصةً.. كنت أتقبل ذلك كون عملي وكتاباتي لا علاقة لها بهم وببلادهم وبالتالي، لن يؤثّر تبرعهم في كتاباتي. الأمر لا يتعلق بالأمراء والشيوخ فقط، ولكن دولاً جمهوريةً مثل عراق صدام حسين، وليبيا معمر القذافي، وياسر عرفات، وغيرهم الكثير كانوا يدفعون لصحفٍ تسايرهم عن طريق اشتراكاتٍ لأعدادٍ لا تصل إلي بلادهم أصلاً. كان هناك أيضاً أمراءٌ يوزعون النقود في صررٍ، مثل أيام الخلفاء الذين ينثرون الصرر على الشعراء بعد المديح.. وأكّد لي رئيس تحرير أنّه حضر حفلة أميرٍ عربيٍّ وضع جنيهاً ذهبياً في قعر كلّ كأس شمبانيا، وقال للضيوف من يشرب الكأس ينل الجنيه.. طبعاً كلّهم يشربون حتى دون إغراء الذهب.

الشيء الآخر الذي أودّ التطرق إليه عن تجربتي وملاحظاتي في لندن كونه ما زال يحمل دروساً لم يستوعبها المواطن العربي عموماً والفلسطيني على وجه الخصوص، هو غزو الكويت. بدأ الغزو العراقي للكويت في ٢ أغسطس ١٩٩٠، وكان بمثابة بداية حرب الخليج الثانية التي انتهت بدمار النظام العراقي وتخريب البلاد وتشريد العباد. بعد هزيمة دولة الكويت في ٤ أغسطس ١٩٩٠، احتل العراق البلاد عسكرياً ستة أشهرٍ تاليةٍ. وقد أُدين الغزو دولياً، واعتمد مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة العديد من القرارات التي تحثّ العراق على الانسحاب من الأراضي الكويتية.. كنت على قمة عملي الإعلامي وتخصيص الجهد لدعم الانتفاضة الأولى التي كانت متواصلة منذ مطلع ١٩٨٨، واستهجنت على الفور قيام الرئيس صدام بخطوةٍ كهذه -خصوصاً- وأنّه كان يدّعي ويؤكّد دعم القضية الفلسطينية؛ فغزو بلدٍ عربيٍّ لجارٍ عربيٍّ آخر يبرّر غزو واحتلال أيّ جارٍ قوي عسكرياً لجاره الضعيف..

كذلك أيّ حربٍ في المنطقة بالقرب من النفط سوف تسحب الاهتمام العالمي والإعلامي من الانتفاضة للحدث الجديد. أضف لذلك ما علّقناه من أملٍ على العراق وجيشها وعلمائها كداعمٍ للأمة العربية والقضية الفلسطينية.

شخصياً كنت قد أيّدت صدام في الحرب ضد إيران، ثم اعترضت وانتقدت النظام البعثي وزمرة صدام بعد نهاية الحرب لأفعالهم ضد المعارضين العراقيين، ولتصنعهم الديمقراطية والانتخابات على غرار النظام البعثي الآخر في دمشق. لم يكن بوسعي تقبّل أسلوب نظام صدام -نظرياً- وأيضاً كنتيجةٍ لما أسمعه وأراه.. سأروي لكم مهزلةً حدثت في الانتخابات العراقية الأولى والثانية: في الاستفتاء قبل الأخير لمنصب رئاسة الجمهورية الذي كان قد جرى في ١٥ أكتوبر ١٩٩٥، وحصل فيه الرئيس على نسبة ٩٩,٦٦ بالمئة من أصوات الناخبين.. تمّ تحديد عدد الذين لم ينتخبوا صدام، وأعلن رسمياً بيان تهديدٍ بأن أسماء المعارضين سيتمّ معرفتها وعقابهم على فعلتهم!! تصوّروا هذه العقلية، ولماذا أصلاً يجرون انتخاباتٍ، وأيّ حمارٍ في العالم سوف يعتبرهم دولةً ديمقراطيةً؟ الأنكى والبلاهة بعينها أنّ الانتخابات للمرة الثانية في تاريخ البلاد الحديث يوم ١٦ أكتوبر ٢٠٠٢ ووفقاً للإحصاءات الرسمية كان الإقبال بنسبة ١٠٠ ٪، من مجموع المقترعين البالغ عددهم حوالي ١١,٤٤٥,٦٣٨ ناخباً مسجلاً للمشاركة في يوم الانتخابات، وكلّهم صوتوا لصدام!! العدد يمثل تعداد كلّ المسجلين كناخبين مؤهلين.. وكلّهم هكذا خرجوا لمراكز الاقتراع، لم يتغيب مريضٌ أو عاجزٌ أو مجنونٌ عن التصويت.

انقسم الإعلاميون والإعلام العربي في لندن إلى مؤيدٍ ومعارضٍ لغزو العراق للكويت، ولم يكن عندي ذرة شكٍّ في الاعتراض على الغزو، بل إنّني قاطعت من كنت أعتبرهم أصدقاء وزملاء مهنة وانفصلت عنهم اجتماعياً.. لقد سقطوا في نظري عندما أيّدوا غزو الكويت، وأتذكّر أنّني أثناء محاولة تنسيق

موقفٍ إعلاميٍّ فلسطينيٍّ موحّدٍ، سمعت أنّ أحدهم قال: «.. أخت الضفة الغربية» وذلك عندما قلت له إنّ غزو الكويت سيضرّ بشعبنا -وخصوصاً- في الضفة.. على أثر ذلك أيقنت أنّ البعض هم عبيد للمال وليس للمبدأ. عموماً ما توقعته تحقّق فقد تمّ طرد ٤٠٠ ألف موظفٍ وعاملٍ فلسطينيٍّ من دول الخليج وتضرّر اقتصاد الضفة الذي كان يعتاش من رواتب أولئك المطرودين.

الانقسام كان أيضاً على الصعيد الشعبي، وعندما بدأت حرب تحرير الكويت يوم ١٧ يناير ١٩٩١ بمشاركةٍ سياسيةٍ وعسكريةٍ عربيةٍ وزخمٍ عسكريٍّ أميركيٍّ بريطانيٍّ رجحت كفة التأييد الشعبي العربي لصدام، -خصوصاً- وأنّه بدأ في إطلاق صواريخ إلى إسرائيل بلغ تعدادها ٣٧ صاروخاً.. هنا انحاز الشعب الفلسطيني إلى جانب الخاسر، (الموقف تكرّر يوم السابع من أكتوبر) ثم شاهدنا مع بقية العالم كيف انهار الجيش العراقي أثناء الانسحاب غير المنظّم، وكيف أمطرت الصواريخ العراقية ذهباً وفوائد على إسرائيل لسكوتها عن الردّ وترك الأمر للتحالف الغربي العربي. آنذاك، كما الآن، وجد من يصدّقون أنّ الفوضى والعقلية الاتكالية يمكن أن تحرّر فلسطين.. كان من الأفضل لو وعت الجماهير، ووقفنا ضد مبدأ الغزو والاحتلال بالقوة، وأيضاً لو وقفنا على مسافةٍ بعيدةٍ عن الأنظمة والمنظمات التي لا تتبع منهج العمل الديمقراطي السليم.

عمومًا تنبّه الرسميون العرب لأهمية الاستفادة من موافقتهم على المشاركة في الحرب ضد النظام العراقي؛ فحدّدوا شروطاً توجب على واشنطن تقبّلها حتى تكسب العرب إلى جانبها.. الشرط الأول كان تحرير الكويت وعدم احتلال العراق أو تدمير جيوشه، والشرط الثاني كان وعداً من الرئيس بوش الأب بإحراز السلام وحلّ القضية الفلسطينية، والشرط الثالث أن لا تتدخل إسرائيل في العملية العسكرية ضد العراق. لقد نُصّب بوش

في ٢٠ يناير ١٩٨٩ خلفاً لرونالد ريغان. دخل البيت الأبيض في فترة تغييرٍ في العالم؛ إذ جاء سقوط جدار برلين في وقتٍ مبكرٍ من رئاسته وتلاه انهيار الاتحاد السوفيتي في عام ١٩٩١، وأمر الرئيس بالعمليات العسكرية في بنما والخليج العربي، وفي وقت من الأوقات حطّم الرقم القياسي بحصوله على نسبة تأييدٍ قياسيةٍ عاليةٍ من الشعب الأميركي بلغت ٨٩٪. وضع الرئيس بوش أربعة أهدافٍ فوريةٍ للحرب: «يجب على العراق الانسحاب من الكويت بشكلٍ كاملٍ وفوريٍّ ودون شروطٍ، ويجب إعادة حكومة الكويت الشرعية، ويجب ضمان الاستقرار في الخليج العربي، ويجب حماية المواطنين الأمريكيين في الخارج». ثم حدّد الرئيس هدفاً خامساً طويل الأمد للتجاوب مع المطالب العربية؛ فقال أثناء خطابه في الكونجرس: «من هذه الأوقات المضطربة يمكن تحقيق هدفنا الخامس، نظاماً عالمياً جديداً، عصراً جديداً أكثر حريةً من تهديد الإرهاب، وأقوى في السعي إلى تحقيق العدالة والمزيد من الأمن في البحث عن السلام وعصراً تستطيع فيه دول العالم في الشرق والغرب والشمال والجنوب أن تنعم بالعيش في انسجامٍ.. عالمٌ يحلّ فيه حكم القانون محلّ حكم الغاب. حيث تعترف الدول بالمسؤولية المشتركة عن الحرية والعدالة وعالمٌ يحترم فيه القوي حقوق الضعفاء». كانت هذه إشارةً أوليةً لعملية السلام في الشرق الأوسط ولم يوضّح الرئيس أكثر من ذلك تجنباً لمعارضة اللوبي الصهيوني في الكونجرس والإعلام.

اخترقت قوات حلفاء العرب والغرب الخطوط العراقية ودفعت نحو مدينة الكويت بينما كانت القوات في الجانب الغربي من البلاد تعترض الجيش العراقي المتراجع. اتخذ بوش قرار وقف الهجوم بعد ١٠٠ ساعة فقط. ووصف النقاد هذا القرار بأنّه سابقٌ لأوانه حيث يمكّن القوات العراقية من الفرار. وردّ بوش بالقول إنّه يريد تقليل الخسائر الأمريكية. كما اتهم

المعارضون بوش بأنّ عليه مواصلة الهجوم ودفع جيش صدام إلى بغداد ثم إبعاده عن السلطة. وأوضح بوش أنّه لم يعطِ أمراً بالإطاحة بالحكومة العراقية لأنّها «تكبّد تكاليف بشريةٍ وسياسيةٍ لا يمكن تقديرها.. كنّا سنضطر إلى احتلال بغداد وفي الواقع حكم العراق».. لم يقل طبعاً إنّه اتفق مع الحلفاء العرب على عدم تدمير الجيش العراقي، وهو ما حدث لاحقاً عام ٢٠٠٣ أثناء تولي بوش الابن رئاسة الولايات المتحدة، أي بعد ١٢ عاماً من حرب تحرير الكويت.

ارتفعت شعبية بوش الأب بعد الهجوم الناجح وتحرير الكويت. بالإضافة إلى ذلك شعر الرئيس بوش ووزير الخارجية بيكر بأنّ نصر الائتلاف قد زاد من مكانة الولايات المتحدة في الخارج واعتقد أنّ هناك فرصةً سانحةً لاستخدام رأس المال السياسي المتولد عن نصر التحالف لإنعاش عملية السلام العربية الإسرائيلية. عادت الإدارة على الفور إلى عملية صنع السلام العربية الإسرائيلية بعد نهاية حرب الخليج الثانية. أدّى ذلك في وقتٍ لاحقٍ إلى مؤتمر مدريد في عام ١٩٩١، وبعد ضغوطٍ قويةٍ من بوش على إسرائيل وقطع جزءٍ من التمويل المالي، خضع رئيس الوزراء شامير وذهب إلى مؤتمر مدريد وما تبعه من اجتماعات عبر عواصم العالم.. وأوفى بوش بذلك لوعدٍ آخر قدّمه للعرب قبل الحرب.

لقد تحدّثت فيما سبق مراراً عن مؤتمر مدريد وكيف أصبح د. حيدر عبد الشافي رئيساً للوفد وفيصل الحسيني المسؤول غير المعلن عن الوفد بسبب اعتراض إسرائيل على مشاركة أيّ عضوٍ في منظمة التحرير، أو من خارج الأرض المحتلة، أو حتى من سكان القدس التي اعتبرتها إسرائيل أراضي غير محتلة.. لكنّي لم أتحدث عن أشياء كثيرةٍ أخرى سأتطرق هنا لبعضها فقط. لقد أعقب مؤتمر مدريد مساران متوازيان للمفاوضات. وكان

المسار الثنائي يهدف إلى التوصل إلى معاهدات سلامٍ بين إسرائيل والدول الثلاث المجاورة لها، الأردن ولبنان وسوريا وكذلك مع الفلسطينيين، وكان المسار المتعدد الأطراف يتعلق بالقضايا الإقليمية المشتركة مثل: المياه والبيئة، والحد من التسلّح، واللاجئين، والتنمية، حيث تقرّر تشكيل لجان تفاوضٍ متعددةٍ تجتمع في عواصم متنوعةٍ. بحثت في قطاع غزة عن بعض أصحاب الاختصاص لمواضيع هذه اللجان، ورشّحت بعضهم للعضوية عبر رسائل إلى أبي عمار الذي -بالفعل- قرّر تعيين بعضهم، والذين بالطبع بقوا أوفياء لي وتواصلوا معي عمّا يدور في الاجتماعات. الشيء الأساس الذي توافقوا عليه من لجان عدة وإبلاغي به، أن السيد أبا علاء قريع يزورهم ويبلغونه بما يجري، ولكنهم أبلغوني استغرابهم أنّه يُحرّضهم على رفض الاتفاق أبداً علماً بأن الإسرائيليين أحياناً كانوا يوافقون على الطلبات الفلسطينية!!

كنت أستغرب هذا التصرف من أبي علاء، ولكنّي مقيّد الأيدي في الإفصاح أو حتى التساؤل العلني أو إبلاغ عرفات بما يجري.. كان عليَّ أن أستنتج حينذاك ما عرفه الجميع لاحقاً بأن محمود عباس وأبا علاء وغيرهما من رجال المنظمة يتفاوضون بعلم عرفات سرياً مع الإسرائيليين في أوسلو أثناء مفاوضات وفدنا برئاسة د. حيدر ومشاركة فيصل مع الإسرائيليين في واشنطن، وأثناء تفاوض اللجان الأخرى عبر العالم. حين انتشر الخبر وانفضح الأمر غضب د. حيدر واستقال من رئاسة الوفد، لكنّ الأعضاء الآخرين واصلوا عملهم رغم اتضاح هامشيته.

السخيف أنّ الوفد الإسرائيلي في أوسلو كان يعرف مسبقاً ما يخطّط له الوفد الفلسطيني، وتكون الأجوبة جاهزةً، ويدعون أنّهم أذكياءٌ يعرفون كيف يفكّر المفاوض الفلسطيني.. الحقيقة أنّهم قبل التفاوض أوصلوا إلى محمود عباس كرسياً به أجهزة إرسال ووضعوه في مكتبه بتونس، كما زرعوا أجهزة

تنصتٍ وإرسالٍ في سيارات رجال المنظمة وتمّ كشف الأمر بعد فوات الأوان من قبل السلطات التونسية أثناء عملية مسح روتينية لمكاتب المنظمة، وبالطبع الذين سهّلوا هذه المهمة هم من رجال أبي مازن والمنظمة. هكذا كان أعضاء وفد واشنطن واللجان المتعددة يفاوضون بجدارةٍ، بينما أبو العلاء يحرّض على التخريب، وأبو مازن يعقد اتفاقياتٍ مهينةٍ غير مدروسةٍ في أوسلو فشلت بسرعةٍ تحت ضغط الواقع، وثبت أنّ اتفاقية باريس الاقتصادية التي أشرف عليها قريع كانت لا تساوي حفنة زبلٍ، ومليئةٌ بالخروقات والأخطاء والضرر للجانب الفلسطيني.

الأمر الثالث الذي أودّ التطرق إليه عن فترة عملي في بريطانيا، أنّه وبعد حوالي عقدٍ من العمل والحياة في لندن تراكمت الأسباب إلى الانتقال للسكن في مقاطعة (كنت) البريطانية على شاطئ القنال الفاصل مع فرنسا، وهي على بعد ساعةٍ بالسيارة من العاصمة. كانت معظم أعمالي تتمّ أصلاً من البيت عبر أجهزة الاتصال متلاحقة التطور، واتضح أنّ ابنتي ليلى تعاني الربو بسبب تعاسة الهواء في العاصمة.. هكذا بعنا بيتنا في لندن واشترينا في (كنت) مزرعةً فيها بيتٌ كبيرٌ غير صالحٍ للسكن. اشترينا المزرعة من دون قرضٍ بنكي هذه المرة نظراً لارتفاع سعر بيتنا في لندن، واجتهدت زوجتي في إصلاح بيت المزرعة، وتدريجاً أنهينا إصلاحه عبر مهندسين وعمالٍ متخصصين وأصبح صالحاً رسمياً للسكن.

ذات يومٍ التقيت صباحاً موزع زجاجات الحليب، وتبادلت معه حديثاً عاماً انتهى بإبلاغي أن زوجته اشترت له، كهديةِ عيد ميلاد، تذكرة طيرانٍ محلي لساعةٍ من الزمن. يعني يمكنه الجلوس على مقعد الطيار ويجلس المُدرب على المقعد المجاور في طائرة أربعة ركابٍ بمحركٍ واحدٍ، ويمكنه وضع يديه على المقود أثناء الإقلاع والهبوط وعمل بعض مناورات الدوران في الجو

تحت إرشاد المدرب. أخذت التفاصيل من موزّع الحليب وذهبت للمطار المحليّ للاستفسار والتجربة، وانتهى بي الأمر إلى تسجيل دورة تعلم طيرانٍ، والحصول لاحقاً على رخصة طيار خاصّ نهاري وليلي. دامت الدورة عدة شهورٍ، وحصلت على رخصة الطيران بعد ٤٠ ساعة تدريبٍ جوي، وامتحانات في الطيران تشمل جولة طيرانٍ انفرادي (سولو) وهبوطٍ وإقلاعٍ في ثلاثة مطارات يختارها المدرب ثم يخبرك بها قبل نصف ساعة من الإقلاع وحيداً، وبعد ذلك عليك العودة للمطار المقر.. الامتحانات النظرية تدور حول سبع مواد كلّ منها مشمولٌ في كتابٍ حوالي ٣٠٠ صفحةٍ، حول ميكانيكية الطيران، وميكانيكية الطائرة، والوضع القانوني للطيران والطيار، والتعرّف إلى الطقس والغيوم والرياح، والاتصالات اللاسلكية وأجهزة الإرشاد الجوي، وغير ذلك.. ثم طرت لاحقاً في عدة دولٍ أينما ذهبت للزيارة والسياحة بمجموع مائة ساعة طيران، كان الكثير منها فوق الأندلس لتتبع خطوط وطرق تقدم المسلمين أثناء الفتح ثم طرق الانسحاب.. كان ذلك عندما قرّرت الانتقال لاحقاً للأندلس وباشرت في تأليف الكتب، وهو ما سأعود إليه.

بدأت دورة الطيران بثلاثين راغباً بالتعلم بدأوا بالتساقط حتى استقر العدد على ثمانيةٍ، وكان شوقي للطيران هو الذي ثبتني ودفعني للمزيد من الاجتهاد للحصول على الرخصة، ثم الانطلاق متى شئت في جولةٍ وحدي أو مع صديقٍ أو أفراد العائلة لمدة ساعةٍ على الأقل. كنت أيام الصبا أحلم في المنام أني أرتفع في الجو، وأن الجاذبية غير فعالةٍ معي، وأحياناً كنت أفشل في الهبوط على قدمي.. أظنّ أنّ هذه الأحلام أصبحت تراودني بعد العدوان الثلاثي على قطاع غزة، وقد بدأت الأحلام بوجود تماسيح فوق جدار بيتنا تمنعني من الخروج، ثم أصبحت أحلم بالطيران الجسدي.. عموماً هناك شبه نظرية تقول إنّ كلّ الناس تحلم بقدرتها على الطيران أثناء سنوات الطفولة

والصبا، وذلك كون الجينات البشرية مرتبطةً بجيناتٍ فضائيةٍ، ولا داعي للخوض في ذلك هنا.

يوم الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ كنت أعيش في مزرعتنا في مقاطعة (كنت)، حيث بيتٌ كبيرٌ أصبح جميلاً أنيقاً غالي التقييم بعد عقدٍ كاملٍ من الإقامة فيه والتصليح، ولا يتناسب مع الدخل السنوي الذي ندفع على أساسه الضرائب للحكومة البريطانية. في اليوم التالي بالضبط وصلتني رسالةٌ من الحكومة أنّني قيد الفحص الضريبي.. ربطت فوراً بين الرسالة وبين ما جرى في نيويورك من هجماتٍ بالطائرات على الأبراج في اليوم السابق، وبالطبع كوني طياراً فقد توقعت رقابةً أو مساءلةً خصوصاً وأنّه خلال أيامٍ توجّهت الاتهامات للعرب، ثم تركّزت على التوجهات الإسلامية.. كانت قناعتي أنّ الإسرائيليين هم الجناة لتوريط الأميركان في حرب كاسحة ضد العرب.

لقد تم تصميم تلك الحادثة حتى تلبس العرب منذ اللحظات الأولى. علينا أن نتصوّر عدم معقولية أوّل الإثباتات، إذ وجدوا أسفل البرج المدمّر المحروق الذي يعيش حالة فوضى وأناسٌ يرمون بأنفسهم من الطوابق العليا، والنار قتلت عشرات رجال الإطفاء، وملايين أوراق المكاتب في ناطحة السحاب.. وجدوا منذ الساعات الأولى جوازات سفر الشبان العرب المتهمين ولم تمسها النار؛ فقد طارت من جيوبهم ونجت من الانفجار والنار في الطائرة، وسلمت من كل المصائب المرافقة وحطّت أسفل البناية. يذكرني هذا بالمثال الشعبي: إذا كان المتحدث مجنوناً؛ فليكن المستمع عاقلاً.. لكنّ التخطيط ومكان الحادث، والإعلام المتلهف للانتقام، وأصابع الاتهام والإثباتات، كلّ شيءٍ كان جاهزاً في انتظار لحظة الانطلاق.. بل لم يعلّق أحدٌ على حقيقة ندرة اليهود بين ضحايا البرجين وهم الذين يملأون نيويورك -وخصوصاً- مكاتبها ومؤسساتها المالية؛ فلا غالب إلا الله.

تأمّلت بعمقٍ في غزوة مانهاتن التي اتهموا فيها تنظيم القاعدة، وتوصّلت إلى قناعةٍ أنّ الجناة على درايةٍ عاليةٍ ولديهم معداتٌ وقدراتٌ فنيةٌ غير عاديةٍ.. لم أتقبّل نظرية أنّ متدربين خطفوا طائرات الركاب الأربعة المعقّدة فنياً وقادوها بهذه الدقة لتصيب أبنيةً محدّدةً في مدينةٍ تبدو كغابةٍ من ناطحات السحاب. راجعت المزيد من خصائص أجهزة الطائرات التي استُعملت في الهجوم، وهي طائراتٌ حديثةٌ جداً مجهّزةٌ بطيارٍ آلي وأجهزة اتصال مباشرة وعبر الأقمار الاصطناعية.. وفي ذلك الزمان كانت تقنية التوجيه عن بعدٍ متوافرة، وكانت الطائرات المدنية ذات خصائص للتحليق طوال الرحلة والهبوط من دون تدخل الطيار.. كلّ ما كان على الجناة أن يملكوه هو تقنيةٌ تلغي قدرات الطيار البشري عن التدخل، بينما يعطون الطيار الآلي الهدف للتوجه إليه بدقةٍ متناهيةٍ.. وثبت لاحقاً، وكما نرى الآن أنّ لدى إسرائيل قدراتٍ متطورةً جداً في مجال التوجيه والتحكم عن بعد في الطائرات، كما رأينا أنّ غزوة مانهاتن عادت على إسرائيل بالمنافع الاستراتيجية والأمنية والسياسية، كما أدّت إلى تدمير الجيش العراقي ومحاربة واشنطن للمنظمات الإسلامية، وتعمّق الثقة الأميركية مع إسرائيل التي أضحت المستفيد الأوّل.

كلُّ تلك الأحداث والفوضى التي عمّت، وقذف الاتهامات والتحريض على العرب، دفعتني لعرض المزرعة والبيت للبيع، حتى بعد أن اتضح أنّ التفحص الضريبي كان بسبب خطأ ارتكبه المحاسب القانوني الذي يراجع ويقدّم سجلاتنا، وأجبرناه على تحمّل نتيجة الخطأ والإقرار بذلك لهيئة الضرائب.. بعنا المزرعة بمبلغ أربعة أضعاف الشراء، واشترينا شقةً كبيرةً في المدينة القريبة. تدارست مع زوجتي الأمر، ورأينا أنّ ليلى ونورا دخلتا معترك الحياة والاستقلال بعد التخرج الجامعة، وبالتالي، قرّرنا الانتقال إلى الحياة في الأندلس، وكنّا قد زرنا المنطقة مراراً قبل ذلك.. وهناك سببٌ ذاتيٌّ

آخر للانتقال من بريطانيا ذات الجو البارد كون زوجتي بدأت تعاني آلاماً في المفاصل وظننا أنّ الأندلس جافةٌ وستكون أنسب لصحتها، واتضح لنا بعد أربع سنواتٍ أنّها بلادٌ ذات رطوبةٍ كونها قريبةً من الشواطئ.. هكذا عدنا للتفكير والتخطيط للإقامة في الأردن؛ ففيها أقاربُ وقطاعٌ صحيٌّ ممتازٌ وأجواءٌ جافةٌ إلى درجة المعاناة من ندرة الماء.

كما درجت في الكتابة حتى الآن بقطع التسلسل الزمني للأحداث والقفز إلى الحاضر ثم الإقلاع مجدداً إلى الماضي، سأتحدث عن أمرين، الأوّل خاصٌّ، والثاني عامٌّ. وصل هذا الأسبوع إلى عمّان أحفاد أختي عندليب، وهم أبناء محمد وآسيا، الطفل سلام خمس سنواتٍ، وأخته سلمى ثلاث سنواتٍ. جميعهم عانوا مقتلة غزة وعاشوا عدّة شهورٍ فيها حتى خرجوا إلى مصر وأصبحوا يعانون قصص الإقامة ودخول المدارس، وبالتالي، توجب على الصغار زيارة عمّان حتى يعودوا بعد بضعة أيامٍ ويحصلوا على ختم الجوازات الذي يؤهلهم لإنهاء بعض الإجراءات الإدارية طوال صلاحية الختم وهي أسبوعان. مثل هذه الهموم تصاحب الغزي منذ عقودٍ؛ فوضعه مختلف عن الفلسطيني من الضفة الغربية الذي يحمل الجنسية الأردنية.

سلام يتحدث باللهجة الغزية ، وسلمى تتحدث بالمصري، وكلاهما يزور المدرسة والحضانة في القاهرة، وقد دفعني هذا الأمر للتفكير في سرعة تأقلم الصغار بمحيطهم، وأهمية التربية والإرشاد من قِبَل الأهل إذا أرادوا لأطفالهم التمسك بقيمٍ وتراثٍ وإرثٍ معين؛ فدون المعايشة، أو الإرشاد على الأقل، يتحوّل الصغار إلى شيءٍ مرتبطٍ بمحيطهم الذاتي. ليس هذا ما أردت الحديث عنه، ولكن ملاحظاتي عن ذاتي أثر هذه الزيارة. أخذت الأم والطفلين إلى زيارة متحف السيارات الملكي، ومتحف الأطفال وكلاهما في حدائق الحسين. انخرط سلام وسلمى بعمقٍ ومشاركةٍ في المتحفين، وكان

عليَّ الشرح والمساعدة والمتابعة إلى جانب والدتهم التي كانت تلتقط صوراً وفيديوهاتٍ عفويةً عديدةً. في نهاية اليوم وبعد ست ساعات متواصلة من المشي والمتابعة تفرجت على الصور والفيديوهات. كان عقلي طوال الوقت والمشاغلة للأطفال يوهمني بالصحة الوافرة والنشاط، وهو عموماً ما أشعر به معظم الوقت.. لكنّ الصور والفيديوهات –تحديداً– قدمت لي صورةً مختلفةً عمّا أعرفه، أو أظنّ أنّي أعرفه عن ذاتي؛ فأنا وحسب تأكيد الصوت والصورة رجلٌ كبير السن، ويتوجب عليَّ إقناع عقلي بذلك والتصرف الجسدي على هذا الأساس قبل وصول أحفادي في الربيع للزيارة.

الأمر الثاني، وهو العام، أنّ معدتي كادت تقلب أكثر من مرةٍ وأنا أتابع المخبول ترامب يصعد من مقولة التهجير لسكان قطاع غزة، ويصل إلى فكرة احتلال القطاع عسكرياً لأنّه «جميلٌ ويمكن أن يصبح ريفيرا الشرق لأغنياء العالم»، والمخبول لا يتحدث عن السكان الغزيين كبشرٍ لهم حقوقٌ.. ما يقلب معدتي أنّ الحكام والمسؤولين والمتنفذين العرب، وأصحاب الرأي لم يتجاوبوا بسرعةٍ مع ترامب عندما طالبهم بتقديم بدائل إذا رفضوا مطالبه. –بالطبع– لا يحقّ لترامب قول ما قاله، ولكن طالما أنّه فعل؛ فتوجب الردّ الرسمي والشعبي عليه بطرح البديل بإعادة سكان قطاع غزة إلى قراهم التي تهجروا منها عام ١٩٤٨، وهي العودة التي يقرّها قرار الأمم المتحدة ١٩٤.. صحيحٌ أن عودتهم إلى قراهم ومدنهم سوف تضعهم تحت سلطةٍ سياسيةٍ وأمنيةٍ لإسرائيل وبالتالي، حرمانهم من حلم، أو كابوس، قيام دولةٍ فلسطينيةٍ، ولكنّ ذلك سيكون مقبولاً منهم، ويحلّ بالتالي عدة مشاكل مرةً واحدةً لإسرائيل ولأميركا وللفلسطينيين. البديل اليتيم الذي طرح في السابق من قبل الرئيس السيسي أن يتمّ ترحيل السكان إلى صحراء النقب ريثما تنهي إسرائيل عملها بالقضاء على المقاومة ثم يعودون للقطاع، كما قال رافضاً استقبالهم في

سيناء، ورافضاً عرض مستشار ألمانيا ببناء مدن للغزيين في سيناء. لماذا إذاً لم يتمّ تقديم اقتراح تطبيق قرار ١٩٤ من قبل جامعة الدول العربية مثلاً.. لماذا البقاء داخل الصندوق الذي يقدّمه ترامب أو نتنياهو؛ فقرار ١٩٤ يحلّ أيضاً معضلة وجود مسلحين ويؤمّن إسرائيل، ويمنع قيام دولةٍ فلسطينيةٍ في غزة ويمكن أن يقدّم مثالاً لحلّ القضية في الضفة الغربية.. أي -باختصار- بدل حلّ دولتين، يتم تطبيق حلّ دولةٍ واحدةٍ ديمقراطيةٍ علمانيةٍ! وبالتالي، يخسر الفلسطينيون مقاومتهم حماس، ورئيسهم أبا مازن والسلطة الوطنية، كثمنٍ لحلّ الدولة الديمقراطية والعودة.

من الحلول الأخرى التي كان يتوجب تقديمها كبدائل لمقترحات ترامب، هناك حلّ الترحيل المؤقت لسكان القطاع إلى ولايةٍ أميركيةٍ ذات مناخٍ مناسبٍ وقريبٍ من مناخ غزة، وحيث يتعلمون العلوم والسياسة والديمقراطية، وليس تهجيرهم إلى صحراء سيناء أو الأردن أو أفريقيا.. وتتحمل واشنطن إعادة الإعمار -خصوصاً- وأن أسلحتها وقنابلها هي التي أحدثت الدمار، وبعد إعادة تأهيل القطاع عمرانياً، وتأهيل سكانه في الولايات المتحدة يتمّ إعادتهم لأرضهم وتمكينهم من حكمٍ ديمقراطيٍّ وسلطاتٍ محليةٍ منتخبة مع ضمان تواصل عملية الانتخاب في مواعيدها وبالشكل السليم. هناك حلٌّ آخر مناقضٌ لذلك، وهو حلّ الهجرتين، تهجير اليهود إلى بلاد مولدهم ومولد آبائهم، أو أخذهم للولايات المتحدة التي تحبهم وتدعمهم، ومن ثم هجرة الفلسطينيين بالعودة إلى أماكن مولدهم ومولد آبائهم وأجدادهم، وبذلك يعود كلّ طرفٍ إلى أحبابه مع ضمان حريةٍ سياحةٍ كاملةٍ لليهود في فلسطين، وحينذاك يتم تقديم قطاع غزة هديةً للرئيس ترامب وأبنائه وأحفاده ليعمروه ويحوّلوه إلى الريفيرا المنشودة.

هناك مقترح حلٍّ ثالثٍ أيضاً، طالما أن ترامب وإدارته معجبان بقطاع

غزة؛ فبوسعهما التقدم لاستصدار قرارٍ أمميٍّ يخوّل واشنطن الانتداب على فلسطين ضمن حدود قرار التقسيم لعام ١٩٤٧، ويستمر الانتداب ريثما يتأهل الشعب الفلسطيني لحكم ذاته والاعتماد على اقتصاده والعيش بسلامٍ مع جيرانه، علماً بأن قرار التقسيم يتيح للعرب واليهود العيش في مناطق الطرف الآخر بكامل الحرية والحقوق ولكنّ كلّ طرفٍ يشارك في انتخابات بلاده حتى لو كان يقطن ويعمل في البلد الثاني.

إذا كان ترامب يريد إبعاد سكان القطاع مؤقتاً ريثما يتمّ إعادة البناء بسرعةٍ وسلاسةٍ؛ فهذا شيءٌ يمكن ويسهل الاتفاق حوله، ويمكن لكلّ الذين دعموا القصف والتدمير بالأسلحة والسياسة مثل بريطانيا وفرنسا وألمانيا، يمكنهم الاشتراك في الطبخة وعليهم تحمّل تكلفة إعادة البناء حتى يضمنوا عدم العودة للتدمير.. أما إذا كان الهدف استهبالاً من أجل التخلص من أصحاب الأرض ومنحها لأعدائهم؛ فهذا كما يشهد التاريخ سيكون دونه الأرواح والمهج وسيقابله حتماً دمارٌ يتصاعد ويتواصل لقرونٍ قادمةٍ.. هذه حتميةٌ تاريخيةٌ.

درس الأندلس

الهُدن لا تنهي الخلافات؛ فالهدنة تحصل تحت ظروفٍ معيّنةٍ مثل الضغط السياسي، أو تعب طرفي الصراع، أو رغبة أحدهما في تركيب كمينٍ يُطبِقُ على الآخر في لحظةٍ مناسبةٍ؛ فتعود الحرب طالما لم يتم التوصل إلى اتفاق سلامٍ ينهي حالة النزاع. في حالة قطاع غزة حدث عدة اعتداءاتٍ إسرائيليةٍ تدميريةٍ وآخرها ما حدث بعد طوفان الأقصى في أكتوبر ٢٠٢٣.. كلّ هدنةٍ سابقةٍ تمّ نقضها والعودة للتدمير، وتلاها هدنةٌ جديدةٌ واتفاق إعادة تعميرٍ ثم تدميرٍ لما تعمّر.. المهم هنا أنّ الذي يُعمّر هم العرب والمجتمع الدولي، والذي يدمّر مرةً بعد الأخرى هو الإسرائيلي من غير أن يتمّ تغريمه أيَّ شيءٍ كونه لم ينهزم عسكرياً لتُفرض عليه غراماتٌ ضمن اتفاقية سلامٍ أو استسلامٍ كما هي العادة بين الأمم المتحاربة.. بل إسرائيل تدمّر ثم تشرف على الإعمار المدفوع من الآخرين وتواصل الحصار!!

قبل التطرق لسبب هذا التناقض أودّ القول إنّنا وحسب مشاهداتي وتجاربي نعود إلى نقطةٍ متراجعةٍ لنبدأ من جديدٍ في البناء بعد الهدنة، وبالتالي، المال والجهد المطلوب كلّ مرةٍ أعظم بكثيرٍ ممّا سبق، ونحن نواصل بعد الهدنة النهج نفسه من دون التوصل إلى حلٍّ سلميٍّ مضمونٍ؛ فنعود لدائرة التدمير والمعاناة ومن ثم العودة من مستوى أدنى وخسائر أكثر في السياسة والجغرافيا والاجتماع.. هذا ما حصل بعد حروب ٢٠٠٨ ثم ٢٠١٢ وتلاها

٢٠١٤ وصولاً إلى ٢٠٢٣ التي استمرت ١٥ شهراً حتى تمّ التوصل إلى اتفاق هدنةٍ مؤقتةٍ فيه بندٌ يتحدث عن إعادة الإعمار من دون تحديد من الذي سيدفع التكلفة المادية التي تقدّر بمائة مليار دولار.. كم تمنيت لو طالب المفاوض الحمساوي بتغريم اسرائيل تكلفة إعادة البناء.. مجرّد محاولة طلب ذلك وإعلانه أمام العالم كان سيؤثر في الموقف الاسرائيلي.

هذه الاعتداءات تتمّ بينما حركة المقاومة الإسلامية ترفع شعار التحرير الكامل لفلسطين، والسلطة الفلسطينية في الضفة الغربية ترفع شعار دولة فلسطينية إلى جانب إسرائيل على حدود الرابع من حزيران ١٩٦٧.. ولهذا تولّد الخلاف الفلسطيني الداخلي، وبهذا تتسلح إسرائيل بادعاء أنّ حركة حماس تسعى لتدميرها، وبالتالي كما تدعي، هي ترد بتدميرٍ مسبقٍ لحماس ومحيطها. هكذا تم تدمير قطاع غزة قبل الهدنة الأخيرة.. يوم الأربعاء ١٥ يناير ٢٠٢٥ جاء هذا الإعلان عن الاتفاق وذلك في اليوم ٤٦٧ من حرب الإبادة الإسرائيلية على القطاع بدعمٍ أميركيٍّ وبريطانيٍّ وألمانيٍّ، والتي خلّفت أكثر من ١٥٦ ألف شهيدٍ وجريحٍ فلسطيني، معظمهم أطفالٌ ونساءٌ، وما يزيد على ١١ ألف مفقودٍ، وسط دمارٍ هائلٍ وشاملٍ ومجاعةٍ قتلت عشرات الأطفال والمسنين، في إحدى أسوأ الكوارث الإنسانية في العالم. (الهدنة لم تصمد وعادت المقتلة بعد شهرين).

أسجّل أفكاري هنا في مجريات الأحداث بينما أتذكّر أفعالي أيضاً من الماضي كمواطنٍ صالحٍ، وتلك الذكريات وهذه الأحداث المعاصرة للتسجيل ذات مضمونٍ وهمومٍ واحدةٍ، وكونك عزيزي القارئ ستطالع هذا بعد زمنٍ؛ فسوف أخبرك من الآن بحقيقة الأمر في بعض الشؤون. الذي أوصلنا لهذه الهدنة المؤقتة ليس القتال الذاتي، ولا الصواريخ العربية أو ما شابه، ولكنّه عدالة قضيتنا التي أسهمت معنا دوماً عبر العالم بفضل توضيح الفلسطينيين

لقضيتهم أينما ذهبوا.. ثم هناك العامل المباشر المتمثل في قساوة العدوان من جهةٍ وتحمل الشعب في غزة مضطراً للدمار من جهةٍ أخرى، وهناك عوامل أسهمت في الصمود وهي مصر، سواءٌ عبر معبر رفح أو سراً عبر الأنفاق، -وبالطبع- علينا أن نفكّر في رفض مصر لفكرة تهجير الغزيين إلى سيناء بأيّ شكلٍ وثمنٍ كان.. لو تقبّلت مصر الترحيل المؤقت لانضم قطاع غزة لإسرائيل حتماً، بل لو فتحت مصر الحدود لخرج الناس حمايةً لأرواحهم ولما تمكّنوا من العودة.

أمّا السبب المباشر لفرض تلك الهدنة على إسرائيل؛ فكان موقف الرئيس ترامب حتى قبل تسلم منصبه في البيت الأبيض.. هذه حقيقةٌ دامغةٌ، ودون ذلك الموقف كان الدمار سيستمر حتى الترحيل، وهذا ما كانت إسرائيل تأمله وتراهن عليه وماطلت إدارة الرئيس بايدن في سبيله طوال عامٍ من الحرب.. لقد اعترف الإسرائيليون أن جلسة مفاوضاتٍ واحدةٍ مع مبعوث ترامب أنجزت ما فشل فيه بايدن طوال عامٍ.. وهذا كلّه تمّ الحديث عنه في حينه، لكنّ المجهول هو سبب موقف ترامب الذي فاجأ الجميع حينذاك، وقيل في التفسيرات أنّ ترامب وفريقه أكثر إسرائيليةً من الإسرائيليين وأن فعلته هذه جاءت لإنقاذ نتنياهو وإنزاله عن الشجرة.. وهناك ملاحظةٌ أودّ التطرق إليها قبل توضيح ما أظنّه موقف ترامب وسببه الحقيقي.

حين اتصل مبعوث ترامب ستيفن ويتكوف من الدوحة مساء الجمعة بمكتب نتنياهو لإخبارهم بقدومه واللقاء مع رئيس الوزراء صباح السبت، حاولوا تأجيل اللقاء بحجة العطلة اليهودية؛ فقال لهم ويتكوف «خرائي على السبت» رتبوا اللقاء، -وبالفعل- تم اللقاء وفرض على نتنياهو قبول الهدنة لأنّ ترامب كانت لديه حساباتٌ خاصةٌ. هذه الجملة حول السبت يتعرض قائلها في العادة إلى حربٍ إعلاميةٍ وقانونيةٍ واتهاماتٍ بمعاداة السامية.. لكن

ستيفن هذا يهوديٌّ ومطلعٌ على اللعبة الدعائية الإسرائيلية، ويبدو أن الموساد لا تملك مواد ابتزازٍ جنسيةٍ ضده كما هو الحال مع غيره وربّما مع ترامب نفسه، وهو من مواليد نيويورك عام ١٩٥٧ وبعد تخرجه في كلية الحقوق عام ١٩٨٣، عمل ستيفن ويتكوف في شركة دراير آند تراوب للمحاماة العقارية، حيث كان دونالد ترامب أحد عملائه، وأصبحا صديقين في أحد مطاعم مدينة نيويورك بعد أن عملا معاً في صفقةٍ تجاريةٍ، وعيّنه ترامب ٢٠٢٤ مبعوثاً خاصاً إلى الشرق الأوسط. كلّ ما قيل عن الاجتماع مع نتنياهو أنّه كان صعباً ومثمراً، وغير ذلك من التنميقات، ولم يتطرق الإعلام الغربي والأميركي والإسرائيلي لخرية ستيفن التي تم ابتلاعها بصمت.

قبل ذلك وفي يوم الأربعاء ١١ ديسمبر كان ويتكوف في زيارةٍ للأمير محمد بن سلمان لأوّل مرةٍ، وتمّت مناقشة العلاقات الأميركية السعودية والحرب على غزة -وبالطبع- قضية التطبيع مع إسرائيل.. يتفق ترامب والأمير أصلاً على التطبيع ضمن شروطٍ تحققها واشنطن للرياض وضمان حلّ القضية الفلسطينية بإقامة دولةٍ، وهذا ما يعرفه الجميع وكرّرت الرياض تأكيده. قبيل ذلك زار الملياردير ويتكوف الإمارات وشارك في مؤتمرٍ حول العملات المشفّرة، والرجل شريكٌ مع ترامب في تبنّي عملةٍ مشفّرةٍ باسم الرئيس ولديهما شركةٌ في لندن تعمل في مجال عقارات دول الخليج.. والتقى ويتكوف في أبو ظبي أيضاً مستشار الأمن الوطني الإماراتي الشيخ طحنون وناقشا الحرب على غزة.. وموقف الشيخ طحنون معروفٌ برفض العدوان الإسرائيلي.. وكشف موقع «أكسيوس»: في الوضع الحالي، قال ولي العهد السعودي ومستشاروه الكبار في السر والعلن في الأشهر الأخيرة إنّهم ما زالوا مهتمين بالتوصل إلى مثل هذا الاتفاق (التطبيع)، لكنّهم أكّدوا على الشرط الرئيس الوحيد للمملكة، هو التزام إسرائيل بمسارٍ لا رجعة فيه ومحددٍ زمنياً

لإنشاء دولة فلسطينية. (تطوّر الموقف السعودي لاحقاً بالاشتراك مع فرنسا لعقد مؤتمر حلّ الدولتين وإعلان فرنسا عزمها الاعتراف بدولةٍ فلسطينيةٍ ممّا دفع الكثير من الدول الأوروبية لاتباع الموقف الفرنسي)

نحن إذاً أمام مصالح ماليةٍ مشتركةٍ للرئيس ترامب ومستشاره لشؤون الشرق الأوسط ويتكوف، وهي مصالحُ تتقاطع مع صفقاتٍ قائمةٍ وأخرى قادمةٍ في دول الخليج العربي، وبالتالي لا بدّ من الضغط على نتنياهو لتتوقف الإبادة بفضل طلب الرئيس لإرضاء الشركاء التجاريين المستقبليين الذين يريدون حلاً للقضية الفلسطينية -خصوصاً- بعد ضعف قوة حماس العسكرية وتحجيم دور إيران في لبنان وإنهاء الوجود الإيراني في سوريا.. هذه هي الحقيقة بعينها ولا يجب الانغماس في الأقاويل المضادة لعرب الخليج وتخلّيهم عن القضية.. هم مجبرون على التطبيع لظنّهم أن واشنطن تحمي بلادهم ومراكزهم، ولكنّ الرياض تسعى لإنجاز الحلّ السياسي مقابل تطبيعها، والهدنة المؤقتة بين إسرائيل وحماس كانت أوّل ثمرةٍ.. أمّا الهدنة الطويلة والحل فلن يتمّ قبل تغيير حماس لهدفها السياسي التحريري، أو تحييدها عسكرياً واستمرارها سياسياً، أو طبعاً، وبعد تلك الهدنة أو بعد غيرها، لن يتمّ إعادة إعمار وسنعود للدمار وللدوران حول الساقية نفسها، حتى يمل سكان غزة الوضع ويتصرفون إمّا بمغادرة البلاد أو سعيهم لإبعاد حماس عنها. إسرائيل وواشنطن والغربُ والحكومات العربية لا تريد وجوداً سياسياً أو عسكرياً لحماس في فلسطين، ولذلك لن يتم التوصل لهدنةٍ وحلٍّ فعليٍّ قبل غياب حماس.. أو طبعاً هزيمة إسرائيل عسكرياً.. هذا استنتاجٌ للمعطيات القائمة، وهذا ما سيتحكم في المسار السياسي والحربي حتى الحسم إمّا بهزيمةٍ علنيةٍ لحماس أو طبعاً انهزام إسرائيلي.

يدور في خاطري شأنٌ سلبيٌّ، أن تعطيل حركة حماس لانسيابية حل

الدولتين قد يعفي الرياض من إصرارها على إقامة دولةٍ فلسطينيةٍ، وبالتالي سيرها في التطبيع من دون تلبية ذلك الشرط؛ فالرياض لا يمكن أن تكون أكثر فلسطينيةً من الفلسطينيين، ولن تطالب بدولةٍ فلسطينيةٍ من النهر الى البحر، ولن تعرّض مصالحها للضرر بينما الحركات والفئات الفلسطينية متناحرةٌ، ومتكالبةٌ على الكرسي والهيمنة.. وربّما لذلك طرح ترامب فكرة ترحيل سكان غزة وتحويل المنطقة إلى منتجعٍ سياحيٍّ، بمعنى إفهام حماس باحتمال تغيير الأرض والواقع بالقوة.

كما تعلمون أنّني قرّرت نشر هذا الكتاب من دون تصليحاتٍ لمجريات الأمور وتطوراتها اللاحقة، وذلك حتى يتعرّف القارئ إلى الفترة الزمنية التي شهدت الحدث وردود الفعل. هكذا أقول إنّه من غير الممكن تنفيذ رؤية ترامب التي أعلنها بعد تسلم الحكم، لأنّها على الأقل غير منطقيةٍ؛ فالرجل يريد إقامة منتجعٍ في كلّ القطاع علماً بأنّ تكاليف إزالة الحطام وبناء البنية التحتية تقدر بأكثر من مائة مليار دولار، وواشنطن أصلاً مفلسةٌ بل إن ترامب أصدر أمراً في أوّل يومٍ لقطع الدعم الداخلي والخارجي عن الجميع، يعني من قطع منح الطلاب الأميركان حتى المساعدات للدول السائرة في الفلك الأميركي؛ فكيف ومن أين سيموّل تعمير القطاع؟ وماذا عن الملكية العامة والخاصة للأرض في القطاع هل سينهبها؟ وهل أيّ قانون أميركي أو دولي يسمح بذلك؟ يبدو أنّ نتنياهو وشوش في أذنه بالفكرة لعدة أسباب، أهمها إعادة اللحمة لحكومة اليمين الذين فرحوا وهلّلوا، كما أن طرح ترامب خلخل كيان دول المنطقة والسلطة وحماس، وربما يدفعهم للتوافق على نظامٍ للحكم في غزة بمشاركةٍ عربيةٍ، أضف لذلك أن الاحتجاج العربي على الخطة يُسهّل على ترامب التملص من المساهمة في إعادة الإعمار وتخليص واشنطن من تحمّل مسؤولية المشاركة في تدمير غزة. كان من اللافت للانتباه

تبادل الابتسامات البلهاء بين نتنياهو وترامب وهم يلحنون ويغنون هذه الفكرة ويتحدثون عن الدمار في غزة وكأنّ كائناتٍ فضائيةً هي التي تسببت فيه.. أحياناً تراودني فكرة أن ترامب مصابٌ بخرفٍ من نوعٍ غير تقليدي كونه يقفز بين المواقف المتضادة بسهولةٍ. الثابت أن الرجل لا يهتم بالعرب ولا يفكّر في حماية أيٍّ منهم، ويريد دفع الجميع بالقوة أو بالرضاء الى إطاعة إسرائيل. عموماً ومن مراقبة أقوال وأفعال ترامب في ولايته الأولى والشهور الأولى لولايته الثانية الجارية؛ فالرجل ينتحل نظرية الرئيس المجنون الواجب إطاعته لتجنّب شره، وهو ليس الرئيس الوحيد الذي سار على هذا الطريق البلطجي كزعيم عصابةٍ يشارك في الكذب لنصب الفخاخ لدولٍ ولآخرين.

من المناسب هنا العودة لأعمال المواطن الصالح في الأندلس التي رحلنا إليها مطلع عام ٢٠٠٤، وقصة هذه البلاد في الواقع تمثل حالةً معكوسةً للقصة الفلسطينية الصهيونية، وهي درسٌ يجب استيعابه. فتحَ، أو بالأحرى احتلّ العرب الأندلس في عام ٧١١ للميلاد (٩٣ للهجرة)، وطُردوا منها بالقوة في عام ١٤٩٢. لم تكن نهاية الحكم الإسلامي للأندلس بعد معركةٍ فاصلةٍ، ولكنّه كان تراجعاً منذ اللحظة التي توقّف فيها الهجوم الذي شمل كلّ بلاد الأسبان وتوغل مسافاتٍ بعيدةً في جنوب فرنسا. تراجعت القوات المحلية ومن ثم تمّ شحذها من الكنيسة البابوية للدفاع، ثم الارتداد جيلاً بعد الآخر، وأطلقوا على ذلك مصطلحاً فريداً تعمّق في العقلية الإسبانية ويعرفه الصغار والكبار حتى الآن، وهو «ريكونكويستا» بمعنى الاسترجاع. العامل الثاني للفشل كان الخلافات العربية التي انتشرت من العام الأوّل في الأندلس، وتطوّرت إلى مؤامراتٍ وتحالفات الإمارات العربية المتعددة مع قوى الأعداء بعضها ضد بعض، حتى وصلنا بعد ثمانية قرونٍ من التراجع عن القمة إلى توقيع السلطان أبي عبد الله الصغير صكّ تسليم قصر الحمراء

والرحيل إلى المغرب.. في طريق الانسحاب التفت السلطان للخلف وشاهد الحمراء؛ فبكى، وهنا عاجلته أمه عائشة بالقول: ابكِ كالنساء ملكاً لم تحافظ عليه كالرجال.

الموعظة هنا تتمثل في أنّ الاحتلال الديني لا يدوم مهما طال أمده، -خصوصاً- إذا كان في جغرافيا وديمغرافيا مختلفةٍ عن محيطها. في حالتي الأندلس وفلسطين عواملُ مشتركةٌ تميّزها عن الاحتلالات التي نجحت، مثل احتلال الأوروبيين للقارة الأميركية أو أستراليا، حيث فاق تعداد المستعمرين أعداد أصحاب البلاد الأصليين، وكانت الفوارق شاسعةً بين الفئتين، وكان الزمان والمكان مناسبين لنجاح الاحتلال في أميركا الشمالية وأستراليا، لكنّ كلَّ التجارب اللاحقة عبر آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية فشلت رغم الدمار الذي أحدثه المستعمرون الغربيون، بل إن تجربة استعمار الأندلس تكلّلت بالفشل رغم القرون الطويلة وما أتاحه العرب للأندلس وسكانها النصارى واليهود من مشاركةٍ في الحكم. لقد اعتبر اليهود عهدهم في الأندلس الإسلامي العصر الذهبي اليهودي الذي لم يسبق مثيله، كما أن المآسي حلت عليهم بعد انتهاء تلك المرحلة وهجرتهم إلى بلاد المغرب العربية وإلى أوروبا.

كانت تلك هي الموعظة، أمّا الاستنتاج فهو أنّ الاحتلال الغريب لا يدوم، وأنّه لن يزول إلّا بمواصلة الصراع وتطوير الأساليب حتى يمكن ويتمّ التغلب عليه.. كذلك هناك استنتاجٌ افتراضيٌّ حول فرصة إسرائيل في النجاح على المدى الطويل كانت ممكنةً لو لجأوا إلى الحسنى والتفاهم والتعاون مع الفلسطينيين أصحاب الأرض.. لكنّ فكرتهم العنصرية الاستيطانية الاحتلالية القائمة على أكاذيب وأساطير، والهادفة منذ البداية إلى إبادة الفلسطيني والتحايل والهيمنة على الإطار العربي المحيط والتوسع التدريجي كلّما توافر لهم العنصر البشري.. هذه الفكرة هي التي تصعّد الصراع بين الحياة والموت،

وفي كلِّ موقعةٍ يثبت أنّهم يعتمدون على كل الغرب، ولا تفوّق نفسي أو حتى ثبات لهم من دون ذلك الدعم المرتكز على العنصرية الصرفة؛ فقط ضمن هذه الرؤية يمكن فهم الدعم الغربي المتنوع والمستميت للصهيونية في الوطن العربي، وفهم لتؤمه بين نتنياهو وترامب في طرح فكرة الاستيلاء على غزة وتشتيت شمل أهلها بما يخالف أي عرفٍ غير شريعة الغاب.. وهذا ممّا سيطيل أمد وأنواع الصراع ولكنّه لن ينتهي لصالحهم.. قد يعمّق الصراع المفروض على المنطقة التخلف فيها وتعمّق الرؤية الغيبية، ولكنّ النتيجة لن تكون لمصلحة الغرب الذي فشل مع الصهيونية طوال أكثر من قرنٍ من تأمين احتلال فلسطين فقط!

الأندلس الآن هي منطقةٌ، أو مقاطعةٌ في جنوب إسبانيا، تحدّها من الشمال منطقة قشتالة، ومن الجنوب المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط وجبل طارق، ومن الشرق منطقة مرسية، ومن الغرب البرتغال، التي كانت ضمن دولة الغرب الإسلامي المتعارف عليه باسم الأندلس ويشمل كل إسبانيا والبرتغال ليشكّل شبه الجزيرة الأيبيرية. تبلغ مساحة إسبانيا الآن ٥٠٥ آلاف كم مربع وعدد السكان٤٦,٧ مليون نسمةٍ، بينهم ٥,٧ ملايين من المهاجرين، واللغات المستخدمة حسب القوميات هي: الإسبانية (القشتالية) والكاتالانية، والفالنسية، (إحدى اللهجات الكاتالانية) والغاليسية، (نسبة إلى إقليم غاليسيا) والباسكية.

كلّ هذه القوميات إلى جانب العرب والبربر واليهود وغيرهم تعايشوا حيناً واختلفوا أحياناً في هذه الجغرافيا، التي عرفت باسم الأندلس وكانت عاصمتها الأولى إشبيلية ثم أصبحت قرطبة هي العاصمة مع بداية عهد الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل. تعتبر إسبانيا من بين آخر الدول الأوروبية التي تخلّصت من الحكم الشمولي بعد أن كانت تحت حكم الجنرال فرانكو منذ

نهاية الحرب الأهلية عام ١٩٣٩ حتى وفاته ١٩٧٥. ودخلت البلاد مرحلة التحوّل الديمقراطي بعد ذلك إذ تحوّلت إلى نظامٍ ملكيٍّ دستوريٍّ، وأصبح خوان كارلوس ملكاً لإسبانيا، وشهدت البلاد تغييراتٍ جذريةً اقتصاديةً واجتماعيةً وسياسيةً هائلةً وسريعةً، وذلك بفضل انضمامها إلى السوق الأوروبية وتلقي المساعدات للبناء واللحاق بالركب الأوروبي.. وكانت أوروبا قد اشترطت لقبول عضوية إسبانيا في الاتحاد إطلاق الحريات الدينية؛ فحتى تلك اللحظة كانت الكاثوليكية هي الدين الوحيد المسموح به ويمنع اعتناق أيّ دينٍ آخر، وذلك منذ نهاية العهد الإسلامي والتنصير بالإكراه لكلّ من سُمح لهم بالبقاء في البلاد. تم اعتماد دستورٍ جديدٍ عام ١٩٧٨ ينصّ على احترام التعددية القومية والثقافية واللغوية والدينية ضمن إسبانيا الموحّدة، وعاد الإسلام للبلاد كدينٍ معترفٍ به وأقيمت مساجد، وسمح باستعمال القليل من المساجد القديمة.

كنت ملماً بالوضع في إسبانيا -وتحديداً- مقاطعة الأندلس التي شهدت أطول حكمٍ عربيٍّ، حيث بدأ التراجع التدريجي من الشمال إلى الجنوب، ثم الطرد عبر البحر إلى أفريقيا. زرت المنطقة مراراً قبل الانتقال للحياة فيها، وكنت دوماً أشعر أنّني في بلدٍ عربيٍّ، ولكنّه نظيفٌ ومنفتحٌ، يحب الورود ويتبع النظام، كما يعشق النظافة والروائح العطرة.. وحين كنت أركّز في سماع الكلمات الإسبانية أكتشف آثار اللغة العربية، ثم عرفت أن لغتهم الإسبانية الأندلسية القشتالية تحتوي خمسة آلاف كلمةٍ مشتقةٍ من أصل اللغة العربية.

كان ٥١٢ عاماً قد مرّ بين رحيل حاشية أبي عبد الله الصغير عن قصر الحمراء وبين وصولي وزوجتي للأندلس. كنّا قد تجولنا في مدنٍ وقرىً كثيرةٍ بحثاً عن مكانٍ مناسبٍ للإقامة، وكنت أرى التشابه في الوجوه بين السكان والعرب، وكنت مستعداً للمراهنة على أنّ جينات القوم متطابقةٌ مع متوسط

الجينات العربية. استقر بنا الحال قريباً من مدينة ملقا ومن الشاطئ، لكن على الجهة الشرقية الأقل ازدحاماً بالسياح الذين يشكّلون المصدر الأوّل للدخل. لقد زرنا الأندلس في نهاية عقدها الأول من العهد الجديد، وكانت المقاطعة تعاني الإهمال، وشوارعها مهترئةٌ إن وجدت، وقراها ومدنها كالحةٌ، وحين زرنا المعالم السياحية وجدناها فارغةً.. مثلاً دخلنا إلى الحمراء وجلسنا في الحدائق -وبالكاد- رأينا أناساً، بل كانت الكلاب أكثر تعداداً من البشر، وكان هذا حال مدينة الزهراء في أطراف قرطبة. لكن بعد عقدٍ تقريباً تحوّلت الأندلس إلى جنةٍ على الأرض، وأصبح عليك أن تحجز تذكرةً قبل أيامٍ لزيارة الحمراء ولا تمكث فيها سوى ساعاتٍ محددةٍ من النهار منعاً للازدحام ونقاء للهواء، وكذلك مدينة الزهراء أصبحت تُداس بتذاكر ونظامٍ وأعيد ترميم بعض أبنيتها، وأصبح الأسبان خبراءً في ترميم المباني والمدن الأموية في كلّ مكانٍ. السبب في هذا التحول كان انتخاب الحزب الاشتراكي لحكم إسبانيا ومعظم قادة الحزب كانوا من أصولٍ أندلسيةٍ فنفضوا المقاطعة تماماً عبر إغراقها في الدعم.

جمعت ما تيسر من مراجعَ عربيةٍ أصيلةٍ وأخرى ألمانيةٍ وإنجليزيةٍ وإسبانيةٍ حول تاريخ الأندلس قبل الفتح وخلاله وبعده.. أردت التبحر في المادة التاريخية والجغرافية وتسخير قدراتي الأدبية وفرصة الطيران الذاتي لاستكشاف البلاد، والخروج بعملٍ أو أكثرَ لتوثيق الماضي والحاضر. كان من بعض تلك المراجع القديمة عن تاريخ الأندلس: مروج الذهب للمسعودي، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام، البيان المغرب لابن عذاري المراكشي، كتاب صور الأرض لابن حوقل، طبقات الأمم لصاعد الأندلسي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس لأحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب، تاريخ الأندلس لابن

الكردبوس، تاريخ افتتاح الأندلس لأبي بكر ابن القوطية، جذوة المقتبس لأبي عبد الله الحميدي، طوق الحمامة لابن حزم عن قصص الحب وأنواعه في الأندلس من عصر «راوي قرطبة».. كانت الأجزاء الأربعة للبيان المغرب لابن عذاري هي الأكثر إرشاداً لي؛ فقد كانت بمثابة يومياتٍ للأحداث.

بعض الأمور التي سهّلت مهمتي، إلى جانب شغفي وتفرغي، كان تشابه الأسماء بين الماضي والحاضر، أسماء المدن والقرى والأقاليم والوديان، وبالتالي، سهّل عليَّ تحديد المواقع المذكورة في كتب الأصول والمراجع العربية والإسبانية. جاء التشابه كون البلاد لم تكن فارغةً حين دخلها المسلمون العرب والبربر.. كانت تسمّى بلاد الفندالس، نسبة للقوم الذين سيطروا عليها في السابق وهم الفندال، ومنهم اشتق العرب اسم الأندلس، وهكذا عرّبوا أسماء مدنٍ عامرةٍ مثل كوردوبا إلى قرطبة، وسيفيل إلى إشبيلية، وهكذا مع بقية العمارة، أمّا ما بناه العرب فقد احتفظ هو الآخر لاحقاً باسمه العربي تقريباً.. أسّسوا مجريط كمدينة عسكرية وأصبحت مدريد، وأسسوا مدينة بلد الوليد وما زالت تحمل ذلك الاسم، وانطبق هذا المبدأ على مدنٍ وقرى ووديانٍ مثل وادي الحجارة، أو طبعاً أكبر أنهر الأندلس الذي يمر بقرطبة وإشبيلية واسمه كان وما زال قوادي الكبير، هذا من دون أن ننسى جريناده، غرناطة، أو جبل طارق ومئات الأسماء والمعاني التي تصل إلى العلوم والرياضيات والهندسة، مثل قنطرة وقبة، وأسماء المحاصيل مثل الزيتون والزيت والسكر، والورود مثل الياسمين والكافور. من دون الاستكمال؛ فالثابت أن ربع مفردات اللغة الإسبانية أصلها عربيٌّ.

قرّرت زيارة كلّ ما يمكن من مواقع، وتفحّصاً من الجو للطرق التي كانت سالكةً للخيل والجمال، واهتممت أيضاً بالمساجد التي تحوّلت من الداخل إلى كنائس، ولكنّها احتفظت بشكلها الخارجي الإسلامي العربي.

في الحقيقة إن شأن تحويل المساجد إلى كنائس في الأندلس سبقه تحويل المسلمين الكنائس لمساجد في البلدان التي دخلوها فاتحين، مثل المسجد الأموي في دمشق، والجامع الكبير في قرطبة الذي أقيم على كنيسةٍ، وهذا ثابتٌ في المراجع إذ أخذ المسلمون الكنيسة ووسعوها وأعطوا النصارى قطعة أرضٍ بدلاً منها. المهم هنا أنّ الأسبان لم يهدموا المساجد بعد أن استردوا بلادهم وألغوا الدين الإسلامي واليهودي فيها، ولكنّهم حوّلوها إلى كنائس.. أي وضعوا فيها كراسي وصوراً للقديسين وتماثيل للعذراء مريم، التي يكنُّ لها الكاثوليك تعظيماً مميزاً. كنت أدرس تاريخ كلّ جامعٍ قبل زيارته، ورغم أنّني غير متدينٍ أبداً ولكنّني بكيت في عشراتٍ من هذه الجوامع واحتضنت أعمدتها، وتذكّرت زيارتي للأقصى مطلع السبعينيات ومشاهدة الإسرائيليين يقومون بحفرياتٍ تحت أرضية الساحة.. وكنت أحياناً أشتعل في داخلي غضباً على الخلافات العربية التي أدت للاقتتال والخيانة ومن ثم للسقوط في الأندلس والتراجع والطرد شبه عراة.. هل وضعنا الآن كعرب، وكفلسطينيين، في الشهر الثاني من عام ٢٠٢٥ أشبه بأوضاع الأندلس في النصف الثاني من التراجع؟ نعم، بالتأكيد.

بدأ الطرد للعرب من مدن ومناطق الشمال؛ فكانوا يتوجهون إلى الإمارات العربية المجاورة جنوبهم؛ فتمرّ الأيام ويتجدّد الاسترداد ثم الطرد والمطاردة والاستيلاء على كلّ ما يملكون. استمرّ الحال في التراجع لعدة قرونٍ حتى تجمّع الباقون في الجنوب الشرقي لشبه القارة الأيبيرية، وهي المنطقة التي تعرف الآن باسم الأندلس، وكانت آخر الإمارات الساقطة هي غرناطة وقصر الحمراء.. تقبّل بعض السكان العرب شروط الإسبان بالتنصر، ولكن سرت الشكوك بأنّهم يفعلون ذلك للبقاء في البلاد وأنهّم مسلمون بالخفاء؛ فصار الجار النصراني يعزم جاره مدعي النصرانية إلى وليمة غداءٍ في شهر رمضان

ويقدّم له لحم الخنزير، وابتكر القساوسة أساليب كثيرةً للاختبار ثم تقرّر في النهاية طرد الجميع إلى شمال أفريقيا، علماً بأنهم احتلوا موانئ مغربيةً مثل سبتة ومليلة حتى لا يستعملها العرب في محاولاتٍ قادمةٍ للعبور للبر الغربي، وبقي الحال هكذا حتى يومنا الحاضر إذ تتبع هذه المدن للدولة الإسبانية.. أمّا جبل طارق فيتبع بريطانيا التي ترفض التخلي عنه نظراً لموقعه الاستراتيجي على البحر المتوسط -وتحديداً- القناة التي تربط البحر بالمحيط الأطلسي.

كلّ الأسس والأساليب التي مورست في الأندلس لطرد العرب وإنهاء الدين الإسلامي، تمارس الآن مع بعض الفوارق.. الفارق الأوّل هو سرعة التنفيذ الآن مقارنةً بالماضي، والفارق الثاني أنّ العدو هو اليهودية والصهيونية مدعمّةٌ بالنصرانية الغربية السياسية مع قليل من التأثير الكنسي، إذ احتل رئيس الولايات المتحدة دور البابا وبالتالي، يأمر بقية دول الغرب بالدعم لإسرائيل الذي يدخل هذه الأيام إلى مرحلة الطرد للسكان إلى الدول المجاورة حيث ستدبّ الخلافات الداخلية وتهيمن إسرائيل على المنطقة ثم تتقدم كلّما توافرت لديها القوى البشرية.. وربّما نفاجأ بتكرار التحالفات العربية مع العدو ضد الجار العربي، وهكذا يتمّ الطرد من الأماكن الخيّرة والتجميع في الأماكن الخاوية. لقد تمّ التراجع من القمة للقعر والشتات في عهد الأندلس خلال سبعة قرون، ونحن الآن نواجه الضغط بعد سبعة عقودٍ فقط، وكلّ يومٍ يزداد الضغط ويتسارع، ولا يوجد قعرٌ.

بعد ٤٨٠ عاماً من الحكم الكاثوليكي متبوعاً بالديكتاتورية وحكم الجنرال فرانكو، قفزت إسبانيا خطواتٍ عملاقةً على أثر انضمامها للسوق ثم الاتحاد الأوروبي، وأدى ذلك إلى تغيير أفكارٍ سياسيةٍ ومجتمعيةٍ سادت في السابق حول العرب والمسلمين.. أصبحوا حياديين تجاه العرب واعترفوا بالصلات التاريخية، ونسبوا الآثار في بلادهم إلى من أسّسها ورمموا

كلّ الأبنية وتحوّلت السياحة الثقافية وملاحقها إلى جزءٍ مهمٍ من مدرات الدخل.. والملاحظ أنّ إسبانيا الحديثة أصبحت قريبةً من العرب وأكثر تفهماً لقضاياهم وتعاطفاً وتأييداً للقضية الفلسطينية، وهذا كلّه من تأثير وتفاعل التغييرات القانونية والسياسية والاقتصادية التي فرضها الانضمام إلى السوق الأوروبية، والتي مهّدت الطريق وقادت البلاد بسرعةٍ إلى الانسجام والتسامح مع الذات والغير إلى التقدم والتفوق.. علينا تذكّر أنّ إسبانيا عانت حرباً أهلية طاحنة استمرت من ١٨ مايو ١٩٣٦ إلى ١ أبريل ١٩٣٩. كانت الأطراف المتحاربة هم الجمهوريون الموالون للجمهورية الإسبانية الثانية ذات الميول اليسارية، في تحالفٍ مع الشيوعيين والنقابيين، الذين يحاربون انقلاب القوميين، وهو تحالفٌ من الملكيين والمحافظين والكاثوليك، بقيادة مجموعةٍ عسكريةٍ، وسرعان ما حقّق الجنرال فرانشيسكو فرانكو دوراً متفوقاً فيها. وبسبب المناخ السياسي الدولي في ذلك الوقت، كانت للحرب جوانبُ متعددةٌ، ومنها الصراع الطبقي والديني ومواجهة القوميات المتعارضة والصراع بين الديكتاتورية العسكرية والديمقراطية الجمهورية، وبين الثورة والثورة المضادة، وبين الفاشية والشيوعية وحدثت تدخلاتٌ ودعمٌ من قبل هتلر وموسوليني للفاشيين، كما انخرطت في القتال كتائبُ يساريةٌ عالميةٌ وانضمت لليساريين.. قُتِل في هذه الحرب من الطرفين حوالي مليوني شخصٍ منهم ١٧٥ ألفاً من المسلحين اليساريين، و١٣٠ ألفاً من المسلحين الفاشيين، والبقية مدنيون من المناطق المسيطر عليها من كلّ طرفٍ. في أواخر الحرب أعلن فرانشيسكو فرانكو انتصاره وإقامة ديكتاتوريته التي دامت حتى وفاته في ٢٠ نوفمبر ١٩٧٥.

بالابتعاد عن الماضي البعيد والعودة للماضي القريب، أقول إنّني قد أنجزت في العامين الأولين على إقامتي في الأندلس أوّل أعمالي

الروائية «راوي قرطبة»، وهو عملٌ كبيرٌ يقترب من ٦٠٠ صفحةٍ، ويدور حول أحداث الأندلس منذ دخولها حتى الاندحار عنها، وقام بطل الرواية بالسرد كونه سليلاً ووريث عائلةٍ من الرواة الذين كانوا يسجّلون الأحداث للأمراء والخلفاء.. هذا الراوي هو صنيعتي وكلّ ما قاله من أحداثٍ وعايشه في رحلاته، أو نقله عن أجداده هي معلوماتٌ موثّقةٌ في أمهات المصادر العربية والأجنبية. لقد حصلت هذه الرواية التي صدرت عن «دار الفارابي» في بيروت عام ٢٠٠٦، على عشرات التقييمات والمراجعات في كبريات الصحف العربية، وقد دفعني ذلك لإقامة موقعٍ إلكتروني كمرجعٍ لتفاصيل الرواية وعن الأندلس، وفيه ما لم يُذكر أيضاً من معلوماتٍ وصورٍ وأفلام فيديو. وبمناسبة ذكر التصوير؛ فقد جمعت كميةً كبيرةً من الأفلام والصور التي التقطها في المواقع ومن الجو أثناء الطيران لتفحّص الجغرافيا والطرق القديمة، وفي النهاية أنتجت ١٥ فيلم فيديو وثائقياً عن مراحل قصة الأندلس، وكلّها متوافرة للمشاهدة في موقع راوي قرطبة على الإنترنت: «راوي قرطبة»، أو "rawicordoba.com" كما يوجد في الموقع كلّ كتبي الأكثر من العشرين ويمكن مطالعتها مباشرة مجاناً.

بعد راوي قرطبة، نشرت عبر دار الفارابي أيضاً كتاب «بومة بربرة» وهي تفاصيل الحياة في قرية بربرة الفلسطينية الجنوبية حسب شروحاتٍ وقصصٍ سمعتها أيام الصبا قبل نكسة ١٩٦٧ وبشكلٍ يوميٍّ من السكان الذي طُردوا من قريتهم وبلدهم وأصبحوا نازحين في مخيم بربرة في رفح بقطاع غزة، وهو المخيم الذي تمّ تدميره أواخر عام ٢٠٢٤ مثل بقية رفح على أثر غزوة أكتوبر ٢٠٢٣.. الجديد الآن (في منتصف فبراير ٢٠٢٥) وأثناء مدة الهدنة وتسليم الأسرى، تمت إقامة ١٥٠ خيمةً جديدةً على رمال رفح الغربية أُطلق عليها مخيم بربرة، والعمل قائمٌ لتوسيع واستكمال المخيم من مدرسةٍ ووحدةٍ

صحيةٍ ومرافق أخرى. (بعد شهرين تمّ تخريب الموقع ونهب محتوياته والعودة الى نقطة الصفر، من قبل لصوص محليين).

أثناء الإقامة في الأندلس كتبت أيضاً الرواية الفلسفية «سياسة في الجنة» وقد منعت من النشر في بعض دول الخليج، وتبعها الرواية التاريخية «فتنة الكرسي». بعد الانتقال من الأندلس واصلت الكتابة والنشر عبر الدار نفسها؛ فجاءت ثلاثية «حافة النور» و«٢٠١٧ أسرى الزمان» و«أحفاد وأجداد» وكتاب «شعب الجبارين».. ومن الكتب اللاحقة: «حكايات أندلسية معاصرة» و«غزة تراجيديا الحرب النفسية» و«ما بين التفكير والتكفير.. العلمانية تواجه الغيبانية» وحول مدة إغلاق العالم بسبب الكورونا جاءت رواية «عبد الله يجادل عزرائيل» ثم كتاب «الأمير والرئيس والعلمانية» و«ماذا لو؟» وهو من الكتب التي نشرتها بعد غزوة أكتوبر ٢٠٢٣، ومثلها المجموعة القصصية القصيرة جداً «قصص من الحياة والتراث والخيال» التي صدرت في يناير ٢٠٢٥، وعرفت لاحقاً أنها وكتاب عبد الله يجادل عزرائيل وكتاب الأمير والرئيس والعلمانية قد مُنعت من المشاركة في معارض كتب الدوحة والسعودية.

أخرق يتحكم في العالم

في اليوم التالي على تولّيه الرئاسة في البيت الأبيض بدأ ترامب بالتهابل، أو ربّما بالتذاكي؛ فأعلن أنّ خليج المكسيك صار اسمه خليج أميركا! وجدد رغبته وعزمه على تحويل كندا إلى الولاية الواحدة والخمسين، وقال إنّه سيحتل بنما ليسيطر على قناتها، وأكّد تصميمه على استملاك جزيرة غرينلاند غصباً عن الدنمارك، وأعلن زيادة الجمارك على الصين وأوروبا. كلّ هذه الدول وغيرها ردّت على ترامب بأقوالٍ وأفعالٍ مشابهةٍ وبالتالي، باشر هو بتمديد الأجل والسماح بالتفاوض بعد أن اتضح له فشل ألاعيبه والمقامرات من دون رصيدٍ. من الردود الظريفة أنّ أكثر من ربع مليون دنماركي وقّعوا على عريضةٍ لشراء كاليفورنيا بمليار دولار وتوزيع مخبوزات دنماركية على هوليود مجاناً مدى الحياة.. والذكي يفهم. الرجل ضراطٌ أجوف لا يستطيع الحرب ويهاجم حلفاءه وجيرانه، بل إنّ دول أوروبا تقترح زيادة قوات الناتو في غرينلاند لحمايتها من أيّ عدوانٍ.. وهذا يعني إفشال أيّ قرارٍ بالقوة قد يفكّر فيه الأبله، كما أنّ طرح هذه الردود يعني طرد أميركا من الناتو أو إلغاء دورها القيادي.. من الجلي أن هذا الرجل وبسبب أقواله وأفعاله المتتالية والمتناقضة مع المسار التقليدي سيحتاج من المراقبين والسياسيين إلى تقييمٍ يوميٍّ متجدّدٍ؛ فلا شيء ثابتٌ ومترابطٌ.

ارتباط أوروبا بواشنطن يعود للحرب العالمية الثانية والتحالف ضد

النازية والفاشية وهزيمتها، ومن ثم التبعية الاقتصادية والسياسية لواشنطن.. كانت موسكو حليفاً ضد النازية والفاشية، لكنّ تثبتها بالشيوعية خلق العداء مع الرأسمالية في الغرب.. هذا الواقع العدائي ورغم تفكك الاتحاد السوفيتي ومنظومة الشرق الشيوعي استمرّ لاحقاً. أتطرق لذلك لتوضيح كيف أضاع الرئيس بوتين الفرصة لنسف العلاقات الأوروبية الغربية مع واشنطن بعد عودة ترامب للحكم وتسلطه على حلفائه.. كان بوسع بوتين التقرب لأوروبا وإيجاد حلٍّ لقضية أوكرانيا، وبالتالي، تقوية العلاقات مع جيرانه في الغرب وإدارة الظهر لواشنطن، لكنّ العكس هو الذي حدث، عاند الغرب وتقرّب لترامب، وبوتين رجل استخبارات كي جي بي سابق.

مع بدايات ظهور بعض اتضاح وانكشاف أسلوب ترامب وعدمية مطالبه، وسوَسَ له نتياهو أن يجرّب ضد العرب؛ فقال إنّه لا بدّ من ترحيل الغزيين إلى مصر والأردن والاستحواذ على قطاع غزة ليحوّله إلى ريفيرا الشرق ومنع الغزيين من العودة، بل إنّه سيأخذ غزة حتى من دون مقابلٍ ماديٍّ.. هكذا خاوة، وعلى مصر والأردن الاستقبال وعلى دول الخليج أن تموّل الهجرة والتوطين وتعمير غزة وإهدائها إليه، هذا طبعاً مع استلام استثمار المليارات خاوة من السعودية. لأكثر من أسبوع لم يصدر ردٌّ عربيٌّ جادٌّ أو هزليٌّ أو إعلانُ ضرورة فحص عقل ترامب أو دعوةٌ لعقد اجتماعٍ أمميٍّ أو محاكمةٍ، أو ترويجُ آراءٍ تفسيريةٍ فاضحةٍ لموقف ترامب ولماذا ينصاع بكلّ سهولةٍ ويسرٍ لنتنياهو!

كلُّ ما أريد إيضاحه بهذا الصدد أنّ ترامب ليس قدراً مكتوباً يجب الرضوخ إليه؛ فكلُّ الذين اعتدى عليهم اعتدوا عليه بالمثل؛ فسكت، والذين لا يخافونه وتجاهلونه لم يحرّك ضدهم ساكناً، أمّا الذين يخافونه ويظنّون أنّه يحميهم من جيرانهم وأبناء عمومتهم؛ فهم -بالطبع- يرتعشون وقد يقدمون له التنازلات. ترامب أخرق بعقلية مقامرٍ، وهو نصابٌ دوليٌّ.. لقد أعلن إفلاسه

ذاتياً ثلاث مراتٍ للتهرب من دفع الضرائب رغم أنّه لم يكن مفلساً كما ظهر كلّ مرةٍ، ولكنّه ماهرٌ في النصب والتحايل على القانون. وهو جاهلٌ رسميٌّ ولم يُلمّ بأيّ ثقافةٍ بشريةٍ أو نظرياتٍ إنسانيةٍ.. وللعلم فجدّه أيضاً كان نصاباً من أصلٍ ألمانيٍّ اشتغل في بناء خطوط سكة الحديد الأميركية وصار يطبخ البغال الميتة فطيس للعمال، ثم افتتح لهم مراكز بغاءٍ، وارتقى إلى بيوت القمار التي أورثها لابنه الذي أورثها بدوره لترامب.. كل شهرة ترامب هذا منذ عقودٍ في التراث الأميركي الحديث أنّه نصابٌ وصاحب بيوت قمارٍ.

الرئيس الأميركي الحالي ترامب لن يدافع عن أيّ نظامٍ عربيٍّ بإرسال قواتٍ لحمايته من جيرانه أو من ثورةٍ داخليةٍ، وهو لن يقدم الدعم المالي لتدعيم الأنظمة، بل يريد الأموال والأراضي لبيعها والتكسب منها، وبالتالي؛ فالأحرى البحث عن مصادر ثباتٍ وتحرّرٍ غير الدعم المالي أو العسكري الأميركي، ترامب لن يدافع عن أيّ حليفٍ بإشراك قواتٍ أميركيةٍ في القتال، هو حتماً سوف يرسل أسلحةً وذخائرَ، وربّما معلوماتٍ استخباريةً للحلفاء مثل إسرائيل مجاناً، وللأصدقاء العرب مقابل المال، ولكنّه لن يحتل أيّاً من جيرانه بالقوة لأنّه لا يريد الإنفاق، ولن يعادي دولاً قويةً مثل الصين أو روسيا أو حتى إيران ويسعى للاستبضاع منهم.. هو لا يمانع في مصّ دماء الفقراء والضعفاء والجبناء.. أمّا حين يقول له أيُّ طرفٍ لا؛ فلن يتمادى وسوف يتنصل من المسؤولية.. هو يقامر من دون رصيدٍ حقيقيٍّ لأنّه لا يريد الخسارة، وبالتالي، هو وعصابته يجعلون من الحبة قبةً لإثارة الذعر عند الخرقاء.

ربّما كان نتنياهو قد أوعز لترامب بطرح هذه الفكرة الجنونية بالاستيلاء على غزة حتى يشتت اهتمام العالم كلّه عن مجريات الأمور في قطاع غزة ونتائج المأساة التي خلقوها بالجند الصهاينة والمرتزقة والتسليح الأميركي والألماني والبريطاني والدعم السياسي؛ ففي طريقه جواً إلى واشنطن تفادى

نتنياهو المرور فوق بعض الدول أو مجالها الجوي وحلّقت طائرته دوماً فوق المياه الدولية، بل تجنّب الأجواء الكندية وذلك خوفاً من اعتقاله بناءً على طلب المحكمة الدولية.. وحين يكتمل حكم المحكمة حول إسرائيل ككل وأنّها ضالعةٌ في جريمة الإبادة، فذلك سينطبق تلقائياً على كلّ من شارك في الحرب ودعمها وفي مقدمتهم واشنطن ولندن وبرلين، ولذلك يتم التشويش من ترامب بخراقةٍ في شأن الاستيلاء على غزة ورغبته في ضم الضفة إلى إسرائيل.. أي ترحيل القضايا بخلق غيرها.

تأييد ترامب لأيٍّ من رغبات إسرائيل يفترض أن لا يقدّم أو يؤخّر في الأمر؛ فحين تريد وتكون إسرائيل قادرةً على فعل شيءٍ؛ فسوف تفعله لأنّها ضامنةٌ موقف واشنطن تماماً، وهي غير مهتمةٍ بالموقف الدولي طالما أنّها مدعّمة من واشنطن وبعض الدول الغربية. لكن آراء ترامب وأفعال إسرائيل تضعنا أمام حقائق أخرى غير التشويش على الجريمة المرتكبة. مثلاً قد تلجأ إسرائيل لترحيلٍ غير قسريٍّ -نظرياً- لسكان قطاع غزة؛ فإذا وجدت دولاً غير مصر والأردن مستعدة لاستقبالهم؛ فقد تنقلهم بالسفن والطائرات إلى هناك، وهنا قد يوافق البعض على الرحيل خصوصاً الذين يئسوا من حكم حماس في الماضي وتدمّر حاضرهم ولا يرون في حكم الحركة المستقبلي للقطاع أيَّ فرصةٍ للخير.. هؤلاء قد يهاجرون إذا كانت الدول المستقبلة محترمةً وتوفر حياةً كريمةً.. السؤال هو هل سيرحل سكان القطاع لو بقيت حماس في السلطة، وأُتيحت فرصةُ هجرةٍ مدعمّةٍ ومنظمةٍ إلى الخارج كما يطالب أقطاب اليمين الصهيوني؟

لا أستبعد أيضاً في أجواء تقبّل ترامب وحبّه لنتنياهو واليمين الإسرائيلي أن تقوم إسرائيل بضرب أهدافٍ في القاهرة أو عمّان، أو بقية العواصم المتصالحة معها مثل الدوحة والمنامة ومراكش ودبي وحتى الرياض.. يمكن لتل أبيب

التذرع بملاحقة خصومٍ لها هناك، ويكون الهدف فرض التهجير على العرب وفرض أماكن الاستقبال.. كلّ القواعد الأميركية والعلاقات الدبلوماسية لن تشفع.. ربّما تشجب واشنطن الفعل وتتفهمه في تصريحٍ واحدٍ.. لقد سرحت طائرات ومخابرات إسرائيل في إيران أياماً من دون أن تصاب بأذىً، وإيران أكبر وأشد استعداداً عسكرياً من أيّ دولةٍ عربيةٍ.

السر في التأييد شبه الدائم من الإدارات الأميركية لإسرائيل يعود الى هيمنة الرأسمال اليهودي الصهيوني على الأسواق المالية وعلى سائل الإعلام الأميركي والغربي، وكون كلّ رئيسٍ أميركيٍّ يطمح إلى دورةٍ ثانيةٍ وبالتالي، يحتاج لدعم رأس المال والإعلام. في حالة الرئيس ترامب هناك شكوكٌ يتمّ كتمها واستغلالها بوجود علاقةٍ لترامب في فضيحة الجنس المنسوبة إلى اليهودي جيفري إبستاين حيث كان يجمع بدعمٍ من غيلين، ابنه ماكسويل اليهودي إمبراطور الإعلام.. يجمعون البنات الصغيرات من سن الرابعة عشرة لإجراء عمليات تدليك مقابل ٢٠٠ دولار.. هذه القضية حقيقيةٌ وصدرت فيها أحكامٌ وتمّ تحديد ثمانين فتاةً ونُشرت أسماء قادةٍ ومشاهير، وقيل إنّ ترامب كان أحدهم.. وكون الموساد كانت تدير هذه الشبكة؛ فهناك صورٌ وأفلامٌ يتمّ بها تسيير الأمور بين نتنياهو وترامب. القضية طويلةٌ ولكنّ عناصرها وتفاصيلها متوافرة على الإنترنت وفي المحاكم الأميركية، وقيل إنّ إبساتين انتحر في السجن أغسطس ٢٠١٩ أثناء فترة رئاسة ترامب الأولى.

بالعودة إلى موضوعنا هناك حقيقةٌ أخرى ظهرت حين اتضح عدمية تهديدات ترامب، وهي حقيقة إثارة قوة حماس آنذاك وقدرتها على المناورة وإظهار القوة، وبالتالي، تنامي رغبتها في البقاء لإدارة قطاع غزة، أي واشنطن تسعى لتعزيز رؤية حماس وفكرها وفرضها على كل الآراء والتوجهات في القطاع وتتفاوض معهم مباشرةً، وكأنّهم يريدون لها الاستقواء والبقاء

والاستمرار حتى يتخذوها مبرراً لمواصلة التدمير.. وهذا العمل في حدّ ذاته والذي مارسته إسرائيل سنواتٍ، يعارض الرؤية العربية التي تريد إضعاف الإخوان المسلمين وأذرعتهم.. إظهار حماس منتصرةً متجددةً متحديةً تعليمات ترامب، إلى جانب التطورات في سوريا قد يؤدّي لتشجيع الإخوان على التحرّك في مصر والأردن وبالتالي، تبريرٌ لاحتلالٍ إسرائيلي، وهما دولتان تقعان ضمن جغرافية إسرائيل الكبرى التي يسعى إليها نتنياهو واليمين الإسرائيلي علناً، ويقول ترامب معهم إنّ مساحة إسرائيل صغيرةٌ تحتاج إلى تكبيرها.

كمواطنٍ صالحٍ عايشت الكثير عن كثبٍ بوسعي رؤية احتمال تطبيق المثال الشعبي «نقسم العرب عربين»؛ فيصبح لدينا عربٌ أقرب إلى العلمانية في دول الخليج، وعربٌ تحت أنظمة إخونجية في بقية الوطن العربي.. أي انقلابٌ للزمن والجغرافيا رأساً على عقب حين تتحوّل الدول التي خلقت الإخوان إلى العلمانية، ويذهب بقية العالم العربي إلى الغيبانية.

بوسعي أيضاً توقّع أنّ الولايات المتحدة سوف تخرج متضررةً جداً بعد سنوات عهد ترامب الأربع، حتى لو مات ترامب أو اختفى فإنّ نائبه أغبى منه وأشد تطرفاً وسيؤدي لنهايةٍ وتدهورٍ أسرع. لقد خسرت الولايات المتحدة سمعتها منذ الأيام الأولى لعهد ترامب الثاني؛ فالعالم الرسمي والشعبي ينظر للإدارة كمجموعة بلطجيةٍ وشبيحةٍ في تصرفاتهم مع الداخل الأميركي ومع الخارج، كذلك العالم يتساءل عن طبيعة الناخب الأميركي لتأييد ترشيح ترامب ثم انتخابه بالفعل، علماً بأنّ بادين ونائبته ليسا أفضل بكثيرٍ وهذا ما يلقي بالمسؤولية على الديمقراطية الأميركية وطرقها ومثالبها التي تؤدي إلى مثل هذه النهايات.. قرارات ترامب وطريقته تحوّله إلى ديكتاتورٍ أفظع من هتلر.

إلى جانب الضرر السياسي والأخلاقي ستعاني الولايات المتحدة اقتصادياً تصرفات وقرارات ترامب بفرض الضرائب والجمارك، وبالتالي، تجاوب العالم بالمثل مما سيؤدي لانغلاقٍ أميركيٍّ على الذات، وبالتالي، حتماً التقليل من حجم الأرباح التي تجنيها أميركا من العالم.. فالولايات المتحدة هي أكبر نظامٍ عالميٍّ مستدينٍ للأموال، ويسدّد فوائد الديون من طباعة أوراق الدولار من دون أيّ رصيدٍ ذهبيٍّ أو قوةٍ اقتصاديةٍ، ولكن فقط بالاعتماد على القوة والتهديد العسكري وطباعة الدولار، وهذا أصلاً هو العامل الأوّل في مسببات التضخم عبر العالم سنةً بعد الأخرى؛ فمجموع التضخم العالمي هو العائد على الاقتصاد الأميركي والذي يُنفق على أميركا. لذلك بالتحديد هدّد ترامب دول العالم التي تفكّر في الاستقلال عن استعمال الدولار الورقي في تعاملاتها.. هدّد مجموعة الدول التي تخطّط لاستبدال الدولار بعملة البريكس مثلاً، وهي الدول التي تريد تبادل بضائعها عبر الدفع بعضها للبعض الآخر بعملاتها الوطنية بدل التعامل بالدولار الأميركي الذي لا علاقة له في أيّ صفقةٍ مثلاً بين السعودية والهند، أو بين الصين وجنوب أفريقيا، ولكن الآن يتعين إجراء الصفقات بالدولار الذي يُطبع بثمن الورق في أميركا! وحين تعادي إدارة ترامب العالم تجارياً، وبالتالي سياسياً فلن يكون هناك مبررٌ لمواصلة استعمال الدولار، وستتبخر الأرباح المجانية للأميركان، وسيشعرون بالخازوق بعد فوات الأوان. ترامب يوهم الأميركان أنّه يستعيد أموالهم عبر وقف المساعدات الخارجية وزيادة الضرائب والجمارك، ولكنّهم سيرون العكس تماماً.

ترامب ومن دون تشاورٍ مع الهيئات المنتخبة في الولايات يمنع المساعدات عن الداخل وعن الخارج، بدايةً من الفقراء والطلاب والجمعيات الخيرية وصولاً للدول الحليفة (ما عدا إسرائيل!)، ويهدف لتجميع مال

الأغنياء العرب!! يعني يريد منع إجمالي ثلاثة مليارات دولار للأردن ومصر -معاً- ويطالب الرياض بـ٦٠٠ مليار، «والأحسن خليهم بليار» حسب رأيه. هو يهدّد دولاً وشعوباً وحكوماتٍ ويقوّض القانون الدولي والأعراف والمؤسسات الأممية، بل فرض عقاب على المحكمة الدولية وأعضائها وأقاربهم.. وتخريب مجلس الأمن والأمم المتحدة والمحاكم الدولية التي لا تنتمي واشنطن إليها، ويتجاهلونها ولكنّهم يفرضون عقاباً على قضاتها.. يعني باختصارٍ وبوضوحٍ هو يستخدم نظام البلطجي الأهبل.

يوهم الشعب الأميركي بجلب مكاسب لهم ليبرطلهم لإعادة انتخابه مجدداً وهو في الواقع يضرّ بالطبقة الوسطى وما دونها كما يتضح الآن للذين انتخبوه. الرجل يتبع فكرة نظام رأسمالي فجٍّ وفظٍّ مفادها إعفاء الأغنياء من الضرائب وتسهيل زيادة أرباحهم، وحينئذ لا بدّ من تساقط أشياء منهم تفيد البقية مثل الوظائف والخدمات! ومع ذلك يظنّ أنّه يبني إمبراطوريةً وأنّه الإمبراطور، لكنّ تصرفاته تهدم الإمبراطورية الأميركية القائمة أصلاً منذ نهاية الحرب العالمية الثانية قبل ثمانية عقودٍ.. يؤسّس لإمبراطوريةٍ أميركيةٍ متغطرسةٍ بدل الإمبراطورية شبه الناعمة، والمهمّ أنّ العالم أو أجزاءً منه لا تتصدى للجنون، وهذا يشبه وضع ألمانيا هتلر الذي أدّى لحربٍ عالميةٍ. أهم علامات نهايات الإمبراطوريات هو عندما يتمّ اختزال الدولة في شخصٍ يتصرف برعونةٍ وحمقٍ طبقاً لهواه.. هذا ما حدث لإمبراطورية الرومان وقبلها الجرمان القوط، وقبلهم الآشوريين والبابليين والفراعنة، وبالطبع لا ننس مصير الإمبراطورية الأموية والعباسية والعثمانية والمجرية والنمساوية والروسية.. كلّها تجارب انتهت من جراء غباء تصرفات الزعيم الدكتاتور.. لكن من المسؤول عن دمار تلك المجتمعات: فقط الدكتاتور المستبد الذي لا يجد من يرده أو يردعه عن غيّه، أمّا الشعب الذي ارتضى الذل والهوان

والخضوع والعبودية؟! فتلك قضيةٌ مهمةٌ يجب أن يناقشها كلُّ شعبٍ ليحاسب نفسه على نتائج قبوله لحكم الطواغيت، ورضاه بدفع ثمن الذل بديلاً عن أن يكافح، ويدفع ثمن الحرية.

الشعب الأميركي، قد يتنبّه لما جناه على ذاته ويصحّح المسار بعد أربع سنواتٍ عبر الانتخابات، لكن يحضرني الآن حال الشعوب العربية مثل الفلسطيني والسوري والسوداني والليبي.. هؤلاء لا مجال لديهم للانتخاب، ولا ينشطون لتغيير الزعامة الضارّة، بينما هناك شعوبٌ تُحكم من دون ديمقراطيةٍ ولكنّها شبعانةٌ وبالتالي، يمكن تفهّم سكوتها. الشعب الفلسطيني الثورجي غير قادرٍ على توحيد قياداته أو ولادة قياداتٍ بديلةٍ وذلك رغم سحب إسرئيل الأرض يومياً من تحت أقدام الشعب والقيادة التعيسة.. وفي حالة سوريا جاءهم المحرّر بلباسٍ دينيٍّ وقد تقبّلوه ولا يريدون النقاش في المستقبل، والشعب نفسه يمارس طوعاً ما كان مفروضاً عليه من نظام الأسد طول أربعة عقود سبقت.. يمجّدون الزعيم من دون أن يطالبهم بذلك، يتقبلون ما يعرضه من دون نقاشٍ، بل الشعب يقسم ذاته إلى فئاتٍ وطوائفَ ضد رغبة وخطاب الزعيم لأنّهم تعودوا ما فُرض عليهم في السابق، كما تعوّد الفلسطيني الاختلافات القاتلة، والسوداني المجاعة والاقتتال.. وتبقى الديمقراطية الانتخابية الدورية هي الطريق الأفضل لإنتاج قياداتٍ وتجربتها وبالطبع تغييرها.

عموماً يحدّد علماء التاريخ مظاهرَ عديدةً متكرّرةً لانهيار الإمبراطوريات والدول القوية، منها:

أولاً، التركيز على أيديولوجيةٍ أو مزيجٍ مثل الدين والاقتصاد والسياسة ولكن بروح الجشع والعنصرية والشوفينية المضادة للغير على أساسٍ دينيٍّ أو عرقيٍّ.

ثانياً: فضل اللهو في التدمير، وخلال المدة الزمنية الرومانية، كان يُطلق على ذلك اسم الانحدار الأخلاقي، وإلى حدٍ بعيدٍ، كان تعبير «خبز وسيرك» للجماهير هو عنوان ذلك العامل الذي يتجلّى الآن في عوامل الإلهاء التي تمارسها وسائل الإعلام بأنواعها، وعلى حساب التعليم والتدريب للحفاظ على مجتمعٍ نشطٍ منتجٍ.

ثالثاً، الفساد الحكومي. يمكن أن يأتي هذا في أشكالٍ عديدةٍ ولكنّهم الذين يسيطرون على الحكومة مهما كان نوعها، يمكن أن تكون ديمقراطيةً بوجود برلمانٍ، أو ملكيةً استبداديةً، أو أيّ مزيجٍ من اتحادٍ سياسيٍّ واقتصاديٍّ للحكم. وبغض النظر عن نوع الحكومة، فإنّ التأثير الإجمالي هو أنّ الأغنياء الأقوياء وشركاءهم يكتسبون المزيد من الثروة والقوة بينما يصبح الفقراء والجهلاء محصورين في دائرةٍ مفرغةٍ. عندما يحدث هذا، فإنّ المحرومين لن يخسروا شيئاً إذا تمردوا بالمعنى الحرفي أو المجازي.

رابعاً، تدهور الصحة العامة. يمكن أن يأتي ذلك في شكل أوبئةٍ وأمراضٍ وإدمانٍ وإساءة استخدام المواد والتسمم المجتمعي غير المقصود. لا يعني ذلك أنّ هذا لا يمكن أن يحدث في العديد من المجتمعات المختلفة، بل هو فشل المجتمع في معالجة المشكلة كما حدث في عهد ترامب الأول مع الكوفيد إذ اتضح أنّ أميركا لم تبلِ جيداً في المواجهة. كما أن التدخين هو أفضل المداخيل للشركات والدولة عبر الضرائب، وهو المضرّ الأول لصحة الشعب، ثم هناك مشاكل الانتشار الواسع النطاق لتعاطي المخدرات وإدمان الأفيون الذي دمّر مثلاً إمبراطورية الصين وتسبب في حروب الأفيون، وصولاً إلى وباء الهيروين الحالي في نصف الكرة الغربي وفشل التصدي للمقاتلين من عصابات المخدرات في أمريكا الوسطى.

يشكّل التوسع الزائد جنباً إلى جنبٍ مع الشوفينية أو حتى القومية

جوانب من العلامة الخامسة للانهيار (أميركا أولاً، طرد الغرباء وترحيل قسري للأجانب، وتغريم الدول تحت الحماية الأميركية، ومساعي ضم غرينلاند وكندا وقناة بنما والاستيلاء على غزة لجمالها.. إلخ). يصبح النظام ممتداً ومتورطاً بشكلٍ مفرطٍ في العالم. في الواقع، إنّهم يسعون جاهدين للهيمنة على جيرانهم وتعزيز الخوف على أعدائهم. يمكننا أن ننظر تاريخياً إلى الإمبراطوريات من آشور إلى بلاد فارس إلى الإمبراطورية العثمانية إلى الاتحاد السوفييتي السابق، كلّهم سلكوا ذلك النهج. وبطبيعة الحال، لا ينبغي لنا أن ننسى بيان القرار الأميركي والهيمنة الأميركية على كوبا وإنشاء مستعمراتها في المحيط الهادئ. هذه الإمبراطورية المتزايدة باستمرارٍ، سواءٌ جسدياً أو اقتصادياً، أثّرت سلباً في السكان المحليين وتضمن باستمرار المزيد والمزيد من أولويات الحكومة للسيطرة على ممتلكاتها. حين تتورط الدولة في حروبٍ لتنفيذ رؤيتها؛ ستذهب كمياتٌ هائلةٌ من الثروة الحكومية نحو السيطرة على الأراضي ودعمها عسكرياً، وتأتي هذه الأموال كلّها على حساب البنية التحتية، وإعاقة البحث والتطوير، والحدّ من تحسين التعليم وتوسيعه، بل إنّ ترامب يريد إغلاق وزارة التعليم!!.

العلامة الأخيرة لانهيار الإمبراطوريات، هي الشعور المستمر بقدوم الحرب الخارجية الدائمة ضد «الدولة القومية» أو الإمبراطورية. بالنسبة للآشوريين، كان الميديون والكلدانيون مع الحيثيين مختلطين يشنون الهجمات، وبالنسبة لروما كانت الغزوات الألمانية والقبائل الجرمانية البربرية. ثم بالنسبة للإمبراطورية الألمانية، وجارتها الإمبراطورية النمساوية المجرية، والإمبراطورية الروسية، والإمبراطورية العثمانية، كانت تناطح بعضها بعضاً؛ فاتقدت الحرب الأولى العظمى، وكانت هي الجاني عليها وأنهت وجودها.

يعيش العالم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية في وضعية الغاب وخنوعٍ

لواشنطن عاصمة الإمبراطورية الناهضة، أو الارتداع خوفاً منها، إذ لا يوجد قوةٌ عظمى قادرةٌ، أو عازمةٌ على التصدي للسياسة والهيمنة الأميركية؛ فحتى في ظلّ مرحلة خبل الرئيس ترامب وإعلانه الحرب التجارية نجد روسيا تتقرب لتحقيق أهدافٍ بالتحايل، والصين صامتةٌ ومكتفيةٌ بالردّ بالمثل، وأوروبا منقسمةٌ كيف تردّ، بل هي لا تملك سياسةً أوروبيةً موحّدةً، ولا غطاءً نووياً، وعاجزةٌ عن التصالح مع روسيا ممّا قد يؤمّنها من مخاوف ومخاطر الحرب ويبعدها عن موقع الحماية الأميركية التي باتت مكلفةً لأوروبا.. الحرب العالمية الثانية أنتجت محافل دوليةً لمنع تكرار الحروب، ومن أجل اللجوء للصلح والتنمية والتعاون السلمي بين الأمم، لكن عملياً كان الظلم قائماً طوال العقود التالية للحرب وحتى الآن، ومتوافقاً على الظلم أيضاً بالمشاركة فيه أو السكوت عليه، والصراعات قامت بين القوى الجديدة بعد الحرب، أي الاتحاد السوفييتي وأميركا ومعسكراتهما، ومساعي كلّ طرفٍ لكسب الآخرين، حتى انهزم السوفييت وانهار اتحادهم؛ فبدأ التجبّر الأميركي يتضح بشكلٍ يوميٍّ، وفي قضايا إنسانيةٍ تحرريةٍ مثل جنوب أفريقيا، وكوبا، وفلسطين وغيرها.

كانت حرب السويس عام ١٩٥٦ علامةً فارقةً في السياسة الدولية؛ فبعد عقدٍ تقريباً من نهاية الحرب العالمية، ولم تكن أوروبا قد وقفت على أقدامها بدعمٍ أميركيٍّ تامٍّ، حاولت فرنسا وبريطانيا استرداد هيبة الإمبراطورية، وهذا ما لم ترتح له الإدارة الأميركية حينذاك كونها تريد الاحتفاظ بصيغة المهيمن الأوحد؛ فوجّهت للبلدين الاستعماريين تحذيراً وأمراً بالانسحاب من سيناء، وشعرت إسرائيل الحليف الثالث في العدوان الثلاثي بوزن فرنسا وبريطانيا الحقيقي؛ فتوجّهت إلى واشنطن بكلّ ثقل اللوبي والحيل والمال والإعلام للتأثير في سياسة الولايات المتحدة.

قد يبدو لوهلةٍ أنني أبتعد عن محاور هذا الكتاب، لكنّنا في الواقع نتحدث في الصميم لتبيان السياق التاريخي -خصوصاً- وأنّ العلاقة الإسرائيلية الأميركية لم تكن دائماً جيدةً دوماً وبالتالي فالعلاقة قابلةٌ للتغيّر.. لقد حذّر بعض رؤساء أميركا من احتمالات سيطرة اليهود حتى قبل تحذير النازيين، وأثناء وبعيد الحرب العالمية الثانية رفضت الولايات المتحدة وبريطانيا استقبال المهاجرين اليهود من أوروبا الشرقية وألمانيا.. وفي مطلع الخمسينيات ظهرت المكارثية في الولايات المتحدة، إذ تمّ التسلّط والترهيب والتخوين لشخصياتٍ إعلاميةٍ وسياسيةٍ واقتصاديةٍ، ووجِّهت لهم تهم الشيوعية ووصفوا بالحمر ولم يكونوا كذلك، ولكنّ الكثير منهم كانوا يهوداً، واضطر ممثلو الوسط الفني اليهودي في هوليود إلى تغيير أسمائهم اليهودية إلى أخرى مسيحيةٍ!! ينسب هذا الاتجاه إلى عضوٍ بمجلس الشيوخ الأمريكي اسمه جوزيف مكارثي الذي كان رئيساً لإحدى اللجان الفرعية بالمجلس واتهم عدداً من موظفي الحكومة وبخاصةٍ وزارة الخارجية، وقاد إلى حبس بعضهم بتهمة أنّهم شيوعيون يعملون لمصلحة الاتحاد السوفيتي. وقد تبيّن فيما بعد أن معظم اتهاماته كانت على غير أساسٍ. وأصدر المجلس في عام ١٩٥٤ قراراً بتوجيه اللوم عليه. ويستخدم هذا المصطلح حتى الآن للتعبير عن الإرهاب الثقافي الموجه ضدّ المثقفين. بدأت المكارثية بقائمةٍ فيها ٢٠٥ أسماء قيل إنّهم شيوعيون وجواسيس في الخارجية الأميركية ثم امتدت المكارثية لجميع قطاعات المجتمع الأمريكي، وراح ضحيتها أكثر من مائتي شخصٍ تمّ الزجّ بهم في السجون، فضلاً عمّا يزيد على ١٠ آلاف تمّ طردهم من وظائفهم والتنكيل بهم وفق تهمٍ ملفقةٍ، ومن هؤلاء مارتن لوثر كينغ وألبرت أينشتاين وتشارلي تشابلن.. كما تضمنت قائمة هوليود كلّاً من: جريجوري بيك، وهمفرى بوجارت، وفرانك سيناترا، وجيمس ستيوارت،

وجين كيلي، وريتا هيوارث، وأفا جاردنر، وداني كاي، فضلاً عن كُتّابٍ بوزن: بيرتولد بريخت، وآرثر ميلر، وغيرهم الكثير من العلماء والمثقفين والممثلين.

حدث هذا قبل أكثر من ٧٠ عاماً، عندما استيقظت الولايات المتحدة فجأةً على سؤالٍ مصيري، سيصبح الأكثر رعباً لسنواتٍ لاحقةٍ، صارت تطرحه على كلّ مواطنٍ أو مقيمٍ فيها: «هل أنت شيوعيٌّ، أو كنت شيوعياً يوماً ما؟». حينذاك شملت الاتهامات والإرهاب اليهود وغيرهم، وشكّل هذا بعد حرب السويس درساً قاسياً للحركة الصهيونية لإتقان عملها وهيمنتها وسيطرتها على الدولة الزعيمة في العالم، وذلك عبر السيطرة على الإعلام ومراكز المال حتى لا تخذلهم واشنطن مرةً أخرى. هكذا أصبح العربي ثم المسلم هو الخطر سواءٌ عبر اتهاماتٍ مباشرةٍ، أو مدبرةٍ، أو بترويجٍ متلاحقٍ عبر الأفلام والإعلام، حتى جاء يوم السابع من أكتوبر ٢٠٢٣ ليتكرّر الأمر المكارثي نفسه مجدداً، مع سؤالٍ يبدو أنّه سيتربع على قائمة الأكثر رعباً في أمريكا وأوروبا طوال المدة المقبلة، وهو: «هل تدين حماس؟»، ليس مهماً أن تقصف إسرائيل غزة بشكلٍ أعمى، وتقتل عشرات آلاف الأطفال والأبرياء؛ فالأهم هو «هل تدين حماس؟».

كيف يمكن لمن ادعوا العداء للنازية بعد هزيمتها تأييد النازية الصهيونية الأشد ضراوةً وعلنيةً وظلماً وافتراساً للقانون الدولي.. لنتصوّر أنّ الوزير الإسرائيلي سموتيرش يقول علناً إنّه يريد أخذ غزة لأنّ أصحابها ليسوا غزيين، ولكنّهم من حيفا ويافا وعكا، ومع ذلك يريد طردهم مجدداً كما في المرة الأولى، ولكن الآن خارج جغرافية فلسطين.. ظلمٌ وظلامٌ وانحيازٌ كهذا يُقال في العلن، ولا يوجد من يستنتج ويطالب بتطبيق القرار ١٩٤ من الأمم المتحدة ودعمه، وهو القرار الذي يقرّ بحقّ اللاجئين الفلسطينيين بالعودة إلى موطنهم وبالتعويض عمّا عانوا من ظلمٍ وخسائرَ.. لا يوجد من يسمع بل أصبحت

الأمم المتحدة تُتهم بأنّها معادية للسامية ولإسرائيل!!

بدعمٍ أميركيٍّ ارتكبت إسرائيل، منذ ٧ أكتوبر ٢٠٢٣ وحتى مطلع فبراير ٢٠٢٥، إبادةً جماعيةً بغزة، خلّفت أكثر من ١٦٠ ألف شهيدٍ وجريحٍ من الفلسطينيين، معظمهم أطفالٌ ونساءٌ، وما يزيد على ١٤ ألف مفقودٍ.. وتجدّدت المقتلة بعد نقض إسرائيل للهدنة، وأضافت للقتل بالقنابل القتل المتواصل بالتجويع أمام عالمٍ يرى ويسمع ويواصل علاقاته مع هذه النازية الجديدة. عالمٌ جبانٌ ومجنونٌ وخانعٌ ومشاركٌ عبر السكوت منذ النكبة الأولى عام ١٩٤٨ وحتى الآن.. وحين تُعقد مؤتمراتٌ إسلاميةٌ أو عربيةٌ أو أفريقيةٌ أو عالمُ ثالثيةٍ؛ فالقرار اللفظي هو تأييد حق إقامة دولةٍ فلسطينيةٍ وحلّ الدولتين، ولكن لا توجد أيّ خطوةٍ عمليةٍ واحدةٍ مثل إعلان مقاطعةٍ أو سحب اعترافٍ.. وحين تتقدّم دولةٌ مثل جنوب أفريقيا لأروقة المحاكم الدولية تكثر إجراءات التعطيل والتهديد وتنفيس القرارات.

علينا كفلسطينيين أن لا ننسى هذا مهما طال الزمن وتغيّر.

مقابر الذكريات

كمواطنٍ صالحٍ أقول بصراحةٍ ووضوحٍ وكما ثبت؛ إنّنا نحارب إسرائيل وأميركا أولاً، والغرب ثانياً، وحين تطالب بعض الدول الغربية بحلّ الدولتين المقبول عربياً وفلسطينياً؛ فهي تذر الرماد في عيون العرب وفي عيون المهتمين في بلادهم، لأنّهم لا يمارسون أيّ ضغطٍ عمليٍّ سواءٌ أكان دبلوماسياً أم اقتصادياً أم قانونياً لوقف الإبادة أو لفرض الحلّ السلمي، ناهيك عن معاقبة الفاعل.. بل هناك دولٌ مثل بريطانيا وألمانيا (ثاني دولة بعد أميركا تورّد السلاح لإسرائيل) تؤيّد حلّ الدولتين وترسل القنابل لإسرائيل والمستعملة يومياً وعلناً، وبدونها لتوقفت قدرة إسرائيل على الاستمرار في الإبادة.. ولا يفيدنا كشعبٍ فلسطينيٍّ تصديق شعارات النصر ونحن في أشد حالات الخسارة.. جماعتنا في حماس والمطبلون معهم يعتبرون الفشل المؤقت لأهداف الخصوم النهائية يعادل النصر الذاتي.. لكن بصراحةٍ؛ «فنصرنا» (الهدنة اليتيمة) هذه المرة جاء لانعدام فرص الانسحاب الجماهيري بفضل مصر، وجاء بفعل وضغط ترامب الذي قبض وعوداً من السعودية ودول الخليج لضرورة الهدنة ثم وقف القتال، وخروج حماس من القطاع حسب الإجماع العربي تقريباً.

إسرائيل قائمةٌ على تعزيز سرديةٍ كاذبةٍ مفادها أنّها صغيرةٌ وضعيفةٌ وتتعرض للعدوان الدائم في محيطٍ معادٍ، وبالتالي، لا يضيرها نشراً وتأييداً

أنّها انهزمت ولم تحقّق أهداف القتال الذي تقول إنّه يهدف لحمايتها؛ فغرضها هو مواصلة القتال أو العودة إليه، أو عمل كلّ شيءٍ لتطفيش السكان من قطاع غزة والضفة ثم لاحقاً تطفيش عرب الـ١٩٤٨، وهي تتقدّم في هذا الطريق منذ النكبة الأولى وتسير الآن بتسارعٍ إلى هدفها، ولا يضيرها تمثيل دور المهزوم، بل هي تفضّله. أود هنا التنويه والتأكيد أن كل ما كان وما سيأتي من قتل وتجويع وحرب نفسية وإغراءات هدفها تحقيق آمال الصهيونية بتفريغ الأرض من أصحابها، ولا أستغرب لو كانت كل مسرحية الطوفان وما تبعها للآن وما سيلحق، متفقا عليه أو مخطط له لإنجاز هدف الترحيل سواء بعلم أو بجهل من حماس... والأيام ستثبت إن لم تكن قد أثبتت.

لنرى بالأرقام من المنتصر، نحن أم هم: عشية اتفاق وقف إطلاق النار الذي لم ينهِ الحرب على غزة، يبرز بالأرقام حتى أواسط يناير ٢٠٢٥ فقط تفاصيل هذه الحرب التي وصفتها هيئاتٌ حقوقيةٌ دوليةٌ بأنّها حرب إبادةٍ. ١٢٠٠ إسرائيلي لقوا مصرعهم، بينما أُسِر ٢٥٠ ونقلوا إلى قطاع غزة بعد الهجوم الذي نفّذته حماس في السابع من أكتوبر ٢٠٢٣. العملية العسكرية الإسرائيلية التي تبعت حتى تاريخ وقف إطلاق النار أدّت إلى تدمير جزءٍ كبيرٍ من القطاع بالكامل.. بل أصبح القطاع غير قابلٍ لسكن البشر.. تؤكد الإحصائيات مقتل أكثر من ٤٦ ألفاً و٧٨٨ في قطاع غزة، ربعهم من الأطفال، وأكثر من ١١٠ آلاف و٤٥٣ شخصاً أُصيبوا بجراحٍ متفاوتة الخطورة، وعشرات آلاف المفقودين سواءٌ تحت الأنقاض أو تمّ خطفهم من القوات الإسرائيلية أثناء الهجوم على القطاع.. أكثر من ١,٩ مليون من الغزيين أُجبروا على النزوح مراتٍ عديدةٍ داخل مناطق قطاع غزة، وهم يعيشون للآن وفي المستقبل المنظور كلاجئين في مخيماتٍ عدةٍ ويواجهون أزمة مجاعةٍ دون الحديث عن توابع الوضع من كوارث صحيةٍ وتعليميةٍ ونفسيةٍ.

حسب مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية إن ٥٠٪ فقط من المستشفيات في القطاع «تعمل بشكلٍ جزئيٍّ»، وإن أكثر من ١٢ ألف مريضٍ في حاجةٍ عاجلةٍ إلى الخروج من غزة لأجل العلاج، حيث إن العديد منهم يعانون حروقاً شديدةٍ، ومضاعفات بتر أطرافهم نتيجة القصف الإسرائيلي. الجيش الإسرائيلي يقول إنّه قصف أكثر من ٤٠ ألف هدفٍ في غزة، دون أن يحدّدها، متهماً حركة حماس طبعاً باستخدام سكان غزة دروعاً بشريةٍ. وتقول إسرائيل إنّ أكثر من ٨٢٠٠ صاروخ أُطلق عليها من داخل غزة، و١٢ ألفاً من لبنان.. طبعاً لا حديث عن خسائر إسرائيل من جراء هذه الصواريخ! لكنّ عدد الغزيين الذين يواجهون «مجاعةً كارثيةً» تجاوز ٣٤٥ ألفاً، ونسبة من يواجهون أزمة غذاءٍ في القطاع تتجاوز ٩٦ ٪. وعدد عمال الإغاثة الذين قُتلوا وصل إلى ٣٧١ بحسب المصادر الأممية، كما قُتل ما لا يقلّ عن ١٦٠ صحفياً داخل القطاع المحاصر، بحسب لجنة حماية الصحفيين، وهي منظمةٌ غيرُ حكوميةٍ.

تجاوز عدد القنابل التي يبلغ وزنها ألفي رطلٍ (حوالي طن) والتي أرسلتها الولايات المتحدة إلى إسرائيل بين ٧ أكتوبر ٢٠٢٣ ويونيو ٢٠٢٤ حاجز ١٠ آلاف قنبلةٍ، وذلك إلى جانب آلاف الصواريخ من طراز هيلفاير، والتي تصل تباعاً عبر جسرٍ جويٍّ وآخر بحريٍّ، وأعاد الرئيس ترامب تأكيداً أنّه لن يوقف إرسالها لإسرائيل.

العالم الغربي شريكٌ مباشرٌ في حرب التطهير العرقي وتهجير الفلسطينيين من بلادهم، أولاً تهجير سكان قطاع غزة، ثم تهجير سكان مخيمات الضفة ثم قرى الضفة وريفها ليتبعه تهجير سكان المدن. الحرب التي شنّها الغرب مع إسرائيل على قطاع غزة أبعد ما تكون عن تصيد رجال حركة حماس وتدمير بنيتها، ولكنّها تهدف لتدمير القطاع وتخريبه ثم الاستيلاء عليه من دون

سكانه، وتنفيذ هذه الخطة سيبدأ بعد تعطيل أيّ حلٍّ وتعطيل إعادة البناء، ثم فتح مجال الهجرة الطوعية عبر موانئ إسرائيليةٍ إلى بلدانٍ ترغب في تفريغ وتوزيع واستقبال سكان القطاع.. فهل انتصرنا بالفعل كما يقول المطبلاتية؟ وهل يمكن أو يعقل أن يُعاد البناء للقطاع والذي يحتاج لدعم الغرب والعرب الذين نهاجمهم ليل نهار لأنهم لم يتورطوا مع حماس، والذين يرفضون علناً تمويل إعادة الإعمار مع وجود حماس؟

سأعرض فيما يلي حجم الدعم العسكري الغربي لإسرائيل من أجل استنتاج أنّها مشروعٌ غربيٌّ استعماريٌّ، ودون هذا الدعم إلى جانب الدعم الاقتصادي والدبلوماسي لما تسنى للإسرائيليين الصمود والبقاء قبل أو بعد السابع من أكتوبر. أظهر رصد وتحليل البيانات الملاحية تسجيل ما يزيد على ٦ آلاف رحلةٍ عسكريةٍ في المنطقة مرتبطةٍ بالدول الغربية خلال عامٍ واحدٍ من الحرب الإسرائيلية على غزة، مع إقامة جسرٍ جويٍّ دائمٍ بدعمٍ غربيٍّ هائلٍ لإسناد إسرائيل في قصف القطاع المُحاصر بأطنانٍ من القنابل.. ولا تزال هذه الدول تسارع بتقديم الدعم الاستخباري واللوجستي، فضلاً عن إرسال شحنات المساعدات العسكرية لمساندة إسرائيل في حرب الإبادة التي تشنّها على سكان القطاع.. حتى حين تخل إسرائيل مباشرة ببنود الهدنة وتمنع دخول المساعدات إلى القطاع، وتعود إلى المقتلة؛ فلا يتأثّر الإمداد العسكري الغربي لإسرائيل.

ظهر من خلال تحليل البيانات الملاحية أنّ نحو ١٩٠٠ رحلة نقلٍ عسكري، توجّهت أكثر من ٧٠٪ منها إلى القواعد العسكرية في قبرص واليونان وإيطاليا، والتي استُخدمت منذ ٧ أكتوبر ٢٠٢٣ كقواعد دعمٍ متقدمٍ لإسرائيل، بينما توجّهت البقية إلى إسرائيل مباشرةً. وتمّ تتبع أكثر من ١٦٠٠ رحلة استطلاعٍ جويٍّ غربيةٍ نفّذت منها إسرائيل نحو ٢٠ ٪ فقط، بالإضافة لتوثيق

١٨٠٠ رحلةٍ لتزويد الطائرات بالوقود في سماء المنطقة. وتظهر البيانات تقدم بريطانيا على جميع الدول بأكثر من ٤٧ ٪ من رحلات الاستطلاع. وكشفت البيانات أنّ القوات الجوية البريطانية استعانت بطائرةٍ من طراز «شادو آر١ » في غالبية الرحلات والتي لديها مجموعةٌ متقدمةٌ من أجهزة المراقبة والاستشعار تمكّنها من تنفيذ المهام الاستخبارية وفرض مراقبةٍ مستمرةٍ للتحركات على الأرض وتتبع المركبات وتنفيذ مهام تحديد الأهداف. ورُصِد لهذا النوع من الطائرات نحو ٦٤٥ رحلةٍ خلال تلك الفترة، بينما استعانت بطائرة «بي- ٨» في ٦ رحلات استطلاع على الأقل، وانطلقت جميع تلك الرحلات بشكلٍ أساسيٍّ من قبرص وإسرائيل واليونان. كما استخدمت بريطانيا أيضاً طائراتها الحربية المقاتلة من نوع «تايفون» في أكثر من ١٣٥ رحلةً على الأقل في سماء إسرائيل، وقد تمكّنت من اعتراض عدّة مسيراتٍ هجوميةٍ إيرانيةٍ.

أمّا عن إسرائيل، فقد شاركت بدورها مستخدمةً عدداً من الطائرات، أهمّها الطائرة «أورون» التي بحسب الرصد قامت بـ١٦٧ طلعةً جويةً خلال عام الحرب بعد أن دخلت الخدمة بشكلٍ كاملٍ لأوّل مرةٍ عقب عملية «طوفان الأقصى». وتُعد «أورون» من أكبر القطع الجوية الإسرائيلية، ويمكنها اكتشاف آلاف الأهداف في ثوانٍ على مساحةٍ تمتد لآلاف الكيلومترات، بحسب رئيس قسم البحث والتطوير العسكري الإسرائيلي. كما استخدمت إسرائيل طائرتين -على الأقل- من طراز «إيتام» للإنذار المبكر، وتعمل الطائرة ضمن السرب نفسه في أكثر من ٥٨ رحلةً مرصودةً، بالإضافة لطائرتين من طراز «شافيت» بمعدل ١٦ رحلةً على الأقل. كما استخدمت طائرتين من طراز «بيتش بي ٢٠٠ تي زوفيت ٥» في ٤٥ رحلةً، بينما كان لطائرة «بيتش كرافت بي ٢٠٠ تي زوفيت ٣» رصيد ٣٥ رحلةً.

بالنسبة للولايات المتحدة فقد استخدمت بشكلٍ مكثّفٍ طائرتها الضخمة

المخصصة للاستطلاع البحري من طراز «بوسيدن بي- ٨ أي» و«ماريتايم باترول إيركرافت» في أكثر من ١٦٧ رحلةَ استطلاعٍ. كما استخدمت طائرات «بوينغ آر سي- ١٣٥» و«لوكهيد إي بي- ٣» في أكثر من ٩٠ رحلةَ استطلاعٍ، في حين ظهرت المسيرة من طراز «إم كيو- ٤ سي ترايتون» التي يديرها سلاح البحرية في أكثر من ٧٣ رحلةً، وفقاً للبيانات الملاحية المرصودة. كما استعانت الولايات المتحدة بطائرة الإنذار المبكر من طراز «بوينغ إي- ٣» سينتري المزودة بمنصةٍ متكاملةٍ لإدارة المعركة والتحكم فيها، في ١٦ رحلةً.

إلى جانب طائرات الاستطلاع تمّ رصد قرابة ١٨٠٠ رحلةٍ تزود بالوقود في سماء المنطقة، وتوضّح البيانات التحليلية قيام إسرائيل بما يصل إلى ٩٥٠ رحلةً تليها القوات الجوية البريطانية بما يزيد على ٥٦٠ رحلةَ إمدادٍ جويٍّ بالوقود. ويكشف تحليل البيانات الذي تمّ رصده أنّ قرابة ٣٦٥ رحلةَ نقلٍ عسكريٍّ توجّهت إلى إسرائيل بشكلٍ مباشرٍ، بالإضافة إلى ٨٤٠ رحلةً إلى القواعد العسكرية في قبرص واليونان وإيطاليا، والتي تُستخدم بشكلٍ مكثفٍ لدعم الاحتلال، بإجمالي يتجاوز ١٢٠٠ رحلة شحنٍ عسكريٍّ.

أسهمت القوات الجوية الألمانية هي الأخرى بما يفوق ٨٠ رحلةَ نقلٍ عسكريٍّ، انطلق معظمها من قاعدة «ونزتروف» الجوية، بينما انطلق نحو ٢٥ ٪ من رحلات النقل العسكري الأميركية من قاعدة «رامشتاين» التابعة للقوات الأميركية، والموجودة جنوب غربي ألمانيا. ويظهر أيضاً أن ١١ رحلةَ نقلٍ عسكريٍّ إسرائيليةً على الأقل أقلعت من ألمانيا إلى إسرائيل.

بينما اعتمدت القوات الجوية البريطانية في رحلاتها للنقل العسكري، التي تجاوزت ٣٥٠ رحلةً، على قاعدة «برايز نورتون» في أوكسفورد شاير (شمال غربي لندن) بينما اعتمدت في رحلاتها للاستطلاع والتزوّد بالوقود بشكلٍ رئيسٍ على قاعدة «أكروتيري» البريطانية في قبرص. واعتمدت

الولايات المتحدة بشكلٍ رئيسٍ في رحلاتها على قاعدة «سودا» بجزيرة كريت اليونانية، كما استخدمت أيضاً قاعدة «بافوس» الجوية في قبرص، وقاعدة «سيجونيلا» الإيطالية التي تحوي محطةً تابعةً للقوات الجوية والبحرية الأميركية وتقع شرق صقلية بإيطاليا.. بمعنى أنّ الدول الغربية في حوض البحر المتوسط والأخرى وسط وشمال أوروبا اعتبرت غزة ساحة حربٍ وسخّرت قواعدها المحلية والخارجية لدعم إسرائيل، أي أنّ التنسيق الإداري العسكري والاستخباري كان على أشدّه وكأنّه حلفٌ عسكريٌّ.. كلّ هذه التقنية كانت تسهم في الرصد والإمداد والقتل، وكانت حتماً على درايةٍ بما يتمّ تدميره من بنيةٍ تحتيةٍ ومستشفياتٍ وجامعاتٍ وقتلٍ للبشر العزّل بأعدادٍ هائلةٍ.. كلّ شيءٍ تمّ بدعمهم ورؤيتهم ومشاركتهم وريائهم.

تستخدم إسرائيل والدول الغربية بالإضافة لتلك الطائرات أسطولاً ضخماً متنوعاً من المسيّرات التي تنفّذ رحلاتٍ مختلفة المهام لا تغادر سماء غزة ولبنان، ولا يمكن رصدها من أدوات التتبع الملاحي مفتوحة المصدر.. لذلك تظلّ الأعداد المرصودة أقل من رحلات الاستطلاع الفعلية التي لا تغادر سماء فلسطين المحتلة ولبنان، ولكنّها تدلّ على حجم تلك الرحلات غير المسبوق في التاريخ على منطقةٍ جغرافيةٍ محدودةٍ وعزلاءَ تقنياً.. إذاً لا يغرنّك الحديث الغربي عن حلّ دولتين وضرورة إدخال المساعدات إلى غزة؛ فالمهمّ هو مواصلة الدعم والمشاركة الفعلية في الإبادة حتى بعد أن أصبحت المقاومة لا تضرب إلّا بعض الأهداف المعتدية عليها في أرضها؛ فطوال شهور الحرب لم تقم حركة حماس أو غيرها بأيّة أعمالٍ إرهابيةٍ ضد مدنيين إسرائيليين أو أميركان أو ألمان أو إنجليز أو غيرهم ممن يدمّرون قطاع غزة ويقتلون سكانها.

الولايات المتحدة الأمريكية وبفارقٍ كبيرٍ هي أكبر مورّد أسلحةٍ لإسرائيل

بنسبة ٦٩٪ من واردات السلاح إلى جانب المساعدات المالية وتمويل البرامج العسكرية وأنظمة الدفاع والتطوير المشترك للأنظمة العسكرية المختلفة.. وألمانيا هي ثاني أكبر مصدرٍ للأسلحة لإسرائيل وتمثل ٣٠٪ من واردات الاحتلال من السلاح، على شكل الذخيرة والمركبات البرية، والتقنية العسكرية، وتطوير الأسلحة، وصيانتها.. وتليها بريطانيا كثالث دولةٍ مصدّرةٍ للأسلحة، وتليها فرنسا وإيطاليا التي تصدّر الطائرات المروحية العسكرية، والمدفعية البحرية، والذخائر وتسمح باستخدام قواعدها الجوية، هذا إلى جانب دول جزر البحر الأبيض سابقة الذكر.. كلّ هؤلاء شاركوا في تحويل قطاع غزة إلى مقبرةٍ للذكريات، وأسهموا مباشرةً في تحويل سكان القطاع من فئةٍ متعلمةٍ متنورةٍ متمدنةٍ إلى جماعاتٍ بشريةٍ تعاني الجوع والعطش والمرض والبرد واستبدال البيوت والمساكن بالخيام الممزقة والعراء التام، من منطقةٍ تزرع وتصدّر الورود والفراولة والفواكه النادرة إلى منطقةٍ لا تجد حتى العشب لتأكله والماء الصالح للشرب.

حتى نستوعب ما يجري علينا تذكّر أنّ كلَّ أولئك مع جيش إسرائيل يقاتلون رجال المقاومة الإسلامية في الظاهر ولكن هدفهم قتل السكان وتشريدهم وإلغاء وجودهم.. كلّ فصائل المقاومة الفلسطينية الإسلامية في فلسطين المحتلة -وتحديداً- في قطاع غزة يراوح تعدادهم بين ١٥ إلى ٤٠ ألف مقاتلٍ قبل بداية الحرب وتقول إسرائيل إنّها قتلت معظمهم! أمّا تسليحهم كما شاهد العالم طوال السنوات وأثناء الحرب الجارية فهي: بنادق كلاشنيكوف، ورشاش بي كي، وبندقية قنص طراز غول، وقذائف كورنت موجهة بالسلك، وقاذف آر بي جي، وقذائف الياسين، ونوع بدائي من المسيّرات وصواريخ محلية الصنع ولم تقتل أيَّ إسرائيليٍّ طوال المواجهة. هذه هي القوات التي يدّعي العالم الغربي بتسخير مقدراته لمواجهتها.

في خضم الخلافات بين الرئيس ترامب ونظيره الأوكراني مطلع مارس ٢٠٢٥ حول كمية الدعم الأميركي ومطالبة ترامب باسترداد الأموال ضمن اتفاقية استغلال المعادن النادرة في أوكرانيا، اتضح أنّ حجم الدعم الأميركي طوال سنتي الحرب ضد روسيا بلغ ٧٧ مليار دولار منها ٤٧ مليار دعم عسكري، لكنّ ترامب لا يطالب إسرائيل بوقف الحرب والإبادة على غرار مطالبته لأوكرانيا، ولا يريد استرداد الدعم من إسرائيل أو وقف تدفق المال إليها على الرغم من الموقف الأممي والرأي العام الذي يؤكّد عدوانية إسرائيل وعدم تعرضها لأيّ خطرٍ حقيقيٍّ.

قال الباحثون بهذا الصدد إنّه على عكس المساعدات العسكرية الأميركية الموثّقة علناً لأوكرانيا، كان من المستحيل الحصول على التفاصيل الكاملة لما شحنته الولايات المتحدة لإسرائيل منذ طوفان الأقصى، وبالتالي، فإنّ مبلغ ١٧,٩ مليار دولار لهذا العام (٢٠٢٤) هو رقمٌ جزئيٌّ.. أمّا المبلغ الإجمالي منذ ١٩٥٩ فهو ٢٥١ مليار دولار، واتهموا إدارة بايدن ببذل جهودٍ لإخفاء كميات المساعدات الكاملة وأنواع الأنظمة من خلال المناورة البيروقراطية. وعزّزت إدارة بايدن قوتها العسكرية في المنطقة من أجل مواجهة الحوثي بحوالي ٥ مليارات دولار، وبالتالي، زيادة التكلفة المالية منذ بدء الحرب، بهدف ردع أيّ هجماتٍ على القوات الإسرائيلية والأميركية والردّ عليها.. ولم يعلن الرئيس ترامب ما يفيد بعزمه تخفيف النفقات إلى إسرائيل وهو الذي يأمر بوقف الدعم الداخلي والخارجي وطرد الموظفين في بلاده.

كان لدى الولايات المتحدة ٣٤ ألف جنديٍّ في الشرق الأوسط يوم السابع من أكتوبر ٢٠٢٣، وارتفع هذا العدد إلى حوالي ٥٠ ألفاً في أغسطس٢٠٢٤، عندما كانت حاملتا طائرات في المنطقة، بهدف تثبيط الانتقام بعد اغتيال إسرائيل رئيس المكتب السياسي لحماس إسماعيل هنية

في إيران. وبلغ مجموع الجنود في مارس ٢٠٢٥ حوالي ٤٣ ألفاً. في حين أنّ الدعم العسكري المباشر من الدول الأوروبية لإسرائيل ليس بحجم الدعم الأميركي نفسه، فإنّ أوروبا تلعب دوراً مهماً في تقديم دعمٍ ماليٍّ ودبلوماسيٍّ وإنسانيٍّ لدولة الاحتلال. ويقدّم بعض الدول الأوروبية، مثل ألمانيا وفرنسا، مساعداتٍ ماليةً وتقنيةً لإسرائيل في إطار شراكاتٍ ثنائيةٍ تشمل التعاون في مجالات الأمن والتقنية.

تعتبر ألمانيا على وجه الخصوص أحد أهم الحلفاء الأوروبيين لإسرائيل، حيث قدّمت في السنوات الأخيرة دعماً كبيراً يشمل الغواصات المتقدّمة ومساعداتٍ ماليةً في تطوير القدرات الدفاعية.. المبرّر الألماني التاريخي للدعم هو التعويض والتكفير عن أفعال النازي باليهود، ولا يهمهم إذا كانوا بذلك الدعم يخلقون نازياً جديداً ويحوّلون الفلسطيني إلى يهوديٍّ ألمانيٍّ قديمٍ.. بالإضافة إلى ذلك، تسهم الشركات الأوروبية في بيع معداتٍ تكنولوجيةٍ وصناعيةٍ لإسرائيل، ممّا يستخدم في دعم الاقتصاد الإسرائيلي خلال الحروب. تسهم هذه المساعدات الاقتصادية والمالية بشكلٍ كبيرٍ في تعزيز القدرات الدفاعية الإسرائيلية وتخفيف الأعباء المالية للحرب. وتغطي المساعدات جزءاً كبيراً من تكاليف العمليات العسكرية، بما في ذلك صيانة الأنظمة الدفاعية المتقدمة مثل «القبة الحديدية».

فضلاً عن ذلك، تسهم المساعدات في تقديم دعمٍ ماليٍّ للاقتصاد الإسرائيلي بشكلٍ غير مباشرٍ، من خلال تعزيز الصناعات العسكرية، التي تُعتبر من أكبر قطاعات التصدير في إسرائيل. وتُعتبر شركات الصناعات الدفاعية الإسرائيلية، مثل شركة إلبيت سيستمز ورفائيل، من أبرز المستفيدين من هذه المساعدات، حيث تعتمد بشكلٍ كبيرٍ على التمويل الأميركي لتطوير أنظمةٍ جديدةٍ تُباع لاحقاً لدول أخرى. لقد عاشت إسرائيل في سنواتها الأولى

ضائقةً ماليةً شديدةً ولم ينقذها إلّا اتفاق التعويض مع ألمانيا؛ فقد حلّت الاتفاقية مشكلة العوز المالي الذي عانته إسرائيل ممّا أدّى إلى إنهاء نظام التقنين الغذائي تدريجاً، وخفض نسبة التضخم المالي من ٦٦ ٪ في ١٩٥٢ إلى بين ٤–٥ ٪ سنوياً في السنوات المتلاحقة. كانت المدفوعات الألمانية جزءاً كبيراً من موارد الميزانية الإسرائيلية لمدة ١٢ عاماً تاليةً وعند انتهاء مدة دفع التعويضات شهدت إسرائيل أزمةً اقتصاديةً ولكنّها كانت أقل ممّا شهدته في سنواتها الأولى على الرغم من بداية الدعم الأميركي والأوروبي عموماً.. حتى يومنا الحاضر وفي المستقبل المنظور لا تتمكن إسرائيل من الاستقلال الاقتصادي والاستغناء عن الدعم المالي والعسكري الغربي.. ومع ذلك يدّعي الغرب الصداقة مع العرب والعزم على إنصاف الشعب الفلسطيني، وهم الذين بوسعهم فرض إرادتهم السياسية لو أرادوا على إسرائيل وتصحيح مسارها.. لكنّهم مجموعة لصوصٍ قراصنةٍ مصاصي دماء ومنافقين.

تفيد تقارير المتابعة للشركات التي تبيع السلاح لإسرائيل، أنّ المؤسسات المالية الأوروبية قدّمت ٣٦,١ مليار يورو على شكل قروضٍ واكتتاباتٍ، وتمتلك ٢٦ مليار يورو على شكل أسهمٍ وسنداتٍ في شركاتٍ تبيع الأسلحة لإسرائيل.. وبالتالي، حسب القانون الدولي يتعرّض منتجو الأسلحة لخطرٍ كبيرٍ يتمثل في تسهيل الانتهاكات الجسيمة للقانون الإنساني الدولي، أو الجرائم ضد الإنسانية، أو الإبادة الجماعية في غزة. لم تتوقف توريدات ٦ من أكبر منتجي الأسلحة (بوينغ، وجنرال داياميكس، وليوناردو، ولوكهيد مارتن، وآر تي إكس، ورولز رويس) لإسرائيل، كما ويعتبر البنك الفرنسي «بي إن بي باريبا» أكبر مموّلٍ على الإطلاق للشركات التي باعت أسلحةً لدولة الاحتلال حيث قدّم ٥,٧ مليارات يورو في شكل قروضٍ واكتتاباتٍ منذ عام ٢٠٢١. من بين المستثمرين الكبار الآخرين، بنوك كريدي أجريكول، ودويتشه بنك،

وباركليز، وبنك إنجلترا، بالإضافة إلى صندوق التقاعد الحكومي النرويجي وشركة التأمين الألمانية أليانس.

كنت مثل غيري أراقب ما يجري، ولكنّي مقتنعٌ من عدمية الحديث عن نصرٍ أو هزيمةٍ؛ فالأمور جليةٌ، والانتظار لن يؤدّي إلى نتيجةٍ؛ ففكّرت وقرّرت دعم قطاع التعليم للصغار بقدر استطاعتي.. بالطبع لا يستطيع أيّ شخصٍ في زمن الحرب أن يغطّي الفراغ والحاجة التعليمية.. قالت أرقام الأمم المتحدة إنّ عدد التلاميذ الذين حُرموا من الدراسة يتجاوز ٦٥٨ ألفاً، وأنّ أكثر من ٨٨٪ من المؤسسات التعليمية- على الأقل- تحتاج لإعادة بناءٍ.. أي المدارس فقط لأنّ الجامعات تمّ تدميرها عن بكرة أبيها.. ١٨ جامعة وكلية مجتمع فلسطينية غزية تم تدميرها، وكانت تخدم إجمالي طلبةٍ وصل عددهم في عام ٢٠٢٣ إلى حوالي ٨٧٠٠٠ طالبٍ معظمهم إناثٌ.

كمواطنٍ صالحٍ، وحتى أسهم في إنقاذ جيلٍ من الجهل والأميّة قرّرت الدعوة إلى «مبادرة طيور السلام التعليمية» التطوعية، مع التركيز على فتح المجال للصغار من سن السادسة إلى الثانية عشرة، أي من الصف الأوّل الابتدائي حتى السادس. لم أضع الكثير من الخطط كون الأمر يتمّ في أجواء حربٍ مريعةٍ وتنقّلٍ دائمٍ للعائلات والصغار في ظروفٍ غير إنسانيةٍ.. وضعت إعلاناً موجّهاً إلى قطاع غزة عبر صفحةٍ أقمتها باسم المبادرة على الفيسبوك، وكان مفاد الإعلان طلب متطوعين ومتطوعاتٍ لديهم القدرة والرغبة والثبات لتنظيم صفوف وتعليم الصغار أينما توافر المكان، وذكرت في الإعلان أنّ العمل تطوعيٌّ مجانيٌّ دون مقابلٍ، ولكنّني سوف أوفّر القرطاسية والمواد اللازمة إذا توافرت في السوق المحلي.

كانت الاستجابة سحريةً بالفعل، المئات أعلنوا الاستعداد، ولكنّ العشرات هم، أو بالأحرى هنّ، اللواتي صمدن وباشرن الإبداع في تحدّي

الظروف وتخطّي الصعاب، وكانت أصعب الصعاب توفير أماكن للتدريس. البداية كانت في رفح التي لجأ إليها حوالي نصف سكان قطاع غزة؛ فقد امتلأت المدارس بالنازحين وأُقيمت الخيام البالية على جنبات الشوارع وفي المناطق الرملية وحدائق البيوت، كان الاستهجان من الكثيرين: كيف نبحث عن حلٍّ لمشاكل التعليم ولا نهتم بتوفير الغذاء والخيام للجياع والعراة.. إجابتنا كانت الاهتمام بهذا وغيرنا يهتمّ بذاك.. عملياً كان تجميع وتعليم الصغار في فصولٍ قريبةٍ من أماكن وجود الأهل، كان هذا في حدّ ذاته تسهيلاً لحياة الأسر ومنح بعض الروتين وتهدئة الأطفال وتركيز اهتمامهم بعيداً عن الخوف والموت الذي يُحيط بهم.. الجميع أبدعوا سواءٌ المتطوعات في إيجاد الأماكن، والطلاب في التزامهم بالحضور والتركيز على الدروس.. جمعنا ما نجده من مواد قرطاسيةٍ وأخذت الأسعار ترتفع بجنونٍ نظراً لكثرة بحثنا وسؤالنا وكون ما يُستهلك لا بديل له في ظلّ الحصار والتركيز على إدخال مواد طعامٍ وأدويةٍ وليس قرطاسيةً.

بدأنا في مارس ٢٠٢٤ أي بعد ستة أشهرٍ على بداية الحرب والتقدير أنّ الهدوء لن يعود قريباً، وإذا عاد فكلّ شيءٍ مدمّرٌ.. بالطبع لم نحل مشكلة التعليم، ولكنّنا بدأنا ووضعنا الأسس ومهّدنا الطريق للعمل التطوعي. أصبح لدينا بسرعةٍ ٢٥ فصلاً أو موقعاً تعليمياً وأكثر من أربعين متطوعةً وأكثر من ٢٥٠٠ طالبٍ وطالبةٍ تحت عمر الاثني عشر عاماً.. بعد شهرين تمّ ترحيلٌ قسريٌّ لكلّ سكان رفح واللاجئين إليها تمهيداً لاجتياحها؛ فانتقل حوالي مليون ونصف المليون نسمةٍ إلى خان يونس والمواصي على الشاطئ وإلى المناطق الوسطى، ولم يكن أيٌّ منها آمناً من القصف، وتمّ تدمير رفح تماماً، وهي الآن خرابٌ. انتقلت المتطوعات والطلاب مع أهلهم، وبدأنا من جديدٍ في تنشيط المتطوعات والعثور على غيرهن في أماكن التجمع الجديدة،

وزادت الأعداد والنشاط حتى بداية الهدنة منتصف يناير ٢٠٢٥ وفتح المجال لعودة سكان مدينة غزة ومدن الشمال، بينما لم يعد سكان رفح إلى حطام مدينتهم، ونحن الآن مطلع مارس وشهر رمضان وبعد عامٍ من البداية نستعدّ لتكرار التجربة في مناطق الشمال واستكمال التجربة في الوسط والجنوب.

يتوجب الإشارة أنّ وزارة التعليم استعادت أنفاسها مع هدنة يناير ونظّمت العملية التعليمية عبر الإنترنت، لكنّ نشاطنا هو تعليمٌ وجاهيٌّ وإشرافٌ مباشرٌ وسوف نركّز على تعليم اللغة الإنجليزية والعلوم والرياضيات لمنح الصغار فرص تقويةٍ في هذه المواد بينما يتلقّون تعليمهم الوزاري عبر الانترنت.. كان التفاعل هو سيد الموقف، تفاعل المتطوعات مع الطلاب وأهاليهم، ومع بعضهن عبر إقامة مجموعة واتساب، وتفاعل الجميع مع المدير التنفيذي ومدير التنسيق.. هذان ذكران، وبقية المتطوعات إناثٌ، ولم نرفض أيَّ متطوعٍ ذكرٍ للتدريس ولكنّ أحداً لم يتقدم.

كما ذكرت في مستهل الكتاب إنّني بعت بيتي في الأردن ورصدت من ثمنه ما سأحتاج لتمويل هذه المبادرة، كان في الوسع اللجوء إلى طلب العون والتبرعات، لكنّ ذلك كان سيدخلني في محاسباتٍ وتراخيصَ وتوليد بيروقراطية لا ضرورة لها، وبالتالي، هدرٌ للوقت وقتلٌ للأعصاب المرهقة أصلاً من متابعة الخبر اليومي وأحوال الأهل في القطاع.. لذلك قرّرت التمويل الذاتي واشترطت على المتطوعات والمدير التنفيذي وزميله التنسيقي عدم طلب أو قبول أيّ تبرعاتٍ نقديةٍ، والترحيب بأيّ هدايا قرطاسيةٍ أو مواد غذائيةٍ يقدمها الأهل أو غيرهم، وكانت مثل هذه المشاركة نادرةً.

أسباب البلاء

عادة ما يغرق البشر في تفصيل المشاكل وتشعباتها، وينسون عمداً أو سهواً أو جهلاً، أسس البلاء الذي يغرقون فيه، كون طبيعة الإنسان الأنانية تدفعه للتعمية والعماء. سأطرح فيما يلي رؤيتي لأسباب البلاء في الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، أو حتى العربي الإسلامي الصهيوني.. هل لهذا الطرح علاقةٌ مباشرةٌ مع موضوع هذا الكتاب؟ نعم؛ فالكتاب حول المواطن الصالح والذي من ضمن أعماله التنويه والكتابة العلنية الدائمة منذ عقودٍ في شؤون البحث عن أسباب الصراع والتخلّف الفلسطيني العربي الإسلامي، وطُرق الخروج إلى النور.. لذلك؛ فهنا موجزٌ لبعض فصولٍ وكتبٍ وإثباتاتٍ نشرتها بهذا الصدد وكانت تتوقع كلّ ما يحدث الآن، ولكن لا حياة لمن تنادي، وحتماً لن تؤدّي الطروحات مجدداً هنا إلى تغييرٍ في القريب، كون الإنسان العربي يقرأ نصف صفحةٍ في العام، مقابل ثلاثين كتاباً يطالعها الإسرائيلي وأكثر منها يطالعها الأميركي والأوروبي في المتوسط كلّ عامٍ، وبالتالي، لو وزّعنا أنصاف صفحات هذا الكتاب وغيره من الكتب فلن تكون النتيجة ذات أيّ جدوى، ولن تؤثّر في مستوى الثقافة العامة.. لكنّني كمواطنٍ صالحٍ سأقول ما أراه من أسباب البلاء العربي الإسلامي الفلسطيني، وتحديداً في قضية الصراع مع الصهيونية وإسرائيل ومن خلفهم.

السبب الأول هو الخلاف الفلسطيني الداخلي الحالي والسابق، وحتماً

اللاحق. هذا الخلاف مرتبطٌ بتربية الأنانية الذاتية والمجتمعية الجماعية وبالجهل، وحتماً بانعدام الديمقراطية.

السبب الثاني هو العنصر الديني عموماً، اليهودي والمسيحي والإسلامي، الذي يرتكز دوماً في المجال العملي على التعصب المؤدّي للقتل ونكران الآخر وتبرير وتسويغ إبادته باسم كتب السماء.

السبب الثالث ناتجٌ عن التخلّف والجمود الفكري، ورفض فكرة التمحيص في أصول الديانات وتقاربها وعدميتها، وهو بالتالي ذو علاقةٍ بالديانات وبتأثيرها في تعميم الانفصام الفكري الممهّد للعنصرية والكراهية.

السبب الرابع هو حبُّ المال وجمعه والحفاظ عليه، الأمر الذي يؤدّي إلى المشاركة سواءٌ في الخنوع لحماية المال الذاتي من الخصوم، أو يؤدّي إلى المشاركة في الحروب والاحتلال للاستفادة من وقودها وتسعيرها ونتائجها وغنائمها.

أمّا الأسباب خلف استمرار المقتلة في فلسطين وطول الصراع؛ فتعود إلى حالة اختلاف المفاهيم والأهداف بين المقاومة الإسلامية وإسرائيل والغرب حول تعريف النصر والهزيمة! إسرائيل تعتبر تدمير القطاع وجعله غير صالحٍ للبشر نصراً لها، بينما المقاومة الإسلامية تعتبر أنّ بقاء بضع مئاتٍ من الناجين ببضع رصاصاتٍ هو فشلٌ لإسرائيل وبالتالي نصرٌ معلنٌ للمقاومة، وهنا يضيع المدنيون بين الأرجل وتحت القذائف.. وتؤدّي هذه الرؤى إلى استغلالٍ إسرائيليٍّ للموقف بتصعيد أهدافها وإجلاء الفلسطينيين عن أرضهم، بينما لا ترى المقاومة الإسلامية في التهجير سوى محطة جديدة لمواصلة النضال، وهي بذلك مدعّمةٌ من قطر راعية الإسلام الحربجي في المنطقة، كما أنّ الأصولية الإسلامية تعتبر كلّ بلاد المسلمين أرضاً لكلّ مسلمٍ وتتخذ من هجرة الرسول هرباً من الكفار وعودته منتصراً مثالاً يُحتذى به.. وربّما أعود

إلى تفسيراتٍ وشروحاتٍ بهذا الصدد بعد التطرق بتفصيلٍ لأسباب البلاء الأربعة المذكورة أعلاه.

السبب الأوّل لتولّد واستمرار البلاء هو الخلاف الفلسطيني الداخلي، ولن ينتهي هذا العامل إلّا بالتعامل مع أسبابه وفي مقدّمتها تطبيق الديمقراطية التي تمهّد طريق تخفيف الأنانية وتساعد في التخلّص من الجهل.

قبل وعد بلفور عام ١٩١٧ وظهور وانتشار الفكرة الصهيونية، كان الإقليم الفلسطيني يرزح تحت الحكم العثماني المتهالك مثل بقية ما عُرف لاحقاً بالوطن العربي. لكنّ فلسطين تميزت بطمع الصهيونية بها، واعتمادهم على بريطانيا التي هزمت العثمانيين واحتلت أقاليم عربيةً من ضمنها فلسطين. قبل الاحتلال البريطاني وجِدت أحزابٌ عثمانية، وبعد الاحتلال تولدت أحزابٌ أيضاً، لكن من دون ممارسة الانتخابات، وكانت السمة السائدة هي الاختلاف في الرؤى بين تلك الأحزاب -خصوصاً- بعد ثورة عام ١٩٣٦ حيث تباينت رؤى الأحزاب بين مطمئنةٍ لما أصبح انتداباً بريطانياً ومتشككةٍ فيه.

كان المندوب السامي البريطاني هربرت صموئيل قد أصدر عام ١٩٢٤ مشروع نقدٍ فلسطينيٍّ جديدٍ، وصدر قانونٌ بمنح الجنسية الفلسطينية لليهود المقيمين في فلسطين. خَلَفَ صموئيل وأكملَ مشروعة المندوب الصهيوني اللورد هربرت تشارلز بلومر. وخلال السنوات العشر الأولى من الانتداب البريطاني دخل فلسطين ما يقارب ٧٦٤٠٠ مهاجرٍ يهوديٍّ، غالبيتهم من بلدان أوروبا الشرقية، ومع نشاط الهجرة المتزايد إلى فلسطين أدرك العرب ضرورة مقاومة الصهيونية. وقد تعمّق هذا الوعي بالخطر الصهيوني نتيجة التجزئة التي فُرضت على المشرق العربي، ومن أبرز ملامح الحياة الحزبية والسياسية التي كانت تميّز المجتمع السياسي الفلسطيني في تلك المدة ظهور

أطرٍ تنظيميةٍ أكثر منها أحزاباً سياسيةً، توزّعت اتجاهاتها بين محليٍّ وإقليميٍّ وقوميٍّ، وظهور الصحف المطبوعة وفي مقدمتها الكرمل وفلسطين.

لقد توافرت لثورة ١٩٣٦ شروط الثورة هدفاً وأداةً وأسلوباً وهي تمثّل محطةً بارزةً في حركة النضال الوطني الفلسطيني ضد الصهيونية والاستعمار البريطاني منذ أواخر القرن التاسع عشر؛ فهي نقلةٌ نوعيةٌ في توجهات هذا النضال بعد حالة الوهن العام التي اعترت الحركة الوطنية الفلسطينية في أعقاب هبة البراق عام ١٩٢٩. كان الشعب الفلسطيني بكلّ فئاته يعلم يقين ما تهدف إليه الحركة الصهيونية، ولذلك تشكّلت حركاتٌ وأحزابٌ عقائديةٌ شكّلت امتداداً لحركاتٍ إقليميةٍ وتنظيماتٍ قوميةٍ متناغمةٍ مع المد الجماهيري وتصاعدت أعمال المقاومة، وفشل الرهان على إستراتيجية مهادنة بريطانيا؛ فشارك القوميون في المؤتمر الإسلامي العام (١٩٣١) وأصدروا الميثاق القومي، وتشكّل حزب مؤتمر الشباب العربي (١٩٣٢) برئاسة راسم الخالدي. أمّا حزب الاستقلال العربي (١٩٣٢-١٩٣٣) فلم يعمّر طويلاً، ومن قياداته: عوني عبد الهادي، رشيد الحاج، عزة دروزة، أكرم زعيتر. أمّا الحزب القومي السوري وكتلة القوميين العرب؛ فقد لاقت رواجاً محدوداً في فلسطين. ودشّن المؤتمر السابع للحزب الشيوعي الفلسطيني في مدينة القدس ١٩٣٠ بداية منعطفٍ حاسمٍ في مسيرة الحركة الشيوعية في فلسطين. المهم أنّه تشكّلت قبل عام ١٩٤٨ ثلاث هيئاتٍ سياسيةٍ تمثيليةٍ هي على التوالي:

الأولى: اللجنة العربية العليا تكوّنت هذه اللجنة في نيسان ١٩٣٦ إثر اندلاع الإضراب العام والعصيان المدني الذي دعت إليه اللجان القومية، وبضغطٍ شعبيٍّ كبيرٍ على الأحزاب القائمة آنذاك. أسند منصب الرئاسة للمفتي الحاج أمين الحسيني واعتبرتها بريطانيا منظمةً خارجةً على القانون،

وفي ١٩٣٧ اعتقلت معظم أعضائها ونفتهم إلى جزيرة سيشل. وكان أعضاء اللجنة: أمين الحسيني، راغب النشاشيبي، جمال الحسيني، يعقوب الغصين، عبد اللطيف صلاح، حسين الخالدي، عوني عبد الهادي.. وطوال عشر سنواتٍ تاليةٍ لم تتوافر أطرٌ حزبيةٌ ديمقراطيةٌ منظمةٌ للمقاومة أو التمثيل السياسي ما عدا الحزب الشيوعي.

الثانية: الهيئة العربية العليا، هيئةٌ سياسيةٌ فلسطينيةٌ حلّت محلّ «اللجنة العربية العليا» بقرارٍ من مؤتمر الجامعة العربية في ١٢ حزيران ١٩٤٦ بعد فشل الفلسطينيين في الاتفاق على تشكيل هيئةٍ عامةٍ ممثلةٍ لهم. استقال بعض أعضاء الهيئة احتجاجاً على انفراد المفتي مجدداً بالقرارات. وأسهمت الهيئة في تجنيد المتطوعين وتولي أمور تدريبهم وتسليحهم، ولكن بحدٍّ أدنى ولا يُقاس بأيّ شكلٍ مع تدريب وتسليح المستوطنين اليهود. ومن أسماء أعضاء الهيئة: جمال الحسيني، توفيق الحسيني، يوسف صهيون، كامل الدجاني، إميل الغوري، رفيق التميمي، أنور الخطيب، د. عزت طنوس، أنطون عطا الله، أحمد الشقيري، سامي طه، د. يوسف هيكل، راغب النشاشيبي، أي العائلات نفسها التي كانت تدير الحياة السياسية الفلسطينية أثناء الانتداب، ولكنّها الآن تعمل برعاية الجامعة العربية. في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ أعلنت هذه الهيئة رفضها القاطع لقرار تقسيم فلسطين الدولي رقم ١٨١ دون أن تقدّم حلاً بديلاً يراعي التغيرات العميقة التي تولّدت عن الحرب العالمية الثانية، والتي حوّلت المستوطنين اليهود في فلسطين إلى قوةٍ سكانيةٍ وسياسيةٍ واقتصاديةٍ كبيرةٍ، وكانت أيضاً حكومة الاحتلال البريطاني قد بدأت بعملياتها ضد الشعب الفلسطيني. وفي العام ١٩٤٧ حدثت معارك في عدة مناطق منها: معركة القسطل الأولى ومعركة القسطل الثانية ومعركة طبريا ومعركة حيفا ومعركة يافا ومعركة حي القطمون ومعركة بيسان ومعركة عكا.

الثالثة: الهيئة الثالثة هي حكومة عموم فلسطين التي تشكّلت بعد النكبة في غزة في ٢٣ سبتمبر ١٩٤٨ برئاسة أحمد حلمي عبد الباقي، تأكيداً على الحق الطبيعي في تقرير المصير، كما جاء في وثيقة الإعلان. تشكّلت الحكومة في سياق إعلان بريطانيا نيتها لإنهاء الانتداب وإحالة القضية للأمم المتحدة. بعد صدور قرار التقسيم طلبت الهيئة العربية العليا من جامعة الدول الموافقة على إنشاء حكومةٍ فلسطينيةٍ تتولى شؤون الإدارة العامة عند انتهاء الانتداب.. انتهى الحال بهذه الحكومة في شقةٍ فوق سطح إحدى عمارات القاهرة.

كانت الخلافات السياسية الفلسطينية في البداية حول تصديق وعود بريطانيا أو تكذيبها، ثم خلافاتٌ حول من سيقود البلاد، وتطوّر الخلاف لاحقاً حول قرار التقسيم، إذ رفضه الجميع والدول العربية، ووافق عليه فقط الحزب الشيوعي الفلسطيني الذي كان يتطلع إلى توحيد القوى العاملة والفلاحين من العرب واليهود ضد الاحتلال البريطاني.. كانت فكرةً جيدةً ولكنّ تطبيقها والموافقة عليها عربياً وفلسطينياً كان من سابع المستحيلات.. هكذا إذاً ظهرت الخلافات وتواصلت، ولم يرتقِ الطرف الفلسطيني العربي إلى مستوى تدريب وتسليح وتنظيم وتفكير اليهودي الصهيوني الغربي؛ فجاءت النكبة والتشريد والضياع بينما إسرائيل الوليدة تنمو علمياً وعسكرياً وصناعياً وديمقراطياً وتنشر سرديتها ورؤيتها التاريخية في الغرب.. وعلى مدار العقود اللاحقة ومع فارق التقنية والعلم والإدارة السياسية وقلة الدعم العربي كان من الحتمي الجمود والتراجع الفلسطيني بمقدار ما تتمكن الصهيونية بدعمٍ غربيٍّ من التقدم، وها نحن نراهم يستعدون لأخذ كلّ البلاد وطردٍ تدريجيٍّ ممنهجٍ للفلسطينيين، وتوسعٍ جغرافيٍّ ضمن رؤيتهم لأسطورة أرض إسرائيل الكبرى التي نشروها بينهم وفي الغرب والشرق، وطالما وجِد من يصدّق أنّهم في الأصل من فلسطين فعليه أن يصدّق بقية رؤيتهم.. في تلك الأثناء عادت

الخلافات بالصيغة نفسها بعد النكبة وبعد رفض القيادات المحلية والعربية والإسلامية لمشروع التقسيم، وعدم تطوير وأخذ التحدي من عنادٍ دينيٍّ إلى تعلمٍ وتساوٍ مع العدو.. أي لم نعترف آنذاك ولاحقاً بتفوّقهم العلمي الاجتماعي السياسي وواصلنا الصراع بينما نحن أعجز حتى عن توحيد قوانا ورؤيتنا.. بل أصبحت أقوال وأفكار ولقاءات الوحدة الفلسطينية في العقدين المنصرمين، مهزلةً ومسخرةً ومعرةً للفلسطينيين كقياداتٍ هزليةٍ وشعبٍ عاجزٍ عن فرض رؤيةٍ إصلاحيةٍ، أو رفضٍ للهمجية السياسية المعششة.. وكون الجهل سوف يستمر لأسبابٍ قائمةٍ ولا يوجد عملٌ للتخلص منها؛ فإنّ الخلافات سوف تستمرّ وسينتهي الأمر بالقيادات إلى العدم كما انتهت قيادات السابق وبعد النكبة إلى مكتبٍ في شقةٍ على سطح عمارةٍ في القاهرة.

يلاحظ المدقق في التاريخ النضالي الفلسطيني اعتماد الجموع والنخب والقيادات على فكرة التضامن والتعاون والإخاء والترابط مع العرب والمسلمين، وبالتالي، توقّع الدعم منهم وانتظاره وهم في الواقع وعلى الدوام في وادٍ والشعب الفلسطيني في وادٍ آخر.. أمّا الحركة الصهيونية فقد اعتمدت في المجال العملي على ذاتها وعلى خلق الوقائع وفرضها، وذلك برضاءٍ ودعمٍ بريطانيٍّ ثم غربيٍّ. حتى في هذه المقتلة القائمة بعد الطوفان؛ فالجموع والنخب كانت تتوقع الدعم العربي والأخوي والديني، بينما هؤلاء يردّدون بالمليان أنّهم ضد حركة الإخوان.

السبب الثاني لاستمرار البلاء، هو العنصر الديني عموماً، اليهودي والمسيحي والإسلامي، الذي يرتكز دوماً في المجال العملي على التعصب المؤدّي للقتل ونكران الآخر وتبرير وتسويغ إبادته باسم كتب السماء. الديانات الثلاث المشهورة في منطقتنا ليست الوحيدة في العالم، وليست الأولى أيضاً، بل ليست هي التوحيدية الوحيدة؛ فهناك الزرادشية التي أخذت

عنها اليهودية والمسيحية.. وقبل كل هؤلاء كانت بعض الديانات المصرية القديمة توحيدية كما هو ثابت ومحفور في الحجر المهم وما يعنينا هنا هو التذكير بوجود دياناتٍ قديمةٍ سابقةٍ متعددة الآلهة، بمعنى وجود أكثر من إلهٍ مختصٍّ في مجالٍ معيّنٍ لدى جماعةٍ بشريةٍ واحدةٍ. ساد ذلك منذ أقدم العصور وحتى العهود الإغريقية والرومانية التي شهدت بداية الزرادشتية واليهودية. أيضاً في الماضي كان معظم الآلهة إناثاً كونهن يرتبطن بالإنجاب والخصوبة، وعندما اكتشف الذكر دوره المهم والأصيل في الإنجاب ظهرت آلهةٌ ذكوريةٌ ثم كثرت وهيمنت.

كانت الآلهة المتعددة متعايشةً في عقلية الانسان نظراً لتوزيع المهام بينها، ومع الوصول إلى الإله وأبنائه وبناته، ثم إلى الإله الواحد، أصبح من الطبيعي نفي الآلهة الأخرى وتكفير أصحابها، ثم لزم قتال أصحاب الديانات التوحيدية بعضهم ضد البعض الآخر، وكان تطوّر الديانات التوحيدية يُلزم نفي الآخر ويصوغ أبشع الطرق لقتله وسبيه وإبادته، وذلك عبر الاتهام بأنّه زوّر وزيّف في التعاليم.. القديم يقول إنّه الأصل ويجب اتباعه، والجديد يقول إنّه الأحدث والأفضل ويلغي ما سبقه ومن لا يتبعه فهو كافرٌ. كدليلٍ على حتمية الصراع بين الأديان يمكننا النظر إلى الصراع الداخلي في كلّ دينٍ إلى درجة القتل والاتهامات بالتكفير أيضاً؛ فهذا من طبيعة الأديان التوحيدية العقائدية حيث الرب الأعلى شيءٌ غير منظورٍ أو مسموعٍ، وبالتالي تتعدد التفاسير.

ومنذ أيامها الأولى استُعمل كلّ دينٍ توحيديٍّ واستُغل من قبل فئاتٍ مستفيدةٍ أشعلت الحروب والغزوات والتدمير باسم الدين والرب الأوحد الأعلى، وتحوّلت إلى أفكارٍ استعماريةٍ استيطانيةٍ، أو بمعنى آخر سَهُلَ تسخير الأديان من أجل الغزو والاحتلال والتكسب والهيمنة من دون رحمةٍ.. بل إنّ الحروب الصليبية باسم الدين المسيحي وتحرير بيت المقدس، قتلت

كلّ سكان القدس المسيحيين واليهود والمسلمين عن بكرة أبيهم. استمرّ العداء المسيحي الغربي ضد اليهود كجماعاتٍ وضد المسلمين كدولٍ وأقاليمَ حتى ما بعد الحرب العالمية الثانية التي أنهكت أوروبا وسيّدت بدلها أميركا والاتحاد السوفيتي.. لاحقاً ومع تحرّر الإقليم العربي ورغبة الغرب في التخلص من اليهود سخّروا الصهيونية لاحتلال فلسطين بدل بريطانيا وضمان التأثير والهيمنة على الشرق الأوسط عبر تسخير صنيعتهم إسرائيل، ولذلك تتمّ الإبادة للفلسطينيين بسلاسة عبر دعمٍ وتسليحٍ غربيٍّ مسيحيٍّ.. أي بفعل العامل الديني حيث تطبّق أوروبا وأميركا الآن فكرة التوحّد مع اليهود ضد الإسلام، واستنزاف اليهود عبر القتال مع الفلسطينيين.. لهذا أقول إنّ الأديان هي أصل البلاء.

السبب الثالث للبلاء ناتجٌ عن التخلّف والجمود الفكري العربي والفلسطيني والإسلامي، ورفض فكرة التمحيص في أصول الديانات وتقاربها وعدميتها، وهو بالتالي سبب ذو علاقةٍ مباشرةٍ بالمعتقدات وبالديانات وبتأثيرها في تعميم الانفصام الفكري الممهّد للعنصرية والكراهية.

أحياناً تكون الحقائق أمام أعيننا، أو تتكشف لنا لاحقاً، ولكنّنا نرفض بإصرارٍ النظر إليها وأخذها في الحسبان والبناء عليها لتطوير ذاتنا. مثلاً عندما بدأت حركة الإصلاح الديني ضد الكنيسة في أوروبا مع القرن السادس عشر، تخوّفت الكنيسة والطبقة المستفيدة منها، تخوّفت من تطوّر الأمر إلى زوالها نهائياً؛ فباشرت التفكير في البحث عن إثباتاتٍ تؤكّد حقيقة المعتقد. وكون المسيحية تعتمد التوراة اليهودية كأساسٍ لها، والأناجيل كمحتوىً لقصص وتراث السيد المسيح، توجب عليهم إثبات مرويات التوراة القائمة حسب النص في مصر وفلسطين. هكذا تمّ بعد مدةٍ لاحقةٍ تمويل وإرسال نابليون في حملةٍ إلى مصر وفلسطين، تحمل معها علماء آثارٍ ولغاتٍ؛ فتمّ البحث

والتنقيب وترجمة حجر رشيد، لكنّ بحوثهم لم تثبت أيّة روايةٍ يهوديةٍ في مصر وفشلوا في احتلال فلسطين؛ فانقلب اليهود في فرنسا على نابليون.. المهمّ في مجالنا هنا أنّ كلّ البعثات الأوروبية أثناء العهد العثماني ولاحقاً أثناء الاحتلال البريطاني لمصر وفلسطين نشطت في البحث عن إثباتاتٍ لقصص الأنبياء اليهود مثل إبراهيم ويوسف وموسى.. استمرّ الحال والفشل في البحث بعد قيام إسرائيل واحتلالها للقدس ولسيناء والبحث والتنقيب لعقودٍ من دون إثباتٍ لأيّة قصةٍ أو مرويةٍ توراتيةٍ.. لم يعثروا على أثرٍ لمملكة سليمان العظيمة الشهيرة، ولكنّهم عثروا وعثر غيرهم على إثباتاتٍ لكلّ الدول والشعوب التي ورد ذكرها في التوراة وغيرها، بل عثروا في مصر على عدة أنواعٍ من الجبن كان الفراعنة يصنعونها ويأكلونها وكتبوا عنها ونقشوا وصوّروا كلّ مرافق حياتهم وحروبهم وانتصاراتهم وهزائمهم.. ولكن لم يتم العثور على أيّ شيءٍ متعلّقٍ بمرويات التوراة!!

استمرّ البحث من دون جدوى، وكانت نقطة التحوّل حين تمّ التوصل لترجمة اللغات الآشورية والبابلية، واكتشاف أنّ القصص من تلك الحضارات السابقة لظهور اليهودية هي نفسها قصص التوراة مع تغيير أسماء الملوك من تلك العصور واستبدالها بأسماء من أصبحوا أنبياء اليهود.. حتى الوصايا العشر التي يُفترض أنّها نزلت على موسى في سيناء وجِدت منحوتةً على عمود حمورابي القائم الآن في متحف اللوفر في باريس.. مجرّد عملية نسخٍ من شريعة حمورابي وادّعاء أنّها نزلت على موسى بعد ٤٠٠ عامٍ من وفاة حمورابي.. هذا مثالٌ واحدٌ لكنّ كلّ قصص ملوك بابل العشرة أصبحت هي مرويات الأنبياء اليهود، الذين لا وجود لهم، مع تحريفٍ في الأسماء والتواريخ تحوّلت هذه المرويات إلى كتاب اليهود المقدس. لقد أقرّ أكبر عالم آثارٍ يهوديٍّ إسرائيليٍّ، فنكلشتاين، بأنّ النبيين إبراهيم وموسى وغيرهما

من أنبياء اليهود لا وجود لهم، واليهود لم يوجدوا في مصر قط، ولم يكن هذا العالِم هو الوحيد الذي توصّل عبر مراجعة الآثار إلى هذه الحقيقة.

لكنّنا بالطبع لا نريد الاستماع لذلك على الرغم من كونه شأناً علمياً وينفي كلّ رواية اليهود بأصلهم الفلسطيني.. لماذا نرفض ذلك وننضم إلى الجانب الديني اليهودي؟ الإجابة جليةٌ، كون أنبيائهم هم أنبياء الإسلام؛ فكيف ننكر أنبياءنا؟ عموماً من يراجع التوراة والإنجيل ويقارنهما بالقرآن سيجد أنّ حوالي نصف آيات القرآن قادمةٌ من تلك الكتب، أحياناً بالنص وأحياناً أخرى بالمعنى، والنصف الثاني هو مروياتٌ وقصصٌ حدثت أثناء حياة النبي محمد، وكلّ عالمٍ أو دارسٍ لعلوم مقارنة الأديان يعرف ذلك، ولكنّهم يصمتون خوفاً من التكفير والنفي المجتمعي، وهناك من يتحدّث ويوضّح، لكن لا حياة لمن تنادي؛ فمن أصعب الأمور، بل من المستحيلات أن تنجح في تغيير معتقدٍ دينيٍّ لدى البشر كونه يمسّ كلّ شيءٍ يعنيهم، وأصبحت عقيدتهم تتحكم في هرموناتهم وعقولهم.

لقد كتبت حول تلك القضايا عدة فصولٍ في أكثر من كتابٍ، والآن في ظلّ حرب الإبادة على غزة نرى أنّ العامل الديني عند كلّ الأطراف يتعزّز، وتحديداً عند اليمين الإسرائيلي الذي يعتبر التقدم العسكري الصهيوني يدعم ويقوم أصلاً على الأفكار الدينية، وتحديداً ميزة وتعليمات التوراة بحقّ إبادة الطرف الآخر، كما يصرّحون علناً بعدم وجود أبرياءٍ في غزة، لا أطفال ولا نساء ولا كبار السن، وهذا يتكرّر علناً من قِبَلِ رجال الدين وأيضاً من سياسيين، ويحرّض رجال الدين الجنود على القتل والإبادة.. كلّ متدينٍ، واستغلاليٍّ، وغبيٍّ، يحترم كتبه الدينية ويشعر بالنشوة لتطبيق آياتها ضد خصومه -وتحديداً- ضد معتنقي الأديان الأخرى.. هذا ما حدث مع كلّ الأديان التوحيدية، وما يحدث الآن في غزة وغيرها.

أيّ تحليلٍ علميٍّ موضوعيٍّ لعقلية الشعوب المتعصبة دينياً سيوضّح اختلافاً جوهرياً عن العقلية العلمية الحديثة، حيث تعتمد العقلية المتعصبة على التفكير «ما قبل المنطقي» الذي يمزج بين الواقع والمعتقدات الروحية، مع التركيز على التصورات الجماعية السائدة بديلاً عن الاستدلال الفردي؛ فتفكيرها يعتمد على قانون الاشتراك الجمعي والارتباط بالعالم الروحي والخيالي العميق غير الثابت مطلقاً وغير القابل لديهم للنقاش.. كما أنّهم يربطون بين الخيال الوهمي، الأحلام مثلاً، وبين أحداثٍ وقعت أو يرونها ستقع.. وهذا بدوره يعمّق أفكار التعبد والطقوس بأنواعها من دون أيّ اعتمادٍ على الاستدلال العقلي، وعليه فهم يصدّقون وجود ودور الأرواح والسحر وطرق استغلالها أو الوقاية منها.. هذه العقلية مثلاً تقرّ بأنّ لا منتصر إلّا الآلهة ولو بعد حين، وأيّ هزيمةٍ هي نتيجةٌ للابتعاد عن الدين، وأيّ تضحيةٍ وهوانٍ سيكافأ في الآخرة بنعيمٍ فوق المنطقي.. وبالتالي، لا بدّ من التمسك بالأصول الدينية بشكلٍ أعمقَ لدرء المصائب، والابتعاد عن تقليد حياة واستيعاب علوم الكفار الذين هم من الديانات الأخرى أو الملحدين، أو حتى غير الملتزمين من أبناء الدين نفسه.. هذه هي الرؤية الدينية المتعصبة وعصب التخلف المستعصي.

في الأسبوع الأوسط من شهر مارس ٢٠٢٥ زارنا أحد إخوة زوجتي الأربعة وهو الأصغر بينهم ورافقته زوجته.. جاؤوا من بريطانيا العظمى سابقاً من أجل زيارة زوجتي كونها تعاني سرطاناً تمدّد إلى الرئة. كانت زيارتهم الأولى إلى الأردن؛ فصحبتهم إلى بعض الأماكن الأثرية ذات التاريخ القائم والمكتوب مثلاً جرش (جراسا) الرومانية، وأختها أم قيس (جدارا) وهما من المدن الرومانية العشر المتحالفة (الديكابولس)، الذي كان تحالفاً رومانياً أنشأه الإمبراطور بومبيوس الكبير عام ٦٤ ق. م. وضمّ الحلف عشراً من أهم

مدن منطقة بلاد الشام تقع الآن في الأردن وفلسطين ومدينة دمشق، وكان الغرض من الحلف الوقوف ضد نفوذ الأنباط العرب في الجنوب. كانت هذه المدن تقع على الحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية في جنوب شرقي بلاد الشام في القرنين الأول قبل الميلاد والأول بعد الميلاد. هذا تاريخٌ قائمٌ ومسجّلٌ في الكتب ومحفورٌ على الصخر، وليس مثل المتحف القائم في موقع جبل نبو. «نبو» هو اسم إله التجارة البابلي، وسكن المنطقة في القرن السادس مجموعةٌ من البدو المسيحيين وأقاموا كنيسةً هي أصل المكان القائم الآن على ذلك الجبل المطل على البحر الميت والقدس وفلسطين، والذي زرته مجدداً مع ضيوفي.

كلّ ما ذكرناه أعلاه عن ذلك الموقع صحيحٌ وثابتٌ، ولكن في الموقع الآن متحفٌ تدّعي محتوياته المكتوبة وغير الأثرية، والتي تأسست منذ الانتداب البريطاني، أنّ النبي موسى قُبضت روحه هناك، وأنّه وجماعته بعد الخروج من مصر ذهبوا لجبل نبو هذا وشاهدوا الأرض المقدسة، وأنّ موسى مات ودُفن هناك.. إلى آخر تلك المروية غير الثابتة مطلقاً، والتي تأكّد الشك فيها نظراً لعدم وجود آثارٍ لموسى وشعبه في مصر ولا في أيّ مكانٍ آخر في المشرق.. لا أثر مثلاً لمدينةٍ يهوديةٍ، أو كتابةٍ أو حفرٍ ونقشٍ أو عملةٍ عبريةٍ قديمةٍ مثلاً، ومثل هذا تمّ العثور عليه لأقوام وملوك ودول المنطقة منذ آلاف السنوات.. إذاً لماذا يتمّ الترويج منذ الانتداب البريطاني حتى الآن لوجود آثارٍ تؤكّد رواية اليهود.. ولماذا في دول المنطقة؟

الصهيونية الحديثة تعتبر ذاتها منتصرةً الآن، وتعتمد على قوة السلاح والدعم الغربي المسيحي لتأكيد روايةٍ توراتيةٍ أسطوريةٍ، وبالتالي، هم يعلنون العزم على إقامة إسرائيل الكبرى ويعلنون حدودها التوراتية من النيل إلى الفرات.. احتلوا فلسطين وتمدّدوا في سوريا من دون أيّ استفزازٍ باتجاه

الفرات، ويطالبون بسيناء وحتى النيل!! حين نعترف بروايتهم التوراتية؛ فنحن نبرّر مطالبهم التوسعية بدل اعتبارهم غزاةً وبدل نفي العلاقة بين الدين والقومية.. نعترف لهم بتراثٍ مزيّفٍ ونفتح لهم الطريق للمطالبة، والأحرى أن نصحّح تاريخ تراثنا ونعتمد فقط ما هو ثابتٌ بعلم الآثار وليس بزيف رواياتٍ غير منطقيةٍ.

الديانات حين يكون أتباعها ضعفاءً يلجؤون لآيات الرحمة والعدالة والمساواة، وحين يقوى الأتباع يمارسون الانتقام ويطبقون آيات الإبادة والانتقام الغاضب وضرب الرقاب.. أمّا في أوقات الحياد الناتج عن توازن القوى؛ فيدّعون الالتزام بالقوانين الدولية والعهود الضابطة للحروب والضامنة لحقوق الإنسان.. حتماً وحسب متابعة التاريخ والتمحيص فيه سنجد أنّ الأديان هي سببٌ ومبرِّرٌ للحروب والكراهية.

السبب الرابع للبلاء القائم هو حبُّ المال وجمعه والحفاظ عليه، الأمر الذي يؤدّي إلى المشاركة سواءٌ في الخنوع لحماية المال الذاتي، كما هو حال الدول العربية الغنية التي تتهرب من الدعم وتراوغ في المواقف، أو يؤدّي السعي للمال إلى المشاركة في الحروب والاحتلال للاستفادة من وقودها وتسعيرها ونتائجها وغنائمها، كما هو حال الشركات المصنّعة للأسلحة والذخائر؛ فكلّ قذيفةٍ أو صاروخٍ يُطلق في الحروب تجلب الأرباح للمصنّعين كشركاتٍ أو دولٍ. أيضاً على صعيد المال؛ فكلّ من يدعم الحرب والاحتلال الإسرائيلي لديه أرباحٌ كنتيجةٍ للوضع الجيوسياسي القائم، ولو كانت الحرب تؤدّي لخسائر ماديةٍ أو معنويةٍ لما دعموها.

ضمن دور الأديان في مجال مكاسب الحروب؛ فهناك مطالبة الكتب السماوية الجلية بالنهب والسبي سواءٌ على صعيد الأفراد أو الجماعات أو الدول. مثلاً كشف تقريرٌ صادرٌ عن وسيلة إعلامٍ إسرائيليةٍ (يديعوت

أحرونوت) أنّ جنود الاحتلال الإسرائيلي نهبوا كمياتٍ هائلةٍ من الأموال والذهب والسلع الفاخرة والأسلحة خلال عملياتهم على سوريا ولبنان وقطاع غزة. ويفصّل التقرير عمليات النهب الواسعة التي نفّذتها وحداتٌ عسكريةٌ متخصصةٌ بالإضافة إلى جنودٍ فرادى. وشملت مسروقات جيش الاحتلال ما يقارب ٢٨ مليون دولار نقداً، وسبائك ذهبٍ، ومجوهراتٍ فاخرةً من قطاع غزة بالإضافة لخزائن البنوك.. إلى جانب حوالي ١٨٣ ألف قطعة سلاحٍ من لبنان.. ومثل هذه المنهوبات تغمض الحكومات أعينها عنها لإبقاء الجنود في حالة رضى، وهذه الأفعال، وللأسف، مشرّعةٌ حيث تعتمدُها الديانات الإسلامية والمسيحية واليهودية.

هناك بالطبع أسبابٌ أخرى كخلفيةٍ لهذه المقتلة ولاستمرارها. مثلاً الحكومات العربية التي دعمت حركة الإخوان المسلمين واستغلّت الجماعات الإسلامية في القتال ضد الحكومات والشعوب العربية غير الإخونجية، وعلى رأس هذه الحكومات السعودية وقطر، وبعد تخلّي الرياض عن دعم الإخوان والانقلاب لقتالهم ومحو تأثيرهم في المملكة وخارجها، صمدت الدوحة وتفانت في دعم حماس وأخواتها كآخر معقلٍ إخونجي على أمل أن تنجز نصراً عسكرياً وسياسياً يعيد للإخوان موقعهم وللدوحة أملها في قيادة الإسلام السني، وتم تشجيع حماس على رفض فكرة توحيد القيادة الفلسطينية أو تجديدها عبر الانتخابات.. وهكذا ضحّت الدوحة بالشعب الغزي ثم بقية الشعب في فلسطين المحتلة وجعلت (جزيرتها) من المقتلة حرباً وكأنّها بين قوىً متعادلةٍ يمكن للصبر والدعاء فيها أن ينتصر.. لقد تحوّلت الجزيرة منذ طوفان ٢٠٢٣ إلى ممارسات الإعلامي المصري أحمد سعيد أيام النكسة والذي أوصلنا إلى تل أبيب بينما الجيش الاسرائيلي وصل إلى قناة السويس ونهر الأردن واقترب من دمشق، وقد أخرسه جمال عبد الناصر ثالث يوم

النكسة.

على الطرف الآخر تفاوت الموقف العربي الرسمي غير المؤيد للإخوان؛ فالبعض يتعامل مع إسرائيل لقتل الإخوان ومن يشجعهم من الأبرياء، وغيرهم يسكتون عن المقتلة على أمل التخلص من الإسلام الحربجي الذي دمّر بلادهم في الربيع العربي، ويهدّدهم لو خرجت حماس منتصرةً وصنعت مثالاً يحتذى به. الجميع طبعاً يضحّي بالأبرياء المدنيين ولا يهتمون بما قد تؤول إليه القضية الفلسطينية. هذه الرؤية وما يشبهها نراها أيضاً منتشرةً بين أغلبية شعوب الدول العربية والأخرى الإسلامية؛ فالتظاهرات العربية والإسلامية أقل عدداً وثباتاً من تظاهرات الشعوب المسيحية التي تتعاطف مع المدنيين الفلسطينيين وليس بالضرورة مع أيديولوجية المقاومة الدينية. الاستثناء هنا هو إيران التي ما زالت تراهن على إنجازٍ لحماس، وربّما عودةٌ لحزب الله، وتسجيل نصر للحوثي في اليمن إن أمكن وإن شاءت الظروف، لرسم ما يعتبر نصراً. الهدف الإيراني على المدى المتوسط والطويل هو تمييز الإسلام الشيعي وتنكيس الإسلام السني.

إذاً وللتذكير بأسباب هذه المقتلة واستمرارها سنرى أنّه العامل الديني اليهودي والمسيحي والإسلامي في الأساس، وهو العنصر المتداخل في بقية العناصر مثل الخلافات الفلسطينية الداخلية، والرؤية الاستيطانية اليهودية والاستعمارية العنصرية الغربية المسيحية، ورغبة الهيمنة السياسية للإسلام على المنطقة بأساليب الفكر السلفي الجاهل غير المتطور.. ولا غالب إلا الله.

توريط وولولة

في اليوم ٥٥٥ على حرب الإبادة في غزة وقعت أحداثٌ واقتربت توقعاتٌ ذات علاقةٍ بالعالم الإسلامي كحكوماتٍ وشعوبٍ، وكوني مواطناً صالحاً فقد كنت قد حذّرت منها وتوقعتها قبل سنواتٍ طويلةٍ، لكن لا بأس من العودة لها في إطارها الجديد بهدف أخذ الحيطة في التفكير والتخطيط وعدم الاعتماد على الدعاء أو على الدول والمنظمات الإسلامية.

سكان غزة وفلسطين وأنصارهم لم يتوقفوا عن التساؤل: أين أمة الملياري نسمةٍ من نصرة غزة؟ نعرف أصلاً أنّ الأمر ليس بالعدد، أو هذا ما يجب أن يكون بدهياً. نعرف أيضاً أنّ حركة الإخوان المتبنية للمقاومة الإسلامية في فلسطين غير محبوبةٍ من الحكومات أو من غالبية الشعوب الإسلامية بدليل عدم التفاعل الحقيقي الشعبي والرسمي مع المقتلة.. لكن لا بأس من تحديد الأمور بوضوحٍ كدرسٍ للمستقبل بضرورة الاعتماد على الذات والتخطيط حسب القدرات، وليس اعتماد مبدأ التوريط ثم الولولة.

سكان الوطن العربي حوالي ٤٣١ مليوناً غالبيتهم العظمى مسلمون، وبقية المسلمين غير عرب، منهم مثلاً المسلمون في باكستان، تلك الدولة النووية المصطفة في الطابور الأميركي، وتركيا عضو حلف الناتو والتي اعترفت بإسرائيل عام ١٩٤٩ ولديها الآن علاقاتٌ تجاريةٌ وتصدّر لإسرائيل بمليارات الدولارات سنوياً، ولا تواجه أيّ نقدٍ إخواني.. وبمناسبة العلاقات

التجارية؛ فهناك من الدول الإسلامية والعربية التي تصدّر لإسرائيل: تركيا والإمارات وماليزيا ومصر والأردن وأندونيسيا والجزائر والمغرب وتونس.. وكان لقطر علاقاتٌ تجاريةٌ منذ ١٩٩٦.

ماذا عن إيران نصيرة المقاومة الإسلامية في المنطقة؟ كانت طهران ثاني دولةٍ إسلاميةٍ تعترف بإسرائيل منذ عام ١٩٤٩ حتى ثورة الخميني عام ١٩٧٩، حين تعادت حكومة الثورة الإسلامية مع الإدارة والسياسة الأميركية النصير السابق لنظام الشاه الذي خلعته الثورة، وتحمّلت إيران حتى الآن خسائر اقتصاديةً واجتماعيةً كنتيجةٍ للتكالب الغربي الأميركي الإسرائيلي، وأداؤها معروفٌ حتى اليوم ٥٥٥ من حرب الإبادة والذي شهد بداية محادثاتٍ مع واشنطن مخطّطٍ لها أن تؤدّي لإنهاء العداء الإيراني مع الغرب والشيطان الأكبر وبالتالي، حياد إيراني إلزامي مع إسرائيل.

لا ندري اليوم كيف ستكون المفاوضات وما هي نتائجها، لكنّ المعروف أنّ طهران تعرض على واشنطن الصلح واتفاقية تطويرٍ نوويٍّ سلميٍّ تحت الرقابة، وفي المقابل بقشيش للرئيس ترامب بفتح الاستثمار الأميركي في إيران بمبلغٍ يراوح بين واحدٍ إلى أربعة تريليونات دولار.. استثمارات نفط وغاز ومعادن وإعادة بناء وتصنيع، وبالتالي انصياع واصطفاف تلقائي خلف واشنطن ثقافياً واقتصادياً وسياسياً. هذا المبلغ المعروض على الرئيس ترامب، هو أضعاف المبلغ الذي وعدت السعودية أن تستثمره في الولايات المتحدة، وبالتالي، سيكون لطهران الثقل الأوّل في المنطقة بدعمٍ أميركيٍّ هذه المرة.. الأمر طبعاً رهنٌ للمفاوضات، لكنّ خيارات طهران محدودةٌ جداً بين القبول أو تلّقي ضربةٍ لمفاعلاتها النووية وقواتها، ومن ثم تبادل الضربات حتى يُحسم الأمر بعد عدة جولاتٍ، والعرض المالي الاستثماري الإيراني مؤشرٌ واضحٌ لموقف طهران. (في ١٣ يونيو ٢٠٢٥ شنّت إسرائيل هجوماً

موسّعاً على إيران وشاركت واشنطن في الأيام التالية بضربةٍ جويةٍ للمواقع النووية الإيرانية، لكنّ المشروع النووي لم ينتهِ رسمياً، والحديث مع الغرب حول استمرار التفاوض قائمٌ).

في اليوم ٥٥٥ على دمار غزة وإبادتها تمهيداً لاستكمال إبادة شعبها، أعلنت أجهزة الأمن الأردنية ضبط خليةٍ إخوانيةٍ تخطّط لتصنيع صواريخ قصيرة المدى، وتمّ تفسير ذلك أنّ هذه الصواريخ تهدف للعمل في الداخل الأردني وليس ضد دولٍ مجاورةٍ، وقيل إنّ أجهزة الأمن ضبطت صاروخ كاتيوشا في أطراف العاصمة عمان ويقع ضمن مداه مناطقُ أردنيةٌ حيويةٌ، وذُكرت منطقة دابوق التي تحتوي بعض القصور الملكية.

بعض الجناة اعترفوا أنّهم من خلايا (أسر) حركة الإخوان المسلمين الممثّلة في البرلمان بثلاثين نائباً، ووزّع الحزب منشوراتٍ تطالب بالحرية للمعتقلين ومنهم بعض أعضاء الخلية الصاروخية، كما طالب نواب الإخوان بالعفو عن المضبوطين، بمعنى اعترافٍ بالعلاقة على الرغم من قول الحزب رسمياً إنّه تصرّفٌ فرديٌّ!! لكنّهم لم يشجبوا الفعل والفكرة التي تعني، أو تهدف لوجود ميليشيا مسلحةٍ موازيةٍ للنظام في الأردن.

هذا حدثٌ يعكس مفهوم العمل الحزبي الإخواني، فرغم تمثيلهم البرلماني إلّا أنّهم لا يمانعون من الاستعداد للجوء للعنف والانقلابات؛ فالديمقراطية لديهم أسلوبٌ للوصول إلى الغاية.. كما أنّهم يعتمدون الأسلوب الباطني، بمعنى إعلان الالتزام بالنظام والدولة والديمقراطية من جهةٍ، والتخطيط للانقلاب والتخريب والفوضى في الدولة التي أتاحت لك حرية العمل الاجتماعي والسياسي من جهةٍ أخرى. كما أنّ غالبية أعضاء وناخبي جماعة الإخوان لديهم تأطيرٌ نفسيٌّ مُعَادٍ للدولة وأيّ نظامٍ قائمٍ، ولا يوجد لديهم تربيةٌ وطنيةٌ، وإنّما يعتبرون كلّ بلدٍ كساحةٍ تخدم تطلعاتهم لإقامة كيانٍ

إسلاميٍّ بغض النظر عن حجمه.. كلّ أحزاب العالم تربّي كوادرها وأنصارها على حب الوطن ولكنّ الإخوان يربّون أعضاءهم على إضمار العداء للوطن طالما أنّه خارج إدارتهم، وبهذا الأسلوب وتلك الرؤية تمّ تخريب الدول العربية بفعل الإخوان ومموليهم.

للتذكير؛ فقد جرت انتخاباتٌ نيابيةٌ في الأردن سبتمبر ٢٠٢٤، وكان الملك قد أوصى بضرورة ضمان النزاهة، وكان من الممكن، كما يحدث في الدول العربية، تزوير نتائج هذه الانتخابات، لكنّ الملك والدولة والحكومة سعوا لسنواتٍ من أجل تشكيل أحزابٍ ومشاركتها في الحياة السياسية رسمياً، -وبالفعل- شهدت الانتخابات تنافس ١٦٢٣ مرشحاً ضمن ١٩٧ قائمةً محليةً وعامةً على مقاعد مجلس النواب البالغة ١٣٨ مقعداً. أعلنت الهيئة المستقلة للانتخاب أنّ نسبة الاقتراع بلغت ٣٢,٢٥ ٪ ممن يحقّ لهم الانتخاب، مسجلةً زيادةً طفيفةً عن انتخابات ٢٠٢٠، وأنّ نسبة الاقتراع تخطّت النسبة في الانتخابات السابقة، بينما شهدت نسبة مشاركة النساء في هذه الانتخابات «تراجعاً» قياساً بالانتخابات الماضية، حيث بلغت ٤٨ ٪ في حين بلغت نسبة اقتراع الذكور ٥٢ ٪.. حزبا جبهة العمل الإسلامي والحزب الوطني الإسلامي فازا بأكثر قليلاً من ٥٥٢ ألف صوتٍ من مجموع ١,٦٣٨,٣٥١ ناخباً، علماً بأنّ عدد من يحقّ لهم التصويت ٤ ملايين و٦٠٠ ألف مواطن وبالتالي، نسبة الأردنيين الذين مارسوا حقّهم الانتخابي لم يتجاوز ٣٦٪، وكما هو واضحٌ أن التحشيد الإسلامي أدّى لنتائج طيبةٍ للأحزاب والتوجهات الإسلامية ولم تعمل أجهزة الدولة على تزييف النتائج.. لكنّ الفكر الإخواني عدو ذاته ومتعجلٌ ولا يؤمن أصلاً بالديمقراطية وإنّما يسعى للسلطة ليتفرد بها، وهم يعرفون استحالة تطبيق رؤيتهم في الأردن دستورياً كون السلطات في يد الملك وبوسعه حلّ البرلمان. بدل أن يروا تأييد حوالي نصف مليون

ناخب لهم، وإمكانية الزيادة عبر العمل الطيب، رأوا أن أربعة ملايين ناخب لم يؤيدوهم، وبالتالي فلا بأس من تجهيز خططٍ انقلابيةٍ يلجأون إليها وقت الحاجة ولذلك عملوا على تصنيع الصواريخ.

اتضح أيضاً في هذا السياق أنّ الإخوان رفضوا الاشتراك في انتخابات ٢٠١٣ على أثر الربيع العربي، وتحرّك الإخوان في شوارع سوريا ومصر وتونس وغيرها.. حينذاك وضعوا شرطاً للمشاركة في العملية الديمقراطية وهو تغيير الدستور ونزع صلاحيات الملك! طبعاً حتى إذا تسنى لهم تشكيل حكومةٍ يلتصقون بها ولا يستطيع الملك حلّها.. فشل الإخوان في كلّ مكانٍ وبلدٍ؛ فقبلوا بالمشاركة في الانتخابات الأردنية.

في هذه الأيام اتضح أيضاً أنّ تركيا حبيبة الإخوان مهّدت لتوليهم سوريا على حساب اقتسامها مع إسرائيل.. جزءٌ سوريٌّ مجاورٌ أصبح تحت هيمنة تركيا، والجزء الآخر تحت هيمنة إسرائيل مع خلافاتٍ تركيةٍ إسرائيليةٍ حول الهيمنة الجوية الإسرائيلية على كلّ سوريا. لا مجال هنا لتكرار القول عمّا فعلته الفصائل الإسلامية المتفرعة من فكر وتربية الإخوان عبر الوطن العربي طوال السنوات الماضية، -وبالطبع- ما فعلته سياستها في غزة وما تؤول إليه الأوضاع بفضلهم في الضفة الفلسطينية.

انتهازية حركة الإخوان الممثلة في أساليبهم وتبريرهم لا مثيل لها؛ فهم يدّعون الارتكاز على الدين والنهج الأصولي، ثم يتلقون الدعم من بريطانيا منذ تأسيسهم وحتى الآن وكأنّ مكة المكرمة توجد في لندن.. مع بداية أزمة خلية الأردن وتنفيذ البلاد لحكمٍ سابقٍ بحلّ الجماعة، تحرّك تنظيمهم الأم، العالمي وهاجم الأردن وطالب الجماعة بعدم المهادنة وأن يتراجع المتخاذلون لصالح الجهاديين في التصدي.. هذه البيانات صدرت من لندن وتركيا حيث توجد قياداتهم العليا التي تطالب بالتصعيد!! وهم يدّعون التحررية

والاستقلال ومعاداة الاستعمار ثم يتحالفون مع القوى الرجعية، بل يصبحون أبواقاً وأدواتٍ ومخالب لها ضد قوى وأنظمة تحرّرٍ وطنيةٍ معاديةٍ فعلاً وقولاً للاستعمار، بل إنّهم تجنّدوا مع أميركا علناً في أفغانستان ضد السوفييت وها نحن نرى نتيجة نجاحهم هناك وتأثير ذلك في الشعب الأفغاني.. ونسأل الله أن لا تتكرّر النتيجة في غزة.

في الواقع إنّ واقعة الأردن تحتاج إلى تأمّلٍ؛ فقد ثبت باعترافات الخلية أنّهم تلّقوا التمويل من إيران عبر لبنان، ومن أعضاء لحماس في لبنان!! إيران التي تجتهد للصلح والاصطفاف خلف أميركا تريد تخريب الوضع في الأردن بفعلٍ إخواني!! وقيادة الإخوان تطالب بالتصعيد، وللتذكير فإيران شيعيةٌ والإخوان يقولون إنّهم سنة، علماً أنّ السنة يكفّرون الشيعة والشيعة يلعنون رموز السنة.. بمعنى كيف يتمّ الوفاق باسم الدين بين طرفين متعاديين في الأصل؟ إنّها الانتهازية الإخوانية.

ثم ما هو هدف الإخوان الخفي في الأردن على ضوء اعتقال واعتراف أعضاءٍ من الحزب بتدبير تصنيع صواريخ؟ هل يريدون مثلاً الاشتباك مع قوى الأمن والمجتمع وخلق حرب أهلية، أو على الأقل تحريك الأمن لقمع الحريات وإثارة الفتن؟ أو يريدون قصف إسرائيل بصواريخ أقل من مستوى صواريخ حماس في غزة، ولا تعادل بالنوع والحجم وعدد صواريخ حزب الله التي اختبأت.. وبالتالي، توريط الأردن في حربٍ ودمارٍ على غرار لبنان وسوريا واليمن؟ لماذا لا يهديهم تفكيرهم للاستفادة من البلاد كواحةٍ مسالمةٍ ويجتهدون لتقوية الديمقراطية والارتباط بالوطن، وتنمية علومهم واختراعاتهم المثمرة؟ يعني لو نجحت خليتهم وصنعت صواريخ واستعمالها في الداخل أو ضد إسرائيل؛ فهل ستؤدّي إلى أيّ خيرٍ؟ أم سيتكرّر حال لبنان وغزة.. وبالتالي، من هي الجهات المستفيدة من أفعال الإخوان،

ومن هم المتضررون؟ إسرائيل تريد وتمهّد لإسرائيل الكبرى، وبالتالي تبحث عن المبرّرات للعدوان والتوسع.. أفعال الإخوان أينما كانت وحسب التجربة ليست في صالح الإسلام والمسلمين، ولكنّها تخدم الخصوم على الدوام. التشويش والتهويش الجاهلي الإخونجي في الأردن جعلهم يتقربون ويحتمون بفلسطين، وبالتالي، إلصاق تهمةٍ جديدةٍ بالفلسطينيين في الأردن بأنّهم إخونجيةٌ معادون للنظام، وكثرٌ من ينتقد ويخلط بين الإخوان والأصول الفلسطينية في الأردن.. أي تمهيد لحربٍ أهليةٍ الجميعُ في غنىً عنها، ولكنهم يفضّلونها ويظنّون أنّهم يتقنونها.

لا بدّ من ملحوظة أنّ الدول المشمولة جغرافياً ضمن حدود إسرائيل الكبرى تعاني الحروب الأهلية، أو يُخطّط لها تلك المعاناة، وأنّ حركة الإخوان أداةٌ رئيسةٌ في خلق تلك الظروف الممهّدة للانتشار الإسرائيلي.

في زمن فترة الـ ٥٥٥ يوماً على مقتلة غزة نكتشف أن طهران ليست هي الدولة الإسلامية الوحيدة التي تُسخّر المعتقد لخدمة مصالحها، أو الدولة الوحيدة الجاهزة والمطالبة للانضمام إلى جانب أميركا بل السير في ذيلها. في كلّ الدول العربية تتمّ استشارة السفارة وأخذ موافقتها وموافاتها بالتفاصيل، وفي الكثير من الدول العربية توجد قواعد عسكريةٌ أميركيةٌ أقيمت برغبةٍ، بل أحياناً بطلبٍ وإصرارٍ من النظام العربي القائم كما في حالتي قطر والبحرين.. قطر المتبنية لحركة الإخوان والداعمة لهم على أمل أن يحكموا عبرهم حيث ينجحون، هي نفسها التي أقامت للأميركان أكبر قاعدةٍ في المنطقة، وحتى قبل أن توافق واشنطن على الطلب كانت القاعدة جاهزةً لتسليم المفتاح!! فهل يمكن مجرّد افتراضٍ أنّ حركة الإخوان وفكرها معادٍ فعلاً للسياسية الأميركية، أم يتمّ استغلالها وتطويع شارعها؟ وهل تصدّق الدوحة حقاً أنّ القاعدة سوف تحميها أو تحمي الدول الخليجية؟ إنّ التفوق التقني الإسرائيلي وبغض النظر

عن موافقة أو حجب الإدارة الأميركية.. التقنية الإسرائيلية بوسعها منذ زمنٍ السيطرة من بعدٍ على الرادارات والطائرات الأميركية والغربية أينما كانت.. ربّما يكون بوسع القطريين رؤية الطائرات الإسرائيلية في الأجواء بالعين، ولكنّ أجهزة إنذار قاعدة العديد لن تنطلق، والطائرات الغربية لدى قطر وغيرها لن تحلّق للاعتراض.. لقد جربناهم حين تقاعسوا عن حماية مواقع النفط السعودي من صواريخ إيرانية الصنع انطلقت من اليمن في ١٨ سبتمبر ٢٠١٩ أثناء مدة رئاسة ترامب الأولى.

كانت المملكة العربية السعودية المتبني الأول لفكر الإخوان واستغلال التنظيم ضد النظام الناصري وضد الأنظمة التحررية العربية.. مرّت العقود من تبني الرياض وتمويلها للحركة عبر العالم العربي وخارجه حتى تغولت الحركة في الداخل السعودي فانقلب الأمير الشاب عليها وعلى غيرها من الرؤى وتحوّلت السعودية إلى خصمٍ لدودٍ للحركة، وخصمٍ لممولتها قطر لعدة سنواتٍ.. المهم أنّ حركة حماس وبقية الإخوان في العالم روّجوا أنّ الرياض تريد التطبيع مع إسرائيل، وأن السابع من أكتوبر جاء لمنع هذا التطبيع!! هذه السردية الإخوانية مختلقةٌ تماماً وتستغل مبدأ ترويج الأكاذيب وتكرارها رغم منافاتها للحقيقة، لكنّ الإنسان المسلم الذي يعتمد الغيبيات، يصدق الأكاذيب حين تتكرّر بدل أن يستعمل عقله للتحليل. الرياض -بالفعل- أعلنت أنّها جاهزةٌ للتطبيع ولكن ضمن شروطٍ منها قيام دولةٍ فلسطينيةٍ على الأرض المحتلة عام ١٩٦٧، وهذا موقفٌ عربيٌّ وفلسطينيٌّ متفقٌ عليه، وأحياناً توافق عليه حركة حماس وأحياناً أخرى ترفضه.

المهم أنّ السابع من أكتوبر حدث، والسعودية لم تطبّع قبل ذلك أو بعده، والعالم العربي وحركة حماس والإخوان الآن يتمنون على السعودية أن تصرّ على موقفها المعلن، ويتمنون أن تبادل الرياض التطبيع مع إنهاء الحرب على

غزة وربّما إقامة دولةٍ فلسطينيةٍ!! بمعنى آخر يريدون الزجّ بالسعودية لأحضان تل أبيب مقابل نجاة حركة حماس والإخوان!! السعودية طبعاً تقول إنّها مع وقف العدوان ولكنّها لن تدفع ريالاً واحداً لإعادة البناء إذا استمرت حركة حماس في حكم قطاع غزة، والرياض تقول حتى الآن إنّها جاهزةٌ للتطبيع حين تلبي واشنطن شروطها ومنها شرط إقامة دولةٍ فلسطينيةٍ عاصمتها القدس الشرقية.. إذاً ومن ضمن الأسئلة الكثيرة المتولدة من هذا الحال، لماذا يهاجم الإخوان بكلّ أجهزتهم وكياناتهم، يهاجمون السعودية ولا يهاجمون قطر أول المطبّعين، أو تركيا أوّل المسلمين المعترفين بالكيان وأكبر مُصدّر مواد غذائيةٍ لتل أبيب بينما يتمّ تجويع غزة، أو بريطانيا أمهم الحنون وأصل البلاء؟ وحين تتصالح طهران وواشنطن وتنطفئ شمعة العداء الإيراني الإسرائيلي فهل سيهاجم الإخوان طهران أم يسكتون عنها إذا تواصل تسريب الدعم المالي لهم؟ وهل يا ترى تطالب إيران في مفاوضاتها مع واشنطن بوقف الإبادة في قطاع غزة أم سيتمّ التخلي عن القضية وتتذكر إيران أنّها دولةٌ غير عربيةٍ وغير سنيةٍ وليست عضواً في الجامعة العربية؟ يعني تطبيق أغنية ورطونا لنص البير وقطعوا الحبل فينا!

كل من يعترض حركة الإخوان المسلمين يصبح عدوهم، ولا يتهاونون في الدسيسة ضده حتى بعد مماته ونهاية زمانه، ومن يؤوهم ويطعمهم يمجدوه بالزور حتى لو كان من أفضل أصدقاء عدوهم، والأمثلة على ذلك كثيرة.. كان الرئيس عبد الناصر إخوانياً، وعندما تزعم الثورة والبلاد اجتمعوا معه وطالبوه بأخونة مصر، وطلب منه شيخ الأزهر باسمهم أن يأمر بلبس الحجاب! كان ناصر يعرف أنّ ابنة الشيخ تدرس الطب وغير محجبةٍ؛ فقال للشيخ: كل واحد يحجب بناته، أنا لا أستطيع فرض اللباس كذا مليون ست الطرحة (الحجاب).. حاولوا اغتياله فجاب آخرتهم وتولّد العداء والتحريض

عليه حتى بعد موته ولم يكن في بيته أو حسابه البنكي أكثر من ٦٠٠ جنيه ولكنّهم اتهموه بالسرقة وبكلّ الموبقات!! ناصر الذي وسّع الأزهر وجعله جامعةً مرموقةً، والذي أسّس إذاعة القرآن الكريم لتبث الآيات على مدار ٢٤ ساعة، والذي أمّم قناة السويس من الغرب، وأمّم الإقطاع ووزّع الأرض على الفلاحين وغير ذلك الكثير جداً، لم يشفع له عندهم وجعلوه كافراً وهدفاً لحقدهم الأبدي.

على الطرف الآخر فلدينا أردوغان جعلوه شيخ المتقين وأعلنوا تركيا دولةً إسلاميةً يُحتذى بها.. أردوغان الذي لا يرحم أيَّ معارضٍ، وصديق زعماء الكيان كلّهم.. والأهمّ من ذلك أنّ الرجل يقول ويكرّر أنّ تركيا ديمقراطيةٌ علمانيةٌ وليست نظاماً إسلامياً، ولكنّهم يؤكّدون أنّ تركيا جمهوريةٌ إسلاميةٌ غصباً عن الدستور التركي وتاريخ وممارسات البلاد. ولدينا أيضاً مثال النظام الملكي الأردني الذي تحالفوا معه ضد القوى الناصرية والقومية، ثم شكّلوا منظمةً فدائيةً للشيوخ بعد النكسة للتعاون مع النظام، ورفضوا المشاركة في القتال إلى جانب الثورة.. وها هم الآن يتآمرون على النظام والمجتمع ويدّعون السعي لنصرة حماس الإخوانية عبر تصنيع الصواريخ في الأردن بعد أن بدّلوا الولاء ونسبوا ذاتهم لفلسطين وثورتها، حتى يخرّبوا بيت الأردنيين من أصلٍ فلسطيني ويشرخوا البلاد التي استضافتهم وحمتهم طوال عقودٍ طويلةٍ.

حتى في مصر استمرّ عداؤهم لكلّ الأنظمة بعد الإنجليز والملكية اللهم نظام محمد مرسي الذي هو الطاهر الوحيد.. الإخوان يمجّدون الاستعمار الإنجليزي وأيامه، ويتمنون علناً عودة الملكية المصرية.. أيام كان فاروق يركب -فعلياً- على ظهر الفلاحين ليعبروا به منطقةً قذرةً أو مطيّنةً.. أمّا عدوهم اللدود الآن فهو الرئيس عبد الفتاح السيسي الذي يرفضون أن يسجّلوا

له أيَّ نقطةٍ إيجابيةٍ، وهذا يتطلب مني التوقف عند بعض الحقائق والمواقف، والقليل من الإنصاف للرئيس السيسي، وذلك بعد تسجيل أنّني عاجزٌ للآن عن دخول مصر، وأنّني حُرمت من فرص زيارة قطاع غزة عبر مصر منذ أيام الرئيس مبارك.

أقول وأسجّل أنّ للرئيس السيسي أفضالاً جليلةً على القضية الفلسطينية -وخصوصاً- منذ غزوة أكتوبر ٢٠٢٣ التي لم تستشر مصر فيها. لو تقبّل النظام المصري فكرة التهجير لسكان القطاع وقبض الثمن المالي الذي عرضوه عليه.. لو تقبّل ذلك ولم يصمد ضد الإغراء والوعيد لكانت قضية فلسطين قد انتهت، وسكان القطاع تشتتوا خارج فلسطين وتبعهم سكان الضفة الغربية.. السد العالي الذي صمد هو نظام السيسي. أيضاً عندما تنبّه العالم لعدوانية الرئيس ترامب في لقاءاته لضيوفه، رفض السيسي الدعوة بالذهاب للبيت الأبيض وتجاهل كلّ الضغط العلني والابتزاز بقطع الدعم إذا رفض التهجير، ولكنّه رفض وضرب بهم عرض الحائط، وهذا ما لم يفعله أيّ زعيمٍ عربيٍّ أو عالميٍّ سواء لدولةٍ غنيةٍ أو فقيرةٍ!

هناك شؤونٌ أخرى تسجّل لمصلحة السيسي ومصر.. مثلاً قضية تنويع السلاح، وعسكرة سيناء، وتحسين سلاح الجو هجوماً ودفاعاً. لقد أصبح من المعروف أنّ الأسلحة الأميركية المتقدمة -وتحديداً- الطائرات التي تقدّم أو تُباع للدول العربية أو لغيرها، مرتهنةٌ بقرارات استعمالٍ أميركيةٍ، أي -باختصارٍ- واشنطن بوسعها إبقاء طائرات مصر في مطاراتها بكبسة زرٍ، إذا كان هدفها الانطلاق ضد أهدافٍ تعارض الرؤية الأميركية. كذلك معروفٌ لكلّ مراقبٍ ومتابعٍ أنّ واشنطن لا تقدّم للعرب أنظمة دفاعٍ جويٍّ متطوّرةٍ حتى تبقى الطائرات الإسرائيلية تصول وتجول في الأجواء العربية، وهذه المعضلة صاحبت العرب عقوداً طويلة وفتحت باب التفوق الجوي الإسرائيلي الذي

يحسم كلّ الحروب. اتضح لنا فجأةً أنّ الرئيس السيسي قفز عن هذا الواقع، زوّد سلاح الجو بطائراتٍ فرنسيةٍ متطوّرةٍ، وبأنظمة دفاعٍ جويٍّ متنقلةٍ، وبأحدث أنظمةٍ صينيةٍ للدفاع الجوي، والأهم من هذا وذاك؛ فالطيارون المصريون يتدربون على طائراتٍ صينيةٍ تفوق قدرات أف ٣٥ الشبح الأميركية ذائعة الصيت.. أي أنّ مصر تتعامل تسليحياً مع الصين رغم التحذيرات والتهديد الأميركي.. بالنسبة لي فهذه الأمور تشطب كلّ الاتهامات والبذاءة التي يروّجها الإخوان في كلّ مكانٍ على الرئيس السيسي.. وقد يجد هؤلاء الأشرار في يومٍ ما أنّ مصر هي السند القومي واليد الضاربة التي ستقف وتدافع عن الأمة بكلّ فئاتها.. هم يخرّبون الجبهات الداخلية ويتآمرون مع أهداف الغرب وإسرائيل ويولولون بالمظلومية، ولديهم الاستعداد لخراب البلدان من أجل أن يحكموها بالعقلية الغيبانية.

في شهر يوليو ٢٠٢٥ أمرت قيادة الإخوان في لندن كلّ الساحات بمهاجمة السفارات المصرية واتهامها بتجويع غزة عبر إغلاق المعبر!! المعبر المغلق عبر الاحتلال من الطرف الفلسطيني، والذي هو مخصّصٌ للركاب وليس للبضائع.. الظريف أنّ إخوان فلسطين ١٩٤٨ الممثلين في الكنيست حملوا أعلام إسرائيل وتظاهروا أمام السفارة المصرية في تل أبيب، ولم يكونوا قد تظاهروا قط قبل ذلك ضد المقتلة ولم يشاركوا حتى مع أو مثل اليهود الذين تظاهروا ضد حكومتهم على القتل والتجويع.. فجأةً رفعوا أعلام إسرائيل وتظاهروا ضد السفارة المصرية في تل أبيب؛ فأيّ مسخرةٍ ومعرةٍ هذه؟

ماذا بعد؟ كمواطنٍ صالحٍ قلت وكتبت طوال عقودٍ وحتى الآن، بضرورة فصل الدين عن السياسة؛ فحيث تهيمن الديانة على السياسة والمجتمع تكون بداية الانهيار والخراب والحروب والكراهية والسلب والنهب.. ومن طبيعة

الأمور أن يسيطر الجهلة والدجالون على قيادة الدين، كما أنّ أيَّ قيادةٍ عسكريةٍ فوضويةٍ للمجتمع تؤدّي للدمار بحكم ضرورة غباء قادتها، وليس سراً أو سحراً أنّ الدول والأنظمة المطبّقة للديمقراطية والرقابة الانتخابية توجد في أوائل جداول التطور والرخاء وراحة المواطن ورعايته، بينما الأنظمة الدينية والعسكرية تجرّ الفقر والحرب والمزيد من الجهل، وها هو العالم أمامنا يؤكّد هذا الاستنتاج.

الإشكالية في هذه الدول والمجتمعات المتخلّفة أنّها اتكاليةٌ بالضرورة لارتباطها بالديانات وبالتالي لا تؤمن بإمكانية التنمية الذاتية والمجتمعية، ولا تجرؤ على التفكير خارج الصندوق، والفئات الجريئة تترك البلاد وتهاجر، وهذا يحوّل البلاد تدريجاً إلى ملجأٍ للعجزة فكرياً والأقل قدرة على التفكير والتطوير المجتمعي.. كما أن العقلاء الذين لا يهاجرون يعلّمون أبناءهم في مدارسَ خاصةٍ ذات مناهج منطقيةٍ علمانيةٍ وبلغاتٍ أجنبيةٍ؛ فيتخرّج هؤلاء لمناصب ووظائف مُجديةٍ وينسلخون عن شمولية المجتمع بدل تطويره.. لذلك تجد في الدول المتخلفة رسمياً، مجتمعاتٍ صغيرةً تبدو وكأنّها مستوردةٌ شكلاً ومضموناً.

تحضرني هنا ذكريات الشباب، ومطالعة مؤلفات ماوتسي تونج التي كان التقليديون يسخرون من جدواها.. اليوم وبعد عقودٍ قليلةٍ تحوّلت الصين من دولةٍ تحت الاستعمار وتعاني استهلاك الأفيون والفقر المدقع لأغلبية الشعب ومنغمسةٍ في الخزعبلات والشعوذة، تحوّلت بفضل آراء ماو ومطالعتها وتطبيقها، إلى الدولة الأولى في العالم.. نعم وبكلّ موضوعيةٍ أصبحت الصين بعد التخلص من الأديان وخدرها، أصبحت الدولة رقم واحد عالمياً في الصناعة والفن والاقتصاد والابتكار، ولا يخلو أيُّ بيتٍ في الكرة الأرضية من بضعة منتجاتٍ صينيةٍ.. وعليكم السلام.

نصائح مجانيةٌ لله:

إذا لم تصنع أسلحتك الذاتية وبتقنيةٍ عاليةٍ؛ فلن تنفعك أسلحة الشرق لأنّها ستكون من جيلٍ أقدم، بينما أسلحة الغرب الغالية مخصيةٌ لمصلحة إسرائيل وضمان تفوقها؛ فاخترع وطوّر لنفسك.

ليس بوسعك صنع واستعمال التقنية دون بناء أجيالٍ متلاحقةٍ بديمقراطيةٍ وحريةٍ اجتماعيةٍ ومحاربةٍ للغيبيات حتى تضمن السرعة في الصعود وتحرق المراحل.

الحماية الخارجية حتماً شكليةٌ، وتسعى لكسب المال عبر بيع مخلفات التقنية، بينما القواعد العسكرية الأجنبية لا تعمل لمصلحتك وحمايتك ولكن للسيطرة على بلادك.

النقمة التي أصابتنا كعرب، هي وجود كيانٍ عنصريٍّ قويٍّ متطوّرٍ تقنياً ومدعومٍ غربياً في وسطنا، يسعى لاحتلالٍ متلاحقٍ لما يستطيع هضمه والهيمنة على كل الإقليم بانتظار السيطرة، وبدل أن يكون هذا حافزاً لوحدتنا ورقينا فدولنا حكوماتٌ وشعوبٌ تنتظر الضربات المفاجئة الواحدة تلو الأخرى، ونمتهن فن التخمين والتحليل لما سيحدث ومن ثم غرس الرؤوس في الرمال بانتظار الشلوت في المؤخرة... قبّحنا الله.

مع القذافي

لا أدري إذا كنّا كفلسطينيين تحديداً، وكعربٍ عموماً، قد أهدرنا فرصة تفهّم التعاون مع الزعيم معمّر القذافي والاستفادة منه، أم انسقنا خلف الدعاية المضادة وهمّشنا الفرص؟ سأتحدث هنا عن تجربتي ورؤيتي بهذا الشأن.

في صيف ١٩٨٧ شاركت بالنيابة عن صحيفة العرب في مؤتمر للصحافيين العرب عُقِد في طرابلس، ويبدو أنّ بعض المسؤولين وأعضاء القيادة كانوا يطالعون ما أكتب، فكان بعضهم يرحّب بي على جانب الاجتماعات ويباشرون في النقاش.. وبصراحةٍ لم أكن أعرف ملامح معظمهم، وكانوا هم يظنّون أنّهم مشهورون ومعروفون إلى درجةٍ لم يُعرّفوا بأنفسهم. على أثر أحد النقاشات في طرابلس التقيت رئيس تحرير مجلة تصدر من قبرص (ليبي)، وكنت أكتب لها أحياناً.. مددت يدي للسلام على الرجل؛ فقال إنّه لا يسلّم على من يجاملون رئيس المخابرات.. استغربت واستنكرت واستفسرته بشبه الإكراه ماذا يقصد؛ فقال إنّ الذي أطيل الحديث معه هو مسؤولٌ في الحكومة الليبية، وعضو مجلس الثورة ومن الضباط الأحرار. أجبت الرجل بما يفهم منه درجة غبائه وتركته لحاله. المهم هنا أنّ أحد ضباط المكتب القومي تقرّب إليّ لاحقاً ودخل معي في حوارٍ يفيد أنّهم يبحثون عن كفاءاتٍ علميةٍ عربيةٍ تسهم في بناء بنيةٍ تسليحيةٍ غير تقليديةٍ، وأشار إلى رئيس المكتب القومي؛ فإذا به الشخص نفسه الذي لم يعجب الإعلامي الليبي القبرصي. استنتجت أنّهم

يتابعون كتاباتي العسكرية ولديهم ثقةٌ إلى درجة الحديث معي في الأمر.. لكن للأسف لم يكن عندي ما أقدّمه في هذا المجال.

غنيٌّ عن القول أنّ هذا الأسلوب تكرّر مع آخرين ويبدو أنّهم عثروا على طرقٍ وأقاموا صناعاتٍ عسكريةً كيميائيةً، ونوويةً قابلةً للتخصيب العسكري، لكنّ الأمر انكشف بسرعةٍ وربّما منذ البداية، وتنازلت طرابلس طوعاً عن برامجها العسكرية هذه. اتضح لاحقاً أنّ البداية كانت حين طالب القذافي عام ١٩٧٥ موسكو بالمساعدة على التخصيب، علماً أن ليبيا جمعت كميةً من المادة الصفراء التي تُطحن ثم تُخصّب لإنتاج اليورانيوم.. (الكعكة الصفراء)، لكنّ موسكو رفضت واقترحت البديل بتقديم مفاعلٍ صغيرٍ للأغراض الطبية والسلمية. تقبّل القذافي الأمر واستفاد من تدريب السوفييت لخبراء ليبيين، لكن ذلك لم يتوافق مع الطموحات العسكرية، وكان الأفضل للعقيد لو توجّه إلى شراء قنابل جاهزةٍ –وخصوصاً– حين انهار الاتحاد السوفييتي.. المهم أنّ القذافي لجأ إلى شبكات التهريب النووي، واقتحم السوق السوداء من أجل الحصول سرياً على التقنية النووية.. ويبدو أنّ الفرصة قد سنحت عام ١٩٨٤ حين عقد مسؤولون ليبيون اجتماعاً سرياً مع العالم الباكستاني عبد القدير خان، المهندس الرئيس للبرنامج النووي الباكستاني والذي وفّر لليبيا مخططات أجهزة الطرد المركزي ومعداتٍ حساسةً أخرى عبر شبكته الدولية الممتدة من ماليزيا إلى جنوب أفريقيا.

في أكتوبر٢٠٠٣، ضُبطت شحنةٌ سريةٌ من مكونات أجهزة الطرد المركزي المتطوّرة المتجهة إلى ليبيا على متن سفينة شحنٍ ألمانيةٍ، وذلك في عمليةٍ استخباراتيةٍ مشتركةٍ قادتها الولايات المتحدة الأميركية بميناء تارانتو الإيطالي. وكشفت التحقيقات أنّ هذه المعدات المصممة لتخصيب اليورانيوم في ليبيا كانت جزءاً من صفقةٍ سريةٍ مع شبكة العالم الباكستاني عبد القدير

خان، وتمّ شحنها عبر شركةٍ ماليزيةٍ، وأزاح هذا الاعتراض الاستخباري الستار عن إحدى عمليات تهريب التقنية النووية في العالم، وأسفر فيما بعد عن ضغوطٍ دوليةٍ مكثفةٍ أدّت إلى تخلي ليبيا عن برنامجها النووي بعد شهرين فقط. وأعلن القذافي تخليه الطوعي عن المشروع يوم ١٩ ديسمبر ٢٠٠٣، وسلّمت طرابلس المعدات والوثائق النووية كافة لواشنطن مباشرةً بعد ذلك في يناير ٢٠٠٤ تحت إشراف الوكالة الدولية للطاقة الذرية.. خطوةٌ اعتبرها البعض آنذاك محاولةً من القذافي لتفادي مصير الرئيس العراقي الراحل صدام حسين الذي أطيح به قبل أشهرٍ قليلةٍ من ذلك التاريخ عقب الغزو الأميركي للعراق، وشكّل هذا الحدث نهايةً لمحاولاتٍ سريةٍ استمرت ثلاثة عقودٍ من أجل تطوير سلاحٍ نوويٍّ في ليبيا.

أصبح تفكيك البرنامج النووي الليبي نموذجاً تطالب إسرائيل بتطبيقه على إيران منذ عام ٢٠٢٤ وما تبعه، -وبالطبع- فأكثر ما تستعد له طهران هو اتفاقٌ نوويٌّ مع واشنطن يضمن منع تصنيع سلاحٍ نوويٍّ ولكن مع استمرار التخصيب بنسبٍ منخفضةٍ للأغراض السلمية. ولا أدري إذا توجب شكر الآلهة على فشل البرنامج الليبي وتوقفه، فماذا لو نجح القذافي في امتلاك السلاح النووي؟ هل كان يستعمله ضد الثورة المضادة التي أزاحته؟ هل كان ليستعمله قبل ذلك ضد إسرائيل ويتحمل النتائج اللاحقة؟ لقد أعلن في مارس ٢٠٢٣ فقدان عشرة براميل تحتوي على حوالي ٢,٥ طن من اليورانيوم الطبيعي (الكعكة الصفراء) من مستودعٍ غير مؤمّنٍ بشكلٍ كافٍ في جنوبي ليبيا، في منطقة قريبة من الحدود التشادية. وكان المفترض أن تراقب وكالة الطاقة الدولية هذا المخزن ولكنّها عجزت عن زيارته لاضطراب الأمن، وحين تمّت الزيارة اكتُشفت السرقة وأُعلن ثاني يوم العثور على البراميل!!

التخصيب النووي حقٌّ لكلّ الدول، ولكنّه يحتاج إلى حكوماتٍ وبلدانٍ قويةٍ لفرض ذاتها والتصدي للمعترضين والمهددين.. كلّ الدول العظمى خصّبت وأنتجت القنابل، والدول الإقليمية مثل باكستان والهند صنعت القنابل ووضعت الجميع أمام الأمر الواقع، وكذلك فعلت كوريا الشمالية، وهذا ما تحاول إيران عمله لكنّ إسرائيل تترصدها كما نرى منذ عقود؛ فحين تصنع وتجرّب ويتضح أنّك تملك القنبلة يتمّ السكوت عنك والابتعاد عن مضايقة بلادك، وحين يشعرون بمحاولاتك فإنّهم يتصدون بحججٍ متعددةٍ. طبعاً هناك حلولٌ وطرقٌ أمام الدول التي تسعى لحماية ذاتها من الخطر النووي في حوزة خصومها، وكان من الأفضل اللجوء إليها في حالة ليبيا أو لاحقاً الآن بالنسبة لأيّ دولةٍ عربيةٍ.

مثلاً كان بوسع ليبيا -نظرياً- اللجوء إلى مصر والاتفاق معها وتزويدها بالمال لإنتاج قنبلةٍ عربيةٍ، ومصر مؤهّلةٌ علمياً وعسكرياً.. لكنّ مصر أصبحت منبوذةً عربياً بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ وتوجّه السادات للمهادنة والسلام وزيارة القدس المحتلة، ولم تتحسن العلاقات الليبية المصرية بعد السادات في عهد الرئيس مبارك. عموماً كان العرب قد نجحوا في الاتفاق على الاختلاف الدائم بعضهم مع البعض الآخر، وبالتالي، لا توجد فرصٌ للتوافق على إنتاج قنبلةٍ عربيةٍ رادعةٍ لإسرائيل أو لإيران أو غيرهما ممّا قد يستجد.

الخيار العملي الآخر كان ولا يزال، الاعتماد على جهاز استخباراتٍ وطنيٍّ يرصد أماكن تخزين المواد الخطرة والأسلحة الفتاكة لدى الأعداء، وتطوير أو شراء قنابل وصواريخ قادرةٍ على الوصول إلى تلك الأهداف، وبالتالي ضربها بشكلٍ استباقي؛ فتحدث الخسائر المرجوة وكأنّك قصفتها بذلك السلاح الذي تخزنه.

الخيار الثالث السهل والذي يمكن الحفاظ على سريته هو إنتاج «قنابل

نووية قذرة» وهي سهلةٌ نسبياً، أو تطوير أسلحةٍ أخرى، ولكنّ المهم هو توفير الطرق لإيصالها.. وهذه معضلةٌ عربيةٌ فاضحةٌ! منذ اختراع الطائرة واستعمالها حربياً من الاستعمار الغربي في الحرب العالمية الأولى، كان العرب يركضون تحتها ويلوّحون بالسيوف وهي تمطرهم بالرصاص.. استمر الفارق التقني حتى الآن تقريباً، أي بعد أكثر من قرنٍ لم ننجح في ردم الهوة، ولم ننجح في ردع طيران العدو، أو ضمان التجول في الأجواء الاقليمية أو الوطنية! طبعاً يمكن إيصال القنابل النووية القذرة أو أخواتها بطرقٍ أخرى، وذلك حسب المكان المستهدف، لكنّ المهم هنا هو وجود قرارٍ ويتمّ اتخاذه، وطبعاً التخلص من الهيمنة والخروج من الصندوق.

الخيار الرابع والأسهل هو بناء جيلٍ من العلماء عبر تنمية العلم وتشجيع العلوم واصطفاء الأفضل.. ومهما كلّف مثل هذا التوجه؛ فهو أرخص بكثيرٍ من خيارات التخصيب والتسليح والحروب، وبوسع التقنيين والمُطورين شلّ اقتصاد وعصب أيّ بلدٍ من دون حروبٍ، كما أنّه السبيل الأسرع عملياً.

أتحدث في هذا الشأن وتلك التجربة للإشارة والتنبيه أنّه توجّهٌ سليمٌ وحتميٌ حتى لا نقع فريسةً للضباع؛ فلا بدّ من رادعٍ فعّالٍ.. وكان توجّه معمر القذافي صحيحاً، ولكنّ طريقه لم يكن مدروساً، وتوجب عليه وأصحابه معرفة أنّ واشنطن وتل أبيب لم تكن لتتركهم يحترزون أسلحةً متطورةً بسهولةٍ. في رحلتي تلك إلى الجماهيرية اتضح لي مثلاً أنّ الليبيين يعرفون اهتمام واشنطن بهم وأنّهم يشنون عليهم حرباً نفسيةً. كلّ ليلةٍ مثلاً كانت غواصةٌ أميركيةٌ تطلق زورقاً فيه جنودٌ ينزلون على أحد شواطئ ليبيا ويتركون آثاراً تدلّ على وجودهم وما يوحي أنّهم يجتمعون مع أشخاصٍ ثم يغادرون، وذلك بهدف تشكيك القيادة الليبية بوجود جواسيس محليين وخططٍ مضادةٍ. السواحل الليبية طويلةٌ جداً، ١٨٢٢ كيلومتراً، ولا تملك الدولة سبل رقابةٍ

تمكّنها من اعتقال المتسللين بضع دقائق، بينما الغواصة في البحر تختار المناطق الآمنة للإنزال. أتذكّر بهذا الصدد أنّ إسرائيل نفسها لم تتوافر لديها طرق إنذارٍ ساحليٍّ؛ فكانت منذ النكسة حتى الانسحاب من القطاع، كانت تمشّط الشاطئ لقطاع غزة في المساء وتعود لتفحصه في الصباح لملاحقة إذا كان أي أحدٍ قد دخل إلى البحر أو خرج منه ليلاً.

في سنوات لاحقةٍ تسنّى لي زيارة بعض الدول الأفريقية الفقيرة، ووجدت أنّ القذافي قد أقام العديد من المساجد في تلك الدول، واستغربت هذا التوجّه، واستهجنت لاحقاً وحتى الآن هجوم حركة الإخوان المسلمين على قائدٍ كهذا، يريد ويسعى للتخلص من الاستعمار والهيمنة وخلق الردع وأيضاً يشجّع على انتشار الإسلام في أفريقيا.. هذا ذكّرني بالماضي حين هاجم الإخوان وما زالوا يشوهون صورة الرئيس عبد الناصر، كما أنّهم يهاجمون بضراوةٍ الأمير محمد بن سلمان، الذي يسعى عملياً لهدف الردع والتطوّر ولكن عبر التعاون الأميركي.. هو يستقبل الرئيس ترامب ويعقد اتفاقياتٍ نوويةً سلميةً وعقود تسليحٍ حديثٍ وبناء تقنيةٍ، كما أنّ الأمير يُحدّث التعليم، لكنّه بالنسبة للإخوان مارقٌ كونه حرّر المجتمع من قيود الشيوخ التي تدخلت في خصوصيات الناس.. الإخوان يريدون من يفرض تقاليد التخلف حتى يروقهم.. أمّا ابن سلمان الذي أزال الحصار عن المسلمين وعن النظام الإسلامي في سوريا، والذي يسعى لوقف حمام الدم في غزة فهو بالنسبة لهم عميلٌ أميركاني.

يشترك القذافي وابن سلمان في فكرة التصدي للدولار الأميركي وخلق بديلٍ له.. القذافي سعى لفكرة الدينار الذهبي كبديلٍ، ولكنّه لا يملك المال لتنفيذ فكرةٍ كهذه ولم يجد حلفاءً له سوى القلة في أفريقيا؛ ففشلت الفكرة. أمّا الأمير محمد فقد انضمّ إلى دولٍ قويةٍ اقتصادياً مثل الهند وجنوب أفريقيا

والبرازيل والصين وروسيا وبعض الدول العربية، في تجمعٍ لخلق عملة البريكس للتبادل التجاري الداخلي بها بين الدول الأعضاء بدل استعمال الدولار، وهكذا قد تنجح هذه الفكرة بينما كان الإعدام مكتوباً على فكرة الدينار الذهبي.

إذا عدنا سريعاً للحديث عن القذافي؛ فيمكن القول إنّ عوامل عدةً أدّت إلى فشل محاولاته وقادت في النهاية إلى مصيرٍ أرادوه مهيناً ولكن اتضح أنّ الشعب عاد يترحم على أيامه ويحتفل في ذكرى الفاتح من سبتمبر. في زيارتي تلك إلى الجماهيرية عقد القذافي لقاءً مع الصحافيين العرب وحضرت بعد إشغال الكراسي حول الطاولة فوضعوا لي كرسياً على الزاوية إلى جانب الزعيم.. كانوا قد منعوا التسجيل الصوتي وسمحوا بالكتابة، لكنّي وضعت مسجّلي أمام القذافي وسألته مباشرةً إذا أمكنني التسجيل؛ فقال: «سجّل زي ما تبي». سجّلت ما لم يمكن نشره، لم يمنعني أحدٌ ولكنّي قرّرت عدم النشر لأن القذافي أكثر وبالغ في شتائم للرئيس مبارك، وكلّما حاول أيُّ صحافيٍّ مصريٍّ الاحتجاج كان السباب يصله أكثر منه، وصار يسبّ ويشتم الشعب الذي يتحمّل قائداً مثل مبارك.. في النهاية قلت له عندي سؤالٌ؛ فقال على مسمع مرافقيه: لماذا تسأل فلديك التسجيل لكلّ شيءٍ. قلت له إنّه سؤالٌ إلى صحيفتي.. المهم سألت وأجاب، وقرّرت حينذاك عدم وضع شريط التسجيل في غرفة الفندق.. في ثاني يوم كانت أشيائي قد اختفت من الغرفة وسألت الاستقبال فادعوا الجهل بالموضوع وقالوا ربّما خطأ من فريق التنظيف، وبعد ساعتين أبلغوني أنّهم وجدوا أشيائي في غرفةٍ أخرى تمّ نقلي إليها.. طبعاً لم يعثروا على التسجيل ولم يطلب أيّ أحدٍ الحصول عليه أو عدم نشره، كوني سجّلت بإذنٍ مباشرٍ من الزعيم.

أحد العوامل التي أدّت لنهاية القذافي هو لسانه السليط ضد الجميع.

في مؤتمرات القمة العربية كان ينتقد ويستهزئ بالقادة العرب، وأنا شبه متيقن أنّ سخريته من الشيخ حمد أمير قطر في مؤتمر قمةٍ عزّز العداء المبطن والاستعداد القطري للانتقام؛ فكان الهجوم الدائم من الجزيرة، ثم في الربيع العربي كانت الجزيرة قد جهّزت خطة الزحف على القذافي.. جلبوا فريق قواتٍ خاصةٍ بريطانياً أُنزل من الجو على الحدود الليبية مع مصر، وتقدّمت الجزيرة بحماية القوات الخاصة تبثّ الأخبار وتفبرك الأحداث وتشجّع سكان بنغازي، وواصلت المسير حتى قصر العزيزية في طرابلس ولاحقوا القذافي حتى تحققوا من مهاجمة طيران الناتو لقافلته ثم الإيعاز للأوباش بقتله، وكانت الجماعات الإسلامية الممولة من قطر قد نفّذت ومهّدت وأنجزت حتى أوصلوا ليبيا إلى نهايتها.

كان لسان القذافي سليطاً على شعبه أيضاً، كان يريدهم أن يقفزوا للأمام بثوريةٍ وتلبية رؤيته، ولكنّهم كانوا في وادٍ وهو في وادٍ آخر.. أراد لهم أن ينتجوا ما يأكلون ومنع الاستيراد؛ فلم يوجد في الأسواق سوى معلبات صلصة الطماطم وعلب التونة.. صنع لهم النهر الصناعي العظيم وجلب الماء من قلب الصحراء إلى مناطق الوجود السكاني لكنّ الزراعة لم تزدهر، صار يخبرهم أنّهم القادة وأنّه مواطنٌ عاديٌّ ولكنّهم لم يصدقوه.. في أحد اجتماعات المؤتمر الشعبي العام الذي يضم ٢٧٠٠ مندوبٍ طالبهم بالشجاعة وما شابه ذلك، ثم سألهم إذا كانوا رجالاً، وإذا أرادوا أن يُحضر لنسائهم رجالاً من(...) لينجبوا رجالاً.. لم يجيبوه، ولكنّهم كرهوه.. أرادوا أموال النفط وحياةً تشابه أهل الخليج وعدم الإنفاق على الثورات والأسلحة، ولذلك لم يتحركوا لنصرته حين هجمت الجزيرة والجماعات الإسلامية والنظام الغربي على نظامه.

كان معمر القذافي يعاني قلة تعداد الشعب الليبي وقدراته البشرية، وكان

متسرعاً في طلب الوحدة العربية كونه يعتبر نفسه زعيماً محتملاً ووريثاً لجمال عبد الناصر؛ فلم يمانع في أيّ وحدةٍ عربيةٍ، ولكن لم تنجح أيٌّ واحدةٍ. قبل مؤتمر قمة سرت في ليبيا مارس ٢٠١٠ خطّط القذافي وحاول إقناع عمرو موسى أمين عام الجامعة العربية، أن تعلن القمة وحدة الدول العربية ويعلن القذافي رئيس الدول العربية وعمرو موسى وزير خارجيتهم، وتمّ تقديم مقترحٍ بذلك إلى جانب مقترحٍ من الرئيس اليمني عبد الله صالح لتوحيد العرب، وتشكّلت لجنةٌ خماسيةٌ لمناقشة هذه المقترحات، لكنّ شيئاً لم يحدث بالطبع؛ فالجميع كانوا يعتبرون القذافي ومقترحاته فوضويةً ويسايرونه لتجنب لسانه.

إلى جانب رغبته وتسرّعه في توحيد العرب كان القذافي يظنّ بقدرة العرب على محاربة إسرائيل والغرب من خلفها، وحدث أن استمع للحربجية الفلسطينيين الذين أقنعوه برفض رؤية عبد الناصر لتقبل مشروع روجرز ١٩٧٠ وضرورة الحرب ضد إسرائيل؛ فحادث القذافي ناصر هاتفياً، والذي أفهمه بالوقائع والحقائق بصعوبة الحرب حينذاك، ولكن مع إصرار معمر قال له ناصر «اللي عايز يحارب واللي عايز يناضل يناضل»، وكان يعرف أنّ الفصائل الفلسطينية تعارض مشروع روجرز وتحرّض معمراً ضده.. في أوائل شهر مايو ٢٠٢٥ فطنت قناة العربية لهذا التسجيل المتوافر مع غيره في متحف أرشيف ناصر، وروّجت القناة أنّ ناصراً كان غير ما تصورنا عنه وأنّه كان ضد الحرب.. إلخ. هذا التسجيل في صالح ناصرٍ وليس ضده كونه يثبت أنّه إنسانٌ واقعيٌّ ووطنيٌّ يريد الاستعداد قبل العودة للنطاح.. وباختصار كان سر قبول ناصر لمشروع روجرز آنذاك هو كسب هدنة الأشهر الثلاثة لمفاوضاتٍ غير مباشرةٍ لتنفيذ قرار مجلس الأمن ٢٤٢، وكان ناصرٌ يعرف أنّ إسرائيل لن تنسحب بالتفاوض، لكنّ مصر كانت تسعى لإقامة جدار الصواريخ على

القناة، وجلبت لذلك طيارين سوفييت لحماية الأجواء المصرية بعد النكسة ودمار سلاح الجو المصري.. أراد ناصر الهدنة للتفاوض شكلياً وللانتهاء من إقامة جدار الصواريخ الذي كانت إسرائيل تشاغله بالقصف المدفعي اليومي، لكن لم يكن بوسعه آنذاك إعلان هذا الهدف للشعب أو لأيّ شخصٍ؛ فقال للقذافي من يرد الحرب فليحارب، أنا غيرُ مستعدٍ الآن، وغيرُ قادرٍ على مواجهة إسرائيل وخلفها أمريكا والغرب.. وهذا الموقف يدلّ على سعة الإدراك وعدم السعي للتهلكة، ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه.

كان معمر القذافي حالةً يمكن الاستفادة منها على الصعيد العربي والبناء القومي لو وفر من حوله هيئةً من المفكرين ينصحونه ويلتزم برؤيتهم لتحقيق هدفٍ معينٍ، لكنّه بقي فردياً ومزاجياً متقلباً.. بالرغم من ذلك يمكن التأكيد أنّه ناصرَ كلّ قضايا التحرر والثورات عبر العالم ودعم الفصائل الفلسطينية بالسلاح وبعض المال واشترط عليهم العمل الميداني، وبوسعي التأكيد أنّه دعم الانتفاضة الفلسطينية الأولى.. ويُسجّل للقذافي أنّه ورغم اختلافه مع صدام حسين قد سعى لإنقاذه من السجن؛ فتشاور مع منظماتٍ فلسطينيةٍ عدة لوضع خططٍ للإنقاذ، وأعلن ميزانيةً مفتوحةً وبالمليارات لمن ينقذ صدام من المعتقل.. ثم بكاه بعد الإعدام وأغلق على ذاته مكتبه وعطّل هواتفه شهراً كاملاً، بينما كان غيره ممن حاربوا صدام فرحين بإرضاء الأميركان. معضلة ومقتلة القذافي أنّه لم يتوافق مع شعبه، ورغم طول فترة حكمة لم ينجح في ضخ أفكاره في أدمغتهم.. كانوا في العموم يسايرونه ولكنّهم أضمروا له الشر ومن ثم خذلوه وانفكوا من حوله.. حتى قواته المسلحة تركته وحده يواجه الجزيرة وما جيّشته من إسلامويين حربجيين؛ فقتلوه، وقتلوا ليبيا من بعده.

تخاذل أوروبي

إنّ حجم الكارثة التي حلت بسكان قطاع غزة لا تسمح معنوياً بالبحث عن أيّ فوائد ممّا حدث منذ ٧ أكتوبر حتى اليوم (١٥ مايو ٢٠٢٥) فلا يوجد عاقلٌ إلّا ويتمنى العودة لما قبل ذلك اليوم.. أيُّ فائدةٍ قد تُستنتج في السنوات والأيام القادمة كان يمكن تحقيق أفضل منها من دون هذه الخسائر الكارثية وملاحقها القادمة على كلّ الصعد. على الصعيد السياسي نتلمس بعض حالات واحتمالات الأمل؛ فرغم الخجل الأوروبي والغربي عن تحديد مواقف فعليةٍ لوقف الإبادة، نتلمس بوادر لانتشار الوعي الجماهيري الغربي حول حقيقة الصهيونية كمشروعٍ استعماريٍّ عنصريٍّ، وتلك البوادر بين الشعوب الغربية تدفع السياسيين في بلدانهم إلى مواقف أكثر وضوحاً بعد ١٩ شهراً من بداية المقتلة، ويضع إسرائيل في مكانها الصحيح. كان بوسع الحكومات الغربية الاتكاء على موقف محكمة العدل الدولية، وقبل ذلك مواقف وقرارات الأمم المتحدة، أو إعلانات جماعات ومنظمات حقوق الإنسان لإنصاف الشعب الفلسطيني، لكنّهم احتموا سابقاً خلف ضرورة التوافق الإسرائيلي الفلسطيني على حلٍّ، ثم احتموا خلف فظاعة هجمة السابع من أكتوبر ونتيجتها بمقتل أكثر من ألف إسرائيلي.. بالتأكيد كانوا دوماً منساقين خلف الموقف الرسمي الأميركي أيضاً.

لقد توافق التغير المتذبذب في موقف الرئيس ترامب تجاه سكان قطاع

غزة وضرورة إنجادهم إنسانياً من المجاعة مع مواقف غربيةٍ سياسيةٍ؛ فقد هدّد قادة فرنسا وبريطانيا وكندا يوم الاثنين ١٩ مايو في بيانٍ مشتركٍ باتخاذ إجراءاتٍ ضد إسرائيل إذا لم توقف حرب الإبادة الجماعية التي تشنّها على قطاع غزة، وقال القادة في بيانهم «سنتخذ إجراءاتٍ إذا لم توقف إسرائيل هجومها بغزة وترفع القيود عن المساعدات»، وقالوا بوضوحٍ «نعارض بشدة توسيع العمليات العسكرية الإسرائيلية في غزة، إنّ مستوى المعاناة الإنسانية في غزة لا يُطاق» ونصَّ بيانهم على أنّه «إذا لم توقف إسرائيل هجومها العسكري الجديد وترفع القيود التي تفرضها على المساعدات الإنسانية، فإنّنا سوف نتخذ خطواتٍ ملموسةً أخرى رداً على ذلك». وشمل البيان إدانةً بشدة «اللغة البغيضة لبعض أعضاء الحكومة الإسرائيلية والتهديد بالترحيل القسري».. وذكر زعماء بريطانيا وفرنسا وكندا بأنّ التهجير القسري انتهاكٌ للقانون الإنساني الدولي. وقالوا إنّهم لن يقفوا مكتوفي الأيدي «بينما تواصل حكومة نتنياهو أفعالها الفاضحة». وشدّد البيان على أنّ حلّ الدولتين هو السبيل الوحيد لتحقيق السلام والأمن الدائمين اللذين يستحقهما الإسرائيليون والفلسطينيون وضمان الاستقرار على المدى الطويل في المنطقة. وتعهّد القادة الثلاثة بالعمل مع السلطة الفلسطينية والشركاء الإقليميين وإسرائيل والولايات المتحدة «للتوصل إلى توافقٍ في الآراء بشأن الترتيبات المتعلقة بمستقبل غزة، استناداً إلى الخطة العربية». وقال القادة «نحن ملتزمون بالاعتراف بالدولة الفلسطينية كمساهمةٍ في تحقيق حلّ الدولتين، ونحن على استعدادٍ للعمل مع الآخرين لتحقيق هذه الغاية».

من جهةٍ أخرى وبالإضافة إلى الموقف الثلاثي طالب قادة ٧ دولٍ أوروبيةٍ، الاحتلال بوقف عدوانه على قطاع غزة، مشددين على رفضهم الصمت أمام كارثةٍ إنسانيةٍ، ورفع الحصار عن القطاع، جاء ذلك في بيانٍ مشتركٍ لقادة إسبانيا

والنرويج وآيسلندا وأيرلندا ولوكسمبورغ ومالطا وسلوفينيا، أعلنوا خلاله رفضهم لأيّ خططٍ للتهجير القسري من القطاع أو إحداث تغييرٍ ديمغرافيٍّ. وقال القادة في البيان: «لن نصمت أمام الكارثة الإنسانية المصنوعة بأيدي البشر، والتي تجري أمام أعيننا في غزة». ولفتوا إلى أنّ «أكثر من ٥٠ ألف رجلٍ وامرأةٍ وطفلٍ فقدوا حياتهم في غزة». وحذّر القادة الأوروبيون من أنّ «كثيرين آخرين قد يتعرضون للموت جوعاً خلال الأيام والأسابيع القادمة ما لم تُتخذ إجراءاتٌ فوريةٌ». وفي هذا الصدد، دعوا حكومة الاحتلال، إلى التراجع الفوري عن سياساتها الحالية، والامتناع عن تنفيذ عملياتٍ عسكريةٍ إضافيةٍ في غزة. كما دعوها إلى «رفع الحصار بالكامل عن غزة، بما يضمن إيصال المساعدات الإنسانية بشكلٍ آمنٍ وسريعٍ ودون عوائق إلى جميع أنحاء القطاع من قبل الجهات الإنسانية الدولية ووفقاً للمبادئ الإنسانية».

كما دعا القادة «جميع الأطراف إلى الانخراط الفوري، وبحسن نيةٍ، في مفاوضاتٍ تهدف إلى وقف إطلاق النار وإطلاق سراح جميع الأسرى. من جانبه أكّد الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون لاحقاً أنّه يشعر بأنّ الأزمة الإنسانية في قطاع غزة غير مقبولةٍ، وأضاف أنّه يأمل مناقشة الأمر قريباً مع رئيس حكومة الاحتلال، والرئيس الأمريكي دونالد ترامب. وقال خلال حضوره اجتماعاً للزعماء الأوروبيين في ألبانيا «الوضع الإنساني في غزة لا يُحتمل».. وكان نتنياهو قد هاجم مكرون ووصفه بالمؤيّد لحركة حماس. وكان رئيس الوزراء الإسباني بيدرو سانشيز، قد وصف في هذا الإطار دولة الاحتلال، بأنّها «دولة إبادةٍ جماعيةٍ». جاء ذلك خلال جلسة مساءلةٍ في البرلمان بالعاصمة مدريد، رداً على انتقادات وجّهها النائب الكتالوني غابرييل روفيان، الذي اتهم الزعيم الاشتراكي بالإبقاء على العلاقات التجارية مع الاحتلال رغم حرب الإبادة المتواصلة في غزة. وقال سانشيز مؤكداً: «أريد

أن أوضّح أمراً هنا، سيد روفيان: نحن لا نتعامل تجارياً مع دولةٍ ترتكب إبادةً جماعيةً، لا نفعل ذلك». وأضاف: «أعتقد أنّني أوضحت قبل أيامٍ، من على هذا المنبر، ما كنّا نتحدث عنه تحديداً عندما تمّ طرح بعض الأمور التي لا تتوافق مع الحقيقة». وبحسب تقارير إعلاميةٍ إسبانيةٍ، فهذه هي المرة الأولى التي يستخدم فيها سانشيز علناً مصطلحات «دولة إبادةٍ جماعيةٍ»، وهو تعبيرٌ يستخدمه باستمرارٍ شريكه في الائتلاف الحاكم، حزب سومار اليساري.

عموماً باشرت دول الاتحاد الأوروبي مراجعة اتفاقية الشراكة مع إسرائيل كأداة تهديدٍ لوقف العمل بها إذا لم تستجب إسرائيل لطلبات أوروبا، وهذا موقفٌ جيدٌ وإنسانيٌّ ولكنّه غير قابلٍ للتطبيق كونه يحتاج إلى موافقة كلّ دول الاتحاد بالإجماع بما فيها دولٌ تؤيّد نتنياهو بشدةٍ مثل المجر، والنمسا موطن هتلر الأصلي، التي لن توافق وبالتالي لن يتحقّق الإجماع. يقول نص المادة الثانية من اتفاقية الشراكة بين الاتحاد الأوروبي وإسرائيل إنّ «العلاقات بين الطرفين.. يجب أن تقوم على احترام حقوق الإنسان والمبادئ الديمقراطية» وهذا ما تنتهكه إسرائيل. لو شعر نتنياهو باحتمال وقف العمل بالاتفاقية؛ فسوف يخضع فوراً للرؤية الأوروبية بإدخال المساعدات وتكون هذه بدايةً لإنقاذ الوضع وتطبيق الحلول السياسية من دون أيّ دورٍ لحركة حماس طبعاً.. أوروبا هي المورّد والمستورد الأكبر مع إسرائيل ولا يمكن لأيّ زعيمٍ إسرائيلي التصدي والتحدي؛ فهل تنجح أوروبا في إنجاز مهمةٍ سياسيةٍ وإنسانيةٍ بهذا الحجم؟ الحديث هنا عن أوروبا كمجموعة دول متحدةٍ تأخذ قراراتها بالإجماع.. لكن لا يوجد ما يمنع الدول منفردةً من القيام بواجبها إذا تعثر القرار الجماعي لأنّ كلّ يومِ مناقشاتٍ داخليةٍ في أوروبا يعمّق المقتلة في فلسطين.

نعم الموقف الأوروبي منحازٌ تاريخياً لإسرائيل، والدعم الثابت

لواشنطن يعقّد أيّ عمليات ضغطٍ سياسيٍّ دبلوماسيٍّ اقتصاديٍّ أوروبيٍّ على إسرائيل.. لكنّ الحقيقة أيضاً أن الدول الأوروبية تعتبر حماس إرهابيةً، وتعرف أنها تسببت في هذه الكارثة، وأنّها ترفض حلّ الدولتين، وأنّها تابعةٌ لإيران التي تجاهر بالعزم على إنهاء الكيان الصهيوني.. هذا حتماً يعقّد الدعم الأوروبي تجاه مجريات الأمور، أضف لذلك أنّ السلطة الفلسطينية فاسدةٌ في العيون الأوروبية، وبالتالي الحلول تحتاج لإصلاح السلطة وديمقراطيتها، واستعدادٍ واضحٍ بإنهاء حركة حماس في غزة إذا ما توقفت المقتلة.. ولذلك تجد نتنياهو يتهم كلّ زعيمٍ أوروبيٍّ ينضم لوقف الحرب بأنّه مؤيّد لحركة حماس.. كان الحلّ وما زال وسيبقى قائماً على انتهاء عهد حماس سواءٌ عبر انسحابها وذوبانها الذاتي أو إعلان هزيمتها وتسليم الإدارة مؤقتاً لغيرها ريثما تتأهل السلطة الفلسطينية.. كلّ الحلول ستعود إلى هذه النقطة.

يذكرني التحرّك الأوروبي بلقاء برونو كرايسكي، ولقاءٍ آخر مع وزير خارجية اللكسمبرج. لقد حضر المستشار النمساوي السابق برونو كرايسكي اجتماع المجلس الوطني في الجزائر، حيث أعلن الرئيس عرفات الدولة الفلسطينية في نوفمبر ١٩٨٨ ولكنّ إعلان الاستقلال والدولة لم يحدّد الحدود بالاعتماد على قراراتٍ دوليةٍ مثلاً مثل قرار التقسيم، وسأعود لأهمية ذلك آنذاك والآن. وبينما كنت في الممر خارج القاعة أتناقش مع بعض الزملاء الصحافيين مرّ الختيار ويده في يد كرايسكي، وكانا قاصدين البوابة الخارجية لتوديع الضيف النمساوي الذي كان مستشاراً للنمسا من عام ١٩٧٠ حتى ١٩٨٣، وكان قد أحدث ردات فعلٍ حين اجتمع مع الرئيس عرفات عام ١٩٧٣، وكان من قادة الحركة الاشتراكية الأوروبية التي كانت تحكم في معظم دول أوروبا ولديها مواقفُ إيجابيةٌ تجاه القضية الفلسطينية. كانا يسيران وحدهما، والتقت عيناي بالختيار؛ فأشار برأسه؛ فلحقتهما وسلّمت

وحيّيت المستشار بلغته الألمانية الأمّ، وكونهما لم يكونا يتحدثان أثناء المسير شكرت كرايسكي على زيارته لنا ودعمه لقضيتنا، وانشرحت أسارير عرفات الذي كان يعرف إجادتي للألمانية، وبالتالي، أقدّم للضيف صورةً حضاريةً.. ثم تدخل الرئيس يحادث كرايسكي بالعربية في العموميات وأنا أترجم بينهما حتى وصلنا للبوابة فتأخرت عنهما وتمنيت أن ألتقي المستشار في فيينا قريباً.

في ربيع العام التالي تواصلت مع المستشار النمساوي السابق وطلبت مقابلته، ولم أخبره أنّني رحّبت به في الجزائر.. وافق على اللقاء لمصلحة جريدة العرب، ورافقني الصديق المصور ناصر مطرقي. أتطرق لهذه الزيارة كونها أدهشتني؛ فالرجل مشهورٌ جداً، وكان له أصدقاءُ وأعداءٌ أثناء رئاسته الحكومة النمساوية، وكان على صدامٍ مع الصهيونية ومن أهم مشجعي مسيرة السلام. وصلنا إلى عنوانه في ضاحيةٍ للعاصمة النمساوية، وكان البيت يتوسط حديقةً تبدو مهملةً قليلاً. استقبلنا حارسٌ أو مرافقٌ، ومعه كلب جيرمن شبرد عجوز يحتاج إلى رعايةٍ. استقبلنا المستشار السابق على الباب ودخلنا إلى غرفة الصالون التي تبدو من عصرٍ أسبق.. الكتب ملقاةٌ، والكنب عفا عليه الزمن وشعر الكلب في كل مكانٍ، ولم يكن في البيت إنسانٌ أو حيوانٌ آخر.. تحادثنا في العموميات وباشرت أوجّه إليه بعض الأسئلة وناصر يصور؛ فقد اتضح لنا أنّ اللقاء لن يطول نظراً للتعب العام الذي يبدو على ملامحه. أيُّ موظفٍ أوروبيٍّ متقاعدٍ كان سيبدو أحسن حالاً من برونو كرايسكي، ولن أقارن هنا حياته بعد نهاية خدمته بحياة نظرائه العرب. عرفت لاحقاً أن زوجته فيرا كانت قد توفيت في العام السابق، ورغم أنّ له ابناً وحفيداً إلّا أنّه بقي يعيش في بيته وحيداً مع مرافقه وكلبه حتى توفي عام ١٩٩٠.

اللقاء مع برونو كرايسكي أدهشني في مستوى إخلاص الرجل لمبادئه؛ فقد تخاصم مع الصهيونية وهو اليهودي، وعاش وفياً لمبادئه وأمانته فلم يبدُ

عليه الثراء والأبهة بعد نهاية حياته السياسية.. يعني لم يختلس المال ليترفّه بعد التقاعد، بل يبدو أنّه لم يدّخر أموالاً أصلاً. برونو كرايسكي إنسانٌ يهوديٌّ صالحٌ.

اللقاء الآخر مع سياسيٍّ أوروبيٍّ والذي أدهشني في محتواه، كان مع وزير خارجية لوكسمبرج ونائب رئيس وزرائها من ٨٤ حتى ٩٥ من حزب العمال الاشتراكي، السيد جاك بوز. راسلته وطلبت اللقاء؛ فوافق وذهبت معي زوجتي التي تولّت تصوير اللقاء فيديوياً. استقبلنا في مكتبه وسط المدينة، وكان لطيفاً صبوراً حين صعّدت من أسلئتي: إذا ما كان القانون الدولي يسمح باعتراف اللكسمبورج بإسرائيل على حدود ١٩٦٧ ولا يسمح باعتراف الدوقية بفلسطين؟

إجابة هذا الزعيم الأوروبي الاشتراكي نفّستني وخجلت من جهلي بمواقف هذه الدوقية النشطة سياسياً تجاه قضية بلادي (انضمت اللوكسمبرج لاحقاً الى فرنسا ودولٍ أوروبيةٍ بالاعتراف بالدولة الفلسطينية).. قال بوضوحٍ إن بلاده اعترفت منذ قرار التقسيم عام ١٩٤٧ بإسرائيل وفلسطين على الحدود المعلنة في ذلك القرار، وليس ضمن الحدود الحالية بعد حرب ١٩٦٧.. السبب في ذلك أن اعتراف أيّ دولةٍ بأخرى يجب أن يكون ضمن شروط وجود حكومةٍ منظّمةٍ، وشعبٍ متجانسٍ، ضمن حدودٍ واضحةٍ، وهذا العنصر الأخير لم تعلنه إسرائيل مطلقاً منذ نشأتها حتى يومنا هذا وبالتالي، ضمن القانون الدولي فكلّ اعترافٍ بها هو ناقصٌ. كيف اعترفت إذاً دولٌ عربيةٌ بإسرائيل وعقدت معها اتفاقيات سلامٍ وهي الدولة التي لا حدود معلنةً لها، علماً بأنّ أوّل دولةٍ اعترفت هي جارةٌ للكيان، ثم تلاه اعترافٌ فلسطينيٌّ من الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني ومن دون ذكرٍ لحدود الكيان الذي نعترف به.. والإعلان المتكرّر لقيام دولة فلسطين لم يتحدث عن تلك الحدود، وإنّما

أشار للقرارين ٢٤٢ و٣٣٨ وحدود ١٩٦٧. عندما طلبت من السيد جاك بوز توضيح موقف الدول الأوروبية، قال إنّ غالبية الدول الأوروبية تعترف بإسرائيل ضمن السياق نفسه.. هذا يعني أنّنا كنّا نهلّل ونزعق ونشتم أوروبا وهي لم تعترف رسمياً بأكثر من حدود التقسيم وللطرفين، بينما نحن نطالب بحدودٍ أقل للدولة المنشودة، بل لا نعلن أيّ حدودٍ.

اللكسمبورج من أوّل الداعمين للأونروا، وتدين المستوطنات، ورغم أنّها عزمت أخيراً على الاعتراف بالدولة الفلسطينية (غير واضحة الحدود)؛ فقد صوتت في مناسباتٍ عدةٍ لمصلحة القرارات المتعلقة بالقضية الفلسطينية، بيد أنّ وزير الخارجية اللاحق أعلن اعتزامه الاعتراف بفلسطين بمجرّد أن تتولى قوةٌ أوروبيةٌ أكبرُ زمامَ المبادرة وحثّ الدول الأعضاء بالاتحاد الأوروبي على القيام بذلك. في يونيو ٢٠٢٠، دعت اللوكسمبرغ إلى الاعتراف بفلسطين إذا ضمت إسرائيل أجزاءً من الضفة الغربية، وفي أغسطس ٢٠٢٠، انتقد وزير خارجية لوكسمبورغ اتفاق الإمارات العربية المتحدة وإسرائيل على تطبيع العلاقات، واصفاً ذلك بأنّه تخلٍ عن الفلسطينيين من قِبَلِ الإمارات العربية المتحدة. وأضاف أنّ السلام في الشرق الأوسط لا يمكن أن يتحقّق دون حلّ الصراع الفلسطيني الإسرائيلي. الدرس الذي لم نستوعبه وبالتالي لم نطبّقه، أنّنا أعلنا دولةً من دون حدودٍ بانتظار نتائج المفاوضات.. وكان الأجدى وما زال هو إشهار حدود فلسطين ضمن قرار التقسيم لعام ١٩٤٧ لأنّه القرار الذي اعترفت به معظم دول العالم بإسرائيل وضمن حدودها المقرّرة في القرار.

يُلاحظ هذه الأيام غياب صوت ألمانيا والنمسا وإيطاليا عن المشاركة مع الدول الأوروبية الأخرى في الضغط اللفظي على الحكومة الإسرائيلية، وهي دولٌ كانت نازيةً وفاشيةً، وأسهمت أكثر من غيرها في إبادة يهود أوروبا،

ثم لاحقاً أسهمت في دعم قيام إسرائيل وتسليحها لخلق ماسأة الفلسطينيين وصولاً لهذه المقتلة.. وبالنسبة لبقية دول أوروبا المتحدة؛ فيمكنها اتخاذ قراراتٍ سياسيةٍ ودبلوماسيةٍ واقتصاديةٍ بشكلٍ مستقلٍ إذا تعثّر القرار الجماعي الذي تسعى كلّ دولةٍ عبره للاحتماء بالفريق والجماعة وتكتفي بتوجيه اللوم لحكومة إسرائيل! بوسع بريطانيا وألمانيا وغيرهما من الدول التي تسلّح إسرائيل وتدعمها بالذخائر وبالطائرات الاستطلاعية والمعلومات، بوسعها لو أرادت فعلاً، إعلان وقف هذا التعاون.. ثم بوسع أيّ دولةٍ أوروبيةٍ وقف التصدير والاستيراد المباشر مع دولة الإبادة الجماعية، ثم وقف التعاون السياحي وغير ذلك من التصعيد وصولاً إلى تجميد ووقف التبادل الدبلوماسي. كما بوسع أيّ دولةٍ أوروبيةٍ إعلان الاعتراف بدولة فلسطين ضمن حدود قرار الأمم المتحدة الذي قرّر قيام دولةٍ يهوديةٍ ودولةٍ فلسطينيةٍ.. أي اعترافٌ بالدولتين، أو تجميد الاعتراف والتعاون معهما حتى تتفقا على حدودهما.. ما عدا ذلك فكلّ الدول الأوروبية التي سلّحت وساعدت إسرائيل في الستمائة يوم السابقة وفي المقتلة المتواصلة هي عملياً مشاركةٌ في الإبادة ومخالفةٌ لالتزاماتها القانونية وتوقيعها على المعاهدات الدولية الإنسانية.. ومع الاحترام والتقدير لمواقف الحكومات التي ندّدت بإسرائيل وأعربت عن التعاطف مع الشعب الفلسطيني، إلّا أنّ القنوط من فعلٍ دبلوماسيٍّ أو اقتصاديٍّ لردع السياسة الإسرائيلية لا بدّ أن يُنظر إليه كذرّ الرماد في العيون، وألاعيب لاسترضاء شعوب تلك الحكومات.

لقد لخّصت الإنسانة الممثلة العالمية أنجلينا جولي الموقف أخيراً بعد أن أشارت لسلسلةٍ من التصريحات الصادرة عن مؤسساتٍ رسميةٍ بشأن المجاعة في غزة والأطفال المعرضين لخطر الوفاة، وعلّقت عليها بالقول: «يفترض أن يكون لهذا النوع من التصريحات والتحذيرات الخطيرة وزنٌ وأن يفضي إلى

اتخاذ إجراءٍ». وأضافت: «إنّه لأمرٌ محزنٌ أن نرى هذا الكم الهائل من الأرواح البريئة- والمبادئ التي نتمسك بها ونؤمن بها كثيراً منا- يتمّ الاستهزاء بها بهذه الطريقة». وأكّدت أنّ الوضع الحالي هو نتيجة عقودٍ من الانتقائية في الدفاع عن حقوق الإنسان، وليس فقداناً مفاجئاً للبوصلة الأخلاقية، مضيفةً: «ما يحدث هو نتيجةٌ لاعتبار بعض الأرواح ذات قيمة، وأخرى يمكن التخلص منها. إنّه امتدادٌ للطريقة المخزية التي تنتقي بها دول مجلس الأمن من تنتقد ومن تدعم». وشدّدت الإنسانة الواعية جولي على أنّ ما نشهده من مآسٍ «لا يحدث صدفةً، بل هو متعمدٌ». وذكرت أنّ عدد الأشخاص المهجرين قسراً بسبب النزاعات قد تضاعف خلال العقد الماضي، مشيرةً إلى معاناة السودانيين، والسوريين، والأفغان، والأوكرانيين، والفلسطينيين، ضمن شعوبٍ أخرى، كدليلٍ صارخٍ على هذا الفشل الدولي. وأضافت: «سواءٌ بسبب الجوع، أو الهجمات على المستشفيات والمدارس، فإنّ معاييرَ جديدةً وصادمةً يتمّ ترسيخها، تجعل المدنيين في المستقبل أكثر عرضةً للخطر ممّا هم عليه اليوم». ولخّصت أنجلينا جولي الموقف وحذّرت قادة الدول والمجتمع الدولي: «الذين يمتلكون السلطة لحماية القانون الإنساني الدولي، لكنّهم لا يفعلون شيئاً، يتحملون جزءاً من المسؤولية. الأمور التي نتسامح معها، هي التي تحدّد من نكون».

عموماً إذا بدأت كرة الثلج بشكلٍ أو بآخرَ ولأيّ سببٍ تتدحرج في أوروبا والغرب ومن ثم عالمياً؛ فسوف تصبح إسرائيل في وضع حكومة جنوب أفريقيا العنصرية التي رضخت في النهاية لإقامة دولةٍ ديمقراطيةٍ تضمن حقوق السود والبيض بالقانون وعبر التعليم. لا يمكن لإسرائيل أن تعربد علنيا وتتحدى العالم وتتهم الجميع ممّن يترددون في دعمها، تتهمهم بدعم الإرهاب وبمعاداة السامية بينما هي تطبّق أسوأ القوانين والممارسات التي

طبّقها النظام النازي ضد اليهود. لا أريد الانغماس في التفاؤل من احتمالات تطوّر الموقف الأوروبي، ولكن يحضرني في هذا المقام تساؤلان:

الأوّل يدور حول موقف الدول العربية المطبّعة مع إسرائيل.. لا نعاتب أو ننتقد أنّكم طبّعتم من دون أيّ شروطٍ سياسيةٍ تتعلق بالقضية الفلسطينية، ولكن ألم يحن الوقت لتقليد الدول الأوروبية وتهديد حكومة إسرائيل، ولو لفظياً، بوقف التعاون التجاري والثقافي وغيره إذا استمرت مخالفتها للشرائع والقوانين الدولية؟ لا نناقش أو نعارض رغبتكم في القضاء على الإسلام السياسي الجهادي، أو حتى موافقتكم على تدمير إسرائيل لحركة حماس، ولكنّ المقتلة ليست ضد حماس، بل هي ضد الأبرياء كما يثبت الواقع اليومي، وهدف المقتلة تصفية الشعب الفلسطيني وليس التخلص من حماس، وهذه القناعة هي التي أصبحت تحرّك شعوب وحكومات الغرب!

التساؤل الثاني والأهم هو حول دور القيادات الفلسطينية التي تعتبر ذاتها قائدةً للشعب، سواءٌ فصائل منظمة التحرير أو حركة حماس والجهاد الإسلامي.. ألم يحن وقت إعلان حكومةٍ موحدةٍ تمثل الشعب ومرتبطةٍ بمنظمة التحرير وميثاقها الوطني وليس بكم؟ كلّ الإنجازات السياسية سوف تتوقف عند محطة اليوم التالي لوقف الحرب، فهل سيكون ذلك اليوم هو مواصلة الصراع والاختلاف الذاتي والتماهي بجدارةٍ في خذلان الشعب الفلسطيني.. أو أن ذلك اليوم لن يأتي طالما بقيتم؟

التساؤل الأول والثاني لهما علاقةٌ بالدول الإسلامية أيضاً، هل البابا الكاثوليكي أفضل من الأئمة المسلمين؛ فقد تحدث البابا وصمت الأئمة! وهل حكومات الغرب المسيحي أفضل إنسانياً ودبلوماسياً وسياسياً من حكومات دول المسلمين؟

في يوم اثنين عيد الفصح ٢١ أبريل من عام ٢٠٢٥، توفي صديقٌ

للفلسطينيين ومناهضٌ للحرب على غزة، وهو البابا فرنسيس عن عمر يناهز ٨٨ عاماً. لم يعد للبابوية في العالم الكاثوليكي أيّ دورٍ سياسيٍّ حقيقيٍّ مؤثرٍ، اللهم الموقف الأخلاقي غير الملزم للسياسيين، لكن من دون شك أثر موقف البابا فرنسيس في الكاثوليك الذين يشكّلون أغلبيةً في دولٍ مثل إسبانيا وأيرلنده وإيطاليا.. ويشكّل أتباع الكنيسة الكاثوليكية حوالي ٥٢ ٪ تقريباً من عموم المسيحيين، ويشكّل الكاثوليك الأغلبية السكانية في ٦٧ دولةً. أمّا أكبر موطنٍ ودولةٍ للكاثوليك في العالم هو البرازيل يليها المكسيك والفلبين والولايات المتحدة، التي لم يحكمها من أصل ٤٦ رئيساً سوى كاثوليكيّ واحد.. ورغم أنّ الروم الكاثوليك تظلّ أكبر طائفةٍ دينيةٍ مسيحيةٍ في أمريكا، إلّا أنّ جون كينيدي يظلّ الرئيس الكاثوليكي الوحيد في الولايات المتحدة. وبعد اغتياله عام ١٩٦٣، كان جون كيري الكاثوليكي الوحيد الذي سعى وترشّح للرئاسة ولم يُوفّق، أمّا الرؤساء الآخرون فهم من البروتستانت ذوي الأصول الإنجليزية والذين يتوجهون الآن دينياً إلى أفكار الصهيونية.

كان الحبر الكاثوليكي الأعظم قد دعا مراراً قبل وفاته إلى وقف إطلاق النار في غزة، وأطلّ قبل وفاته بيومٍ خلال احتفالات عيد الفصح، وندّد بـ«وضعٍ مأساويٍّ مخجلٍ» في غزة، محذّراً من «تنامي جو معاداة السامية الذي ينتشر في جميع أنحاء العالم»، أي أنّه كان يحذّر من احتمالات عودة العالم لكراهية اليهود نتيجةً لأفعالهم، وكانت إسرائيل قد اعتبرت البابا معادياً للسامية وهاجم السفير الإسرائيلي السابق في الفاتيكان سيرة البابا كونه اعترف بفلسطين ورفع علمها في الفاتيكان.. وكان البابا يهاتف كلّ يومٍ المسيحيين في غزة منذ السابع من أكتوبر ليطمئن إليهم ويواسيهم.. المهم هنا أنّ الحبر الأعظم الجديد كرّر المواقف نفسها في خطابه العلني الأوّل بعد توليه المنصب.. غنيٌّ عن الذكر

والتذكير أنّ القيادات الدينية الإسلامية لم ترتقِ إلى ذلك الموقف الإنساني تجاه أبناء دينهم وعقيدتهم.. ولا غالب إلا الله! أليس كذلك؟

لا يسعني هنا أيضاً إلا التساؤل الذاتي وسؤال الشعب الفلسطيني -وتحديداً- سؤال سكان قطاع غزة: ألم نكن في غنىً عن هذه المذبحة أصلاً؟ لماذا لم نرَ فارق القوة بيننا وبينهم؟ لماذا أيّدنا، في البداية على الأقل، هجوم السابع من أكتوبر وفرحنا للضرر الذي أصاب أيّاً منهم؟ ولماذا تقبّلنا حكم حركة حماس الانقلابي واستمراره من دون انتخاباتٍ؟ لماذا بلعنا ظلم ممارسات الحركة طوال ١٧ عاماً من النهب والنصب والتمييز وجني الأموال والضرائب من دون حتى أن يقدموا خدماتٍ؟ لماذا بلعنا مبادئ رؤيتهم الدينية المتطرفة؛ فالتحينا وتحجبنا وتظاهرنا بالورع حتى نسلم من شرهم أو نتكسب منهم؟ لماذا لم تتجاوز حركات الاحتجاج سنوياً أصابع اليد الواحدة ولم يتجاوز المشاركون فيها العشرات؟ هل نحن الآن سعداء بالنتائج وتحوّل شعبنا إلى التسوّل وحياة الترحال والخيام وجمع الحطب والتفتيش في الزبالة؟ ألم نكن خير أمةٍ عربيةٍ في مستوى التعليم حتى أسلمت حماس المدارس والجهاز التعليمي فعمّمت الجهل إلى درجة انعدام أيّ أعدادٍ محترمةٍ من المثقفين، وهذا ما يؤدّي إلى حالة الفشل والشلل السياسي الاجتماعي أثناء هذه المقتلة؟ وقبل هذا وذاك كلّه، هل ستتقبلون استمرار الحال وعودة حماس وأخواتها لركوب ظهوركم، أو سوف تصرّون على انتخاباتٍ فوريةٍ وتحافظون على الديمقراطية الانتخابية ومواصلتها بكلّ ما تملكون من قوةٍ؟

ألاحظ من متابعة وسائل التواصل الاجتماعي والاستماع لفئاتٍ واسعةٍ في المجتمعات العربية، ألاحظ الاتكالية على الدين وانتظار الفرج بعد الصبر، ومن يمت قبل الفرج فمصيره الجنة.. هذه التربية في مجملها تنويميةٌ يبثّها شيوخ الإخوان وشيوخ السلطان لإحكام السيطرة على الناس والانصياع

لما يعتبرونه أوامر ربانيةً، لذلك تعاظمت كمية وأنواع الدعاء لغزة وسكانها، وكلّ من يتوجّه لهم بالدعاء يوكل الله بهم ويقنط هو. الأدعية أيضاً تتوجه ضد الكفار –وخصوصاً– اليهود من دون تمييزٍ، بل إنّ من يعتبره الإخوان متخاذلاً من الزعماء يسمّونه ابن يهوديةٍ، ولدينا أربعة زعماء عرب على الأقل تمّ اتهامهم كأبناء يهودياتٍ، وهم كلّ من يعارض حركة الأخوان.. ولا يخطر في بال مروّجي التهم بأنّ الرسول تزوج يهوديةً، صفية، وكانت له محظيةٌ أو أَمَةٌ يهوديةٌ هي ريحانة، وقد أنجب ابنه إبراهيم من أَمَةٍ نصرانيةٍ؛ فماذا لو عاش إبراهيم وأنجب سلالةً، أو لو أنجبت صفية وريحانة من الرسول؟ هل كان الإخوان سينكرون سلالة النبي ويحاربونها؟

يذكرني الحديث عن سريان مصطلح «ابن اليهودية» بما حدث يوم ٢٥ مارس ١٩٧٥.. فقد كان الملك فيصل بن سعود يستقبل وزير النفط الكويتي عبد المطلب الكاظمي، والذي سلّم بيده على الملك فسمع صوت رصاصةٍ ووقع الملك أرضاً؛ فنظر عبد المطلب للخلف وسمع من يقول أمسكوا ابن اليهودية، ولفّوا الجاني في ستارة المجلس لتقييد حركته. اتضح أنّ الجاني الموصوف بابن اليهودية هو الأمير فيصل بن مساعد بن عبد العزيز، أي ابن أخ الملك المغدور، وقد شاع أنّه مدفوعٌ من واشنطن كانتقامٍ من الملك السعودي الذي قطع النفط عن الغرب في حرب أكتوبر ١٩٧٣، ورفع الأسعار بذلك إلى السماء، وساعد لاحقاً مصر وسوريا على إعادة التسلّح.

التعميم من صفات الجهلاء، ولدينا (كفارٌ) مسيحيون ويهودٌ يناضلون مع حقوق الشعب الفلسطيني أكثر من نضال أيّ زعيمٍ حمساوي أو إخواني أو فتحاوي! في اليوم ٦٠٠ لحرب الإبادة على غزة أجاب ٥٢ ٪ من الإسرائيليين بنعم على سؤال: هل تؤيد استمرار تجويع سكان قطاع غزة.. وهذه نسبة عاليةٌ –خصوصاً– وأن ٣٤ ٪ فقط أجابوا بالرفض للتجويع.. ومهما كانت

نسبة الذين يرفضون التجويع من اليهود؛ فهي نسبةٌ محترمةٌ شجاعةٌ في ظل التضليل والترهيب الذي يمارسه نتنياهو وأجهزته، ولا ننس التظاهرات اليومية المضادة للحرب، وكذلك الشخصيات اليهودية عبر العالم التي تحتجّ على الحرب. الحقيقة المرة أنّ المتدينين اليهود اليمينيين، وشيوخ الإخوان وقياداتهم، يتحمّلون المسؤولية عن التربية الشمولية المضادة للأديان الأخرى إلى درجة تأييد الإبادة.. نعم لو تمكّن الإخوان عسكرياً من اليهود مثلما يتمكن اليهود من الفلسطينيين لعملوا على إبادتهم أيضاً، وهم يدعون الله كل دقيقة لإبادة اليهود. اليهود والمسلمون بحاجةٍ إلى عزل الدين عن السياسة رسمياً على غرار المسيحية الغربية.. وكلّ فلسطينيٍّ مطالبٌ بالتفكير وباعتبار الدين حالةً نفسيةً وأخلاقيةً وفقط، وإلغاء كلّ مظاهر الاتكالية، وهذا شرحه يطول وسيحتاج استيعابه إلى أجيالٍ، ولكن لا بدّ من البداية حتى لا نغطس إلى تحت القعر.

اليهود المتدينون بتطرفٍ في إسرائيل وعبر العالم بدأوا يفيقون على انفضاح أمرهم عبر العالم الذي يضمن حياتهم واستمرارهم.. باتوا منعزلين منبوذين، ومواقف حكومتهم وتأييدهم لها أصبح يؤدي إلى انتشار الكراهية لليهود بالإجمال.. أصبحوا يشاهدون أنّ روايتهم غيرُ قابلةٍ للصمود في كلّ الظروف -وخصوصاً- عندما يمارسون من التقتيل للعزل ما مورس ضدهم من النازية، بعض قيادات المعارضة الإسرائيلية تقرّ بأنّ الجنود يتسلون في قتل الأطفال، ورجالُ دينٍ وسياسةٍ رسميون يؤكّدون أنّه لا يوجد أيُّ بريءٍ في قطاع غزة! وهذا الموقف منتشرٌ في أوساط شعب الكيان.

لقد زرت مدينة جنيف مجدداً في أواخر أبريل ٢٠٢٥، -وكعادتي- أحادث سائقي التاكسي، وكان السائق الذي نقلني من المطار سويسرياً جده يهوديٌ.. باشرنا الحديث من دون تعارفٍ في البداية؛ فقال لي: الإسرائيليون

هم النازيون الجدد، واليهود يتحكمون في واشنطن بالأموال. مثل هذا التحوّل في المواقف أصبح مشاهداً في استطلاعات الرأي في الدول الغربية، ولا يقتصر على أصدقاء فلسطين وأنصارها، وهو حتماً ليس في صالح إسرائيل والصهيونية واليهود عموماً سواءٌ الآن أو لاحقاً.. وهذا ما يدركة اليهود العقلاء.

-على سبيل المثال- هاجم زعيم المعارضة الإسرائيلية يائير لابيد يوم ٢٠ أغسطس، الحكومة مؤكّداً أنّها فقدت دعم أبرز حلفائها في أعقاب الهجوم الأكثر دمويةً في تاريخ البلاد، في وقتٍ لا يزال فيه عددٌ من الرهائن محتجزين في قطاع غزة، واصفاً ذلك بـ«الفشل الذريع». وجاء تعليق لابيد إثر استطلاع أجرته وكالة رويترز- إبسوس أظهر أنّ أغلبيةً تبلغ ٥٨ بالمئة من الأميركيين يعتقدون أنّه ينبغي لجميع الدول الأعضاء في الأمم المتحدة الاعتراف بدولة فلسطين، وقالت أغلبيةٌ كبيرةٌ من المشاركين تشكّل ٦٥ بالمئة، إنّ على الولايات المتحدة اتخاذ إجراءاتٍ في غزة لمساعدة السكان الذين يواجهون الجوع، بينما عارض ذلك ٢٨ بالمئة. وأظهر الاستطلاع أيضاً أن ٥٩ بالمئة من الأميركيين يعتقدون أنّ الرد العسكري الإسرائيلي على غزة مبالغٌ فيه. في حين عارض ٣٣ بالمئة من المشاركين هذا الرأي.

بعد يومين على تعليق زعيم المعارضة صرّح نتنياهو بضرورة الاهتمام بجيل الشباب عبر العالم وكسبهم لمصلحة إسرائيل، وسبب هذا التصريح دراسةٌ نشرها معهد «غالوب» الأميركي أواخر يوليو ٢٠٢٥، أظهرت أنّ ٦ بالمئة فقط من الأميركيين بين ١٨ و٣٤ عاماً لديهم نظرةٌ إيجابيةٌ تجاهه (نتنياهو)، فيما أيّد ٩ بالمئة فقط منهم الحملة العسكرية الإسرائيلية في غزة.. وهذا يوحي بمستقبلٍ قريبٍ ستواجه فيه إسرائيل رفضاً وعدم رضىً غربيٍّ وعالميٍّ.

ماذا بعد، ولماذا لم تتولّد أيّ حركة تأييدٍ أو شجبٍ فلسطينيٍّ داخليٍّ لحماس، وإلى متى يستمرّ الانتظار الشعبي لاتخاذ قرارٍ ذاتيٍّ.. صحيحٌ أنّ أجيال اليوم متعبةٌ جاهلةٌ واتكاليةٌ، كونها تربية حماس ولا تشابه أجيال الانتفاضة الأولى، التي لاحظت هزيمة الكفاح المسلّح وفشله بعد الخروج من الأردن ثم من بيروت، ولجأت إلى المقاومة السلمية، وكادت تتولّى زمام الأمور لولا أن قفز المحاربون الفتحاويون الفاشلون إلى قيادة التفاوض السلمي، ثم عودة أفكار التحرير الشامل الحمساوية لكسب الجمهور الذي يُطرَب لصوت الرصاص؛ فجاءت أصوات الطائرات والقذائف الأثقل عالمياً.. هل سيبقى الشعب الفلسطيني بعد ٢٣ شهراً من تلقي الدمار، مواصلاً للقنوط وترك كلّ من هبّ ودبّ لركوب ظهره؟؟ إذا لم تعلنوا موقفكم جماعياً وبوضوحٍ فلن تصلوا إلى نتائج.. لن ينقذكم أحدٌ بشكلٍ جادٍّ ونهائيٍّ إذا بقيتم في حالة القنوط.. وهذا درسٌ لا بدّ من استيعابه للمستقبل حتى لا نندثر بفعل الجهلاء.

موضوع الإنقاذ هذا يشغلني جداً، وحتماً أنا متشائمٌ، كنت كذلك قبل خطيئة الطوفان، وأصبحت أكثر تشاؤماً من بعدها، إذ زُجَّ بشعبنا إلى أسفل الحضيض، وبعد أن كنّا فقراء بسطاء نطالب بحقوقنا الوطنية مع بعض التكشير العملياتي بين الحين والآخر، أصبحنا منسحقين متسولين نطالب العالم باحترام حقّنا في الطعام، ونتمنى أن يتمّ الضغط من أيّ طرفٍ على عدونا الصهيوني ليتقبّل إدخال الطحين والخيام وبعض الدواء.. أصبحنا نموت جوعاً، وصار كبار السن يبكون من الجوع، ولم يعد هناك من يتذكّر بربرة ويافا وحيفا، وصار الناس يترحمون على أيام رفح بعد مرور عامٍ على الطرد منها ومسحها بالأرض تماماً. كلّ ذلك بسبب جهل حركة حماس وقادتها ونهجها، وتعميم رؤيتها عبر المدارس وتوزيع المنافع على المنصاعين لها!! حتى

الآن، (أي بعد أكثر من ٢٣ شهراً) على المقتلة تحظى المخيمات والتجمعات التي يأوي إليها أنصار الحركة بكمية طعامٍ أفضل وأكثر مما تناله التجمعات غير المنتمية لهم!!

لقد فسخت حركة حماس المجتمع الفلسطيني وكذلك المجتمعات العربية بين مؤيّدٍ متفهمٍ ومعارضٍ، وقد يبدو غريباً لأهل غزة رؤيةُ مؤيدين عرب لحماس، لكن من منظورٍ أكاديميٍّ فإنّ الموضوع له تفسيراتٌ اجتماعيةٌ ونفسيةٌ، وليس مجرّد اختلافٍ عابرٍ بالآراء.. هناك التفسير بنظرية الرمزية السياسية، أي آراء جمهور حماس مقابل رؤية أهالي غزة؛ فالعرب خارج غزة ينظرون لحماس باعتبارها رمزَ المقاومة ضد الاحتلال، جزءاً من الهوية العربية والإسلامية، وصوتَ التحدي، وبالتالي، يبتلعون طوعاً ما يُقال ويُشاع عن قوتها وصمودها ونجاحاتها الميدانية. أمّا أهل غزة؛ فيعيشون معها يومياً كسلطةٍ حاكمةٍ كانت صاحبة قرارات الحرب واللاحرب. ولا يهتمون برمزية المقاومة التي لا تشبع جائعاً ولا تنير بيتاً أو توفّر طعاماً ودواءً وخياماً على الأقل.

بالطبع هناك دورٌ لبعد المكان عن البعض، والوجود في المكان للبعض لفهم التعاطف والامتعاض من حماس؛ فمن بعيدٍ، تبدو الصورةُ مختلفةً.. من لا يعيش في غزة ويتابع الأحداث عبر الإعلام، ويرى صور الصمود والمعارك المفبركة، غير أهل غزة الذين يرون مشهداً وواقعاً يومياً مختلفاً تماماً، مشهدٌ قائمٌ على أطلال منزل العمر المدمر، وأطفالٌ قُطِعّت أشلاءً، ومسيرٌ وترحالٌ ونزوح أميالٍ للبحث عن طعامٍ لأمعاءٍ خاويةٍ و جيوبٍ فارغةٍ، وخوفٌ من اللقاء بالموت كلّ لحظةٍ سواءٌ من العدو أو اللصوص أو الواقع. ويزيد الطين بلةً دور الإعلام المؤيّد لحماس وتهميش الواقع للشعب وإنكار الإبلاغ عن أيّ انتقادٍ داخليٍّ للحركة؛ فتبدو الجماهير وكأنّها صامدةٌ وتخوض حرباً.

بالطبع ليس كلّ الغزيين على قلبٍ واحدٍ وهناك المؤيدون لحماس سواءٌ أبناؤها أو أنصارها أو الملتفون على أيديولوجيتها، أو طبعاً المنتفعون منها في السابق والآن، والذين يتخوفون من ردات الفعل المجتمعية ضدهم إذا ما انتهت الحركة.

على الصعيد العربي والإسلامي المحبط داخلياً على الكثير من الصعد، تجد الناس تبحث عن تعويضٍ نفسيٍّ ورمزيٍّ وانتصاراتٍ خارجيةٍ لرؤيتهم ودينهم وكرامتهم، وبالطبع تعتبر فلسطين رمزاً وغايةَ الجميع؛ فيتمّ إسقاط الإخفاقات الذاتية على الانتصارات الحمساوية اللفظية ويسهل تصديق القنوات المهلّلة كون حكوماتها أو أصحابها يسيرون في الخط نفسه؛ فيسهل صنع حالةٍ وهميةٍ تماماً وتصوّر حماس قويةً صامدةً، وهذا يعفي هؤلاء من المقارعة بل ومن الدعم الحقيقي، ويعمّق إيمانهم؛ فحماس بالنسبة لهم قويةٌ قادرةٌ وسوف تسحق إسرائيل ولو بعد حين.. ويقول الواحد منهم لذاته: لا بأس لو قصّرت في دعم إخوتي، أو لو تنعمت في المأكل والمشرب وغزة جائعةٌ.. فالمقاومة قويةٌ وشعبها جبّار والله معهم. عموماً عندما تهدأ هذه الحرب سنكتشف أن الحالة النفسية العربية الإسلامية وصلت تحت الحضيض، وسيشعر كلّ واهمٍ بالخازوق والدونية بدل النصر والعزة.

لا يخفى على من وصل في المطالعة إلى هنا أنّني أكره حركة حماس حتى قبل الطوفان، وأكره الشيوخ والمتدينين بالعموم كونهم كومةً من الجهلاء المتسلطين الذين يعتقدون أنّهم مرسلون لتنفيذ رؤية الأحاديث وتفسيراتٍ خزعبليةٍ لبعض الآيات.. أكرههم قبل وحين وبعد أن جمعوا كل كتبي من مكتبات المدارس في غزة وأرسلوا كتاباً رسمياً للناشر الذي وزّعها، جاء فيه ما يشير إلى أنّهم مهتمون بنشر رؤيتهم فقط، كتبوا: «الموضوع/ سحب الكتب المهداة.

تهديكم الإدارة العامة للتقنيات التربوية أطيب التحيات ونتمنى لكم موفور الصحة والعافية، وبخصوص الموضوع أعلاه، وبناءً على التقارير الواردة من المديريات تبيّن أنّ الكتب المهداة تتنافى مع المبادئ والقيم الإسلامية التي تعمل الوزارة على غرسها في نفوس أبنائنا الطلبة، لذا؛ نأمل منكم سحب الكتب من أقسام التقنيات التربوية وقد تم تجميع الكتب في مديريات التربية والتعليم.. وتفضلوا بقبول فائق الاحترام والتقدير. توقيع مازن إسماعيل الخطيب مدير عام التقنيات التربوية»، وبجانب التوقيع ختم دولة فلسطين وزارة التربية والتعليم العالي. بتاريخ ٣ أبريل ٢٠٢٣.

هذه الكتب التي يعتبرونها تتنافى مع القيم التي يريدون غرسها في رؤوس الناس لم يُمنع منها أيُّ كتابٍ في أيّ دولةٍ عربيةٍ، وتوزّع في كلّ الدول العربية، وفي معارض الكتب بما فيها معارض كتب رام الله. كذلك؛ فغالبية الكتب تدور حول القضية والتراث النضالي الفلسطيني، مثل «شعب الجبارين» و«بومة بربرة» و«حافة النور» الذي يتحدث عن التاريخ الكنعاني، و«غزة.. تراجيديا الحرب النفسية» و«فتنة الكرسي»، وطبعاً رواية «راوي قرطبة»، الكتاب الأشهر الذي يتحدّث من الوثائق عن فتح شمال أفريقيا والأندلس حتى زوال الحكم العربي الإسلامي منها، وغير ذلك من المؤلفات المعروفة.. كلّها تمّ منعها من البقاء في مكتبات المدارس.. وكان الناشر قد وزّع كتباً لتعلّم الإنجليزية أيضاً، وقصصاً للأطفال، وكلّها تمّ منعها وجمعها من مكتبات كلّ المدارس، والتي هلّل مسؤولو المكتبات فرحاً حين تسلّموها كهديةٍ.. لكنّ عصفوراً مسطولاً أبلغ الرقيب الذي منع وجمع من دون مطالعةٍ.. عموماً هم يختلفون مع مسلمين آخرين على تفسيرٍ للآيات والسيرة؛ وكانوا قد أفتوا بسبي نساء غير الحمساويين على إثر الانقلاب الدموي ضد السلطة في غزة؛ فلا عجب من مواقف كهذه ولذلك -وبصراحةٍ- أتمنى أن يتمّ حجبهم وتقييدهم عن التأثير

فكرياً والهيمنة بالجهالة على المجتمع، -خصوصاً- ونحن نرى نتائج فكرهم وأفعالهم: مسحَ قطاع غزة من الوجود، ومصيراً أسودَ ينتظر الشعب والقضية.

أريد أن أسجّل هنا للتاريخ بعض أفعالهم أثناء المقتلة. معروفٌ أنّ الحصار قائمٌ ولا توجد بنوكٌ تسلّم نقوداً، ولذلك نشطت مكاتبُ وأفرادٌ تابعون لحماس بتولّي مهمة استقبال النقود المحوّلة من الخارج للسكان، وقد صعدوا في العمولة بسرعةٍ حتى أصبحوا يقبضون أكثر من ثلث المبلغ المحوّل، وذلك أصلاً حسب تسعيرة عملةٍ خاصةٍ بهم كونهم لا يسلّمون النقود إلّا بالشيكل الإسرائيلي. مثلاً المائة دولار تساوي في إسرائيل ٣٦٠ شيكلاً، والمائة دينار أردني تساوي ٥٠٠ شيكلٍ، ولكنهم يُسلّمون ٣٣٠ شيكلاً مقابل كل ١٠٠ دينارٍ، وأيّ صرّافٍ غير تابعٍ لهم عليه دفع الفارق لهم حتى يُسمح له بمواصلة المهنة وبمواصلة الحياة أصلاً. (تردى سعر المائة دينار إلى ٢٨٠ شيكلاً في مطلع يوليو ٢٠٢٥ وإلى ٢٢٠ في أغسطس)

النظام نفسه قائمٌ مع التجار الذين لديهم مخزونٌ ويبيعون بأسعارٍ جنونيةٍ، ومع المزارعين المحليين؛ فالخضروات في الأسواق غير مستوردةٍ، وكلّها إنتاجٌ محليٌّ، يسيطرون على البيع ويقبضون فارق الأسعار بالخاوة، وبالتالي يعدمون المواطن فرصة شراءٍ منطقيةٍ، هذا المواطن المسحوق المشرّد المفلس الجائع، عليه أن يتسوّل من أقاربه في الخارج أو من الجمعيات؛ فيأخذون النصف نقداً، ويشتري بالباقي الطعام بأسعارٍ جنونيةٍ ليموّلهم.. كلّ التهم والشتائم السجعية توجّه إلى التجار «الفجار»، وكأنّ أيَّ تاجرٍ بوسعه التحكم في السعر تحت ظل سلاحهم وقتلهم لأيّ معارضٍ.. حتى عمليات السرقة والتقشيط تتمّ بمعرفتهم، سواءٌ سرقة الأفراد أو مخازن الجمعيات الدولية، أو خطف سياراتٍ محملةٍ بالمساعدات لبيع حمولتها وللتوزيع على جماعتهم وأنصارهم.

المواطن الغزي يسير شبه هيكلٍ عظميٍّ، بينما جماعتهم ما زالوا بكروشهم، وعموماً كلّ مكرّشٍ وسمينٍ الآن في قطاع غزة هو من أنصار حماس. هل رأيتم أثناء تبادل الأسرى شكل الحمساويين وشكل المتفرجين من عامة الشعب؟ حتى بعد فشل هدنة يناير واشتداد المجاعة، استمرّت تجمعات السكان التابعة لهم بالحصول على طعامٍ مجانيٍّ من التكيات أفضل نوعاً وكميةً من التجمعات والتكيات الأخرى، لذلك عملياً لا توجد مجاعةٌ بين أنصارهم مثل تلك المنتشرة بين عامة الشعب.. أيّدهم وتكسب واسكت، أو مُتْ جوعاً ببطءٍ.

في مخيماتهم حيث تتجمع عائلات الأنصار والشيوخ وقبل عيد الأضحى ٢٠٢٥ وفي ظلّ المجاعة وسعر كيلو اللحم مائة دينارٍ، في هذا الوقت تُذبَح خرافٌ في مخيماتهم ويوزّع ربع كيلو على كل عائلةٍ بينما بقية الشعب لا يستطيع سوى الفرجة على اللحوم والتمتع برؤية الخضروات في الأسواق.. المخيمات الأخرى المنتعشة معاشياً هي التابعة لجماعات السلفية أصحاب الذقون الحرة والجلباب ثلاثة أرباع والصندل أبو أصبع، هؤلاء تصلهم أموالٌ من أمثالهم في الخارج توفّر لهم المواد الغذائية مهما ارتفع سعرها؛ فالأقربون أولى بالمعروف.

خطّطوا للطوفان، بمعنى كيف يقطعون السياج؛ فيجلبون ويسبون ويعودون.. خزّنوا ذخائر وقذائف يتصدون بها لهجومٍ بري وخزّنوا صواريخ لمشاغلة أنظمة الدفاع الجوي وليس لإحداث أضرارٍ في تل أبيب.. لكنّهم لم يحسبوا ردود الفعل المحتملة، ولم يجهزّوا الجبهة الداخلية، ولم يستدركوا الأخطاء، بل لجؤوا لابتزاز وحلب السكان حتى يواصلوا إطلاق شعارات الحرب والصمود!! هل يوجد عاقلٌ يصدّق ما يروجون له بعد أكثر من ٧٠٠ يومٍ جهنميٍّ: أن النصر بات على الأبواب، وتحرير يافا والقدس يلوح في

الأفق القريب، ومن النهر إلى البحر، وبشّر المؤمنين، بالظنّ أنّهم مؤمنون، هم على الأكثر مسلمون بالشبهة والتزوير.

مارسوا التقلب في الديماغوجية والتضليل.. قالوا إنّ الطوفان لتحرير الأقصى ومبادلة الأسرى وفكّ الحصار عن غزة وإفشال التطبيع العربي والسعودي -تحديداً-. النتيجة التي لا يعترفون بها ولا يرونها هي: هدم كلّ قطاع غزة بدايةً من مساجده ومدارسه وكلّ شيءٍ، وحرمان المسلمين من زيارة الأقصى وإطباق سيطرتهم عليه وملاحقة سكان القدس العرب وإغلاق مدارسهم وهدم أحيائهم.. الأسرى تعاظم تعذيبهم اليومي، وكلّ من أُطلق سراحه في البداية عادوا لأسره وأسروا وأخفوا عشرات آلاف جدد.. وبالنسبة للتطبيع؛ فكلّ عاقلٍ الآن يتمنى على محمد بن سلمان أن يبادل التطبيع لبلاده مع إطعام سكان القطاع ووقف تقتيلهم، ولم يكن سكان القطاع ينقصهم طعام ومطاعم وتعليم وجامعات قبل السابع من أكتوبر، كلّ ما هنالك أنّ قادة حماس كانوا يقصدون بفكّ الحصار عن غزة، فصلها عن الضفة وتسليمهم إيّاها لتحويلها إمارةً إسلاميةً معترفاً بها.. لم يتحقّق أيّ هدفٍ معلنٍ للطوفان ومع ذلك يدّعون الانتصار!!

للإنصاف فلم يكن قادة حماس بهذا الجهل والعنجهية في السابق.. نعم كان بينهم أغبياءٌ منذ البداية مثل الزهار، ولكن كان هناك قادةٌ أصحاب رأيٍ ومنطقٍ وشجاعةٍ مثل الشيخ ياسين، وعبد العزيز الرنتيسي اللذين عرفتهما شخصياً عبر التواصل الهاتفي أثناء الانتفاضة الأولى، كذلك عرفت شخصياً مؤسّس الجهاد الإسلامي، فتحي الشقاقي، عرفته في رفح قبل النكسة والتقينا في دمشق بعد الانتفاضة الأولى.. عموماً حركة الجهاد لا تخوض في المهاترات السياسية ولا تنغمس في الكذب والتضليل ولا تسعى للكرسي، وإنّما تشارك في القتال والتصدي بقدر طاقتها. وكان زميلي في المدرسة

والفصل أحد الذين أصبحوا قادةً مُنظّرين للجهاد، والتقينا في أعمالٍ اجتماعيةٍ واجتماعاتٍ في لندن، وحين باشرت إسرائيل في إحدى غزواتها السابقة بضرب السكان بعنف في القطاع ورفح -تحديداً- حيث يعيش أهله، اعترض هذا الزميل على مطالب مواصلة الحرب وعلى رفض حماس للهدنة، ثم استقال عن التنظير والعمل المسلح وانكفأ أكاديمياً.

كمواطنٍ صالحٍ يريد منفعة الناس عبر تنويرهم وتنشيط أفكارهم، قمت بنشرٍ موجزٍ بما يسمح به الفيسبوك من مصطلحاتٍ، نشرته كإعلان ليصل إلى جمهور سكان منطقة السلطة الفلسطينية في الضفة وقطاع غزة:

نعرف في منطقتنا والعالم ثلاث دياناتٍ رئيسةٍ كانت متصارعةً دموياً على مرّ تاريخها. بينما غيّر أتباع الديانة الوسطى زمنياً من نهجهم وألغوا دور دينهم في إدارة سياسات بلدانهم؛ فقطعوا أشواطاً في التقدم الاجتماعي والرخاء الاقتصادي.. استمرّ أصحاب الدين الأقدم والأوّل، وأصحاب الدين الأحدث والثالث، وبقوا متمسكين برؤية توجيه السياسة والإدارة بإرشادٍ من دينهم، وكلٌّ من الطرفين متيقن من صلاحية رؤيته ويعادي الطرف الآخر.. الفارق المهم هنا أنّ أصحاب الدين الأوّل لجأوا منذ قرنٍ إلى العلوم الحديثة الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والصناعية، ورغم قلة عددهم إلّا أنّهم أطّروا مجتمعاً جديداً أقاموه على حساب فئةٍ من الدين الثالث الأحدث، وأصبح مجتمعهم الجديد هذا يعتمد التنظيم والالتزام بالعقيدة والمهم أيضاً تطوير العلوم بأنواعها، وربّما هم يعانون مشاكلَ نفسيةٍ ناتجةٍ عن عدم توافق الرؤية الدينية المتشددة مع العلوم المتطورة.. لكنّهم حتى الآن يسيرون بنجاحٍ على نهج دينٍ دمويٍّ متخلّفٍ ويطورون ويعتمدون أرقى أساليب العلوم المتاحة.

على الطرف الآخر الثالث يمكن القول إنّ الرؤية الدينية عندهم مهيمنةٌ

على الفكر والممارسة، ولكن لا يوجد أيّ اعتمادٍ حقيقيٍّ على العلوم الحديثة وتبن لها؛ فهم لا ينتجون ولا يطوّرون أسلحتهم ومراكبهم، ولكنّهم يعتمدون على آخرين من المنتجين الكفار، أو أصحاب الرؤية الدينية الوسطية. الطرف الثالث في العموم يعرف ويعترف بتقصيره، ولكنّه يواجه صعوباتٍ في تغيير الأفكار السائدة.. أضف لذلك وجود فئاتٍ وجماعاتٍ أكثر تطرفاً دينياً وجهلاً علمياً، ولكن لديهم هيمنةٌ على فكر وعقول الأغلبية الاتكالية.. هؤلاء يرون الأمور من منظور العدد والفزعة؛ فيورطون أنفسهم والآخرين في معارك ولا يجدون من يفزع لهم. المهم هنا أنّ الطرف الثالث هذا بمعتدليه ومتطرفيه لا علاقة لهم بالعلم والعلوم أو حتى الثقافة العامة؛ فكلّ مواطنٍ هنا يقرأ متوسط نصف صفحةٍ في العام، بينما خصومهم يطالعون ثلاثين كتاباً.. هذا كمثالٍ للفارق بين أصحاب ديانتين متخلفتين متناطحتين، لكنّ غالبية أصحاب الأولى علماءُ ومنظمون يتبعون العلم لإحداث معجزاتٍ، وغالبية أصحاب الثالثة بسطاء وفوضويون واتكاليون، ولديهم قناعةٌ بحدوث معجزةٍ سماويةٍ ستقلب الموازين لصالحهم.

استطراداً للمواقف نقول إنّ أصحاب الدين الأوّل جرّبوا الحروب منذ آلاف السنوات وهُزموا كثيراً وانتصروا قليلاً كونهم كانوا يحاربون ضد قوى أضخم منهم.. حين ينهزمون كانوا يعترفون بالهزيمة ويتحملون النتائج ويستعدون مجدداً، وحين ينتصرون كانوا يشنعون في أعدائهم من قتلٍ وحرقٍ وسلخ جلدٍ معتمدين على رؤية دينهم، وكانت آخر هزائمهم الشاملة في الغرب أيام الحرب العالمية الثانية، وقصتهم بعد ذلك معروفةٌ.. أمّا أصحاب الدين الثالث فلا يعترفون بمبدإ الهزيمة، ولديهم في دينهم مساعدةٌ لتأويل أيّ هزيمةٍ إلى نصرٍ؛ فإذا تحطّموا ولم يبقَ منهم إلّا قلةٌ؛ فذلك نصرٌ كون عدوهم لم ينجح في إبادتهم، ولا يكترثون لحياة غير المحاربين من المدنيين؛ فهم

وقودٌ للحرب ومن يُقتل فهو سائرٌ إلى مصيرٍ أفضل مليون مرةٍ من الحياة؛ فهناك نساءٌ وغذاءٌ وخمرٌ وكل ما تشتهيه، وذلك على عكس معتقد أصحاب الدين الأوّل الذين يرون النهاية على شكل تسيدهم في الأرض وقتل الخصوم واستعباد الناجين كخدمٍ وجوارٍ. هكذا تتوافق رؤية كل من الدينين معاً بالعنف الأشد.. فالأوّل يريد التسيد والاستعباد على من ينجو من المقتلة، والثالث لا يعترف بهزيمةٍ أو بمصير الجمهور كونه يرسلهم للحياة الأفضل بعد الموت.. والأغرب في هذه الحدوتة الماثلة والمطبّقة الآن، أنّ الجمهور هنا وهناك يؤيّدها ويعتمد عليها ويستسلم لها ويقنط، ويبقى التذكير أنّ العلوم والمعرفة والديمقراطية كانت هي النصير الأساس وعنصر الحسم في صراع الأديان، وستبقى.

نكبتنا في حماس

أعتقد بوجود خطأٍ فادح في رؤية حركة حماس منذ تولّي يحيى السنوار قيادتها في قطاع غزة. أعتقد أن السنوار قبل أن يُفرج عنه في عملية تبادل أسرى عام ٢٠١١، التي تضمنت إطلاق سراح ١٠٢٧ أسيراً فلسطينياً مقابل الجندي الإسرائيلي جلعاد شاليط، كان قد عاهد الأسرى الفلسطينيين أثناء وجوده بينهم على بذل الجهد لإخراجهم بصفقات تبادلٍ. وكان يحيى قبل خروجه قد قضى ٢٢ عاماً في السجن قد أثّرت في كيانه وأولوياته وتفكيره ورؤيته. فور خروجه سعى إلى موقع القيادة ونجح في ذلك وأصبح رئيساً للمكتب السياسي لحماس في قطاع غزة منذ ١٣ فبراير ٢٠١٧. لم تكن مهمةً صعبةً أن يصل لهذا المنصب نظراً لمكانته بين الأسرى في السجن وكونه يُعدّ من مؤسسي الجهاز الأمني لحركة حماس، الذي أُطلق عليه اسم «جهاز الأمن والدعوة (مجد)» في عام ١٩٨٥ وتأسس أثناء قيادة الشيخ أحمد ياسين للحركة الدعوية، وهو جهازٌ متخصّصٌ بملاحقة المتهمين بالتجسس لمصلحة الاحتلال الإسرائيلي، أو المتهمين بالكفر حسب منظور السنوار وأصحابه، وذلك كلّه قبل الانتفاضة وتأسيس حركة حماس.. أي كان يلاحق الناس من منظورٍ دينيٍّ قبل الالتحاق بالمقاومة.

في مطلع عام ٢٠٠٤ شخّص طبيب الأسنان في معتقل بئر السبع، د. بيتون حالة السنوار بوجود مشكلةٍ خطيرةٍ في الدماغ كالتهابٍ أو سكتةٍ،

ونصح زملاءه بضرورة نقله للمستشفى، وتمّ نقله بسرعةٍ إلى مركز سوروكا الطبي، حيث أجرى الأطباء له عمليةً جراحيةً عاجلةً لإزالة ورمٍ خبيثٍ في المخ، كما قالوا، ورمٌ قاتلٌ إذا تُرك دون علاجٍ، بحسب د. بيتون الذي يروي أنّه زار السنوار في المستشفى بعد بضعة أيامٍ بصحبة ضابط السجن الذي تمّ إرساله للتحقّق من الترتيبات الأمنية، ووجدوا السجين في السرير، موصولاً بشاشات مراقبةٍ دقيقةٍ وجهازٍ وريديٍّ، لكنّه مستيقظٌ وشكر الطبيب الذي تعرّف إلى خطورة وضعه وأرسله للعملية وأنقذ حياته، وعاد بعد الشفاء للسجن حتى خرج في صفقة شاليط ٢٠١١.

استعاد السنوار مكانته كأحد القياديين البارزين في الحركة وأحد أعضاء مكتبها السياسي. تولّى مهمة التنسيق بين المكتب السياسي لحماس وقيادة كتائب عز الدين القسام، وأصبح ممثلاً للكتائب في المكتب السياسي للحركة، وفي ١٣ فبراير ٢٠١٧ انتخب يحيى السنوار من قبل مجلس الحركة رئيساً للمكتب السياسي لحركة حماس في قطاع غزة، خلفاً لإسماعيل هنية، فيما تمّ اختيار خليل الحية نائباً له.. وفي مارس ٢٠٢١، انتخب يحيى السنوار لولايةٍ ثانيةٍ مدتها أربع سنواتٍ رئيساً لفرع حركة حماس في غزة، وذلك في انتخاباتٍ سريةٍ للحركة. هكذا وبصفته المسؤول الأعلى رتبةً في الحركة في القطاع، ورغم أنّه لم يُنتخب من الجمهور، اعتُبر السنوار الحاكم الفعلي لغزة، وكذلك ثاني أقوى عضوٍ في حماس الداخل والخارج بعد إسماعيل هنية في ذلك الوقت.

في ١٥ مايو ٢٠٢١، وقعت غارةٌ جويةٌ إسرائيليةٌ استهدفت منزل يحيى السنوار، دون وقوع إصاباتٍ أو وفياتٍ، وعلى الرغم من تلك الغارة المفترض أنّها كانت لقتله، ظهر السنوار علناً أربع مراتٍ -على الأقل- في الأسبوع التالي. كان أبرزها في مؤتمرٍ صحفيٍّ جريءٍ في ٢٧ مايو ٢٠٢١، عندما أعلن على

الهواء أنّه سيعود إلى منزله سيراً على الأقدام بعد انتهاء المؤتمر، متحدياً وزير الحرب غانتس لاتخاذ قرار اغتياله خلال ٦٠ دقيقةً قبل وصوله إلى المنزل. أمضى السنوار الساعة التالية -بالفعل- يجول في شوارع غزة، والتقط صوراً مع الجمهور، ولم يتم اغتياله أو تحلّق أيّ طائرةٍ مسيّرةٍ في محيطه. في عام ٢٠٢٣، وبعد أسابيع من بداية حرب الطوفان التي هندسها وأعد لها، اقترح السنوار إطلاق سراح جميع الأسرى الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية مقابل إطلاق سراح جميع الرهائن المختطفين يوم السابع من أكتوبر، وكان هذا الهدف الأساس المعلن لهجوم السابع من أكتوبر.

بغض النظر عن ظروف وملابسات واحتمالات العملية الجراحية لمخ يحيى السنوار؛ فالواضح أنّه كان مهتماً بالتعرف إلى العقلية الإسرائيلية وتعلم اللغة العبرية وله صورٌ وهو يجالس ويحادث السجانين ويشرب الشاي معهم؛ فلم يتوصل للحقيقة المعرفية لتلك لعقلية، ويبدو أنّه ظنّ أنّ خطف إسرائيليين سيؤدي لمبادلتهم بكلّ الأسرى الفلسطينيين الذين تمّ إهمالهم نسبياً من قبل السياسيين في السجون الإسرائيلية. التجربة السابقة لتبادل إسرائيليين مع أسرى فلسطينيين قادت إلى ذلك الاستنتاج، وبالتالي الظن أنّه كلّما زاد تعداد المخطوفين يزيد أعداد المحررين.

خرج السنوار من السجن إذاً، وتسلّم مناصب وترفّع إلى القمة في الحركة، وخطّط للتمويه بأنّه يريد السلام ويطالب بتشغيل العمال الغزيين في إسرائيل، وحرّك جماهير الحركة إلى مناوشاتٍ سلميةٍ على الحدود بينما قوات نخبةٍ من حماس تتدرب على عملية الطوفان التي لم يخبر أيَّ قادةٍ من حماس بها، اللهم الفئة المنصاعة له في غزة وبشكلٍ ضيّقٍ وقبل الموعد بقليلٍ.. أمّا الذين قاموا بالاقتحام؛ فكانوا مجموعةً مدربةً وتمّ إبلاغهم فجر يوم السابع بالهدف وتخييرهم بالمشاركة من عدمها.. لم تكن العملية بهدف

احتلال أو تحرير أيّ منطقةٍ فلسطينيةٍ محتلةٍ والثبات فيها (ليتهم فعلوا ذلك)، وكلّ الأهداف التي أُعلنت لاحقاً جاءت لتبرير العملية سياسياً والتصدي للنقد الناتج بعد بوادر الانتقام الإسرائيلي.. أهدافٌ مثل إفشال التطبيع، فكُّ الحصار عن غزة، وضعُ القضية على الجدول الدولي السياسي، كلُّ هذا بصلٌ مصننٌ أُلقي به لاحقاً كأهدافٍ لتبرير الفشل في توقّع ردود الفعل ونتائجه الكارثية؛ فتمّ تصوير قطاع غزة وكأنّه كان على أبواب جهنم وجاء الطوفان للدفع به إلى الجنة. كلّ الخطة وجدت وولدت من مخ السنوار إيّاه، وإعداده وتنفيذه وتمّ الزجّ لاحقاً بقيادات الحركة وبحزب الله، وتقدّمت إيران في محاولةٍ للفوز بشعبيةٍ حتى طالت ردود فعل إسرائيل التدميرية الجميع، ومنهم اليمن الفقير، وإيران وبرنامجها النووي.

في أحسن الحالات والظنون فلم تضع خطة الطوفان احتمالات رد الفعل الإسرائيلي، ولم تدرس نفسية ووضع نتنياهو، ووجود اليمين المتطرف الديني الدموي في الحكم.. ولا حسبت موقف واشنطن والغرب حين تتعرض صنيعتهم لاقتحام وقتل وخطف المئات من الجنود والمدنيين إناثاً وذكوراً وأطفالاً وعجائز. لو رضخت إسرائيل لعملية تسليم وتبادل أسرى بشكلٍ سلميٍّ بعد الطوفان لكانت قد وضعت نهايتها بيديها، وهل يعقل لدولةٍ استعماريةٍ نوويةٍ في محيطٍ معادٍ دينيٍّ وسياسيٍّ أن تقع في فخٍّ كهذا وتفتح على ذاتها باباً يؤدّي لخطفٍ دائمٍ لمواطنيها أينما كانوا؟ كذلك لم تضع الخطة بنوداً للتحكم في الجبهة الغزية الداخلية وتوفير الضروريات.. نعم تمّ تخزين أسلحةٍ وذخائر شبه بدائيةٍ ولا تشمل أيّ مضاداتٍ للطائرات، ولم يتمّ تجهيز عملياتٍ انتقاميةٍ ضد مدنيين إسرائيليين.. هذا ما تولّد في مخّ يحيى السنوار ولا يغير هذه الحقائق والنتائج أيّ تبريراتٍ سياسيةٍ وعسكريةٍ يقدمها فريق الجزيرة الذي استمرّ في طرح وشرح الحرب وكأنّها بين جيشين متقاربين في

التسليح والاستعداد.. يريدون إعلان نصرٍ لحركة الإخوان المسلمين بأيّ ثمنٍ.

حركة حماس لم تتصرف يوماً كممثلٍ وملتزمٍ بكلّ الشعب، وإنّما تثق بجماعتها وتعتمد عليهم فقط.. لم توفّر سابقاً أو لاحقاً فرص تدريب مئات آلاف شبان وشابات قطاع غزة الذين هم تحت حكمها.. بدأت الحرب واستمرت وتواصلت بينما قوات الحركة في تناقصٍ ومئات آلاف الشبان يركضون خلف الطحين، بل إنّهم عاجزون عن تنظيم عمليات النزوح ومساعدة القوي جسدياً للضعيف.. الحركة تصرّفت وتتصرّف كعصابةٍ لا علاقة لها بالشعب، بل اختبأت خلفه ووسطه ولم تحرّض أفرادها على عدم الوجود بهواتفهم وسط الحشود!! الحركة تتصرف بأنانيةٍ مطلقةٍ على كلّ الصعد.. أو بالأحرى مخططوها وقادتها.

بالعودة لأهداف الطوفان؛ فلا ننس طبعاً أنّ كلّ الأسرى الذين تحرّروا في العمليات الأولى للتبادل تمّ اعتقالهم مجدداً، وأنّ عشرات آلاف الرجال تمّ اعتقالهم من قطاع غزة بعد الطوفان، وأنّ معاملة الأسرى التي كانت سيئةً أصبحت كارثيةً بكلّ معنى الكلمة، ولا توصف خجلاً من المصطلحات المطلوبة للتوضيح، بل إنّ قطاع غزة اشتد عليه الحصار الفعلي التجويعي والطبي والإنساني بدل فكّ الحصار، وتحوّل إلى سجنٍ كبيرٍ معزولٍ عن العالم، وإنّ الشعب الفلسطيني الغزي عاد إلى عصر البداوة والخيام والتحطيب والسلب والنهب، وتحطّمت أسسه الاجتماعية ومفاهيمه وترابطه الاجتماعي، أي عاد إلى ما قبل الجاهلية بقرونٍ عديدةٍ بدل أن يحسّن الطوفان وضعه.. والتطبيع لم يتوقف وإسرائيل تتمدّد كقوةٍ مهيمنةٍ في الإقليم، والقيادات الفلسطينية ترفض الاتفاق وحركة حماس تعتبر ذاتها منتصرةً وغالبةً.. ربّما هي كذلك ولكنّ السؤال: غالبةٌ لمصلحة من؟

قد يقال إنّ التخطيط للعملية كان سليماً وبهدف تبييض السجون نظراً لحجم الرهائن المخطّط له وعلى ضوء تجارب عمليات التبادل السابقة، لكنّ هذا القول مردودٌ عندما نقارن بين الظروف والمعطيات لمقدمات وخلفيات التبادل السابق وللطوفان. قامت حركات المقاومة الفلسطينية منذ عام ١٩٦٨ بصفقات تبادلٍ للأسرى مع الاحتلال الإسرائيلي، وبلغ عددها ١٠ صفقاتٍ حتى عام ٢٠١١، (أي حتى عملية شاليط التي حرّرت السنوار) ونجحت عمليات التبادل السابقة في تحرير آلاف الأسرى والمعتقلين الفلسطينيين، وشملت عدداً من أصحاب الأحكام المؤبدة والأحكام العالية، وأسرى من فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ يحملون جنسية إسرائيل، وأسرى عرب وأجانب. وأجرت دول وحركات مقاومةٍ عربيةٍ كذلك صفقاتٍ عديدةً للإفراج عن أسرى عرب محتجزين لدى دولة الاحتلال، مقابل الإفراج عن جنودٍ إسرائيليين، كما قامت السلطة الوطنية الفلسطينية عقب «اتفاق أوسلو» بعددٍ من الاتفاقيات أسفرت عن تحرير آلاف الأسرى والمعتقلين الفلسطينيين من السجون الإسرائيلية.

بلغ عدد صفقات تبادل الأسرى التي تمّت بين العرب وإسرائيل ٣٨ صفقةً في المدة الواقعة بين عامي ١٩٤٨ و٢٠١١، وتمخضت عن إطلاق سراح آلاف العرب، أغلبهم من الفلسطينيين ودول الجوار، وفي المقابل أُفرج عن أسرى إسرائيليين، كما تضمن التبادل جثثاً ورفاتاً من الجانبين، وخرائط ألغام والكشف عن مفقودين.. كلّ تلك العمليات جاءت على أثر حروبٍ ومعاركَ واشتباكاتٍ حربيةٍ، وليس غارةً لخطف مدنيين والتسبب في قتل مئاتٍ غيرهم.

على سبيل المثال في ٢٠ مايو/ أيار ١٩٨٥ تمّت عملية التبادل بين إسرائيل والجبهة الشعبية القيادة العامة، وفقاً للشروط الفلسطينية، وأُطلق

على هذه العملية «عملية الجليل»، وتُعد من أقوى صفقات التبادل العربي الإسرائيلي، إذ أجبرت إسرائيل على إبقاء معظم الأسرى المُفرج عنهم داخل الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧، وكان غالبيتهم أصحاب أحكامٍ عاليةٍ، ووفقاً لاتفاق التبادل أُطلق سراح ١١٥٥ معتقلاً في السجون الإسرائيلية، وشمل الإفراج ١١٨ أسيراً فلسطينياً تمّ اختطافهم أثناء تبادلٍ سابقٍ مع حركة «فتح» عام ١٩٨٣ من «معسكر أنصار»، و١٥٤ أسيراً تمّ نقلهم من المعتقل نفسه إلى معتقل «عتليت»، وذلك خلال خروج القوات الإسرائيلية من جنوب لبنان، و٨٨٣ معتقلاً كانوا أصلاً في السجون الإسرائيلية في فلسطين المحتلة، وفي المقابل أُخلي سبيل الجنود الإسرائيليين الثلاثة الذين تمّ أسرهم في الميدان. كان ضمن الأسرى المحررين ٩٩ أسيراً من دولٍ عربيةٍ، و٦ من دولٍ أخرى من بينهم الياباني كوزو أوكوموتو، قائد عملية مطار اللد يوم ٣٠ مايو/ أيار ١٩٧٢، وشملت الصفقة أيضاً فلسطينيين من مناطق ١٩٤٨، وأسرى من الضفة الغربية وقطاع غزة، وكان من بين الأسرى الشيخ أحمد ياسين (مؤسس حركة «حماس» فيما بعد).

يوجد ملحقٌ في هذا الكتاب عن كلّ عمليات التبادل لمن يريد التأمل فيها والبحث عن الفوارق بينها وبين مخطط الطوفان لتبييض السجون.. لكنّي أريد هنا أن أبوح لكم بمعلومةٍ صحيحةٍ طريفةٍ عن عملية خطف الجندي شاليط، والتي أدّت لتحرير السنوار؛ فخطّط لعملية الطوفان.

يوم ٢٥ يونيو ٢٠٠٦ نفّذت كتائب القسام، وهي الجناح العسكري لحماس، بالتعاون مع «ألوية الناصر صلاح الدين»، الذراع العسكري لـ«لجان المقاومة الشعبية» في فلسطين، و«جيش الإسلام»، عمليةً عسكريةً نوعيةً نجحت خلالها المقاومة في التسلل عبر نفقٍ أرضيٍّ تحت الحدود، ومباغتة موقع إسناد للقوات الإسرائيلية على الحدود الشرقية لمدينة رفح،

وأسفرت العملية عن مقتل قائد دبابةٍ ومساعده، وإصابة ٥ بجراحٍ، وتدمير دبابة «ميركافا» وناقلة جندٍ مصفحةٍ، إضافةً إلى أضرارٍ في الموقع العسكري.. كان النفق جاهزاً تحت الحدود منذ مدةٍ وينتهي بالقرب من الموقع العسكري، وتنكّر المقاتلون بلباس الجيش الإسرائيلي ليحققوا عنصر المفاجأة بالاقتراب من الموقع.

خرجوا من النفق واقتربوا من الموقع وفتحوا النيران الرشاشة واستخدموا قاذفة آر بي جي ضد الدبابة.. كانت المفاجأة تامةً وارتفع الصراخ وعمّت الفوضى؛ فخرج الجندي جلعاد شاليط من فتحة الدبابة المصابة، وشاهد ما ظنّه جنوداً يركضون غرباً؛ فلحقهم وهو يناديهم.. انتظروه وتوجهوا غرباً عائدين عبر السياج، وقطعوا الأسلاك وساعدهم شاليط في ذلك باعترافٍ لاحقٍ من أحد المنفذين، وأعادوه معهم (زيادة البياع) كما يقول الغزاوية.. وربّما اعتبروه هديةً ربانيةً!

بدأت المفاوضات بمساعدة وسيطٍ ألمانيٍّ وشنّت إسرائيل حرباً على القطاع في نهاية عام ٢٠٠٨ ومطلع عام ٢٠٠٩، لكنّها لم تفلح في الوصول إلى مكان الجندي الأسير، ثم تمّت عملية تبادل على مرحلتين الأولى في مطلع أكتوبر ٢٠٠٩ أطلقت إسرائيل بموجبها سراح ٢٠ أسيرةً فلسطينيةً من الضفة الغربية وقطاع غزة، وقدّمت المقاومة مقابل ذلك شريط فيديو لمدة دقيقتين يظهر فيه شاليط بصحةٍ جيدةٍ، ثم في أكتوبر ٢٠١١ وعبر الوسيط المصري تمّ استكمال التبادل وتحرّر ١٠٢٧ من بينهم يحيى السنوار، وعاد جلعاد شاليط بعد احتجازٍ دام قرابة خمس سنوات.

بودي هنا الاشارة أنّه بينما كانت فصائل المقاومة الإسلامية تحتفل بنجاح الاختطاف للجندي شاليط وارتفاع الأمل بتحرير أسرى فلسطينيين، كانت ردود الفعل والرأي الإسرائيلية مضادةً لذلك، وتوجب على المقاومة

دراستها.. هنا بعض ما جاء في صحفهم عشية توقيع الصفقة وإطلاق سراح شاليط وأسرى فلسطينيين:

قال نتنياهو إنّ القبول بالصفقة أمرٌ صعبٌ وإنّ الصفقة هي الأكبر في تاريخ الدولة العبرية. وعبّرت بعض الصحف الإسرائيلية عن امتعاضها لنجاح هذه الصفقة، جاء في يدعوت أحرانوت، «الثمن مبالغٌ فيه، المخاطر كبيرةٌ والسابقة غير لطيفةٍ، ولكنّ دولةً لم تتمكن على مدى خمس سنوات من تخليص جنديٍّ من الأسر بوسائل أخرى لا يمكنها إلّا أن تدفع الثمن». وجاء في معاريف: «المسألة ليست إذا كانت إسرائيل ستحرّر ألف مخربٍ أو أربع مئة، حتى مئة مخربٍ هم أكثر ممّا ينبغي. هذه الصفقة هي جائزةٌ للإرهاب، هذه الصفقة هي انتصارٌ هائلٌ لحماس، هذه ليست صفقةً، هذا استسلامٌ.. المخربون الذين تحرّروا في الصفقات السابقة تسببوا بقتل قرابة ٢٠٠ إسرائيلي. لا يعرف أحدٌ ماذا سيحصل هذه المرة؛ إذ أن شيئاً واحداً مؤكّداً في أعقاب هذه الصفقة: الشهية لمزيدٍ من الاختطاف كبيرةٌ، الاستسلام التالي هو مسألة وقتٍ فقط». وكتب بن كاسبيت في معاريف أيضاً: أمس كان مساء استسلامٍ، مساء نزلت فيه إسرائيل على ركبتيها أمام حماس، مساء فشلت فيه قوة الصمود الإسرائيلية، رقة القلب تغلبت على الصلابة اللازمة في حينها، مساء عقد فيه خالد مشعل، وأحمد الجعبري وإسماعيل هنية مهرجانات النصر عن حقٍّ، مساء تآكل فيه الدرع الإسرائيلي حتى سُحق، بالضبط مثلما حصل في الهروب من لبنان وفي الخروج أحادي الجانب من غزة، مساء ولد الاختطافات التالية (ورجاءً، لا تحاولوا بيعنا استنتاجات لجنة شمغار التي تقول إنّه من المرة التالية، سيكون الحال مختلفاً. حاولوا أن تبيعوا هذا لحماس، هم لن يشتروا، هم سيختطفون).

وفي هآرتس كتب كل من عاموس هرئيل وآفي يسخروف: من المتوقع

لحماس أن تستخلص ربحاً سياسياً فورياً من إتمام الصفقة في الأيام القريبة القادمة، بينما رئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس (أبو مازن) اكتفى بخطواتٍ سياسيةٍ رمزيةٍ من توجهه إلى الأمم المتحدة، من المتوقع لحماس أن تقود احتفالات تحرير ١٠٢٧ سجيناً، ثمنٌ غير مسبوقٍ في تاريخ صفقات الأسرى لإسرائيل، عائلات السجناء ستلتقط صورهم في كلّ وسائل الإعلام العربية، وحماس ستخرج مسيراتٍ ضخمةً احتفالاً بانتصارها».

للتذكير في النتائج وللتفكير أيضاً: انسحبت إسرائيل من قطاع غزة عام ٢٠٠٥ وأخلت المستوطنات، وفي العام التالي وقع شاليط في الفخ، وبعد عامٍ آخر شهد انقلاب حماس الدموي على السلطة، أعلنت إسرائيل في سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٧ غزة «كياناً معادياً»، وفي أكتوبر من السنة نفسها فرضت عليها حصاراً شاملاً. في ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٨، بدأت إسرائيل حرباً على قطاع غزة أطلقت عليها اسم «عملية الرصاص المصبوب»، وردّت عليها المقاومة الفلسطينية في القطاع بعمليةٍ سمتها «معركة الفرقان». كان الهدف الذي وضعته قيادة الاحتلال لهذه الحرب آنذاك أيضاً هو «إنهاء حكم حركة حماس في القطاع»، والوصول إلى المكان الذي تخبّئ فيه المقاومة الأسير جلعاد شاليط. استمرّ ذلك العدوان الإسرائيلي ٢٣ يوماً، واستخدم فيه الاحتلال أسلحةً محرّمةً دولياً مثل الفسفور الأبيض واليورانيوم المنضب، وأُطلق أكثر من ألف طنٍ من المتفجرات. أسفرت تلك الحرب عن أكثر من ١٤٣٠ شهيداً فلسطينياً، منهم أكثر من ٤٠٠ طفلٍ و٢٤٠ امرأةً و١٣٤ شرطياً، إضافة إلى أكثر من ٥٤٠٠ جريحٍ. ودمّرت أكثر من ١٠ آلاف منزلٍ دماراً -كلياً أو جزئياً-.. وبدوره اعترف الاحتلال بمقتل ١٣ إسرائيلياً، بينهم ١٠ جنودٍ، وإصابة ٣٠٠ آخرين.

لو تمّت دراسةٌ وتمحيصٌ لتجربة شاليط.. مثل أنّه عمليّاً سلّم ذاته ولم

يمت معه أيّ مدنيٍّ إسرائيليٍّ، وتمّ أسره من موقعٍ عسكريٍّ، ثم التمحيص في الثمن الذي دُفع من حياة أهل غزة مقابل جندي واحدٍ؛ فربّما لم يكن قرار الطوفان قد اتُخذ، أو على الأقل تمّ استدراك الأمر بسرعةٍ بدل توريط الدول المجاورة وتدمير غزة واليمن ولبنان وإيران، وعلى الأرجح إنهاء عهد ومرحلة حماس. إسرائيل وحسب التجربة السابقة لن تتصالح أو تتسامح مع الذين تراهم تسببوا في غزوة السابع من أكتوبر وبالتالي سوف يتسع التوريط ليشمل أيّ دولةٍ تستضيفهم.

هناك تجربةٌ أخرى كان من الواجب على السنوار مراجعتها قبل إقدامه على مغامرة السابع من أكتوبر، وتلك التجربة مطابقةٌ تقريباً لظروف تجربة الطوفان، وأقصد هنا هجوم إسرائيل على حزب الله وعلى لبنان إثر أسر الحزب لجنودٍ إسرائيليين بهدف تحرير أسرى لبنانيين رفضت إسرائيل إطلاق سراحهم في السابق؛ فكانت النتيجة تدمير الضاحية الجنوبية وخسائر جمّةً وبداية تهديدٍ إسرائيلي رسميٍّ أنّ من يخطف مواطنيها سيحلّ به مصير الضاحية الجنوبية، وأُطلق على ذلك في العلم العسكري «عقيدة الضاحية»، هذا طبعاً مع الفارق بين قوة حزب الله وظروفه وإمداده ودعمه مقارنةً بوضع حركة حماس التي لم تدرس وتستوعب تلك التجربة؛ فخلقت «عقيدة غزة» إذ أصبحت إسرائيل تهدّد خصومها بمصير غزة كما هدّدت سابقاً بعقيدة الضاحية.

قبل إيجاز تلك التجربة من عام ٢٠٠٦ بين حزب الله وإسرائيل بودي التأكيد أنّني لم أخرج عن نطاق مواضيع هذا الكتاب كونه متعلقاً بذكرياتي ورؤيتي؛ فقد عايشت التجربة للحرب الإسرائيلية اللبنانية الأولى عام ١٩٨٢ عن كثبٍ، وراقبت الحرب الثانية ٢٠٠٦ عن قربٍ مهنيٍّ ونشرت الكثير في العلن ناصحاً ومحذّراً.. وكنت قبل ذلك قد كتبت رسالة الماجستير (١٩٧٨)

عن الثورة الفلسطينية، وقابلت وصادقت شخصياتٍ عايشت تجربة حصار ومذبحة تل الزعتر عام ١٩٧٦ حين مات الناس جوعاً وطلبوا أن يفتيهم الشيوخ بأكل جثث القتلى لحفظ حياتهم وتمديد صمودهم، ولكن تمّ الغدر بهم من الحليف والصديق والعدو، واغتُصبت النساء قبل الفتك بهنّ وبالجميع. لذلك أكتب وأنقل لكم ما أتذكّر طالما أنّه في إطار ما يحدث الآن ٢٠٢٥ في غزة، ولبنان واليمن وما كان يجب أن يحدث لو وعينا واستوعبنا.

كانت حرب ٢٠٠٦ استمراراً لمعارك سابقةٍ بين حزب الله وإسرائيل، تماماً كما كان الحال بين إسرائيل والمقاومة الفدائية ثم المقاومة الإسلامية. كانت إسرائيل تصرّ على إبقاء مختطفين لبنانيين وعرب لديها، وحزب الله يصرّ على تبني تحريرهم، خصوصاً بعد مرور حوالي ٣٠ عاماً على سجن بعض اللبنانيين مثل سمير القنطار، وبعد يأس المفاوضات غير المباشرة لإطلاق سراحه قرّر حزب الله أسر جنودٍ إسرائيليين لتحرير الأسرى اللبنانيين وغيرهم من المعتقلات الإسرائيلية، وفي ١٢ يوليو ٢٠٠٦ شنّ حزب الله عملية الوعد الصادق، أدّت إلى أسر جنودٍ إسرائيليين؛ فبادرت القوات الإسرائيلية مباشرةً واقتحمت الجدار الحدودي ودخلت إلى الأراضي اللبنانية؛ فكان حزب الله مترصداً للإسرائيليين وقصف الدبابتين؛ فقتل ٨ جنودٍ إسرائيليين.

ردّت إسرائيل بحربٍ شاملةٍ ومفتوحةٍ، بدأت بحصارٍ بحريٍّ وعمليات قصفٍ جويٍّ مكثّفٍ ثم توغلٍ بريٍّ، واستمرّت المعارك ٣٣ يوماً، قتل فيها ١٢١ جندياً إسرائيلياً و٤٤ مدنياً، وبين ٣٠٠ و٨٠٠ قتيلٍ من حزب الله، و٤٣ من الجيش اللبناني وقوات الأمن، وسقط أكثر من ألف قتيلٍ من المدنيين اللبنانيين، وآلاف الجرحى من الطرفين. وضعت إسرائيل أهدافاً للحرب: الإفراج غير المشروط عن الجنديين الأسيرين، ونزع سلاح حزب الله، في

محاولةٍ لإنهاء التهديد طويل الأمد الذي يمثّله لإسرائيل. ما أشبه الأمس باليوم.

على الطرف الآخر كان هدف حزب الله دفع إسرائيل إلى إجراء مفاوضاتٍ غير مباشرةٍ تفضي إلى تبادل للأسرى، وهو ما تمّ في عام ٢٠٠٨ على مرحلتين، ولاحقاً انسحبت إسرائيل نهائياً من جنوب لبنان ما عدا مزارع شبعا بمقتضى القرار الأممي رقم ١٧٠١، وهو ما اعتبره حزب الله انتصاراً.. ثم عادت إسرائيل بعد حرب الطوفان وإسناد حزب الله لغزة، عادت وفرضت تطبيق هذا القرار الأممي وتعمل على نزع سلاح حزب الله من جنوب لبنان قبل أن تنسحب منه.. هذا طبعاً بعد تدمير حزب الله وقواته وأسلحته وقتل قادته (٢٠٢٥).

كان حجم الدمار الذي ألحقته إسرائيل بلبنان كبيراً، ومنه انبثقت عام ٢٠٠٨ ما عرفت بـ«عقيدة الضاحية» كإستراتيجية ردعٍ مستوحاةٍ من تدمير الطيران الإسرائيلي لأجزاءٍ من ضاحية بيروت الجنوبية، حيث معقل حزب الله. كان قائد القيادة الشمالية في الجيش الإسرائيلي الجنرال غادي آيزنكوت، هو من وضع تلك الإستراتيجية التي ترتكز على إحداث أكبر قدرٍ من التدمير، حيث يقول: «إنّ ما حدث في الضاحية الجنوبية لبيروت سيتكرّر في كل بلدةٍ تُطلق منها طلقاتٌ باتجاه إسرائيل.. سنستخدم القوة غير المتكافئة ضدهم، وسنتسبب في دمارٍ هائلٍ، بالنسبة إلينا هذا ليس اقتراحاً بل قواعد عسكريةٌ وخطةٌ تمّت الموافقة عليها».. أي إسرائيل تعلن على المكشوف وبالصوت العالي أنّها لا تحترم قوانين الحرب والمعاهدات الدولية وحماية أرواح المدنيين ومنشآتهم المدنية والبنية التحتية.. إلخ.

الدمار أصبح من نصيب قطاع غزة وسكانه إلى درجة السعي لتهجيرهم وإفراغ القطاع واستيطانه والعودة بالتهديد العلني والرسمي إن ما حدث لغزة

سيحدث لمن يطلق النار على إسرائيل أو يخطف مواطنيها. الدمار بعد غزة أصاب الضاحية الجنوبية مجدداً وجنوب لبنان والفتك بحزب الله وتهديد إيران (ثم ضربها).

المقارنات كثيرة بين تلك الحروب ٢٠٠٦ و٢٠٢٣.. هناك الموقف الغربي الذي انقسم ومال في معظمه لتأييد إسرائيل وحقّها في الدفاع عن مواطنيها.. وأيضاً الموقف العربي انقسم آنذاك كما لاحقاً في الطوفان، وخاصةً موقف كل من مصر والسعودية الرسمي التي وصف وزير خارجيتها عملية خطف الجنديين «بالمغامرات غير المسؤولة» وكانت السعودية ومصر قد أصدرت بياناً هاجمت فيه ما سمّته «عناصر لبنانية» بسبب ما اعتبرته «مغامرةً غير محسوبةٍ دون الرجوع إلى السلطة الشرعية» ودون التنسيق مع الدول العربية، ولكن على الرغم من ذلك خرجت تظاهراتٌ مؤيدةٌ لحزب الله في مصر رفعت بها أعلام لبنان وحزب الله وصور حسن نصر الله زعيم حزب الله وطالبت بدعم حزب الله عسكرياً ضد إسرائيل، وأعلن مُرشد جماعة الإخوان المسلمين بمصر محمد مهدي عاكف أنّ «جماعة الإخوان المسلمين مستعدةٌ لإرسال عدة آلاف من أعضائها للقتال إلى جوار حزب الله في لبنان في حربه مع إسرائيل».. المواقف نفسها تكرّرت طوال ٧٠٠ يوم في مقتلة الطوفان حتى انتبه العرب والغرب أنّ إسرائيل لا تقتل حماس وإنّما تبيد الشعب والأرض الفلسطينية.

المقارنات بين حرب لبنان الثانية ومقتلة الطوفان كثيرةٌ، مثل عمليات الدمار والتهجير للسكان وقصف المدن للطرفين مع فارق نتائج القصف الإسرائيلي عن قصف حماس وحزب الله والحوثي وإيران.. وبعد الحرب حدثت أزمةٌ كبيرةٌ جراء توجه النازحين، الذين كانوا قد فرّوا من الهجمات الإسرائيلية، إلى بيوتهم، وكانت قد سويت بالأرض، ومن جهته، قال الأمين

العام لحزب الله، حسن نصر الله، إنّ «مقاتلي الحزب سطّروا نصراً تاريخياً ليس للبنان فقط بل لكلّ الأمة» وقد سمّوا النصر بـ«النصر الإلهي» لأنّهم انتصروا على أقوى جيشٍ في الشرق الأوسط وأقوى سلاح طيران، وقال نصر الله إنّه لن يدخل في جدل نزع سلاح الحزب، وقال إنّ طرح هذا النقاش في هذه المرحلة وهذا الوقت يخدم العدو، وهذا ما سيقوله قادة حماس بعد الهدنة وكانوا أصلاً قد قالوه على الدوام وطوال المقتلة.. لكنّ نصر الله قال للتلفاز اللبناني ولصحيفة «الحياة» اللندنية في سبتمبر ٢٠٠٦: «لو علمنا أنّ عملية الأسر (للجنديين الإسرائيليين) ستقود إلى هذه النتيجة لما قمنا بها قطعاً». هذا ما كان يتوجب على السنوار وأصحابه أن يطالعوه ويتفكّروا معانيه، أو يخطّطوا بشكلٍ أفضل.

هناك فارقٌ ذاتيٌّ إسرائيليٌّ بين ٢٠٠٦ ومقتلة الطوفان؛ فقد كانت إسرائيل آنذاك ما زالت تحترم الأسس الديمقراطية الداخلية؛ فتشكّلت لجان تحقيقٍ وتمّت محاسبة المخطئين عسكرياً وسياسياً واستقال رئيس الوزراء أولمرت، بينما الآن تحوّل المجتمع إلى الفاشية والنازية ويتصرّف رئيس الوزراء، نتنياهو، ضد الأسس والقواعد الديمقراطية تمسكاً بمنصبه وخوفاً من المحاسبة، ويصرّح أولمرت هذا أنّ إسرائيل تمارس الإبادة الجماعية في غزة.. هذا الاختلاف وملاحقه قد يؤدّي إلى كارثةٍ إضافيةٍ لا تُعرف عقباها، وهي هجومٌ إسرائيليٌّ جوي ضد إيران ومفاعلاتها النووية وقواتها الصاروخية لحسم النتائج من الضربة الأولى. مثل هذا الهجوم شبه حتمي بين كيانين دينيين متشددين يحكمهما قراراتٌ انفراديةٌ لا يمكن لأيٍّ منهما تحمّل هزيمةٍ واضحةٍ كونها ستعني نهايته عبر تحولاتٍ داخليةٍ. يبدو أنّ الأئمة في طهران يعرفون ذلك ويناورون مع واشنطن لعقد اتفاقيةٍ تضمن ردع إسرائيل عنهم، وقد اتضح الأمر للأئمة من قبل أطرافٍ عربيةٍ أيضاً نصحتها بالمهادنة وتجنّب

الصدام مع الديكتاتور الإسرائيلي الذي يسعى لإنقاذ جلده ولو على حساب تدمير كلّ شيءٍ.. فهل تحسن طهران التفكير والتقدير والتدبير؟

ظنّت إيران أنّها أحسنت التفكير والتقدير وباشرت محادثاتٍ مع واشنطن حول مشروعها النووي، لكنّ إسرائيل شنّت الحرب المفاجئة فجر الجمعة ١٣ يونيو ٢٠٢٥ وقصفت الأهداف النووية والعسكرية والسياسية وبعض البنية التحتية الإيرانية.. هذه الحرب قائمةٌ الآن أثناء كتابة هذه الذكريات، ولذلك سأوجز تسجيل الأسباب الرئيسة لما جرى ولماذا قامت الحرب أثناء التفاوض، وسنرى لاحقاً كيف تتطوّر وتنتهي.

اتضح من المحادثات الأميركية الإيرانية أنّ طهران تؤكّد سلمية ومدنية برنامجها النووي وعدم عزمها بناء قنبلةٍ نوويةٍ، واتضح أنّ واشنطن تريد تصديق ذلك ولهذا تعرض على طهران يورانيوم مخصّباً لأغراضٍ مدنيةٍ إذ هناك دولٌ تبيع هذا اليورانيوم، ولكنّ طهران تريد تخصيبه ذاتياً في معاملها المفتوحة للرقابة الدولية والتفتيش. على الطرف الآخر تقول إسرائيل إنّ طهران قيد أنملة لا تتعدى الأسابيع لإنتاج القنبلة، وبالتالي تصبح قوةً نوويةً، ولذلك تمّ قصف وتدمير مفاعلاتها.. المعروف أنّ طهران لديها عشرة أطنانٍ يورانيوم مخصب وقابل لزيادة التخصيب، ولديها ٥٠٠ كيلوجرام مخصبة بنسبة ٦٠ ٪ وهذه كافيةٌ لإنتاج عشر قنابل.. أي أنّ طهران -نظرياً- بوسعها الآن إنتاج قنابل، ولكن عليها أولاً الانسحاب من المعاهدات الدولية ثم إنتاج قنبلتها النووية.. وهذا مثلاً ما حدث مع كوريا الشمالية. أمّا سبب الإصرار الإسرائيلي على منع امتلاك طهران للسلاح النووي؛ فيعود للعداء المعلن بعد سقوط شاه إيران وتولّي الثورة الإسلامية الحكم والتي تعتبر إسرائيل عدوّاً يجب القضاء عليه.. كما أنّ إسرائيل والغرب لا يريدون لدولةٍ إسلاميةٍ غير تابعةٍ لهم التوصل لعلوم وإنتاج السلاح النووي.

الأسباب الجيوسياسية الأهم لحسم إسرائيل هذه القضية، أنّها تريد أن تصبح قوةً إقليميةً مهيمنةً، وليس فقط متفوقةً.. المتفوق بحاجةٍ لإثبات تفوقه في كلّ معركةٍ، والمهيمن يفرض إرادته عبر توزيع رغباته وطلباته على الآخرين. تصبح إسرائيل مهيمنةً حين تنتصر في حروبها بشكلٍ حاسمٍ يحقّق الهزيمة للطرف الآخر من دون أذىً ذاتيٍّ لها، بل الهزيمة الساحقة للخصوم كونها لا تراعي قوانين ومعاهداتٍ دوليةً كما فعلت مراراً في لبنان وغزة على مرأى من العالم وفي مخالفاتٍ لقراراتٍ أمميةٍ.. بمعنى أنّها تريد حين توجّه لأيّ حكومةٍ في الإقليم إنذاراً؛ فعليها الامتثال حتى لا تتعرض للدمار.. باختصارٍ من يريد الخروج عن بيت الطاعة الإسرائيلي فعليه أن يكون أقوى منها ومستعداً لإيقاع الخسائر بها، وهذا ما تعرفه طهران ولذلك تردّ بأقصى ما لديها من أسلحةٍ، ولكن يبقى التفوق الإسرائيلي النووي كسلاحٍ رادعٍ إذا فشلت الأساليب العسكرية والاستخبارية التقليدية.

نتيجة هذه المعركة النهائية بين إيران وإسرائيل هي التي ستضع حدود إسرائيل، هل أصبحت الحدود أبعد من إسرائيل الكبرى المعلنة من النيل إلى الفرات، بمعنى الهيمنة على المنطقة من المغرب حتى أقصى حدود إيران حيث أفغانستان وباكستان شرقاً واليمن جنوباً والحدود العراقية التركية شمالاً.. أو أنّ نتيجة المعركة ستعيد إسرائيل إلى حدود ١٩٦٧. الثابت أنّ إيران وقعت في الفخّ، فهي لم تُستشر بصدد هجوم السابع من أكتوبر ٢٠٢٣، وكذلك حزب الله، ولكنّهما دخلا للمساندة تحت ضغط الشارع والأيديولوجيا، ولم يكن بوسعهما التخلي عن حركة حماس والضحايا المدنيين في قطاع غزة.. انساق حزب الله للمعركة، ثم ورّطت إسرائيل إيران إعلامياً وتابعت العمل عالمياً حول الملف النووي الإيراني وصولاً إلى المحادثات بين طهران وواشنطن ثم تفجير التفاوض ومهاجمة المواقع النووية ومصانع الصواريخ الإيرانية

وشلّ قدرات الدفاع الجوي لضمان هيمنةٍ جويةٍ في سماء إيران بينما العملاء ينشطون تخريباً على الأرض.

رغم أنّ هذه الحرب بدأت بعدوانٍ مفاجئٍ على طهران بينما التفاوض مستمرٌ مع واشنطن؛ فقد أسرع قادة بريطانيا وألمانيا وفرنسا في اليوم التالي على الهجوم لتأكيد حق إسرائيل في الدفاع عن ذاتها!! وأعلنت واشنطن على لسان الرئيس أنّ بلاده لم تشارك في الهجوم ولكنّها تشارك في الدفاع عن إسرائيل!! وهدّدت واشنطن طهران بعواقبَ وخيمةٍ إذا تعرّضت لأيٍّ من قواعدها أو مصالحها في المنطقة!! الرئيس الفرنسي ماكرون قال إن وساطة الرئيس بوتين بين إسرائيل وإيران لوقف الحرب غير مقبولةٍ!! تلك من المؤشرات التي توضّح خطوط المستقبل.

ماذا بعد؟

فجر هذا اليوم، الأحد ٢٢ يونيو ٢٠٢٥ شنّت واشنطن غارةً على المواقع النووية الإيرانية، وأعلن ترامب أنّه ضمن فريقٍ واحدٍ مع نتنياهو. بالنسبة لإيران -وكالعادة- قالت إنّها ستحتفظ بحقّ الرد وتوقيته، والمفترض طبعاً أن تضرب مفاعلاتٍ نوويةً أميركيةً، أو على الأقل تضرب بعض القواعد في المنطقة ضمن مبدأ العين بالعين، وكما هدّدت قبل الهجوم، ولكنّها على الأرجح سوف تكتفي باستمرار ضرب الصواريخ على إسرائيل لبضعة أيامٍ ثم تلجأ لعروض التفاوض. عموماً مهما كانت ردود الفعل الإيرانية فقد بدأت نهاية النظام الإسلامي الحاكم هناك.. إذا قاتل وهاجم مصالح أميركا في المنطقة؛ فسوف يصفّون النظام جسدياً، وإذا هادن النظام كدليلٍ على الضعف؛ فسوف ينقلب عليه الوضع من الداخل.. لم تعد هناك فرصةٌ لترميم صورة وهياكل ومبادئ النظام الإسلامي في إيران بعد الانكشاف الأمني والعسكري منذ هجوم إسرائيل يوم ١٣ يونيو على طهران.. الفضل في ذلك لحركة حماس وطوفان الأقصى الذي وقع من دون مشاوراتٍ وأحرج حزب الله وإيران على التدخل للنصرة ليصلوا لهذه النتائج الكارثية عليهم أيضاً.

على الصعيد الشخصي، كان من المقرّر أن تزورنا ابنتي وأحفادي قادمين من أفريقيا عبر القاهرة إلى عمّان. يوم ١٤ يونيو وصلوا القاهرة لزيارة أختي عندليب العالقة هناك، وفي اليوم التالي قرّرت شركة مصر للطيران بسبب

الحرب الإيرانية الإسرائيلية إلغاء رحلاتها إلى عمّان، ومرّت الأيام في انتظار انفراجةٍ حتى ضرب ترامب المفاعلات الإيرانية؛ فقرّرت ابنتي تغيير رحلتها والعودة في أقرب فرصة حجزٍ إلى مقر إقامتهم في غرب أفريقيا. كان بودّي أن يقضي أحفادي أسبوعين بالقرب من جدتهم التي تعاني مرض السرطان، ولكن -بالطبع- سلامتهم أهمّ من زيارتهم، وعلى الأقل عايشوا عمتهم، أختي عندليب التي خرجت من غزة بعد الطوفان للإدلاء بشهاداتٍ وحضور جلسات المحكمة الدولية في لاهاي، ولكنّها لم تتمكن من العودة إلى غزة؛ فمكثت في القاهرة تواصل عملها من هناك.. للعلم إنّنا حاولنا مراراً تسهيل زيارة عندليب إلى الأردن، ولكن التعليمات بعد الطوفان صارت تمنع وصول أيّ واحدٍ من سكان غزة إلى عمّان.. وكانت عندليب تزورنا دوماً قبل الطوفان وتعوضني عن استحالة زيارتي لقطاع غزة.

أختي الكبرى، المرحومة عائشة، أم أحمد توفيت قبل الطوفان بسنواتٍ، ولكنّ الطوفان أضاع قبرها وقبر والدي ووالدتي وبقية الأقارب الذين دُفنوا في رفح منذ النكبة إلى ما قبل الطوفان. حفيد عائشة، ابن أحمد حكمت عدوان، الطفل كنان مات في الطوفان يوم ٢٠ أبريل ٢٠٢٥، وكان والداه قد أنجبا ثلاث بناتٍ جميلاتٍ وسعيا طبياً منذ سنوات لإنجاب صبيٍّ؛ فقُتِل وهو رضيعٌ. هناك -بالطبع- العديد من أطفال عائلتنا قد قُتلوا في هذه المقتلة، وكلّ بيوتنا سويت بالأرض، لكنّ الحرب بين إسرائيل وإيران ثم انخراط واشنطن المباشر وما قد يتبعه من مناوشاتٍ أو مهاتراتٍ سيطول ويغطي على المأساة اليومية التي يعيشها بقية أهلي وشعبي في رفح والقطاع وفلسطين.. تدمير رفح ونزوح سكانها فرّق بين عائلة أخوي، عبد الرؤوف وعبد المعطي، وفي ٢٦ يوليو توفي عبد الرؤوف كنتيجةٍ مباشرةٍ لانعدام الأدوية.

يذكرني هذا بمأساةٍ شخصيةٍ سابقةٍ كان ضحيتها شقيقي عبد الكريم

وهو الخامس في تعداد الأشقاء ويليه آخر العنقود عبد المنعم، ويسبقهما عبد السلام ثم عبد المعطي وعبد الرؤوف ثم أنا.. ويكبرني ثلاثة أخوةٍ من زوجة أبي الأولى، وهم عبد الله وخضر، توفيا تباعاً في الدوحة، وعبد الرحمن الذي توفي في الأردن. أمّا الشقيقات فكانت عائشة أكبرهن وتوفيت في رفح فلسطين، ثم عندليب وأسمهان وعفاف. أثناء الانتفاضة الأولى أنهى عبد الكريم دراسته في ألمانيا وعاد إلى قطاع غزة وتزوّج وأنجب ضياء ويوسف، ثم أصيب بمرضٍ في صدره تبين لاحقاً أنّه سرطان رئةٍ. كانت الحركة متاحةً بين الضفة والقطاع أثناء الانتفاضة الأولى؛ فتوجّه عبد الكريم إلى مستشفى المقاصد في القدس حيث يعمل عبد السلام هناك كممرضٍ. تقرّر إجراء عمليةٍ وفتحوا صدره، ولكن أثناء العملية سحبوا طبيب التخدير إلى عمليةٍ أو عملٍ آخر، وصار الطبيب الجراح يبكي وهو يواصل العملية كون عبد الكريم أخذ يفيق من التخدير.. المهم مات عبد الكريم أثناء العملية وهو يشعر بكلّ الألم، واعترف المستشفى بالخطأ حين تابعتهم عن بعدٍ من لندن، وأصبحت أمام خيارٍ صعبٍ: هل أتقدم بالشكوى ضد هذا المستشفى وبالتالي، احتمال إغلاقه كونه في القدس التي هي تحت القانون الإسرائيلي، وما سيتبع ذلك من أقاويل أنّني حرمت جرحى الانتفاضة من العلاج في المقاصد، أو أتنازل عن المطالبة؟ وهذا ما كان بعد أن اعتذروا وتعهدوا بتعويض عائلته، ولكنّهم طبعاً لم يفوا بالوعد.. كان مدير المستشفى أخا أحمد قريع الذي عقد أسخف اتفاقياتٍ مع إسرائيل لاحقاً واشترك في الفساد وقضية الاسمنت (راجع الملاحق). ضاع عبدالكريم نتيجةً للفساد والغباء الإداري.

لقد غابت أخبار قطاع غزة عن أعين العالم، وتوغلت إسرائيل في الإبادة الحربية والتجويع والتعطيش والتعرية.. حتى دعاة الصمود والصبر ورافعو شعارات النصر تركوا غزة والتفتوا بالدعاء إلى إيران حتى يوصلوها إلى وضع

غزة.. وسيأتي الدور على اليمن وعلى غيرها من الدول التي تؤيّد وتموّل حركة حماس.

بمناسبة الحديث عن عمّان والأردن؛ فنحن نرى الصواريخ ونسمع الانفجارات في السماء خصوصاً إذا كان تبادل الرجم في الليل.. وكلّما خرجت صلية صواريخٍ من إيران تنطلق صفارات الإنذار في ربوع المملكة لتنذر السكان، ثم تدوي مجدداً لتطمئنهم بمرور الصواريخ إلى أهدافها. المهم هنا أنّ انطلاق الإنذار المدوي يدفع البعض لاعتلاء السطوح أو التوقف في أماكن مكشوفةٍ للتفرّج على عبور الصواريخ وما يرافقه من تصدياتٍ، أو يغلقون النوافذ لتخفيف إزعاج أصوات الإنذار، والأصل هو فتح النوافذ والاحتماء من احتمال الإصابة بما قد يسقط على الرؤوس.. لكنّنا عموماً لسنا في حالة حربٍ ولا نستطيع منع ذاتنا من التفرج.. اليوم الأحد ٢٢ يونيو ٢٠٢٥ صحوت في السابعة صباحاً على أصوات انفجاراتٍ بعيدةٍ، ففتحت الجوال ورأيت الأخبار بهجوم ترامب على إيران، وصعدت إلى السطح لرؤية ردود الأفعال لكنّني لم أرَ شيئاً وإن كانت أصوات الانفجارات تتردّد في الأجواء.. فكّرت في أهلي وإخوتي الذين تقع الانفجارات بينهم؛ فتطير خيامهم ويختلط طحينهم، غالي الثمن، برخيص ترابهم.

الحرب الإيرانية الإسرائيلية تعمّق حالة الخمول والانتظار العربي.. انتظار السيد المهيمن الجديد، وهذه الحرب تثبت أهمية السلاح النووي وردعه للآخرين وتفرّده في فرض رؤيته حتى يولد ما ومن يتصدى له. كان الصراع الصامت للهيمنة على المنطقة بين تركيا وإيران وإسرائيل، ولهذا سعت طهران لتطوير سلاحها النووي من دون جدوى للآن. كان الأجدى لو نأت بذاتها عن الطوفان وإفرازاته حتى تنجز القنبلة وتدخل النادي النووي إلى جانب الباكستان والهند وإسرائيل، وكلّها دولٌ ديمقراطيةٌ حتى لو كانت

بنكهاتٍ عنصريةٍ، لكنّ طهران تجرّرت في أذيال الطوفان على عكس الباكستان أو تركيا وكان ما سيكون.

تركيا فشلت في الاختبار قبل بدايته، وهزيمة طهران، أو إضعافها، سوف يُفرح بعض العرب في دول الخليج الذين كانوا يشعرون بالتهديد الشيعي الإيراني، وسيكون عليهم تأمين ذاتهم من الانصياع لإسرائيل عبر الانصياع لقوى غربيةٍ.. المراهنة على الصين أو روسيا ثبت تكرار فشله، وباكستان النووية مشغولةٌ بترقب الهند وبالانصياع للرؤية الأميركية. مشكلتنا أنّ العالم الغربي زرع في وسطنا كياناً استعمارياً متطوراً وذكياً، يعتمد الأسلوب الديمقراطي في الحكم والعنصري في التنفيذ على المحيط، بينما مجتمعاتنا العربية الإسلامية تتخبط بين مظاهر الحضارة وأصولية الدين ولا تعتمد مخططاً واضحاً يُسرع في النمو، وبالتالي، لا مفرّ من التبعية سعياً للحماية.

لقد تمّ تحطيم المحاولات العربية في مهدها.. تآمر الغرب وبعض العرب والإخوان على تجربة مصر الناصرية، ثم فكرة الوحدة العربية، وتحالفوا ضد العراق وأعدموه، وتبعوا ذلك في سوريا، وحين تغلغلت إيران في المنطقة وتوجّب عليها إثبات ذاتها في نصرة الطوفان والتصدي لإسرائيل يتمّ التعامل معها بالأسلوب نفسه.. اشتراكٌ حربيٌّ غربيٌّ إسرائيليٌّ وتقبّلٌ عربيٌّ، وبالتالي، فتح الطريق للهيمنة الإسرائيلية أو الحماية الأميركية.. ومن الذي سيجرؤ الآن على تطوير أسلحةٍ صاروخيةٍ بعيدة المدى، أو حتى بناء دفاعاتٍ جويةٍ قد تصدّ العدو أو تحدّ من الهجمات، ناهيك عن التفكير في تصنيع قنبلةٍ نوويةٍ ردعيةٍ في مقابل أكثر من ٣٠٠ قنبلةٍ في حيازة إسرائيل!!

في مساء ٢٣ يونيو ٢٠٢٥ قيل إن إيران هاجمت قاعدة العديد الأميركية في قطر، يعني كانتقامٍ للهجوم الأميركي بطائرات الشبح وبالغواصات على المواقع النووية، وفي فجر اليوم التالي أعلن ترامب وقف إطلاق النار بين

إسرائيل وإيران ودعا الرب لحماية المنطقة وتوقّع للجميع مستقبلاً جميلاً، وقال ترامب إنّه يشكر إيران على إبلاغها واشنطن قبل قصف القاعدة في قطر.. طبعاً لم يُقتل أيُّ أميركيٍّ في الهجوم على القواعد، ولم تقع أضرارٌ مطلقاً.. يعني أنزلوا إيران من على الشجرة لجلبها إلى طاولة المفاوضات مجدداً وبشروطهم القاسية السابقة، بالإضافة إلى استحلاب واشنطن الأموال الإيرانية لمصلحة برامج تنميةٍ سلميةٍ اقتصاديةٍ، ويبقى الوضع السياسي على ما هو عليه، أو طبعاً العودة للتهديد والتنفيذ وإضافتهم لهدف تغيير النظام. هذه النتيجة حين تتحقّق ستضع إيران في وضعية دول الخليج العربي تماماً.. أي تحت الحماية الأميركية مقابل الانسياق السياسي والإتاوة المالية، وأتوقع أن يبدأ الرئيس ترامب قريباً بمطالبة إيران بالانضمام إلى اتفاقيات إبراهام بين الحكومات العربية وإسرائيل.

من الملحوظات ذات الأهمية، أنّ اتفاقية الهدنة الإسرائيلية الإيرانية لم تُشر إلى الوضع في غزة، وهذا حدث أيضاً في الاتفاقية اللبنانية الإسرائيلية المشابهة، ولم تتحدث إيران مطلقاً في أيام التراشق الصاروخي عن الوضع في قطاع غزة ولو من باب عدوانية وبربرية إسرائيل على المنطقة ككل. الملحوظة الثانية أنّ وزير المالية الإسرائيلي المتطرف طالب علناً أن تدفع دول الخليج العربي تكلفة الحرب على إيران والخسائر الإسرائيلية!! بمعنى أنّ إسرائيل تحارب إيران وتحرمها من السلاح النووي خدمةً لعرب الخليج.

أما حول الوضع في غزة فقد حذّر جوناثان وينال، مدير مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية (OCHER) في الأراضي الفلسطينية المحتلة، من أنّ الظروف السائدة في قطاع غزة باتت أداةً فعّالةً لإلحاق الضرر بالسكان المدنيين، واصفاً ما يجري بأنّها «مجزرةٌ»، وأنّ الجوع أصبح «سلاحاً»، وقال إنّ «الظروف الموجودة اليوم تمّ إنشاؤها لقتل الناس».

وأضاف: «ما نراه هو مجزرةٌ. إنّه جوعٌ تمّ تحويله إلى سلاحٍ. إنّه تشريدٌ قسريٌّ. وهو حكمٌ بالإعدام على من يحاول فقط البقاء على قيد الحياة.» هذا التوصيف معروفٌ لمنظمات الأمم المتحدة، والقيادات الأوروبية ولكلّ العالم، ولكنّ الجميع وبدرجاتٍ مختلفةٍ يضعون رؤوسهم في الرمال.. لا أحد يريد تحمّل مسؤوليةً، ولا مشاركةً إنسانيةً عبر قرارٍ اقتصاديٍّ أو دبلوماسيٍّ مضادٍّ للاحتلال الإسرائيلي.. الشاطر فيهم يطلق تصريحاً، واستنكاراً بينما علاقات بلادة قائمةٌ مع إسرائيل وغير متأثرةٍ بأفعالها.

لكن أيضاً فلسطينياً لا توجد مبادراتٌ سواءٌ لإنزال حركة حماس عن الشجرة أو إحداث نقلةٍ سياسيةٍ نوعيةٍ تتجاوب مع الواقع القائم من دون تنازلاتٍ عن الحقوق الثابتة، بل السعي نحو تلك الحقوق بأساليب سلميةٍ غير التي فشلت. ولا توجد تحركاتٌ شعبيةٌ تعبّر عن رؤية ومطالب الناس المعنيين مباشرةً بالمجريات. مجريات الوضع قبل الطوفان، ومن ثم تطورات الطوفان الاجتماعية والاقتصادية والمعاشية تكالبت على عقلية الناس وعمّقت الشعور بالعجز عن إحداث أيّ تغييرٍ ذاتيٍّ، وأصبح الجميع، حسب مخططٍ ورؤيةٍ إسرائيليةٍ، في وضعية العاجز المتلقي والمستجدي لأيّ حلٍّ أو معونةٍّ.. غنيٌّ عن القول أنّ المقاومة الاسلامية لا تقتل جندياً محتلاً بمعدل كلّ يومٍ أو كلّ أسبوعٍ، أو كلّ شهرٍ، وذلك على الرغم من احتلالهم ثلاثة أرباع القطاع.

الفلسطينيون في الخارج انقسموا ويهدرون قدراتهم في الصراع النظري بين مقولة الصمود والنصر، وبين مقولة ليس بالإمكان أفضل ممّا كان ويجب على حماس أن تختفي وتسمح بالتالي بوقف الإبادة.. عملياً لا يتجاوز فعل فلسطيني الخارج توفير بعض الدعم المالي الذي يستفيد الصرافون والتجار منه بالدرجة الأولى.. السبب في تعميم التخلف السياسي على الداخل والخارج هو تسيّد الفكر الديني وانعدام الأداة والمعرفة الديمقراطية، واللجوء

للتخوين. الإخوان وأنصار حماس يخوّنون الطرف الآخر بالعمالة ويرهبونه منعاً للإفصاح والنقاش، والطرف الآخر يتهم حماس بالعمالة لإسرائيل كونها المستفيدة من هذه المقتلة يوماً بعد الآخر، وكون أعمال حماس غير منطقيةٍ وطنياً.. وهذا الحال سيبقى إلى ما شاء الله على رأي الشيوخ، أو إلى اعتماد الديمقراطية حسب رؤيتي.

موجز ومسؤولية ونهاية

ليس بوسعي إيجاز الذكريات، بل إن ما ذكرته في طيات هذا الكتاب هو فقط جزءٌ، من تلك الذكريات القائمة في ذهني، أوردته ليتماشى مع واقع الأحداث أثناء الكتابة لخلق متوازياتٍ واستخلاص العبر للمستقبل.. لكن حتماً بوسعي إيجاز الرؤية السياسية لما جرى وما قد يحدث إذا استمرّ نهجنا الفكري والأدائي من دون عملية نفضٍ تعليميٍّ ومجتمعيٍّ وسياسيٍّ.

أقول إنه من دون اللجوء إلى نظامٍ ديمقراطيٍّ حقيقيٍّ يعتمد المبادئ الاجتماعية العلمانية ويحدُّ من تسلط الرؤية الدينية على العقول.. من دون ذلك سنواصل التخبط والانهيار والدعاء والتبهل والتهبل، وانتظار أن يضرب نيزكٌ فضائيٌّ الكرة الأرضية لنرتاح من واقعنا. حيث يوجد نظامٌ سياسيٌّ أو اجتماعيٌّ دينيٌّ سيوجد تخلفٌ وتوابعه. الإثبات واضحٌ جليٌّ حين نراقب أنواع الدول والمجتمعات مع مستويات تقدمها الاجتماعي والاقتصادي والأمني، ولا حاجة لإثبات الثابت مرةً بعد الأخرى.

على الصعيد الفلسطيني أقول بضرورة استيعاب أسباب كوارثنا الذاتية.. ألاحظ حسب النتائج أنّ إسرائيل هي المستفيد الأوّل من طوفان الأقصى، ولكلّ عاقلٍ أن يستوعب ويستنتج ما يحلو له.. والخلافات الفلسطينية بين من يعتبرون ذاتهم قياداتٍ في فتح وحماس وما بينهما، الخلافات هي التي أبعدت العرب عن دعمنا الحقيقي، والخلافات هي التي تدمّر ثقة شعبنا بقيادته، وهي

التي تصنع اللوم العالمي لنا، وحتماً لا يوجد مبررٌ لاستمرار الخلافات في ظلّ الإبادة.. وبالتالي، كلّ القيادات المختلفة والمتصارعة فيما بينها تقف عملياً في صف الأعداء مهما صرّحت وصرخت وولولت وادّعت الوطنية والاخلاص.

قبل الخروج من مصيدة الخلافات، وحتى نتمكن أصلاً من النجاة؛ فلا بدّ من اتفاقٍ حول الهدف والأسلوب لتحقيق الوحدة والتقدم!! هل الهدف المراد هو فلسطين فلسطينية من النهر إلى البحر، أو فلسطين على أراضي ١٩٦٧، أو فلسطين علمانيةٌ مشتركةٌ وديمقراطيةٌ؟ وبعد التوافق على الهدف المنشود يتوجب الاتفاق على الأسلوب.. هل الاكتفاء بالنضال السلمي الشعبي والدبلوماسي مصحوباً بالبناء العلمي والاقتصادي، أو العودة لأفكار المقاومة المسلّحة؟ في الواقع إنّ ميثاق منظمة التحرير يشمل الحلول والإجابات، لكنّ حركة حماس أنكرت الوفاق والميثاق وغيّرت الهدف لتحريرٍ شاملٍ والأسلوب إلى المقاومة المسلّحة، وذلك بعد تخلّي منظمة التحرير عن القتال واللجوء إلى الحلول السلمية، وهنا تولّد الخلاف والانشقاق التنظيمي والمجتمعي، إذ انحاز ناسٌ إلى رؤية حماس وبقي غيرهم على رؤية منظمة التحرير والسلطة.. والنتيجة تدمير الرؤيتين وإنجاز الانشقاق المجتمعي والعودة بالمجتمع الغزي إلى عصر الترحال، وتمهيد مجتمع الضفة الغربية لقتالٍ غير متكافئ.

لقد اتضح منذ عدة قرونٍ مضت تصاعد الفارق بين الغرب والشرق لمصلحة الأوّل الذي اعتمد الديمقراطية والعلمانية وأعاد الدين إلى دُورِ العبادة بعيداً عن السياسة والتشريع، بينما واصل الشرق العربي اعتماد الغيبانية.. وكان من الواضح أنّ الحركة الصهيونية جزءٌ أصيلٌ من العالم الغربي، وبالتالي، توجب علينا معرفة الفوارق منذ ما قبل نكبة فلسطين وبالتالي العمل

الذاتي على تصحيح الخلل، لكنّنا واصلنا النطاح اللفظي، والفشل العملي والعلمي والاجتماعي ورفضنا التسوية أو انتهاز فرصة الحلول الوسط للحاق بالطريق الصحيح للتنمية.. حين توصّلت الحركة الوطنية الفلسطينية للحقائق بعد هزيمة ١٩٨٢ العسكرية ومن ثم تولد الانتفاضة السلمية الشعبية ديسمبر ١٩٨٧، وبالتالي، لجأت الحركة الوطنية للسلام.. هنا تحوّلت الحركة الدينية من دعويةٍ الى جهاديةٍ للمقاومة بالمتفجرات ضد المدنيين الاسرائيليين، وعادت الحركة إلى النقطة صفر مطالبةً بكلّ شيءٍ، وبالتالي، أوصلتنا إلى الدمار والإبادة. أفترض أنّنا لو تقبّلنا مشروع التقسيم ١٩٤٧ وتعايشنا مع الواقع واستفدنا من المقارنة مع العدو والمجاراة للديمقراطية والعلوم، لكان وضعنا الآن أفضل مليون مرةٍ.. وكلّ فرصةٍ للسلام ضاعت بعد ذلك جاء بعدها ما هو أسوأ منها.

حركة حماس (كانت قبل الطوفان) تطالب بدولةٍ إسلاميةٍ، وحركة فتح تطالب بأيّ دولةٍ لها منصب رئيس، وحتى لو تحقّق هذا أو ذاك بمعجزةٍ، فأيّ دولةٍ ستكون فلسطين تلك؟؟ على غرار أفغانستان، أو على غرار دول الجوار الفلسطيني؟ كلّ دول المنطقة لا تستحق البقاء على شاكلتها القائمة، ولن تتغير من دون اعتماد الطريق المجرب عالمياً، وأيّ دولةٍ فلسطينيةٍ بأفكارٍ وقياداتٍ حمساوية أو فتحاوية ستبقى ملطشةً للرايح والجاي.

أعتقد أنّ الحلّ المتبقي للشعب الفلسطيني هو الاحتفاظ بالقائم إن أمكن، والمطالبة بدولةٍ واحدةٍ مشتركةٍ على كلّ فلسطين، بشرط أن تمنح هذه الدولة المساواة في فرص التعليم والمعيشة، وأن تستعيد اللاجئين إلى قراهم ومدنهم أو توطينهم في الجغرافيا الفلسطينية وذلك تحت سلطةٍ إسرائيليةٍ ورقابةٍ دوليةٍ، وانغماسٍ تدريجيٍّ في الحياة الديمقراطية.. لم يعد مهمٌّ أن يكون محمود عباس أو الحية هو الرئيس لدويلةٍ أو مدينةٍ تعود حياتها للقرون

الوسطى.. لقد أضاعوا الفرص ومن الضروري أن يضيعوا مع أفكارهم ورؤاهم وأمثالهم.. وأتمنى بهذا الصدد تشكيل حزبٍ فلسطينيٍّ تحت اسم وشعار قرار التقسيم ١٨١ ويسعى لتطبيق أو التفاوض السلمي حول دولةٍ علمانيةٍ واحدةٍ على كلّ فلسطين من دون التنازل عن المطالبة السلمية بحقّ العودة وحقّ التعويض. استمرار الصراع على الشاكلة نفسها وبنكهةٍ دينيةٍ، يتناغم مع الأساطير التوراتية وبالتالي يعزّز أسطورة السردية اليهودية التاريخية والجغرافية عبر العالم.

أتمنى على كلّ فلسطينيٍّ أينما كان أن يفكّر في رؤيته ومواقفه السابقة قبل الطوفان وبعده، وبالتالي تحمّل المسؤولية المعنوية والمادية تبعاً لموقفه ذلك.. لا يمكن أن تؤيّد حماس مثلاً وتدفع لاستمرار المقتلة باسم الصمود بينما أنت لا تشارك بقوت يومك في الدعم لمن يصمدون ولا يجدون الماء والدواء والمأكل والمسكن بسبب دعمك لحماس وكنتيجةٍ للطوفان! أيضاً؛ فكلّ مواطنٍ فلسطينيٍّ في الضفة أو القطاع يتحمّل جزءاً مهمّاً من الفشل كونه قصّر ذاتياً طوال سنواتٍ في المطالبة بالديمقراطية وتطبيق الانتخابات المقرّرة دستورياً.. انتظارك للفعل من الآخرين هو عين التقصير.. لو أصرّ كلّ مواطنٍ على انتظام العملية الانتخابية كلّ أربع سنواتٍ لما وصلنا إلى هذا الحال، وبالتالي، الجميع كأفرادٍ وكمجتمعٍ يتحمّل مسؤولية النتائج القائمة.. الانتخابات الديمقراطية وتحمّل كلّ مواطنٍ للمسؤولية هي الكفيل بحلّ المشاكل.. حتى لو انتخب الشعب مقاتلين ليحكموه؛ فهو سيتحمّل نتيجة خياراته، وسوف يصحّحها أو يعزّزها بعد التجربة، لكنّ الوضع القائم من دون انتخاباتٍ هو اختطافٌ لإرادة الشعب، ونتيجةٌ لسكوت الشعب عن ذلك الاختطاف، وبالتالي؛ فالشعب كأفرادٍ وكمجتمعٍ يتحمّل نتائج مواقفه... أو هكذا يُفترض أن يكون الحال.

سكوت الشعب عن مواسم الانتخابات وتمريرها من دون زراعةٍ أو رعايةٍ أو حصادٍ، له علاقةٌ بسوء التعليم المجتمعي والعلمي في الضفة والقطاع. لقد اتضح أنّ عقوداً طويلةً من تأثير الحركات الدينية في المجتمع الفلسطيني (والعربي عموماً) جاءت بنتائج سلبيةٍ في مجال التضامن والنظام والتعاون.. الناس في القدس والضفة وفلسطين ١٩٤٨ لم يُظهروا أيّ تأييدٍ ودعمٍ عمليٍّ لسكان القطاع، الذين بدورهم انقلبوا إلى حالة فوضى ونهبٍ وسلبٍ وضياع الفقير والضعيف، والكلاب تنهش الجثث في الشوارع، والتجار ينهشون الناس بأسعارٍ فلكيةٍ، والشعب خانعٌ، ساكتٌ، منتظرٌ، لا تظاهر ولا التفاف حول مبادراتٍ من أيّ نوعٍ، سواءٌ تقاوم أو تساوم أو تنظم أو تردع.. كان الحال عكس ذلك تماماً أثناء الانتفاضة الأولى قبل انتشار الأيديولوجية الإخوانية.. هذا كلّه في فلسطين، ولكن أيضاً في دول الجوار المسلم حالةٌ من الخنوع والاكتفاء بالدعاء، نتيجةً للتربية الدينية الاتكالية الأنانية.. ومن يزرع ذلك؛ فلا يتوقع نتائج إيجابيةً.

القضية ليست بالتشجيع والتحريض، ولكن بالعلم والتعليم كأرضيةٍ لمجتمعٍ ناجحٍ. نرى في فلسطين والدول العربية حالةً تعليميةً تمييزيةً؛ فالغالبية العظمى للطلاب يذهبون للمدارس الحكومية التي توفّر التعليم الإلزامي والديني، والقلة القادرة مادياً ترسل أولادها وبناتها لمدارس خاصةٍ بمناهج تعليمٍ أجنبيةٍ متطوّرةٍ. لن أقدّم خلفيةً للأسباب وطرق العلاج، لكنّ النتائج واضحةٌ؛ فأصحاب المال يعلّمون أبناءهم ليتولوا المناصب والفرص، بينما غالبية أبناء الفقراء يذهبون للجيش والأمن والتعليم الحكومي والعمالة اليومية. في الواقع لا يوجد أيُّ سببٍ حقيقيٍّ يمنع اعتماد المناهج المتطوّرة في المدارس الحكومية سوى التخوّف من هجمة المتدينين واتهامهم النظام بالعلمانية.. لذلك الأنظمة توفّر لهم التربية التقليدية الدينية ومعاهد الشريعة

وعلوم الدين لإشغال الفقراء، وتترك الحرية التعليمية والفرص لمن يملك العقل ويوظّف المال لمصلحة تعليم أولاده. حالة التخلف الصناعي والأمني والاقتصادي والتشقّق المجتمعي مرتبطةٌ تماماً بذلك النهج.. لوقف التدهور والكارثة الكبرى، لا بدّ من حرق المراحل والقفز إلى الأمام من دون أيّ غيبياتٍ.

لقد أغرق الطوفان غزة ودمّرها ويهدر ليجرف الضفة الغربية، وقد انتهز اليمين الإسرائيلي الفرصة لإعلان العزم والتنفيذ لإقامة إسرائيل الكبرى والهيمنة على المحيط الإقليمي.. كلّ الدول العربية الواقعة في جغرافيا إسرائيل الكبرى والدول في مجال الهيمنة عليها التفكير والتدبير في سيناريوهات ماذا ستفعل لو وصلتها حرب الضمّ الإسرائيلية وإجراءات فرض الهيمنة بالقوة، وبالتالي، خلق الاستعداد الذي يربط أفراد شعوبها بعضهم بعض ويؤدي إلى المنعة والتقدم أصلاً؛ فخلق النزاعات الداخلية السياسية أو الطائفية في هذه البلدان هو من أسلحة تحقيق إسرائيل الكبرى.. من أكبر خطايا حركة حماس أنّها سلّحت ودربت فئةً صغيرةً كعصابةٍ تابعةٍ لها وسحبت السلاح من الآخرين، ولذلك نجد مئات آلاف شباب غزة يركضون لتنفيذ تعليمات جيش العدو بالنزوح ولا يملكون تدريباً أو تأهيلاً أو أيَّ تسليحٍ لأنّ حماس كانت تخاف من شعبها وتثق في نيات عدوّها.. ففكروا وتفكروا رحمكم الله.

إسرائيل تدرّب وتسلّح كل الشعب على السلاح ضمن أذرع الأمن، وكلّ مواطنٍ لديه سلاحه الحربي الخاص في البيت، وكلّ مواطنٍ مؤهّلٌ للقتال ولأعمال الإنقاذ والإسعاف الأولى، وكلٌّ منهم مرتبطٌ بأجهزةٍ أمنيةٍ للإبلاغ عن أيّ خطرٍ، والحكومة تسعى لإكراه رجال الدين على حمل السلاح، ولديهم جميعاً أهدافٌ تكتيكيةٌ وأخرى استراتيجيةٌ متفقين عليها وتسعى لإقامة إسرائيل الكبرى.. ماذا لدينا في المقابل؟ شعوبٌ وشبانٌ وشاباتٌ

مترهلون، وحكوماتٌ تمنع التدريب والتأهيل العسكري، واعتقالٌ فوريٌّ لمن يملك قطعة سلاحٍ نظراً لانعدام الثقة والمسؤولية، ومتدينون يسعون للحكم ويقاتلون الأنظمة وينشرون الطائفية والفرقة داخل فئات الشعب.. وغير ذلك ممّا تعرفونه عن انعدام أو تضارب عوامل التشبيه بين العرب وعدوهم المباشر الذي يعلن العداوة!!

في الملاحق المرفقة ستلاحظون أنّ مبادلة الأسرى الفلسطينيين برهائن إسرائيليين هي عمليةٌ متكرّرةٌ ومطبقةٌ منذ عقودٍ طويلةٍ، وبنجاحٍ ومن دون نتائج الطوفان الكارثية. وفي ملحق «تسلسل زمني لأبرز اللقاءات الفلسطينية الإسرائيلية بعد مؤتمر مدريد للسلام ١٩٩١» سترون أنّ الرئيس ياسر عرفات ومحمود عباس من بعده كانا يفاوضان ولا يتنازلان عن القدس أو عن حقّ العودة، ويصرّان على وقف الاستيطان وسحبه كثمنٍ لأي اتفاقٍ، ولذلك تعطّلت عشرات اللقاءات والخطط والمشاريع السلمية.. بينما على ماذا فاوضت حركة حماس وهي التي تتهم الجميع بالخيانة الوطنية؟ وإلى أين وصلت القدرات والمطالب الفلسطينية أصلاً بفضل الطوفان!! سؤالٌ مطروحٌ للحمساويين وأنصارهم ليجاوبوا عنه أمام ذاتهم بالدرجة الأولى.

سيتم إقامة متحف صورٍ متعلقةٍ بمحتويات هذا الكتاب وذلك ضمن موقع راوي قرطبة على الانترنت .. سيحمل المعرض اسم الكتاب: «ذكريات مواطن صالح».

rawicordoba.com

راوي قرطبة

الملاحق

صفقات التبادل العربية الفلسطينية الاسرائيلية:

بدأت الصفقات العربية الإسرائيلية لتبادل الأسرى عقب الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين عام ١٩٤٨، وما نجم عنه من حروبٍ مع الدول العربية وعمليات مقاومةٍ شعبيةٍ؛ ممّا أدّى إلى وقوع آلاف الأسرى والمعتقلين العرب والفلسطينيين بأيدي سلطات الاحتلال، في حين أسرت الدول العربية وحركات المقاومة أكثر من ١٠٠٠ إسرائيلي. وبلغ عدد صفقات تبادل الأسرى التي تمّت بين العرب وإسرائيل ٣٨ صفقةً في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٤٨ و٢٠١١، وتمخضت عن إطلاق سراح آلاف العرب، أغلبهم من الفلسطينيين ودول الجوار، وفي المقابل أُفرج عن أسرى إسرائيليين، كما تضمن التبادل جثثاً ورفاتاً من الجانبين، وخرائط ألغام والكشف عن مفقودين.

من الدول التي أجرت صفقات تبادل أسرى مع إسرائيل مصر والأردن، إضافةً إلى حركات المقاومة العربية والفلسطينية، ومنذ بداية القرن الـ٢١ اقتصرت عمليات تبادل الأسرى على حزب الله اللبناني وحركات المقاومة الفلسطينية، والاتفاقيات التي عقدتها السلطة الفلسطينية مع دولة الاحتلال عقب اتفاقية «أوسلو»، تمّ وفقاً لها إخلاء سبيل آلاف المعتقلين والأسرى الفلسطينيين.

لقد خاضت المقاومة الفلسطينية ١٠ عمليات تبادل للأسرى بين عامي ١٩٦٨ و٢٠١١، وهي: صفقة التبادل عام ١٩٦٨. شكّل خطف طائرةٍ إسرائيليةٍ بأيدي عناصر المقاومة لأوّل مرة عام ١٩٦٨ نقطة تحوّلٍ في تاريخ النضال الفلسطيني، وبدأت المقاومة تتخذ منحىً جديداً في مسار تحرير الأسرى، حين خطف يوسف الرضيع وليلى خالد من «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» طائرةً تابعةً لشركة العال متجهةً من روما إلى إسرائيل. كان على متن الطائرة ما يزيد على ١٠٠ راكبٍ، ممّا أجبر سلطات الاحتلال على الدخول في صفقة تبادل يوم ٢٣ يوليو ١٩٦٨، وبوساطة الصليب الأحمر أُفرج عن ٣٧ أسيراً فلسطينياً، من ذوي الأحكام العالية من ضمنهم أسرى فلسطينيون كانوا قد اعتُقلوا قبل ١٩٦٧، مقابل إطلاق سراح الركاب المختطَفين.

في أغسطس/ آب ١٩٦٩ اختطفت ليلى خالد وسالم العيساوي من «الجبهة الشعبية» طائرة ركابٍ أميركيةً، أثناء رحلتها من لوس أنجلوس بالولايات المتحدة إلى تل أبيب. وأرغم الخاطفان الطيار على التوجه إلى فلسطين والتحليق فوق حيفا على علوٍّ منخفضٍ ليتمكن العيساوي وليلى خالد من رؤية مدينتهما التي هُجِّرا منها قسراً، ثم توجّهت الطائرة إلى سوريا فهبطت في دمشق، وأُنزِل ركابها البالغ عددهم ١١٦ شخصاً ثم فُجِّرَت. وتمت عملية تبادل بين إسرائيل والجبهة الشعبية، أسفرت عن إخلاء سبيل عددٍ من الفدائيين الفلسطينيين المسجونين لدى الاحتلال، وطيارين سوريين هبطا اضطرارياً في فلسطين.

في سبتمبر/ أيلول ١٩٧٠ اختطفت ليلى خالد برفقة يساريٍّ من نيكاراغوا اسمه باتريك أرغويلو طائرةً لشركة «العال» الإسرائيلية، في رحلةٍ بين أمستردام بهولندا ونيويورك، وكانت مطالب الخاطفين الإفراج عن الأسرى في سجون

الاحتلال الإسرائيلي. وحطّت الطائرة في بريطانيا، وقُتل باتريك أرغويلو، واعتُقلت ليلى خالد في لندن. وبعد أقل من شهرٍ اختُطفت طائرةٌ بريطانيةٌ بجهود شخصٍ فلسطينيٍّ غير منتمٍ لتنظيمٍ، وأُجبرت الطائرة على التوجّه نحو بيروت ثم الأردن، وأدّى ذلك إلى الضغط على بريطانيا لإطلاق سراح ليلى خالد في عملية تبادلٍ.

صفقة التبادل عام ١٩٧١: نفّذت خليةٌ من ٩ فدائيين ينتمون لحركة «فتح» عمليةً على الحدود الشمالية لفلسطين في يناير ١٩٧٠، وكان الهدف وضع عبواتٍ ناسفةٍ على جدار مستوطنة «ميتولا» المحاذية للحدود اللبنانية، ولكنّ الخلية اكتفت باختطاف الحارس وعادت. وبعد ٤ أيامٍ أعلنت «فتح» أنّ الحارس أسيرٌ عندها، وطالبت بالإفراج عن ١٠٠ أسيرٍ من الحركة في سجون إسرائيل مقابل الإفراج عن الحارس. لكنّ المفاوضات التي جرت بين حكومة الاحتلال وحركة «فتح» عبر الصليب الأحمر تمخضت عن صفقة مبادلة «أسير مقابل أسير». في ٢٨ يناير ١٩٧١ أُطلق سراح الجندي الإسرائيلي «شموئيل فايز» مقابل الأسير محمود بكر حجازي، الذي كان يواجه حكماً بالإعدام، ويعدّ أوّل أسيرٍ فلسطينيٍّ في الثورة الفلسطينية المعاصرة التي انطلقت عام ١٩٦٥.

صفقة «تبادل الليطاني» عام ١٩٧٩: نفّذت قوات الاحتلال الإسرائيلي عمليةً عسكريةً في جنوب لبنان في مارس ١٩٧٨، عُرفت بعملية «الليطاني»، وتمّ فيها احتلال مناطق واسعةً من جنوب لبنان، وصلت حتى الليطاني ومشارف صور ومخيم الرشيدية للاجئين الفلسطينيين، وجزءٍ من مناطق القطاع الشرقي. خلال الاجتياح الإسرائيلي نصبت الجبهة الشعبية – القيادة العامة كميناً لشاحنةٍ إسرائيليةٍ قرب صور يوم ٥ أبريل ١٩٧٨، وأسفرت العملية، التي أُطلق عليها «النورس»، عن مقتل ٤ جنودٍ إسرائيليين وأسر

جنديٍّ من قوات الاحتياط يدعى أبراهام عمرام.. ومن خلال الصليب الأحمر، تمّت صفقة تبادلٍ للأسرى في قبرص بين الجبهة ودولة الاحتلال يوم ١٤ مارس ١٩٧٩، وأُخْلِيَ سبيل الجندي الإسرائيلي، مقابل إطلاق سراح ٧٦ معتقلاً فلسطينياً من فصائل المقاومة المختلفة، من بينهم ١٢ فتاةً فلسطينيةً.

صفقة التبادل عام ١٩٨٠: احتجزت حركة «فتح» أمينة المفتي، التي تم اكتشافها أثناء عملها لصالح المخابرات الإسرائيلية في لبنان، حيث كانت تقدّم معلوماتٍ عن منظمات المقاومة الفلسطينية وقادتها. وتحمل المفتي الجنسية الأردنية، وتنتمي لعائلةٍ شركسيةٍ مسلمةٍ، لكنّها اعتنقت اليهودية وتزوجت طياراً يهودياً في النمسا، واستقرت معه في إسرائيل، وفي حرب أكتوبر ١٩٧٣ أُسقطت طائرة زوجها فوق الأراضي السورية، ولما يئست من العثور عليه عادت إلى النمسا، وعرضت عليها المخابرات الإسرائيلية هناك العمل جاسوسةً. وفي يوم ١٣ فبراير ١٩٨٠ تمّت عملية تبادلٍ عبر الصليب الأحمر في قبرص، وأُطلق سراح أمينة المفتي مقابل الإفراج عن المعتقلين مهدي بسيسو «أبو علي» ووليام نصار.

صفقة التبادل عام ١٩٨٣: شنّت إسرائيل حرباً على لبنان عام ١٩٨٢، تحت شعار «عملية سلامة الجليل»، فاجتاحت المدن والقرى والمخيمات، واستطاعت المقاومة الفلسطينية واللبنانية إيقاع خسائر في صفوف جيش الاحتلال، وأسرت حركة فتح يوم ٤ سبتمبر ١٩٨٢ ثمانية جنودٍ إسرائيليين من قوات «الناحال» الخاصة، بمنطقة «بحمدون» في لبنان. تمّ اتفاق فتح مع الجبهة الشعبية - القيادة العامة للمساعدة على إجلاء الأسرى إلى منطقة البقاع، نظراً للتسهيلات وحرية الحركة التي تتمتع بها سيارات القيادة العامة من قبل الجيش السوري، وقد احتفظت الجبهة الشعبية - القيادة العامة مقابل ذلك

بجنديين، وبقي لدى «فتح» ٦ آخرون. في يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٨٣ تمّت عملية تبادلٍ بين حركة «فتح» وحكومة الاحتلال، عبر الصليب الأحمر، في ميناء طرابلس بشمال لبنان، حيث تمّ تسليم الجنود الستة الإسرائيليين المحتجزين لدى فتح، وهم: «إلياهو أفوتفول» و«داني جلبوع» و«رافي حزان» و«روبين كوهين» و«أبراهام مونتبليسكي» و«آفي كورنفلد». في المقابل أطلقت إسرائيل سراح جميع معتقلي «معسكر أنصار» في الجنوب اللبناني، المعتقلين خلال الاجتياح وعددهم ٤٧٠٠ معتقلٍ فلسطينيٍّ ولبنانيٍّ، إضافةً إلى معتقلين آخرين في النبطية وصيدا وصور، وكذلك أُطلق سراح ٦٥ أسيراً من السجون الإسرائيلية، وأُعيدت أرشيفات منظمة التحرير الفلسطينية، التي استولى عليها الاحتلال الإسرائيلي أثناء غزو بيروت عام ١٩٨٢. وصل مجموع عدد الأسرى المُطلق سراحهم إلى أكثر من ٥٠٠٠ أسيرٍ، اختار ٣٥٠٠ منهم البقاء في لبنان، ونُقل الباقون بطائراتٍ فرنسيةٍ إلى الجزائر عبر مطار اللد. خلال صفقة التبادل أَخلّت إسرائيل بالاتفاق؛ فاختطفت نحو ١٠٠ من معتقلي «معسكر أنصار» أثناء نقلهم من المعتقل إلى مطار اللد، واحتفظت بهم، كما أبقت على بعض المعتقلين في السجون الأخرى، الذين كانوا مشمولين بعملية التبادل، وأُنزل ٥ أسرى من الناقلات بعد كشف الصليب الأحمر عليهم، واقتيدوا إلى أماكن مجهولةٍ وزجّ ٣ أسرى في زنازين.

صفقة «تبادل الجليل» عام ١٩٨٥: تعدّ هذه الصفقة امتداداً لصفقة تبادل عام ١٩٨٣، وكانت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين – القيادة العامة قد احتفظت بجنديين إسرائيليين، هما يوسف عزون، ونسيم شاليم، أحدهما من أصلٍ هنغاريّ والآخر يهوديٌّ من أصلٍ مصري، مقابل مساعدتها على نقل الجنود الأسرى في تلك العملية. بالإضافة لذلك وفي ١١ يونيو ١٩٨٢ أسرت القيادة العامة الرقيب أوّل «حازي يشاي» وهو يهوديٌّ من أصلٍ عراقيّ،

خلال معركة السلطان يعقوب حينما كان يقود إحدى الدبابات ضمن رتلٍ من الدبابات الإسرائيلية، فضلّ طريقه وأُصيبت الدبابة وحاول يشاي الفرار، لكن القيادة العامة تمكّنت من أسره. تواصلت منظمة الصليب الأحمر مع القيادة العامة، بهدف التوصل إلى اتفاقٍ، فاشترطت القيادة معرفة مصير المفقودين من عناصر الثورة الفلسطينية بفصائلها كافة. وبالفعل قدّمت إسرائيل عبر الصليب الأحمر قائمةً تضم ١٢٨ اسماً من الأسرى المفقودين في صفقة عام ١٩٨٣، الذين تمّ نقلهم إلى سجون الاحتلال في فلسطين.. وبدأت مرحلةٌ جديدةٌ من المفاوضات، اشترطت فيها القيادة العامة أن توافق إسرائيل على عدد الأسرى المطلوب تحريرهم قبل تقديم قائمة الأسماء، كما على دولة الاحتلال عدم ردّ أيّ اسمٍ يُطرح في القائمة، وبعد مفاوضاتٍ شاقّةٍ تمّت الموافقة على جميع المطالب.

في ٢٠ مايو ١٩٨٥ تمّت عملية التبادل بين إسرائيل والقيادة العامة، وفقاً للشروط الفلسطينية، وأُطلق على هذه العملية «عملية الجليل»، وتُعد من أقوى صفقات التبادل العربي الإسرائيلي، التي حصدت فيها المقاومة مكاسب ضخمةً في قضية الأسرى، إذ أُجبرت إسرائيل على إبقاء معظم الأسرى المفرج عنهم داخل الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧، وكان غالبيتهم متابعين بأحكامٍ تراوح بين ١٠ و١٥ سنة، ومنهم محكومٌ عليهم مدى الحياة.. ووفقاً لاتفاق التبادل أُطلق سراح ١١٥٥ معتقلاً في السجون الإسرائيلية، وشمل الإفراج ١١٨ أسيراً تمّ اختطافهم أثناء التبادل مع حركة «فتح» عام ١٩٨٣ من «معسكر أنصار»، و١٥٤ أسيراً تمّ نقلهم من المعتقل نفسه إلى معتقل «عتليت»، خلال خروج القوات الإسرائيلية من جنوب لبنان، و٨٨٣ معتقلاً كانوا أصلاً في السجون الإسرائيلية في فلسطين المحتلة، وفي المقابل أُخلي سبيل الجنود الإسرائيليين الثلاثة.

كان ضمن الأسرى المحررين ٩٩ أسيراً من دولٍ عربيةٍ، و٦ من دولٍ أخرى من بينهم الياباني كوزو أوكوموتو، قائد عملية مطار اللد يوم ٣٠ مايو/ أيار ١٩٧٢، الذي طالبت إسرائيل مقابله بـشطب أسماء ١٠٠ أسيرٍ، لكن قوبل عرضها بالرفض، وأصرّت القيادة العامة على تحريره. شملت الصفقة أيضاً فلسطينيين من مناطق ١٩٤٨، وأسرى من الضفة الغربية وقطاع غزة، وكان من بين الأسرى أحمد ياسين (مؤسس حركة «حماس» فيما بعد).

صفقة التبادل عام ١٩٩١: ألقت مجموعةٌ من الجبهة الديمقراطية عام ١٩٨٣ القبض على الجندي الدرزي سمير أسعد، وكان يعمل مترجماً في الخدمة الدائمة لدى جيش الاحتلال، وأعلنت الجبهة الديمقراطية عن حيازتها للجندي، ثم نشرت مقابلةً له في ٥ أبريل ١٩٨٤، كانت قد طلبت إجراءها بواسطة تلفزيونٍ أميركيٍّ. في ٢٨ يونيو من العام نفسه أعلنت الجبهة الديمقراطية أنّ الجندي قد قُتل خلال الغارة التي شنّتها إسرائيل على القواعد الفلسطينية في جزيرة الأرانب. لم تُعِر الحكومة الإسرائيلية قضية الجندي الدرزي اهتماماً في البداية، غير أنّها خضعت في نهاية المطاف لضغوط الطائفة الدرزية وأخي الجندي العضو في الكنيست الإسرائيلي آنذاك سعد أسعد، واضطرت الحكومة للتفاوض، ولكنّ المفاوضات لم تسفر عن اتفاقٍ، وتوقفت حتى عام ١٩٨٩، إذ عاد الصليب الأحمر للتفاوض من جديدٍ، وتمّت صفقة تبادلٍ يوم ١٣ سبتمبر ١٩٩١، فاستردت إسرائيل جثة الجندي الدرزي بعد ٨ سنوات، وفي المقابل سمحت بعودة أحد مبعدي الجبهة، وهو النقابي علي عبد الله «أبو هلال» من «أبو ديس»، الذي أبعدته إسرائيل عام ١٩٨٦.

صفقة «الحرائر» عام ٢٠٠٩: وهي المعروفة باسم صفقة شاليط

أيضاً.. نفّذت «كتائب القسام» الجناح العسكري لحركة «حماس» يوم ٢٥ يونيو ٢٠٠٦ بالتعاون مع «ألوية الناصر صلاح الدين»، الذراع العسكري لـ«لجان المقاومة الشعبية» في فلسطين، و«جيش الإسلام»، عمليةً عسكريةً نوعيةً نجحت خلالها المقاومة في التسلل عبر نفقٍ أرضيٍّ تحت الحدود، ومباغتة القوات الإسرائيلية وأسفرت عن مقتل قائد دبابةٍ ومساعده، وإصابة ٥ بجراحٍ، وتدمير دبابة «ميركافا» وناقلة جندٍ مصفحةٍ، إضافةً إلى أضرارٍ في الموقع العسكري، وأُسر خلال العملية الجندي «جلعاد شاليط»، وانسحب المهاجمون دون التمكّن من تعقبهم.. وبهدف حصول إسرائيل على معلوماتٍ حول وضع الجندي الإسرائيلي، تمّت عملية تبادلٍ بين إسرائيل وحماس، عبر وسيطٍ ألمانيٍّ، يوم ١ أكتوبر ٢٠٠٩، سميت «صفقة الحرائر» أطلقت إسرائيل بموجبها سراح ٢٠ أسيرةً فلسطينيةً من الضفة الغربية وقطاع غزة، وقدّمت المقاومة مقابل ذلك شريط فيديو لمدة دقيقتين يظهر فيه شاليط بصحةٍ جيدةٍ.. لم تسفر سنواتٌ من المفاوضات عبر أكثر من وسيطٍ بين إسرائيل والجانب الفلسطيني في تحرير شاليط على الرغم من بذل إسرائيل جهوداً كبيرةً لذلك، عبر قنواتٍ مختلفةٍ، وشنّت حرباً على القطاع في نهاية عام ٢٠٠٨ ومطلع عام ٢٠٠٩، لكنّها لم تفلح في الوصول إلى مكان الجندي الأسير.. وبعد أكثر من ٥ سنواتٍ قضاها شاليط في الأسر، اضطرت إسرائيل يوم ١٨ أكتوبر ٢٠١١، إلى الرضوخ للمطالب الفلسطينية في صفقة تبادلٍ تاريخيةٍ، عبر الوسيط المصري، أُطلق عليها «وفاء الأحرار» كانت هي الأضخم بين صفقات المقاومة كافةً على المستويين الفلسطيني واللبناني.. وتضمنت الصفقة إطلاق سراح يحيى السنوار.

صفقات طوفان الأقصى: نفّذت المقاومة الفلسطينية في ٧ أكتوبر ٢٠٢٣ عمليةً أُطلقت عليها اسم طوفان الأقصى، شملت هجوماً برياً وبحرياً وجوياً

وتسللاً للمقاومين إلى عددٍ من مستوطنات غلاف غزة.. وأسفرت العملية في ساعاتها الأولى عن مقتل مئات الإسرائيليين بين جنودٍ ومستوطنين، وأسر وفقدان أكثر من ١٠٠، بعضهم جنودٌ، فيما شنّت إسرائيل حرب إبادةٍ على القطاع رداً على العملية.. بعد مرور أكثر من ٤٦ يوماً من العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة، وفي ٢٢ نوفمبر صدّقت الحكومة الإسرائيلية على اتفاق تبادل الأسرى والمحتجزين في غزة مع حركة حماس، وإرساء هدنةٍ مؤقتةٍ في القطاع مدتها ٦ أيامٍ.. شملت بنود الاتفاق الخاصة بالأسرى، إطلاق سراح ٥٠ امرأةً وقاصراً تحت سن الـ١٩ عاماً من الأسرى عند حماس، مقابل الإفراج عن ١٥٠ امرأةً وقاصراً من الفلسطينيين المعتقلين في سجون إسرائيل.. وفي عام ٢٠٢٥ وبعد أكثر من عامٍ من الحرب على القطاع بلغ عدد الأسرى الفلسطينيين في سجون الاحتلال الإسرائيلي أكثر من ١٠ آلاف و٣٠٠ فلسطيني الكثير منهم اعتُقلوا بعد طوفان الأقصى، بينما تحتجز المقاومة الفلسطينية (حماس) نحو ١٠٠ إسرائيليٍّ في غزة، وأعلنت حماس مقتل عشرات الأسرى لديها في غاراتٍ عشوائيةٍ إسرائيليةٍ.

بعد أشهرٍ من جولات المفاوضات، تمّ الإعلان يوم ١٥ يناير ٢٠٢٥ في العاصمة القطرية الدوحة عن اتفاقٍ لوقف إطلاق النار في قطاع غزة شمل ٣ مراحل للتنفيذ.. تضمنت المرحلة الأولى إطلاق سراح ٣٠ أسيراً فلسطينياً مقابل كلّ محتجزٍ إسرائيليٍّ مدنيٍّ، وشملت هذه المرحلة الأسرى الذين شملهم اتفاق التبادل عام ٢٠١١ وأعادت إسرائيل اعتقالهم لاحقاً وعددهم ٤٧ فلسطينياً.. ومقابل كلّ جنديٍّ إسرائيليٍّ، يتم إطلاق سراح ٥٠ أسيراً فلسطينياً، بينهم ٣٠ من المحكومين بالسجن المؤبد، و٢٠ من أصحاب الأحكام العالية. شمل الاتفاق جميع الأسرى الإسرائيليين، فيما تضمنت المرحلة الأولى من الاتفاق ٣٣ أسيراً ممّن يعرفون بأنّهم «حالاتٌ

إنسانيةٌ» ويُقصد بهم النساء والأطفال دون ١٩ عاماً وكبار السن فوق ٥٠ عاماً والمدنيون الجرحى والمرضى من غير الجنود.. وتضمنت المرحلة الثانية الجنود الأسرى بينما شملت المرحلة الثالثة الجثث والرفات.. لكنّ الصفقات لم تكتمل والهدنة انتهت وعادت إسرائيل للإبادة ولم تعد الحكومة تهتم بمصير الأسرى لدى حماس.

عقد حزب الله صفقات تبادل ناجحةً مع إسرائيل، من بينها ما تضمن تحرير أسرى فلسطينيين، وأبرزها صفقتان هما: صفقة عام ٢٠٠٤ التي عقدتها إسرائيل لاستعادة القائد في الجيش الإسرائيلي «إلحنان تانينباوم» المحتجز لدى حزب الله، عبر الوسيط الألماني «آرنست أورلاو» يوم ٢٩ يناير ٢٠٠٤.. وشملت الصفقة ٢٣ أسيراً لبنانياً، وأسرى من دولٍ عربيةٍ أخرى، هم ٥ سوريون وواحدٌ من ليبيا و٣ مغاربة و٣ سودانيون، و٤٠٠ فلسطيني من الضفة الغربية وقطاع غزة، وأسيرٌ ألمانيٌّ مسلمٌ يُدعى ستيفان مارك، اتهمته إسرائيل بالانتماء إلى حزب الله. لم تقتصر الصفقة على الأسرى، بل تمّ بيان مصير ٢٤ مفقوداً لبنانياً، وسُلّمت خرائط الألغام في جنوب لبنان وغرب البقاع، وتمّ استعادة جثث ٥٩ مقاوماً لبنانياً. تسلمت دولة الاحتلال بالمقابل «إلحنان تانينباوم» ورفات ٣ جنودٍ إسرائيليين، قتلوا أثناء أسرهم في أكتوبر عام ٢٠٠٠، وهم: «عدي أفيطان» و«بيني أفراهام» و«عمر سواعد». وعلى الرغم من عدد المحررين الفلسطينيين الكبير، فلم تشمل الصفقة أصحاب الأحكام الكبيرة، بل ضمت ٦٠ معتقلاً إدارياً، والباقون شارفت أحكامهم الانتهاء، ولم يكن ضمنهم أحدٌ من أسرى الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ أو من أسرى مدينة القدس.

صفقة التبادل عام ٢٠٠٨: نفّذت عناصر من «حزب الله» يوم ١٢ يوليو ٢٠٠٦ عمليةً سمّاها الحزب «الوعد الصادق»، أُسر خلالها جنديان إسرائيليان

هما «إيهود غولدفاسر» و«إلداد ريغف» وكان الهدف من العملية القيام بصفقة تبادل أسرى. وبدأت مفاوضاتٌ شاقةٌ، أصرّت فيها إسرائيل على التحقق من سلامة الجنديين، وتعنَّت حزب الله ورفض التصريح بذلك، وتعثّرت المفاوضات، ولم يُعرف مصير الجنديين إلا حين تسليم رفاتهما. تمت الصفقة يوم ١٥ يوليو ٢٠٠٨، عبر الوسيط الألماني المكلّف من قبل الأمم المتحدة «غيرهارد كونراد»، إذ أطلق الاحتلال سراح الأسير اللبناني سمير القنطار، المعتقل لديه منذ عام ١٩٧٩، إضافةً إلى ٤ أسرى لبنانيين، كانوا قد اعتُقلوا في حرب يوليو ٢٠٠٦، وأعادت إسرائيل ١٩٩ رفاتاً لشهداء فلسطينيين ولبنانيين وعرب كانت تحتفظ بها.. وأُخلي سبيل ٥ أطفالٍ فلسطينيين، يقضون أحكاماً خفيفةً في سجون الاحتلال «كبادرة حسن نية» وليس شرطاً في الاتفاق، وسلّم حزب الله في المقابل جثتي الجنديين الإسرائيليين.

صفقات الدول العربية: أجرت الدول العربية عدّة عمليات تبادل أسرى شملت أسرى ومعتقلين فلسطينيين، أبرزها: صفقة التبادل عام ١٩٧٤ في مارس إذ جرت عملية تبادل للأسرى بين مصر وإسرائيل، أفرجت بموجبها إسرائيل عن ٦٥ أسيراً مصرياً وفلسطينياً، مقابل إطلاق سراح جاسوسين إسرائيليين كانا محتجزين في مصر.

صفقة التبادل عام ١٩٩٧: قبضت السلطات الأردنية على عميلين إسرائيليين في سبتمبر ١٩٩٧ بعد محاولةٍ فاشلةٍ لاغتيال خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لحركة حماس من خلال حقنه بالسم.. وهدّد الأردن بإلغاء «معاهدة السلام» مع إسرائيل؛ ممّا جعلها تتفاوض من أجل الإفراج عن العميلين مقابل أن تسلّم ترياق السم الذي حُقن به مشعل وتطلق سراح مؤسّس حركة حماس الشيخ «أحمد ياسين»، الذي كان يقضي حكماً بالسجن المؤبد في سجون الاحتلال.

صفقة التبادل عام ٢٠٠٤: أفرجت الحكومة المصرية يوم ٥ ديسمبر ٢٠٠٤ عن الجاسوس الإسرائيلي الدرزي عزام عزام، الذي اعتقلته عام ١٩٩٧، بعد أن أمضى ثلاثة أرباع حكم بالسجن مدته ١٥ عاماً.. وأفرجت إسرائيل من جانبها عن ٦ طلابٍ مصريين كانوا قيد الاعتقال، كما أخلت سبيل ١٦٥ معتقلاً فلسطينياً يوم ٢٨ ديسمبر ٢٠٠٤، أحدهم كان في سجون الاحتلال منذ عام ١٩٩٩، والباقون احتُجزوا خلال الانتفاضة الثانية، وكان أغلبهم ممن يقضون أحكاماً خفيفةً، وممّن شارفت أحكامهم الانتهاء.

الإفراج عن الأسرى عبر العملية السياسية: تمّ توقيع اتفاقية أوسلو بين الاحتلال الإسرائيلي ومنظمة التحرير الفلسطينية يوم ١٣ سبتمبر١٩٩٣، وعلى الرغم من وجود آلاف الأسرى الفلسطينيين داخل السجون الإسرائيلية، فإنّ الاتفاقية لم تضم بنوداً تتعلق بقضية الأسرى، ونتج عن ذلك احتجاجٌ شعبيٌّ حمل السلطة الفلسطينية على القيام لاحقاً بعددٍ من الاتفاقيات المتعلقة بتحرير الأسرى.

اتفاقية القاهرة عام ١٩٩٤: تمّ توقيع اتفاق القاهرة يوم ٤ مايو ١٩٩٤، وقد تضمن إفراج إسرائيل عن حوالي ٥٠٠٠ معتقلٍ وسجينٍ فلسطيني من سكان الضفة الغربية وقطاع غزة، وكان عدد الأسرى الفلسطينيين عند توقيع الاتفاقية نحو ١٠ آلاف و٥٠٠ أسيرٍ فلسطيني. نصّت الاتفاقية على أنّ «الأشخاص الذين سيتمّ الإفراج عنهم سيكونون أحراراً في العودة إلى منازلهم في أيّ مكانٍ في الضفة الغربية أو قطاع غزة، بينما السجناء الذين سيتمّ تسليمهم إلى السلطة الفلسطينية سيكونون ملزمين بالبقاء في قطاع غزة أو منطقة أريحا طوال المدة المتبقية من مدة عقوبتهم». خالفت إسرائيل الاتفاقية وقلّصت أعداد المعتقلين المُفرج عنهم، إلى ٤٤٥٠

معتقلاً، بعد أن أجبرتهم على توقيع وثيقةٍ يتعهدون فيها «بالامتناع عن كلّ أعمال الإرهاب والعنف». وغضّت الاتفاقية الطرف عن أسرى القدس وفلسطينيي عام ١٩٤٨، وبعض فصائل المقاومة مثل أسرى حماس والجهاد، وتُرك الإفراج عن الأسرى وفق جدولٍ زمنيٍّ مفتوحٍ تتحكم فيه الإرادة الإسرائيلية وحدها.

اتفاقية طابا «أوسلو ٢» عام ١٩٩٥: وقّعت السلطة الفلسطينية ودولة الاحتلال «اتفاقية طابا» في واشنطن يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٩٥، وتضمنت الاتفاقية الإفراج عن أسرى ومعتقلين في السجون الإسرائيلية، وكان عدد الأسرى الفلسطينيين عند التوقيع على هذه الاتفاقية نحو ٦٠٠٠. وقد تمّ إطلاق سراح الأسرى والمعتقلين على مرحلتين: المرحلة الأولى، الإفراج عن ٨٨٢ أسيراً وسجيناً. المرحلة الثانية، الإفراج عن مجموعة من الأسرى على دفعتين: الأولى ضمّت ٧٨٢ أسيراً، والثانية ٢٦٠ أسيراً. خالفت إسرائيل بنود الاتفاقية، وخفّضت العدد المتفق عليه وأفرجت عن أسيرةٍ واحدةٍ، في حين كان نصّ الاتفاقية يفرض الإفراج عن جميع الأسيرات، وتمّ التلاعب بالقوائم وأُدرجت فيها أسماءٌ ليست ذات خلفيةٍ سياسيةٍ أو نضاليةٍ، بل أسماء معتقلين بجرائم جنائيةٍ، أو لدخولهم الخط الأحمر دون تصاريح، وتمّ الإفراج عن كثيرٍ ممّن انتهت أحكامهم أو قاربت ذلك.

مذكرة «واي ريفر» عام ١٩٩٨: تمّ توقيع مذكرة «واي ريفر» في واشنطن يوم ٢٣ أكتوبر ١٩٩٨، ولم تتضمن نصاً خطياً، وإنّما مجرّد تعهدٍ من إسرائيل بإطلاق سراح ٧٥٠ أسيراً فلسطينياً على ٣ دفعاتٍ، بمعدل ٢٥٠ في كلّ دفعةٍ.. ولم تلتزم إسرائيل بتعهدها الذي تمّ بضمانٍ أميركيٍّ، بل غيّرت أعداد المُفرج عنهم من المعتقلين، وعمدت إلى إطلاق سراح كثيرٍ من أصحاب الأحكام الجنائية، أو من المعتقلين السياسيين ذوي الأحكام المنخفضة.

تسلسلٌ زمنيٌّ لأبرز اللقاءات الفلسطينية الإسرائيلية بعد مؤتمر مدريد للسلام ١٩٩١ الذي تشكّل بعد وبسبب الانتفاضة الأولى:

مؤتمر مدريد يوم ٣٠ أكتوبر ١٩٩١: رعته موسكو وواشنطن بعد حرب الخليج الأولى عام ١٩٩١، وقد جمع الفلسطينيين والإسرائيليين للمرة الأولى، فضلاً عن وزراء خارجية كلّ من مصر والأردن ولبنان وسوريا، وشكّل الفصلَ الأول من مفاوضاتٍ ثنائيةٍ ومتعددة الأطراف جرت فيما بعد في دولٍ مختلفةٍ.

محادثات أوسلو بين يناير وأغسطس ١٩٩٣: بينما كان الوفد الفلسطيني الرسمي المنبثق من مؤتمر مدريد يفاوض في واشنطن، رعت النرويج ١٤ اجتماعاً سرياً بين الفلسطينيين والإسرائيليين، واضطلعت بدورٍ أساسيٍّ في هذه المفاوضات التي أدّت إلى الاعتراف المتبادل بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل. مهّدت هذه الاجتماعات الطريق للتوقيع في واشنطن يوم ١٣ سبتمبر ١٩٩٣ على اتفاق إعلان المبادئ للحكم الذاتي الانتقالي الفلسطيني. وتخلّل ذلك مصافحةٌ تاريخيةٌ بين زعيم منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات ورئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين.

واشنطن ٢٨ سبتمبر ١٩٩٥: وقّع عرفات ورابين اتفاقاً انتقالياً جديداً أُطلق عليه اسم «أوسلو٢» حول توسيع الحكم الذاتي في الضفة الغربية، وأُبرم الاتفاق بعد مفاوضاتٍ على مدى عامٍ ونصفٍ العام وجولةٍ ماراثونيةٍ نهائيةٍ استمرت ثمانية أيامٍ في طابا بمصر.

قمة واي ريفر في ميريلاند بين ١٥ و٢٣ أكتوبر ١٩٩٨: توصّل عرفات ورئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو إلى اتفاقٍ انتقاليٍّ جديدٍ حول تفاصيل انسحابٍ إسرائيليٍّ من ١٣٪ من الضفة الغربية.

شرم الشيخ بمصر في سبتمبر ١٩٩٩: التوقيع على صيغةٍ أُعيد التفاوض عليها لاتفاق الانسحاب الذي تمّ التوصل إليه السنة السابقة.

قمة كامب ديفيد بالولايات المتحدة بين ١١ و٢٥ يوليو ٢٠٠٠: ناقش عرفات ورئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود باراك المسائل الشائكة في النزاع للمرة الأولى، لكنّ القمة السابعة من أصل ثماني قممٍ مع الرئيس الأميركي بيل كلينتون تعثّرت حول مصير القدس واللاجئين الفلسطينيين.

مفاوضات طابا بمصر من ١٨ إلى ٢٨ يناير ٢٠٠١: بذل الطرفان جهداً جديداً لتجاوز العقبات التي عطّلت الاتفاق في قمة كامب ديفيد، لكنّ انطلاق الانتفاضة الثانية قبل ثلاثة أشهرٍ ألقى بظلاله على المفاوضات التي انتهت إلى فشلٍ.

قمة العقبة في الأردن يوم ٤ يونيو٢٠٠٣: وافق رئيس الوزراء الفلسطيني محمود عباس ونظيره الإسرائيلي أرييل شارون على خطة خريطة الطريق، وهي مسودةُ خطةِ سلامٍ صاغها الاتحاد الأوروبي وروسيا والولايات المتحدة والأمم المتحدة، لكنّ الخطة لا تزال حبراً على ورقٍ.

مبادرة جنيف يوم ١ ديسمبر ٢٠٠٣: شخصياتٌ فلسطينيةٌ وإسرائيليةٌ مستقلةٌ تعرض خطةَ سلامٍ بديلةً للضغط على المسؤولين لتكثيف المفاوضات.

اجتماع شرم الشيخ يوم ٨ فبراير ٢٠٠٥: رئيس السلطة الفلسطينية الجديد محمود عباس وأرييل شارون يتفقان على إنهاء أعمال العنف.

في ولايته الثانية جمع الرئيس الأميركي بوش الابن المسؤولين الفلسطينيين والإسرائيليين في مؤتمرٍ بالقاعدة البحرية أنابوليس بمريلاند في نوفمبر ٢٠٠٧ لاستئناف عملية السلام، حضرها رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت، ورئيس السلطة الفلسطينية

محمود عباس ومسؤولون من اللجنة الرباعية وممثلون عن دولٍ عربيةٍ عديدةٍ مثل السعودية وسوريا. هذا المؤتمر لم تُدعَ له حركة المقاومة الإسلامية (حماس) فأعلنت أنّها غيرُ معنيةٍ به وبأيّ اتفاقٍ يصدر عنه. ودعا المجتمعون فيه إلى الانخراط في المفاوضات للوصول إلى اتفاق سلامٍ كاملٍ مع نهاية ٢٠٠٨. لكنّ العدوان الإسرائيلي على غزة في ذلك الموعد أفسد كل شيءٍ، فتوقفت المفاوضات.

أطلق الرئيس الأميركي باراك أوباما يوم ٢ سبتمبر ٢٠١٠ محادثاتٍ مباشرةً في البيت الأبيض بين عباس ورئيس الوزراء الإسرائيلي نتنياهو، لكنّها انهارت بسبب المستوطنات.

في ٣ يناير ٢٠١٢، التقى المفاوضون الفلسطينيون والإسرائيليون سراً في الأردن، وبعدما أدخلت جامعة الدول العربية تعديلاً على شروط مبادرة السلام العربية يسمح بتبادل الأراضي بين الإسرائيليين والفلسطينيين، وأعلن مسؤولٌ فلسطينيٌّ يوم ١٨ يوليو ٢٠١٣ أنّ القادة الفلسطينيين سيصوتون على خطةٍ أميركيةٍ تقضي بعدم ربط محادثات السلام بإيقاف الاستيطان.. وفي اليوم التالي أعلن وزير الخارجية الأميركي جون كيري -في سادس زيارةٍ له إلى الشرق الأوسط- أنّ الطرفين توصّلا إلى اتفاقٍ لاستئناف محادثات الوضع النهائي، واتفقا بعد ذلك على إجراء مباحثاتٍ مباشرةٍ في واشنطن يومي ٢٩ و٣٠ يوليو ٢٠١٣.

فشلت تحركات كيري طوال عامي ٢٠١٣ و٢٠١٤ في إعادة الدفء إلى مباحثات السلام، واصطدم برفض وزير الدفاع الإسرائيلي موشيه يعالون لتلك المفاوضات، بينما رفضت القيادة الفلسطينية اتفاق الإطار الذي عرضه كيري لنصه على إقامة دولةٍ فلسطينيةٍ بلا معابرَ أو حدودٍ أو عاصمةٍ، مع بقاء الكتل الاستيطانية غير المحددة.

في ١٦ فبراير ٢٠١٦ قدّمت فرنسا لإسرائيل مبادرةً لعقد مؤتمرٍ دوليٍّ لمفاوضات السلام المجمّدة، وعقد مؤتمرٍ دوليٍّ للسلام في باريس يوم ٣ يونيو ٢٠١٦، أكّد خلاله الرئيس الفرنسي فرانسوا هولاند أنّ المبادرة الفرنسية ترتكز على حلّ الدولتين وتتكون من مرحلتين: عقد مؤتمرٍ دوليٍّ للسلام، وتشكيل فرق عملٍ لتحديد الخطوات التي يجب اتخاذها عبر المفاوضات.

في ٢٣ ديسمبر ٢٠١٦ اعتمد مجلس الأمن الدولي قراراً –للمرة الأولى منذ ١٩٧٩– يطالب إسرائيل بوقف الاستيطان في الأراضي الفلسطينية المحتلة بأغلبية الأصوات (١٤)، بينما امتنعت الولايات المتحدة عن استخدام حقّ النقض، وهو ما أغضب إسرائيل التي اتهمت إدارة الرئيس الأميركي باراك أوباما بالتواطؤ.. وعقب تصويت مجلس الأمن أعلنت روسيا يوم ٢٤ ديسمبر ٢٠١٦ أنّها لا تزال مستعدةً لاستضافة مفاوضاتٍ مباشرةٍ بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وفي خضم تلك التطورات، كشف وزير الخارجية الأميركي جون كيري يوم ٢٨ ديسمبر ٢٠١٦ في خطابٍ ألقاه بمقر الخارجية الأميركية واستغرق أكثر من ساعةٍ، أنّ حلّ الدولتين هو الطريق الوحيد لتحقيق سلامٍ عادلٍ وشاملٍ بين الفلسطينيين والإسرائيليين.

إحدى صفقات الفساد أثناء حكومة أحمد قريع

في عام ٢٠٠٦ ظهرت فضيحة الإسمنت وهي إحدى قضايا فسادٍ كبرى التي شهدتها السلطة الفلسطينية وحركة فتح، فقد صدر عن هيئة الرقابة العامة تقرير أكّد اختفاء أموالٍ ضخمةٍ بلغت حينذاك ما يقارب ٣١٥ مليون دولار. وفي الخامس من فبراير العام ٢٠٠٦ كشف النائب العام أحمد المغني أنّ عدد ملفات الفساد المالي التي وصلت إلى النيابة العامة تزيد عن ٥٠ قضيةً، وأنّ أكثر من ٧٠٠ مليون دولار أُهدرت في قضايا فسادٍ خطيرٍ. ولكن لا نستطيع

أن نُعدّ هذا المبلغ هو حجم الفساد الحقيقي، إذ أنّ النائب العام نفسه توقّع أن يكون هناك المليارات من الدولارات قد اختُلست. وشملت القضايا التي أعلن المغني التحقيق فيها، الاختلاس وإساءة الائتمان والنصب والاحتيال والتزوير في أوراقٍ رسميةٍ لأشخاصٍ ذوي مكانةٍ مرموقةٍ. من خلال الاطلاع على نصّ وثيقة التحقيق التي قام بها المجلس التشريعي الفلسطيني عبر لجانه المختصّة (لجنة الموازنة والشؤون المالية، لجنة الرقابة وحقوق الإنسان، واللجنة القانونية)، بالإضافة إلى قيام لجنةٍ مصغّرةٍ مكلّفةٍ من رئاسة المجلس التشريعي تتكون من د. حسن خريشة، ود. سعدي الكرنز، والأستاذ جمال الشاتي. وقد قامت هذه اللجنة بالتحقيق وعقد لقاءاتٍ مع العديد من الزعماء في حركة فتح وعلى رأسهم أحمد قريع «أبو العلاء» رئيس الوزراء آنذاك. وشمل التحقيق آخرين ومنهم:

ماهر المصري وزير الاقتصاد الوطني. وجميل الطريفي وزير الشؤون المدنية. وعبد الحفيظ نوفل مدير عام التجارة في وزارة الاقتصاد الوطني. وشركة قنديل الطريفي للباطون الجاهز ويمثلها جمعة قنديل الطريفي. وشركة الطريفي للباطون الجاهز ويمثلها جمال الطريفي. وشركة انتصار بركة للتجارة العامة ويمثلها يوسف بركة. وشركة يوسف بركة للتجارة العامة ويمثلها يوسف بركة. ومحمد رشيد «خالد سلام» المستشار الاقتصادي للسيد الرئيس، ورئيس شركة الخدمات التجارية الفلسطينية. وحاتم يوسف مدير عام الجمارك في وزارة المالية.

وعمر الحروب مراقب الشركات في وزارة الاقتصاد الوطني.

في النهاية وبعد حصول اللجنة على الوثائق تبيّن أنّ شركة LTD الإسرائيلية والتي يملكها زئيف بلنسكي حاولت استيراد الإسمنت من شركة مصر بني سويف، ولكن بعد تدخل جهاتٍ أمنيةٍ ولجان مقاومة التطبيع في

مصر تمّ وقف هذه الصفقة ممّا دفع بلنسكي إلى التحايل واستيراد الإسمنت عبر وسطاء وشركاتٍ فلسطينيةٍ. وهنا بدأت بعض الشركات الفلسطينية باستصدار أذونات استيراد للإسمنت المصري من وزارة الاقتصاد الوطني، وبلغ مجموع ما تمّ استصداره من هذه الأذونات ما يقارب ٤٢٠ ألف طنٍ.

وبناءً على طلب السيد جمال الطريفي وزير الشؤون المدنية تمّ إرسال كتابٍ إلى مصنع بني سويف للإسمنت يفيد أنّ كمية الإسمنت المراد استيرادها هي لصالح مناطق السلطة الوطنية الفلسطينية. ولكن تبيّن أنّ كميات الإسمنت التي دخلت السوق الفلسطيني بلغت (٣٣ ألف طن) حسب مصادر وزارة الاقتصاد الوطني ووزارة المالية وهو جزءٌ يسيرٌ من مجموع ما تمّ استصداره من أذونات تقدر بـ (٤٢٠ ألف طن). وثبت أنّ وزارة الاقتصاد الوطني التي منحت أذونات الاستيراد لم تتحقق ولم تتابع دخول الإسمنت إلى أراضي السلطة الوطنية واستمرّت بإصدار أذونات استيراد جديدةٍ للشركات نفسها تبيّن من خلال التحقيق:

- أنّ رخص استيراد الإسمنت الصادرة عن وزارة الاقتصاد الوطني لا تحمل تاريخاً محدداً لصلاحيتها ممّا يعطي مجالاً للتلاعب فيها.
- أنّ وزارة الاقتصاد الوطني لا تملك إحصائياتٍ لمعرفة حاجة السوق للإسمنت وبموجبها تقوم بإعطاء تراخيص الاستيراد.
- أنّ الكميات المثبتة في أذونات الاستيراد مكتوبةٌ بالأرقام ولم تكتب بالأحرف وهذا يمكن أن يسمح بالتلاعب في الكميات المسموح بها.
- من تداعيات هذه الصفقة: حرمان الاقتصاد الفلسطيني من ضرائب الاستيراد حيث تمّ تحويل ملكية الإسمنت إلى الشركة الإسرائيلية، وتمّ بذلك تحصيل الضرائب الجمركية من قبل الجمارك الإسرائيلية.

وتشويه سمعة الاقتصاد الفلسطيني بتعاونه مع شركاتٍ إسرائيليةٍ وتعمل على فتح باب التطبيع الاقتصادي مع إسرائيل. والأخطر من ذلك كلّه هو المساهمة في بناء الجدار الفاصل والمستوطنات، حيث تمّ استخدام هذا الإسمنت في بناء الجدار والاستيطان. (المعلومات مأخذوة عن ويكيبيديا).

اتفاقية لوكسمبورغ: دفع التعويضات الألمانية

Deutsch Wiedergutmachungspolitik

هي اتفاقيةٌ بين دولة إسرائيل وجمهورية ألمانيا الاتحادية تمّ التوقيع عليها في سبتمبر ١٩٥٢ والتزمت ألمانيا فيها بدفع تعويضاتٍ لليهود الناجين من الهولوكوست ولدولة إسرائيل، باعتبارها الدولة التي ترث حقوق الضحايا اليهود والتي تعتني بتأهيل أغلبية الناجين اليهود. في إطار هذه الاتفاقية دفعت جمهورية ألمانيا الاتحادية لدولة إسرائيل ما يقدر بـ٣ مليارات مارك ألماني غربي في غضون ١٢ عاماً ما بين عام١٩٥٣ و١٩٦٥، كذلك التزمت حكومة ألمانيا بدفع معاشٍ شهريٍّ لكلّ يهوديٍّ أينما كان، إذا أثبت تعرضه لمطاردة الحكم النازي في أوروبا منذ١٩٣٣ وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية.

في ويكيبيديا وتحت العنوان أعلاه ستجد التفاصيل لهذه الاتفاقية التي أنقذت إسرائيل من حالة الإفلاس تقريباً، كما أن ألمانيا أرسلت كلّ بقايا أسلحتها من العهد النازي إلى إسرائيل كهديةٍ مجانيةٍ.

نفقات وميزانيات حربية إسرائيلية

(أمن دولي ما هي تكاليف إسرائيل العسكرية) ستجد على الانترنت تحت هذا العنوان تقريراً مفصلاً حديثاً باللغة العربية صادراً عن «المركز

الأوروبي لدراسات مكافحة الإرهاب والاستخبارات». ألمانيا وهولندا (ECCI) في ٠٣ أكتوبر، ٢٠٢٤.

الإخوان المسلمون في بريطانيا: هيكل التنظيم ومصادر التمويل

تقريرٌ صادرٌ عن المركز الأوروبي لدراسات مكافحة الإرهاب والاستخبارات في بون ألمانيا بتاريخ السابع من يوليو ٢٠٢٣ .. تجده عند البحث تحت ذات العنوان على الأنترنت ويتطرق بالأسماء والأرقام والتواريخ لدور بريطانيا في دعم وحماية واستضافة حركة الاخوان المسلمين، ورفض أوروبا لهذا النهج وتغاضي لندن.

وللأخوان المسلمين وجود ونشاطٌ في سويسرا يمكن مراجعته على:
https://www.europarabct.com